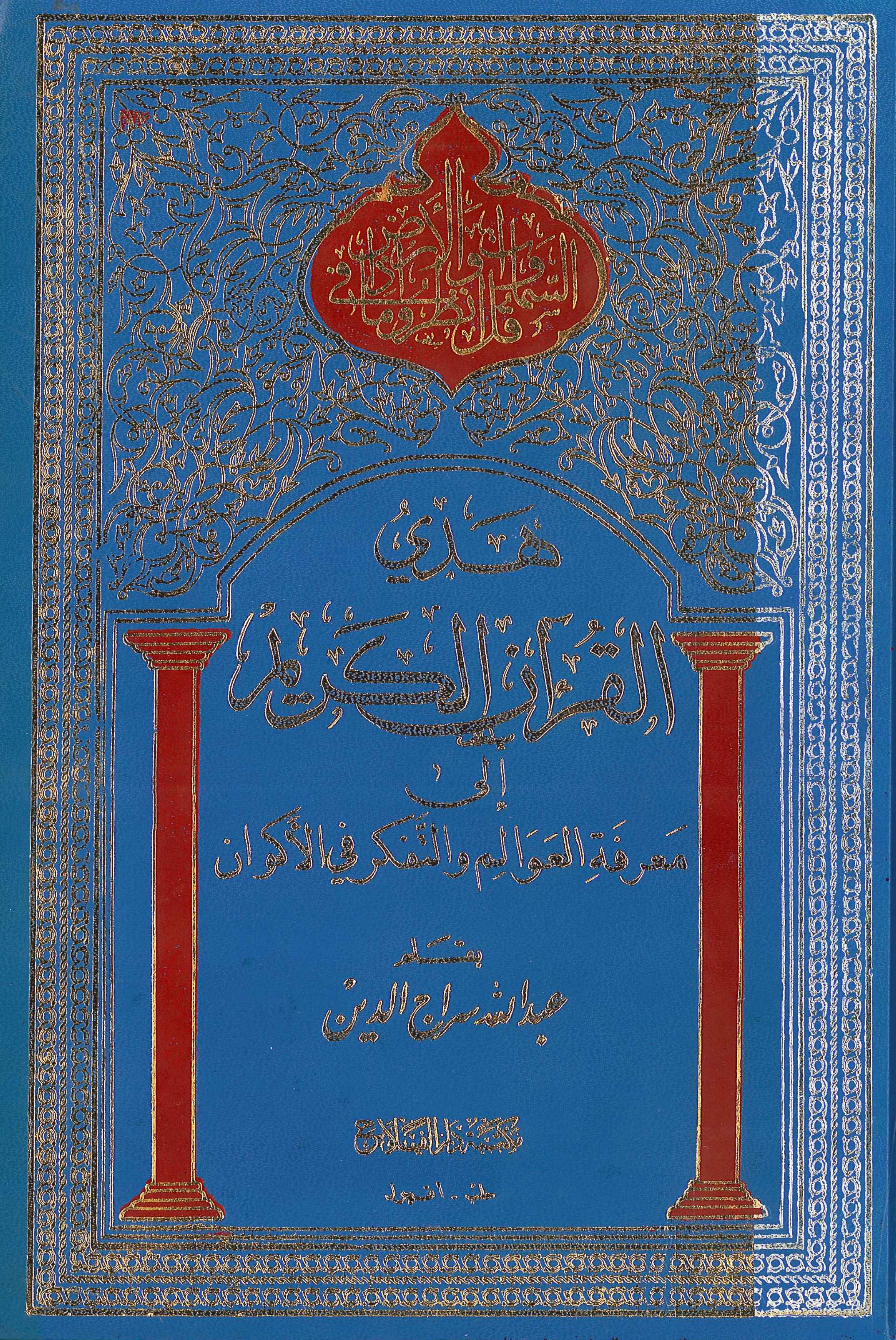
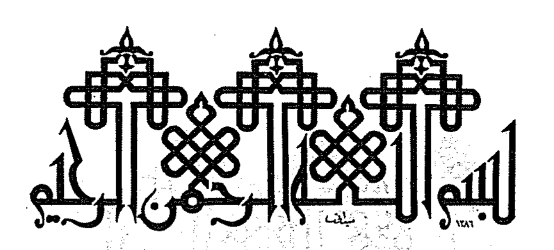

قل انظروا ماذا في السموات والأرض
هدى
القرآن الكريم
إلى
معرفة العوالم والتفكر في الأكوان
بقلم
عبد الله سراج الدين
مكتبة دار الفلاح

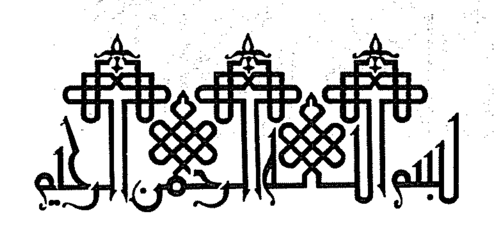




هُدَى القرآن الكريم

إلى

مَعرِفَةِ العَوالِمِ والتَّفكُّرِ في الأكوان



أيها القارئ الكريم :

اقرأ سورة الفاتحة كلما قرأت في كتاب من كتبي ، واهدِ ثوابها إلى العلامة الشهير ، والعارف الكبير ، حامل لواء الحجة بالكتاب والسنة ، المفسّر والمحدث بالأسانيد المتصلة ، عن كبار المحدثين - في حلب ودمشق والمغرب وغيرها من البلاد الإسلامية - بإجازات عالية الأسانيد - محفوظة عندي - سيدي وشيخي والدي الكريم ، الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسيني ، رحمه الله تعالى ، وجزاه عن المسلمين خيرًا ، إنه هو السميع العليم

آمين

هدى القرآن الكريم

إلى

معرفة العوالم والتفكر في الأكوان

بقلم

عبد الله سراج الدين

يطلب من

مكتبة دار الفلاح

حلب - أقيول

الطبعة الأولى

١٤١١ - ١٩٩١

عدد النسخ ٢٠٠٠

مؤسسة

الشام للطباعة والتجليد

دمشق - هاتف: ٢٢٢٤٥٢٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد إمام الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه وأتباعه إلى يوم الدين ، وعلينا معهم أجمعين وبعد :

فإن الله تعالى أنزل هذا القرآن العظيم على سيدنا محمد ﷺ كتاباً جامعاً ، وبرهاناً قاطعاً ، حجة على جميع العباد إلى يوم المعاد ، فيه تبيان لكل شيء ، قال تعالى : ﴿ ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء . . ﴾ الآية

وما فرّط الله تعالى فيه من شيء قال تعالى : ﴿ ما فرّطنا في الكتاب من شيء . . ﴾ الآية أي : بيّنا لكم في هذا القرآن كل شيء ، وذكرنا لكم كل شيء ، وما قصّرنا .

فإن التفريط في الأمر هو التقصير ، ومن ثمّ قال : ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ .

فقد ذكر فيه أنواعاً من العلوم وأصنافا من العوالم المرئية والغيبيّة التي لا يحيط بعددها إلا الله تعالى الذي أنزله ؛ فإنه كلامه سبحانه ، المعجز للعالمين في نصوصه ومعانيه ، قال تعالى : ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مد داً . . ﴾ .

فالمراد بالكتاب في آية : ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء . . ﴾ هو

القرآن لا اللوح المحفوظ ؛ لأنه سبحانه يمتنّ على عباده بأنه ما فرط أي : ما قصر في بيان كل شيء - يعلم ذلك كل من اطلع عليه؛ وأما اللوح المحفوظ فمن الذي اطلع عليه حتى يتبين له كل شيء ! أما القرآن فهو أمامهم حجة قائمة عليهم ، ولذلك فإن كل علم جاء به ، وإن كل عالم أخبر عنه هو كتاب قيّم عظيم ، قال تعالى : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البيّنة رسول من الله يتلو صحفاً مطهّرة فيها كتبٌ قيّمة . . ﴾ .

فكل سورة من سوره هي كتاب قيّم جامع ومعجز ، وكل علم جاء به فهو كتاب قيّم ،وإن علومه ومعارفه لا تنتهي .

فهذا الكتاب القرآني : جامع لكتب قيمة لا تُعدُّ ولا تُحصى ، ومن ثَمَّ حُقَّ له أن يكون أكبر معجزة لسيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ، شاهدة بصدق نبوته ، وحقيّة رسالته العامة لجميع العالمين ، وحجةً له قائمة على جميع الأمم والأجيال على مدى الأزمان إلى يوم الدين .

قال ﷺ : « ما بُعِثَ نبي إلا أُوتي من الآيات - أي : المعجزات الشاهدة بصدقه - ما مِثْلُه آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أُوتيتُه وحياً أوحاه الله تعالى إليّ ، فأرجو أن أكون أكثر تابعاً » - يعني : أنه خُصِّص ﷺ بما هو فوق سائر المعجزات ؛ وحياً - أي : وحياً عظيماً إلَهياً جامعاً معجز النصوص والمعاني ؛ « أوحاه الله تعالى إليّ » .

فكتاب الله تعالى هو البحر العظيم الذي لا يتناهى في علومه ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يشبع منه العلماء الراسخون ، وكلٌّ منهم أخذ منه على قدر ما أعطاه الله تعالى من الفهم والفتح الربَّاني ، ولكن لم يحيطوا به علماً .

قال سيدنا علي رضي الله عنه : « لو تكلمتَ لكم على سورة الفاتحة لأوقرتُ سبعين بعيراً » . اهـ

يعني : يملأ كتباً من معاني سورة الفاتحة تحتاج إلى سبعين جملًا يحملها ـ وإنما قال : سبعين لأن آي سورة الفاتحة سبعة ، فكل آية منها إذا تكلم عن معانيها يملأ كتباً تحتاج إلى عشرة أبعرة .

وهذا من باب قوله رضي الله عنه ـ حين سئل : هل خصّكم رسول الله ﷺ بشيء من دون الناس ؟ ـ أي : من آيات القرآن الكريم ـ فكان في جوابه أن قال : ـ (ما خصّنا بشيء من القرآن إلَّا فهماً يؤتيه الله تعالى عبداً في كتابه) . اهـ

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : (من أراد علم الأولين والآخرين فليبحث في القرآن) .

وقال القاضي أبو بكر بن العربي : في القرآن خمسون علماً وأربعمائة علم وسبعة آلاف وسبعون ألف علم على عدد كلم القرآن الكريم مضروبة في أربعة :

فإن لكل كلمة ظهراً وبطناً وحدّاً ومُطَّلعاً ، وهذا مطلق دون اعتبار تركيبه ، وما بينهن ـ أي : بين الكلمات ـ من روابط ، وهذا ما لا يحصيه ولا يعلمه إلا الله تعالى . . اهـ

يعني : أن الإحاطة بذلك كله لا يحصيه إلا الله تعالى .

وقال الإمام فخر الدين الرازي : إعلم أنه مرّ على لساني في بعض الأوقات أن سورة الفاتحة يمكن أن يستنبط من فوائدها عشرة آلاف مسألة ، فاستبعد ذلك الحُسّاد ، فشرعت في تصنيف هذا الكتاب ـ يعني : تفسيره الكبير ـ وقدّمت له مقدِّمة لتصير له كالبيِّنة على أن ما ذكرناه أمر ممكن

الحصول . اهـ

فكلمات القرآن الكريم هي : مليئة بخزائن العلوم والمعارف الآلهية ، ولكن لا بدَّ للخزائن من مفاتيح لمن أراد الاستفتاح ، وتلك المفاتيح هي التفهيمات الإلهية ، وهذا مقام الإفهام الذي يخص الله تعالى به من يشاء من عباده ، كما تقدم عن أمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنه .

قال الله تعالى : ﴿ ففهمناها سليمان . . ﴾ الآية .

وفي هذا إشارة إلى أن مقام الإفهام هو فضل من الله تعالى يخص به من يشاء من عباده .

والفهمُ الرحماني والفتح الرباني لا يحدُّه حدٌّ ولكن لا بدَّ من بيِّنة صادقة تدل على أنه فتح رباني ، وفهم رحماني ، وتلك البيِّنة هي موافقة ذلك الفهم لما جاء به رسول الله سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ، ودخوله تحت ظلّ بيانه ﷺ الذي أنزل الله تعالى عليه القرآن ، وعلمه البيان عن القرآن ، وأمره أن يبيّنه للناس .

قال تعالى : ﴿ ثم إنّ علينا بيانه ﴾ ـ أي : علينا أن نبيِّنه لك ـ .

وقال تعالى : ﴿ ونزَّلنا إليك الذكر لتبينّ للناس ما نُزِّل إليهم . . ﴾ الآية .

ومن المعلوم أن أحاديثه ﷺ وسنته هي : بيان للقرآن ، وهي الحكمة النازلة من عند الله تعالى ، ـ قال تعالى : ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ﴾ ـ أي : السنّة بأقوالها وأفعالها .

وقد جعل الله تعالى تلك الحكمة التي أوحاها إلى رسول الله ﷺ ميزان العلم والحق والفهم والصدق .

قال تعالى : ﴿ الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان . . ﴾ الآية

فهذا الميزان المقرون ذكره بالقرآن ليس هو ذا الكفتين ولا القبّان ، فإنه لا مناسبة لهما مع القرآن ، وإنما هو الحكمة المذكورة في تلك الآية : ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ﴾ . . الآية .

ولذلك يجب على العالم والعارف العالِم أن يرجع في جميع أقواله وأفعاله ومفاهيمه وعلومه الصريحة والإشارية ؛ يرجع بذلك كله إلى الميزان المحمديِّ ﷺ فما وافقه فهو الحق المقصود ، وما خالفه فهو باطل مردود . .

وقد روى أبو نعيم بإسناده عن العارف الكبير الإمام الجنيد رضي الله عنه ونفعنا بعلومه ومعارفه ـ وهو الذي أجمع العلماء والعرفاء على أنه شيخ الطائفتين : العلماء والعرفاء ـ أنه قال : عِلْمُنا هذا مضبوط ـ أي : مُقيّد ـ بالكتاب والسنة ، مَنْ لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقّه لا يُقتدى به . اهـ

قال الشيخ الأكبر رضي الله عنه بعد ما نقل هذه العبارة عن الإمام الجنيد قال في (الفتوحات) : فلا يخرج علم الوليّ جملةً واحدةً عن الكتاب والسنة ، فإن خرج أحد عن ذلك فليس بعلمٍ ، ولا علم ولاية ؛ بل إذا حقّقْتَه وجدتَه جهلاً . . إلخ أي : ليس ذلك بعلم كسبيّ ولا وهبيّ .

وقال الإمام الجنيد رضي الله عنه : الطُرُق إلى الله تعالى كلُّها مسدودة على الخلق إلاَّ من اقتفى ـ اتّبع ـ أثر الرسول ﷺ ، واتَّبع سنته ، ولزم طريقته صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم .

وكُلٌّ يـدَّعي فهـماً صحيحـاً ويـزعم أنـه علم الكتـابـا
إذا عُرِضَ المقال على النبيِّ ﷺ تبيّنَ قول مَنْ قـال الصوابـا

هذا وإنني لا أريد الآن التوسع في هذا البحث ، وقد فصلته في مقدمة كتاب : (التفسير لِسُوَرٍ من الكتاب المنير) وقد مررت بهذا البحث ههنا مرور عابر سبيل ، وإنما أريد في هذا المؤلَّف أن أبيِّن بعض العوالم العلوية التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم : كعالم الماء ، وعالم العرش ، وعالم الكرسي ، وعالم القلم ، وعالم السدرة ، وعالم السموات ـ إلى غير ذلك مما ستمر عليه إن شاء الله تعالى .

وقد جاء ذكر العوالم عامة وخاصة في القرآن الكريم على وجوه متعددة ومناسبات متنوعة ، أذكر جانباً من تلك الوجوه :

أولاً : إن الله تعالى حمد نفسه وامتدح بأنه رب العالمين فقال سبحانه مفتتحاً فاتحة كتابه العزيز بقوله : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ فحمد نفسه على كمالاته الذاتية ، لأنه هو الله سبحانه ، المتّصف بالكمالات ، المنزه عن النقائص والآفات ، المتسمِّي بالأسماء الحسنى ، والمتصف بالصفات العليا ، بلا ابتداء ولا انتهاء ، ولذلك قال : ﴿ الحمد لله ﴾ أي : لأنه هو الله ، فحمد نفسه لذاته لاتصافه بجميع الكمالات المطلقة .

وحمد نفسه على نواله وفضله وعطائه ، فقال : ﴿ رب العالمين ﴾ أي : خالقهم ومربيهم ، أنعم عليهم فخلقهم بقدرته وربّاهم بنعمته ، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، وحق لمن اتصف بكل كمال ولِمَنْ منه كلُّ خيرٍ وفضل ونوال ، حق له أن يحمد نفسه جلّ وعلا فالحمد له حقاً واستحقاقاً ، وعموماً واستغراقاً .

ومن المعلوم في اللغة العربية أن العالمين هو جمع عالَم ، على وزن فاعَل ، وهو ما يُعلَم به الله تعالى خالقه ، كما تقول : خاتَم ، وطابَع ، على وزن فاعَل أي : ما يُختم به الشيء ، وما يطبع به على الشيء ، فالعالَم هو ما يُعلم

به ربه الذي خلقه .

قال تعالى : ﴿ الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ الحمد لله ربِّ العالمين ﴾ فيه دليل على كثرة العوالم وسعتها وعظمتها ، فالعوالم كثيرة لا يعلم عددها إلا الله تعالى الذي خلقها .

ثانياً : إن الله تبارك وتعالى قد تعاظم وأعلن عظمته في ربوبيته وكبريائه في ألوهيته ، أعلن ذلك لعباده في خلقه للعالمين ، وحقَّ له سبحانه أن يعظِّم نفسه ويتعالى ، ويعلن ذلك لأهل الملأ الأعلى والأدنى .

قال تعالى : ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾

أي : تعالى في كمال ذاته ، وكثرة أسمائه وصفاته التي لا تتناهى ، ولا تشبَّه ولا تضاهى .

فأشهد عباده مقام ربوبيته في العالمين ، خلقاً لهم ، وتدبيراً لأمورهم ، وتصرفاً فيهم .

ثالثاً : لقد تَعرَّف لعباده وأشهدهم وحدانيتهُ في ربوبيته في خلقه للعالمين :

قال تعالى : ﴿ يا موسى إني أنا الله رب العالمين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ﴾ .

فمن أراد أن يعرف الله تعالى بمحاسن أسمائه ؛ وكمال صفاته سبحانه ؛ وعظمة قدرته ؛ وعزة سلطانه ؛ فليتفكر في أمر العوالم ، وأن يبحث عنها ليعتبر بها ، فيعبر منها إلى معرفة عظمة خالقها .

رابعاً : لقد ذكر الله تعالى في كتابه العزيز أنواعاً من العوالم :

فمنها عالم الملك ، ومنها عالم الملكوت ، ومنها عالم الخلق ، ومنها عالم الأمر .

ومنها عالم الأرواح بأنواعها ، ومنها عالم الملائكة ، وعالم الجن ، وعالم الإنس .

ومنها عالم العرش ، وعالم الكرسي ، وعالم المثال ، وعالم الكتاب ، وعالم اللوح ، وعالم القلم ، وعالم السدرة .

وعالم الصُلْب ، وعالم الذرّ .

وعالم السموات ، وعالم الأرضين ، وعالم الكواكب ، وعالم الإنسان ؛ وغير ذلك من العوالم التي لا يعلمها إلا الله تعالى .

وسوف أبينّ لك أيها القارىء الكريم جُملةً واسعة من العوالم العلوية التي جاء ذكرها في القرآن الكريم ، وبعض العوالم الأرضية على الوجه الوارد عن صاحب البيان عن القرآن ، الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبينّ للناس ما نزّل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾ .

ألا وهو السيد الأكرم والإمام الأعظم سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم .

فإذا مررت على ذكر تلك العوالم وصار عندك علم بها ازددت علماً بالله تعالى ، وبعظمته ، وكمال صفاته ، وسعة علمه وحكمته ، فإن العلم بالله تعالى لا ينتهي ولا يُحَدُّ ، قال تعالى : ﴿ فاعلم أنه لا آله إلا الله ﴾ .

فهو سبحانه يأمر بالازدياد من العلم بلا آله إلا الله دائماً على وجه لا يتناهى كما قال سبحانه : ﴿ وقل ربِّ زدني علماً ﴾ أي : علماً بك يا ربي جلَّ وعلا .

وإن بعض تلك العوالم وإن كانت غير مرئية لنا ، فإن البحث عنها والعلم بها يجعل لتلك المعلومات صوراً علمية في عالم الفكر المسمّى بالذهن ، أو الخيال ، أو الحافظة ، أو المدركة الجامعة ، وهذا مقتضى التفكر الذي قال تعالى فيه : ﴿ أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلَّا بالحق وأجلٍ مسمًّى ﴾ الآية .

وهذا موجب الأمر الذي أمرنا به رسول الله ﷺ حيث قال : « تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنكم لا تقدرون قدره »[1] .

وقال ﷺ : « تفكروا في خلق الله ، ولا تفكروا في الله »[2] .

ولو لم يكن في استعراض العوالم والبحث عنها والتطلُّع إليها ـ لو لم يكن في ذلك تقوية للإيمان ، وزيادة في معرفة العاقل عظمة الخالق المكّون ، وعظمة جلاله وقدرته ـ لما ذكر الله تعالى تلك العوالم في مواضع متعددة ، ومناسبات متنوعة في كتابه العزيز .

فإن كل شيء في الوجود قَلَّ أو كثر ، صَغر أم كبر فيه دليل على موجده وخالقه ، ووحدانيته ، وصفات كماله سبحانه ؛ حتى الذرّة .

---

(١) رواه أبو الشيخ عن ابن عباس مرفوعاً .

(٢) رواه أبو نعيم عن ابن عباس كما في (الحلية) .

قال تعالى : ﴿ أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء .. ﴾ الآية .

فقوله تعالى : ﴿ من شيء ﴾يتناول ما دقّ وصغر وهو الذرّة ؛ والجزء الذي لا يتجزأ ـ عند من يقول بذلك ـ وأقلّ منه عند من يقول بنفي ذلك ، ولذا جيء بكلمة شيءٍ مُنكَّراً ليدل على قلّته ودقّته ، وعمومه ، حتى الذرّة والهباءة كما تقدم في القسم الأول من (هدي القرآن الكريم) ويعتبر هذا المصنف القسم الثاني من (هدي القرآن الكريم) .

والقسم الأول ، والأقسام الآتية إن شاء الله تعالى ، وأكثر ما جمعته من المصنفات ـ يعتبر ذلك كله من باب التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ، وذلك لأن تفسير القرآن الكريم على وجهين !

الأول ـ التفسير النصيّ وهو تفسير نصوص كلمات الآيات القرآنية بأجمعها من حيث : العلوم العربية : مفردةً ومُركبةً ، ومن حيث النقل الوارد في بيانها من الأحاديث النبوية ، والآثار عن الصحابة رضي الله عنهم ، والتابعين ، ومن حيث القراءآت ، ومن حيث الأحكام ـ ونحو ذلك ، وهذا مفصَّل في التفاسير التي دَوَّنها العلماء الأفاضل المتقدمون جزاهم الله تعالى خيراً .

والثاني ـ هو التفسير لموضوع خاص من مواضيع القرآن ، وتناول بحث معينٍ من الأبحاث الوارد معناها في القرآن الكريم ، واستيفاء الآيات الكريمة المتعلقة بذلك الموضوع ، وبيانها ، وشرح معانيها ، والتدبُّر بما جاء فيها ، مع ذكر ما ورد في ذلك الموضوع ، وما ورد في بيانه من الأحاديث النبوية الشريفة ، وأقوال الصحابة رضي الله عنهم ، وأقوال التابعين لهم ، وقد رأيتُ شدَّة الحاجة إلى هذا النوع من التفسير ، وكثرة الانتفاع به ، ومع ذلك فإني لأرجو الله تعالى أن يوفقني لإتمام كتاب (التفسير لسُورٍ من الكتاب المنير) وأن يجعل ما أقوله وما أكتبه مرضيّاً عند الله تعالى العليم الخبير ، وعند

رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم الهادي البشير ، فإنه سبحانه بالإجابة جدير وهو نعم المولى ونعم النصير ـ آمين .

والذي يبشرني بقبول رجائي ، وإجابة دعائي بذلك ، هو أني قد جمعتُ أكثر أبحاث هذا القسم والذي قبله ـ جمعت ذلك ورتَّبته وأنا مقيم في المدينة المنوَّرة بأنوار المصطفى سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وفي شرف جواره الكريم ، وإن جار الكرام لا يخيب ولا يضام ، فكيف بمجاورة أكرم الكِرام ، وسيِّد الخلائق والأنام عليه أفضل الصلاة والسلام ، وعلى آله وأصحابه ، وعلينا معهم على مدى العصور وتوالي الأيام .

* * *

عالم الماء

ذكر الله سبحانه في القرآن الكريم عالم الماء الذي خَلَق منه موادَّ الأشياء ، قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يرَ الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حيٍّ أفلا يؤمنون ﴾ ؟! .

فهذا هو ماء الحياة الذي اشتمل على جميع العناصر الوجودية التكوينية الأربعة .

وهو المذكور في قوله تعالى : ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ الآية .

وهذا غير الماء المعهود ، لأن الماء المعهود لم تجتمع فيه عناصر الوجود ، بل هو واحد منها .

فكانت السموات والأرض رتقاً ـ أي : جملة مجملة في ذلك الماء ـ ففتقهما سبحانه أي : فَصَّل وجودهما ؛ أولاً إلى مرحلة تبخير الماء وتكثيفه ، فمن بخار الماء اللطيف خلق السموات ، ومن كثيف الماء خلق الأرض ، والأجرام العلوية ، والكواكب على مختلف أنواعها [1] .

ثم فصَّلهما سبحانه إلى سبع سموات ، وسبع أرضين .

---

(١) وقد ثبت ذلك عن حبر الأمة ابن عباس وغيره من الصحابة رضي الله عنهم حول قوله تعالى : ﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان ﴾ الآية ، وتفسير الصحابة في مثل هذا له حكم المرفوع ، كما هو مقرر عند أهل العلم المتقدمين .

ثم أمطر السماء وأنبت الأرض ، ولذلك قال تعالى في آخر الآية السابقة : ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ - أي : الماء الذي كانت السموات والأرض رتقاً فيه - أي : مجملة فيه كجملة الكلمات في الدواة قبل أن يفصلها القلم .

ويدلك على أن هذا الماء هو المراد في الآية الكريمة ما رواه الإمام أحمد وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : - قلت يا رسول الله ﷺ : إني إذا رأيتك طابتْ نفسي وقرَّت عيني ، فأخبرْني عن كل شيء ؟ - أي مِمَّ خُلِقَ - .

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « يا أبا هريرة كلُّ شيء خُلق من ماء » .

قلت : أخبرني بشيء إذا عملته دخلت الجنة ؟

فقال : « أطعم الطعام ، وأفش السلام ، وصِل الأرحام ، وصَلِّ بالليل والناس نيام - تدخل الجنة بسلام » .

وروى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : - قلت يا رسول الله : ممَّ خُلق الخلق ؟

فقال ﷺ : « من الماء . . . » الحديث بطوله - ورواه ابن ماجه وابن حبان في (صحيحه) .

فذلك الماء هو المادَّة الأولى لعالم الخلق المادِّي ، ولا سبيل للاشتباه في فهم الآية ، فالأحاديث المتقدمة بيان الآية الكريمة ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾ .

وسيأتي الكلام على ذلك حين نتحدث عن عالم السموات إن شاء الله تعالى .

وقد روى الطبراني (في الكبير) بإسناد رجاله رجال الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : (ما بين سماء الدنيا والتي تليها مسيرة خمسمائة عام ، وما بين كل سماء بين خمسمائة عام ، وما بين السماء السابعة والكرسي مسيرة خمسمائة عام ، وما بين الكرسي والماء خمسمائة عام ؛ والعرش على الماء ، والله ـ جلَّ ذكره ـ على العرش استوى ـ أي : كما قال تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ـ يعلم ما أنتم عليه[1] . .) . اهـ .

ولا تتوهمنَّ من هذا الاستواء التجسيم أو التحيُّز ، فإن استواء مَنْ ليس كمثله شيء ـ ليس كمثله شيء ، وإنما هو استواء يليق بجلاله وكبريائه سبحانه وتعالى .

وهذا الماء ـ أي : المُسمَّى ماء الحياة ـ يُصَبّ منه على العصاة حين يخرجون من جهنم ، فينبتون نبات الحِبَّة في حَميل السَّيْل كما جاء في (الصحيحين) وغيرهما ، فتربو أجسادهم ، وتنمو ، وتعود بعد أن احترقوا وصاروا حُمماً .

وهو الماء الذي أصاب الحوت فانسلَّ من المِكتَل ، كما في (صحيح البخاري[2] : وفيه : « حتى انتهيا إلى الصخرة فنزلا عندها ، قال : فوضع موسى رأسه فنام ـ قال : و في أصل الصخرة عين يقال لها : الحياة ، لا يصيب من مائها شيء إلا حيي ؛ فأصاب الحوت من ماء تلك العين فتحرك وانسلَّ من المكتل فدخل البحر . . » الحديث

وبهذا الماء يُحيي الله تعالى الأجساد بعد موتها يوم القيامة :

فقد روى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول

---

(١) انظر (مجمع الزوائد) ١/٨٦ وتفسير ابن كثير وغيرهما ، وهذا الموقوف له حكم المرفوع لأنه لا يدرك بالرأي .

(٢) ٥/٢٣٤ .

الله ﷺ : « ما بين النفختين أربعون »

قيل - أي : لأبي هريرة - أربعون يوماً ؟

قال أبو هريرة رضي الله عنه : أبيت

قيل : أربعون شهراً

قال أبو هريرة رضي الله عنه : أبيت

قيل : أربعون سنة .

قال : أبيت .

« ثم يُنزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل ، وليس شيء من الإنسان إلا يبلى إلا عظم واحد ، وهو عجب الذنب ، ومنه يركَّب الخلق يوم القيامة » .

وقد فصَّلت الكلام على هذا الحديث وشرحه في كتاب : (الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها) فارجع اليه .

* * *

عالم العرش

وقد ذكر سبحانه أيضاً في القرآن الكريم عالم العرش ، وعظمته وكرامته ، ورفعته ، وسعته ، وحملته .

قال تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش ﴾ .

وقد ذكر سبحانه حملة العرش ومدحهم ، وبيَّن وظائفهم ؛ فقال سبحانه : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ، ربنا وسعت كل شيء رحمةً وعلماً ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . . . ﴾ الآيات ـ كما شرحناها في كتابنا : (الإيمان بالملائكة عليهم السلام) و سيأتي بعضها .

وقد ذكر سبحانه تقدم خلق العرش على خلق السموات والأرض ، قال تعالى : ﴿ وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ، ليبلوكم أيكم أحسن عملا . . ﴾ الآية .

وقد بين ذلك رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ؛ وعرشه على الماء » .

أي : والحال كانْ عرشه على الماء .

كما روى الحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما : (أن الله تعالى أوحى إلى عيسى : لقد خلقت العرش على الماء فاضطّرب ، فكتبت عليه : لا إله إلا الله محمد رسول الله فسكن)[1] اهـ .

فالعرش يعتبر من العوالم السابق خلقها على جميع العوالم الشهودية من بعد خلق الماء ، كما دلّ على ذلك حديث أبي رزين العقيلي مرفوعاً : « إن الماء خلق قبل العرش »[2] .

وروى البخاري وغيره عن عمران بن الحصين رضي الله عنهما قال : دخلت على رسول الله ﷺ المسجد ـ فأتى ناس من بني تميم :

فقال ﷺ : « اقبلوا البشرى يا بني تميم »

فقالوا : بشرتنا فأعطنا ـ مرتين ـ فتغيَّر وجهه ﷺ .

ثم دخل ناس من أهل اليمن

فقال : « اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم »

فقالوا : قبلنا يا رسول الله : ثم قالوا : جئنا لنتفقَّه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر ـ أي : العالم ـ ما كان ؟

فقال ﷺ : « كان الله ولم يكن شيء قبله ـ وفي رواية :

ولم يكن شيء غيره ـ وفي رواية :

ولم يكن شيء معه ـ ، وكان عرشه على الماء ، ثم خلق السموات والأرض وكتب في الذكر كل شيء » اهـ.

---

(١) قال العلامة الزرقاني رحمه الله تعالى : وهذا موقوف له حكم الرفع إذ لا يقال رأياً . اهـ .
وقال عبد الله : وله شواهد متعددة ذكرت بعضها في كتاب (الشهادتين) اهـ

(٢) ذكره الحافظ في (الفتح) وعزاه للإمام أحمد والترمذي وصححه .

ومعنى : « وكان عرشه على الماء » أي : بالكينونة الحادثة بعد العدم ، بدليل حديث أبي رزين العقيلي قال : قلت يا رسول الله : أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟

فقال ﷺ : « كان في عماء - أي : ليس معه شيء - وخلق عرشه على الماء » .

فالعرش مخلوق بدليل هذا الحديث ، والحديث السابق : « ولم يكن شيء غيره » أي : لا عرش ولا فرش .

ومعنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « كان في عماء » أي : لم يظهر له أثر اسم ، ولا أثر صفة ، فلما خلق المخلوقات أظهر آثار أسمائه وصفاته تعالى في مبدعاته الأمرية ، ومخلوقاته الكونية فظهر أثر اسم : القدير ، والخالق ، والبارىء ، والمصور ، والبديع ، والحكيم - في المخلوقات على مختلف أنواعها ، كلٌّ منها ظهر فيه من آثار الأسماء الإلهية حسب استعداده الذي أعده الله تعالى له ، وهكذا ظهرت آثار الأسماء والصفات - وبذلك عرفوه سبحانه .

فَخلَقَ المخلوقات ، وأفاض نور الوجود على الممكنات ، ليُعلم بصفاته وكمالاته .

قال تعالى : ﴿ الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهنَّ يتنزل الأمر بينهنَّ لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما ﴾ .

وقال سبحانه : ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ الآية .

تنّزلات الأوامر الآلهية من عالَم العرش :

وقد بين سبحانه أن التدابير الآلهية ، والأوامر الربانية ، تتنزّل من عالم

العرش ، فما تكاد تمرُّ بآية يخبر فيها سبحانه أنه استوى على العرش إلا وجاء بعدها ما يدل على التدبير ، أو التسخير ، أو التصرف في المخلوقات .

قال سبحانه : ﴿ ثم استوى على العرش يدبِّر الأمر ما من شفيع إلاّ من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون ﴾ .

أي : يدبر الأمور ؛ ويقلب الله الليل والنهار .

وقال تعالى : ﴿ الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ﴾ .

وقال سبحانه : ﴿ هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا . . ﴾ الآية .

واعلم أن الله تعالى خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام كما دل على ذلك الآيات الكريمة السابقة والآتية ، وهنا تأولها بعض العلماء كل على حسب فهمه .

فقال بعضهم : إنَّ المراد بالأيام : أيام الشأن التي هي أقرب من لمح البصر وهو اليوم المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾

وذلك باعتبار أن كلاً من عالم السموات والأرض وما بينهما يحتوي على عالمي الملك والملكوت ، فكل عالم خلق في يوم شأن ، وتلك ستة أيام . .

ولكن الظاهر من الآيات القرآنية ودلالتها أن المراد بالأيام الستة هنا هي مدة من الزمن لو قدرت بزماننا هذا المنوط بالشمس لكان ستة أيام ، فإنه

لم يكن قبل خلق السموات والأرض هذا الزمان الذي نحن فيه ، بل هناك زمان آخر وأوسع بكثير ، منوط بحركات كواكب أخرى تابعة لعالم العرش .

والدليل على أن المراد بالستة أيام هنا هي مقدار من هذه الأيام - يعني أيام الدنيا قوله تعالى : ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾

فأحال العدد إلى مدة تقدَّر بزماننا بألف سنة ، فيطَّرد جميع التقادير الزمنية التي يذكرها سبحانه على نسبة التقدير من أيام هذا الزمان ، في كل المناسبات .

كما قال سبحانه في أيام ذي المعارج : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ .

أي : مما تعدون - فافهم ذلك .

وإذا فهمت ذلك فهمت المراد بالستة أيام التي خلق الله تعالى فيها السموات والأرض وما بينهما .

وليس هذا من باب تحديد القدرة وضعفها لا ، فإنه سبحانه قادر على أن يخلق ذلك كله بلحظة واحدة ؛ ولكن هناك حكم عالية :

أولاً : من المقرر المعلوم بالأدلة أن هناك عالمين : عالم الأمر ، وعالم الخلق ، وقد يطلق عليهما عالم الملك ، وعالم الملكوت حسب اصطلاح القوم .

فعالم الأمر لا يحتاج إلى مدة ولا مادة ، وإنما يوجد بمجرد الأمركن ، ويدخل تحت هذا عالم الأرواح بأنواعها ، كما سيأتي بحثه في عالم الروح ، وهذا العالم لا يتوالد وهو غير مادي .

وأما عالم الخلق وهو ما يوجده الله تعالى من مادة ، ويحتاج تمامه إلى مدة ، كعالم الأجسام بأنواعها ؛ فهذا العالم يحتاج إلى أن يمده الله تعالى بالوجود ،

ثم ينمي فيه الوجود ، ثم يطوره في التخليق إلى أن يتم . . كخلق جسم الإنسان مثلاً .

قال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ - فذكر له أطواراً من التخليق .

وهذا قوله تعالى : ﴿ يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق . . . ﴾ الآية .

فالسماوات والأرض وما بينهما من مادة ، كل ذلك من عالم الخلق ، وإن الحكمة في خلقه أن يكون تطويراً وتخليقاً ، لأن هذا الخلق سرّ الله تعالى الذي يسري في المخلوقات المادية ، ليحصل بها النفع والخير للبلاد والعباد ، ولولا ذلك لكان خلق الإنسان وتمام خلقه وكبره وبلوغه أشدّه في ساعة واحدة ، وهذا مما فيه متاعب هذه الحياة الدنيا ومصاعبها ، ولولا ذلك لكانت الشجرة إذا نبتت فهي تنمو وتتم وتثمر في مدة وجيزة ، ثم تقف عن العمل ، ولم ينتفع بها بعد .

فإن سر التكوين التدريجي هو سارٍ مفعوله في جميع المكونات الخلقية لا محالة .

فالأيام التي خلقت فيها السموات والأرض وما بينهما وإن كانت ستة ،ولكن التخليق الإلهي والتحويل والتطوير هو لم يفارقها لحظة ، فهذا من باب عظم القدرة الآلهية على خلق الأشياء وتطويرها ، وتحويلها ، وخلقها : خلقاً من بعد خلق .

وأما عالم الأرواح : فهو غير داخل في هذه الأحكام كلها ، لأنها من باب

الأمر المجرد ، كما سيتضح لك في بحث عالم الروح ص١٩٣ .

ومن هنا تعلم التوفيق بين قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾ - أي : من تعب مع سرعة تخليقها وتحولها .

وبين ما رواه مسلم وأحمد وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال : « خلق الله تعالى التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الإثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر يوم الجمعة ؛ في آخر ساعة من النهار فيما بين العصر إلى الليل . . » .

فهذا الحديث قد اختلف العلماء في ثبوته وكثير منهم ردّه بحجة أنه معارض لنص الآية التي تدل على أن خلق السموات والأرض وما بينهما كان في ستة أيام ، مع أن هذا الحديث يثبت الخلق في سبعة أيام - وهكذا عظم الخلاف وطعن بعضهم في أبي هريرة رضي الله عنه واتُّهِمَ برواية هذا الحديث . . وكل ذلك من عدم التدبر في الحديث .

فإنه رواه مسلم وأحمد وغيرهما ، وإن هذا الحديث لم يتعرض لخلق شيء من السموات أصلاً حتى يقال إنه عارض الآية ، وإنما ذكر خلق ما بين السموات والأرض من الأمور المادية - الحيوانية والنباتية ونحوهما ، ثم إن هذا الحديث بين تفصيل خلق الله تعالى لما على وجه الأرض بعد ما خلقها سبحانه إجمالاً ، فهذا من باب : ﴿ خلقاً من بعد خلق ﴾ وتفصيل بعد إجمال ، كما ذكر سبحانه ذلك في خلق الإنسان حين خلقه إجمالاً ثم خلقه خلقاً من بعد خلق كما تقدم في نص الآية الكريمة .

فهذا الإنسان : إنسان صغير ، وهذا العالم الأرضي والسماوي المحيط به إنسان كبير فافهم .

وعند العارفين بالعكس، يعني : أن الإنسان السماوي والأرضي هو الصغير ، وأما أنت أيها الإنسان الآدمي فالإنسان الكبير ، بدليل تقدم ذكره في الاعتبار ، والتفكر في محتوياته ، وخصائصه ، وبدائعه ، واستعداده ، وقابليته :

قال تعالى : ﴿ أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان .. ﴾ الآية .

وبدليل أنها مسخرة له ، قال تعالى : ﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه . . . ﴾ .

فالكل من السموات والأرض مسخر لهذا الإنسان ، وأما الإنسان فهو غير مسخر بل مكرّم ومشرّف بالمقامات ومراتب القرب ، فهو مشرف بالسعي إلى الله تعالى وخدمته لله تعالى بالعبادة ، قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ .

وفي حديث القنوت : « اللهم إياك نعبد ، ولك نصلي ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد . . . » إلخ .

فنحن الساعون إليه ، ونحن العابدون ، والحافدون له بالخدمة .

وهناك مقامات أشار إليها القرآن الكريم في شرف العبد المؤمن المقرب يطول شرحها ، وهي تحتاج إلى رسالة خاصة إن شاء الله تعالى ـ ولكن مع الأسف قليلاً ما أجد من يقدرها ويعرف منزلتها وفضلها ـ وإنما اكتفى جهلة

المسلمين في زعمهم في زمننا بما يطربهم من حكاية ، أو حسن نغمة، أو لذة طعمة ، وهم يظنون أنهم على شيء !!..

ولكن والله وبالله وتالله ليس على شيء ينفعهم عند الله تعالى ؛ إلا من اقتفى أثر رسول الله ﷺ واتخذه إماماً له في كل شيء ، وجعله أمامه ، وتعشق قلبه وروحه وعقله به ، وأحكم الصلة بينه وبين هذا الرسول الحبيب الأكرم صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً ، الذي سوف نسأل عن علاقتنا به ، واتباعنا له ﷺ يوم نترك المال والعيال ، والأصحاب ، والأحباب ، وهناك يقال لك : ما كنت تقول في هذا الرجل - يعني : سيدنا محمداً ﷺ - وكيف متابعتك له ؟

فلا يسألونك عن أبيك ، ولا عن جدك ، ولا عن صديقك ، ولا عن أحد ، وإنما يسألونك عن هذا الرسول الكريم الحبيب الأعظم ﷺ ، فإذا كان قلبك مع غيره ضللت الجواب عنه ..

اللهم بجاهه ﷺ عندك : عشقنا به ﷺ ، ووفقنا لاتباعه على أكمل الوجوه .. آمين .

ثانياً : إن الله تعالى قد مدح نفسه ، وعظم نفسه ، ومَجَّد نفسه ، سبحانه بأنه خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسه من لغوب - أي : تعب ولا نصب - قال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾ .

وفي هذا تنبيه للعاقل اللبيب ليفهم : أن خلقه سبحانه للسماوات والأرض وما بينهما - ذلك جرى وفيه الإسراع بنفوذ أثر القدرة الإلهية في خلق السموات والأرض وما بينهما - ففي قوله تعالى : ﴿ وما مسنا من لغوب ﴾ تتجلى عظمة القدرة الإلهية وتتجلى سرعة الإيجاد في خلق السموات

والأرض وما بينهما أكثر .

كما يقال : ـ بلا تشبيه ـ قطع فلان المفازة في فترة كذا وما تعب ، يراد بذلك الإخبار عن القوة والسرعة .

فالله تعالى يتعاظم بقدرته وسرعة إيجاده للسموات والأرض وما بينهما .

ولو كنتَ ممن أشهده الله تعالى خلق السموات والأرض وما بينهما وشاهدت ما أجرى سبحانه عليها في كل لحظة من التخليق والتحويل والتطوير التي تبلغ لحظاتها كلها زماناً يقدر بستة أيام من أيام الدنيا ـ يومين للأرض ، ويومين للسماوات ، ويومين لما بينهما .

لو كنت شاهداً لذلك لأيقنت عين اليقين بعظمة قدرة الله تعالى وسرعة نفوذ القدرة الآلهية ، مع بديع الحكمة الآلهية في صنعها وتركيبها ، والمراد من خلقها .

ولعلمت أن ذلك كان في غاية السرعة التي لا تقوى عليها إلا قدرة الله تعالى العلي العظيم وحده .

ولكنك ما شاهدت ذلك ـ قال تعالى : ﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلّين عضداً . . ﴾ .

وفي هذه الآية إشارة إلى أن هناك من أشهده الله تعالى خلق السموات والأرض وهم حملة العرش ، ومن حول العرش من الملأ الأعلى الملائكي وغيرهم .

فإن العرش العظيم مخلوق قبل السموات والأرض كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم وغيره عن ابن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء . . » .

ثالثاً : إن الله تعالى بكل خلق عليم ، فالخلق أي : الإيجاد والتخليق لا يعلم أنواعه إلا الله تعالى الخلاق العليم ، قال تعالى : ﴿ قل : يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . . ﴾ .

وقال تعالى للسيدة مريم عليها السلام :﴿ كذلك الله يخلق ما يشاء ﴾ .

فهو سبحانه يخلق ما يشاء كيف يشاء على الوجه الذي يشاء ، كما هو في علمه المحيط حسب مقتضى الحكمة الآلهية . .

العرش هو منزل الأوامر الآلهية :

روى مسلم عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ جالساً في نفر من أصحابه فرمي بنجم استنار .

فقال رسول الله ﷺ : « ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية » .

قالوا : كنا نقول : وُلِدَ عظيم أو يموت عظيم .

فقال ﷺ : « فإنها لا ترمى لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا تبارك وتعالى إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ، حتى يبلغ التسبيح السماء الدنيا ، ثم يستخبر أهل السماء الذين يلون حملة العرش فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش ماذا قال ربكم ؟ ، فيخبرونهم ، ويخبر أهل كل سماءٍ سماءً حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء ـ أي : الدنيا ـ ، وتخطف الجن السمع فيرمون ؛ فما جاؤوا به على وجهه فهو حق ، ولكنهم يفرقون فيه ويزيدون » .

والعرش مصدر البيانات والبلاغات الآلهية فتبلَّغ أولاً للذين يحملون العرش ومَنْ حوله :

فقد روى الإمام أحمد رضي الله عنه في (المسند) عن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن العبد ليلتمس مرضاة الله عز وجل فلا يزال

كذلك .

فيقول الله عز وجل لجبريل : إن فلاناً عبدي يلتمس أن يرضيني ألا وإن رحمتي عليه .

فيقول جبريل : رحمة الله على فلان ـ ويقولها حملة العرش ، ويقولها من حولهم ، حتى يقولها أهل السموات السبع ثم يهبط إلى الأرض » .

كما رواه ابن مردويه بزيادة : « وإن العبد ليلتمس سخط الله تعالى فيقول الله تعالى إن فلاناً يسخطني ألا وإن غضبي عليه .

فيقول جبريل : غضب الله على فلان ـ ويقوله حملة العرش ، ويقوله مَنْ دونهم حتى يقوله أهل السموات السبع ، ثم يهبط إلى الأرض » فيبغضه أهل الأرض .

والعرش مظهر آثار التجليات الربانية : الرضوانية والرحمانية ، والغضبيّة :

كما روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أحب الله تعالى عبداً نادى جبريل عليه السلام : يا جبريل إني أحبُّ فلاناً فأحبّه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء : إن الله تعالى يحب فلاناً فأحبوه ـ فيحبّه أهل السماء ، ثم تنزل له المحبة في أهل الأرض .

وإذا أبغض الله تعالى عبداً نادى جبريل عليه السلام فيقول : يا جبريل إني أبغض فلاناً فأبغضه ، فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء : إن الله تعالى يبغض فلاناً فأبغضوه ، فيبغضه أهل السماء ، ثم تنزل له البغضاء في الأرض فذلك قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّاً ﴾ .

وأصل هذا الحديث في (الصحيحين) .

والعرش الكريم : فيه مجمع أنوار الطاعات وإشراقات العبادات وشفاعتها :

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن مما تذكرون من جلال الله تعالى التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير يتعاطفن حول العرش ، يذكرن بصاحبهن ، أفلا يحب أحدكم أن يكون له من يذكره عند ربه . . »[1] .

والمعنى :أنها تشفع بصاحبها عند الله تعالى وتذكره بخير . .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم أستغفر الله وأتوب إليه ـ من قالها : كتبت له كما قالها ، ثم علّقت بالعرش لا يمحوها ذنب عمله صاحبها حتى يلقى الله تعالى يوم القيامة وهي مختومة كما قالها . . »[2] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما قال عبد لا إله إلا الله مخلصاً إلا فتّحت له أبواب السماء حتى تُفضي ـ أي : تصل ـ إلى العرش ما اجتنبت الكبائر . . »[3] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن لله تبارك وتعالى عموداً من نور بين يدي العرش ، فإذا قال العبد : لا إله إلا الله اهتز ذلك العمود ، فيقول الله تبارك وتعالى اسكن ، فيقول : كيف أسكن ولم تغفر لقائلها ؟ فيقول الله تبارك وتعالى : قد غفرت له ـ فيسكن . . »[4] .

---

(١) رواه أبو داود وأحمد وغيرهما .
(٢) رواه البزار وغيره .
(٣) رواه الترمذي .
(٤) رواه البزار .

وقد جاء في الأحاديث النبوية ما يدل على أن للعرش قوائم :

ففي (الصحيحين) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تفضلوني على موسى ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطش بجانب العرش ، فلا أدري أكان فيمن صُعق فأفاق قبلي ، أو كان ممن استثنى الله تعالى ؟ » .

وفي (الصحيحين) و (المسند) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لا تخيروا بين الأنبياء ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من تنشق عنه الأرض ، فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أكان فيمن صعق ، أم حوسب بصعقته الأولى . . » أي : عند جبل الطور لما تجلى له ربه تعالى .

وروى الإمام أحمد في (مسنده) عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه أن النبي ﷺ سأله : « أيّ آية من كتاب الله أعظم ؟ » .

قال أبيّ : الله ورسوله أعلم ـ فردّدها مراراً .

ثم قال أبيّ : آية الكرسي .

فقال ﷺ : « ليهنك العلم أبا المنذر ، والذي نفسي بيده إن لها لساناً وشفتين تقدّس الملك ـ سبحانه ـ عند ساق العرش » .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لما اقترف آدم الخطيئة قال : يا رب أسألك بحق محمد ﷺ إلاّ ما غفرت لي .

فقال الله تعالى : وكيف عرفت محمداً ولم أخلقه ـ أي : في عالم الأجساد ـ ؟ .

فقال آدم عليه السلام : يا رب لأنك لما خلقتني بيدك ، ونفخت فيّ من روحك ، رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً : لا إله إلا الله

محمد رسول الله فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك .

فقال الله تعالى : صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إليّ ، وإذ سألتني بحقه فقد غفرت لك[1] » .

وعن أبي الحمراء عن النبي ﷺ قال : « لما أُسري بي إلى السماء السابعة فإذا على ساق العرش الأيمن : لا إله إلا الله محمد رسول الله[2] » ﷺ .

وروى البزار والبيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما : عن النبي ﷺ : « الطابع معلَّقة بقائمة العرش ، فإذا انتُهكت الحُرمة ، وعُمل بالمعاصي ، واجترىء على الله تعالى بعث الطابع فيطبع على قلبه فلا يعقل بعد ذلك شيئاً » **أي :إلا الضلال** .

كما ورد عنه ﷺ أن للعرش قناديل :

ففي (سنن) أبي داود عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إنه لما أصيب إخوانكم بأحد ؛ جعل الله تعالى أرواحهم في جوف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلَّقة في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا : مَن يبلِّغ عنا إخواننا أننا أحياء في الجنة نرزق ، لئلا يزهدوا في الجنة ، ولا ينكلوا عن الحرب » .

وفي رواية أحمد : « قالوا يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا في الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب .

فقال الله تعالى : أنا أبلّغهم عنكم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون . . ﴾ » .

---

(١) رواه الطبراني ، والضياء المقدسي ، وأبو نعيم في (الدلائل) ، والحاكم ، والبيهقي في (الدلائل) وابن عساكر ، وله شواهد تعضد ما قيل فيه .

(٢) رواه الطبراني وابن مَرْدُوْيَهْ .

وروى ابن جرير عن الربيع أن هذه الآية نزلت في شهداء بدر وأحد .

وروى مسلم وغيره عن مسروق قال : سألنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون . . ﴾ .

فقال : أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال :

« أرواحهم في جوف طير خضر ، لها قناديل معلّقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل ، فاطلع عليهم ربهم إطلاعة ، فقال : هل تشتهون شيئاً ؟

فقالوا : أيّ شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ؟

ففعل بهم ذلك ثلاث مرّات » .

ـ يعني : أنه سبحانه عرض عليهم ثلاث مرات أن يسألوه ما يشتهون ـ قال ﷺ : « فلما رأوا ـ أي : رأى الشهداء ـ أنهم لم يتركوا من أن يسألوا قالوا : يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى .

فلما رأى سبحانه أن ليس لهم حاجة تُركوا » ـ أي : لأنه سبق القول أنهم لا يرجعون إلى الدنيا .

كما جاء في حديث جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما قال نظر إليّ رسول الله ﷺ ذات يوم ، فقال : « يا جابر مالي أراك مهتما ؟ »

فقلت يا رسول الله : استشهد أبي وترك دَيْناً وعيالاً .

فقال له ﷺ : « ألا أبشرك إن الله تعالى كلّم أباك كفاحاً ـ قال الراوي : الكفاح : المواجهة ـ فقال لأبيك : سلني أعطك .

فقال : أسألك أن تردني إلى الدنيا فأقاتل مع نبيك وأقتل فيك مرة أخرى .

فقال الرب عز وجل : إنه قد سبق القول مني أنهم إليها لا يرجعون .

قال : فأبلّغ من ورائي فأنزل الله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً . . . ﴾ » الآية .

رواه ابن مردويه والبيهقي مع إدخال الروايتين ببعضهما .

قوة نور العرش الكريم :

جاء في الأحاديث النبوية الشريفة ، والآثار المروية ، ما يدل على أن للعرش نوراً باهراً ، وضياء قاهراً ، وإشراقات تسطع على عالم الجنة ، ومن نور العرش تستمد جميع الشموس العلوية أنوارها :

روى ابن أبي حاتم بسنده عن عكرمة أنه قال : (لو جعل الله تعالى نور جميع أبصار الإنس والجن والطير في عيني عبد ، ثم كشف حجاباً واحداً من سبعين حجاباً دون الشمس ؛ لما استطاع أن ينظر إليها ، ونور الشمس جزء من سبعين جزءاً من نور الكرسي ، ونور الكرسي جزء من سبعين جزءاً من نور العرش ، ونور العرش جزء من سبعين جزءاً من نور السِتر) ـ أي : الحجاب ـ .

كما في (صحيح) مسلم عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات ، فقال : « إن الله تعالى لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرُفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » .

فانظر ماذا أعطى الله تعالى عبده من النور في عينيه وقت النظر إلى وجه ربه الكريم عياناً ؟!!.

نعم إنه سبحانه وتعالى يتجلى عليهم بالنور ، فبنوره سبحانه المشرق عليهم يرونه .

واعتبر في هذه الشمس التي تراها ، فلولا إشراقات نورها ورفع الحجب والسحب بينك وبينها لما رأيتها ، فما تراها إلا بإشراقات نورها ـ ولا مماثلة بين الخالق والمخلوق .

ويرحم الله تعالى القائل :

إذا تجلّى حبيبي بأيّ نور أراه ؟ بنوره لا بنوري فما يريه سواه

وفي هذا دلالة على قوة نور العرش وعلى أن جميع النيِّرات ؛ استمداد أنوارها منه .

فإن الكواكب يضيء نورها من الشمس ، وإن الشمس تستمد نورها من العرش ويدل على ذلك حديث أبي ذر رضي الله عنه قال : ـ دخلت على رسول الله ﷺ المسجد حين تغرب الشمس ، فقال : « يا أبا ذر أتدري أين تذهب الشمس ؟ » قلت: الله ورسوله أعلم .

قال : « تذهب تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها ، وتستأذن فلا يؤذن لها ، فيقال لها ارجعي من حيث جئت ، فتطلع من مغربها ـ فذلك قوله تعالى : ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ﴾ الآية .

قال : « تدرون متى ذلكم ؟ .

ذلك : حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل » ـ رواه الشيخان والترمذي .

وروى عبد بن حميد عن ميسرة رضي الله عنه قال : (لا تستطيع الملائكة الذين يحملون العرش أن ينظروا إلى ما فوقهم من شعاع النور) .

وقال مجاهد : (بين الملائكة والعرش سبعون ألف حجاب من نور) .

وروى الإمام جعفر الصادق بن الإمام محمد عن أبيه عن جده أنه قال : (بين القائمة من قوائم العرش ، والقائمة الثانية خفقان الطائر المسرع - ثلاثون ألف عام ، ويكسى العرش كل يوم سبعين ألف لون من نور ، والأشياء كلها في العرش - أي : نسبة العوالم كلها وسعتها في العرش - كحلقة في فلاة) .

عظمة العرش وسعته :

جاء في الأحاديث النبوية ما يدل على عظمة العرش وسعته :

فقد روى ابن مردويه والبيهقي وابن جرير وأبو الشيخ عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن الكرسيّ .

فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده ما السموات السبع ، والأرضون السبع ، عند الكرسيِّ إلا كَحْلقة مُلقاة بأرضِ فلاةٍ ، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة » .

قال الحافظ في (الفتح) : وفي حديث أبي ذر الطويل ، الذي صححه ابن حبان أن رسول الله ﷺ قال : « يا أبا ذر ما السموات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة »[1] .

فعالم الكرسي وما حواه من سموات وأرضين بالنسبة لعالم العرش كحلقة في فلاة .

---

(١) انظر (فتح الباري) ١٣ : ٤١١ .

ومما يدل على عظمة العرش وسعته :

ما جاء في وصف حملة العرش ، كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود والضياء المقدسي عن جابر رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال : « أُذن لي أن أُحدِّث عن ملك من ملائكة الله تعالى من حملة العرش : ما بين شحمة أُذنه إلى عاتقه - أي : كتفه - مسيرة سبعمائة سنة » .

وروى الطبراني بإسناد جيد عن أنس رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال : « أُذن لي أن أحدِّث عن ملك من حملة العرش : رجلاه في الأرض السفلى ، وعلى قَرْنه العرش ، وبين شحمة أذنيه وعاتقه خفقان الطير سبعمائة عام ، يقول ذلك الملك : سبحانك حيث كنت » .

فهذا ملك واحد من حملة العرش .

روى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « إن لله ملكاً لو قيل له التقم السموات السبع والأرضين بلقمة واحدة لفعل ، تسبيحه : سبحانك حيث كنت » .

أي : سبحانك أزلاً ، بل من حيث لا أزل ولا أبد ، بل أنت الأول وليس قبلك شيء ، ولا مبدأ لأوليتك ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، ولا انتهاء لآخريتك - جلّ وعلا ، سبحانه وتعالى .

وقد جاء في الحديث الصحيح عنه ﷺ أنه قال : « أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء .. » الحديث .

وهذا بيان لقوله تعالى : ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾ .

وظائف حملة العرش ومن حوله :

قال الله تعالى :

﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمةً وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

فالله تعالى يخبرنا عن حملة العرش ومن حوله : من الأرواح العالية ، والملائكة الكروبيّين ، والمقربين وهم الرفيق الأعلى ـ كل أولئك يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ـ والمعنى : أنهم ملازمون تسبيحه سبحانه وتحميده ، ودائبون على الإيمان به ، والاستغفار للمؤمنين .

أما التسبيح فهو تنزيه الله تعالى عما لا يليق بمقام الربوبية .

وأما التحميد فهو إثبات المحامد والكمالات المطلقة اللائقة بكماله وجلاله وجماله ، والمحامد التي يستحقها لفضله وكرمه ونواله على سائر مخلوقاته .

وأما قوله تعالى : ﴿ ويؤمنون به ﴾ فمعناه : أنهم يؤمنون به عملاً وهو قيامهم بأنواع العبادات التي يعبدون الله تعالى بها ـ كما قال تعالى : ﴿ وله مَنْ في السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ .

فإن الإيمان قد يطلق : على الإيمان العملي المبني على الإيمان الاعتقادي كالصلاة ونحوها ، قال تعالى : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ ـ أي : أعمالكم التعبدية المبنية على الإيمان الاعتقادي التصديقي .

وقد نزلت هذه الآية في الصلاة ـ كما جاء في (صحيح) الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما وُجِّه رسول الله ﷺ إلى الكعبة .

قالوا : يا رسول الله كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس ؟ ـ أي : ما حكم صلاتهم الماضية قبل التحول إلى الكعبة المشرفة .

فأنزل الله تعالى : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم . . ﴾ ـ أي : صلاتكم ونحوها من بقية الأعمال التعبدية الإيمانية .

﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ لمناسبة الإيمان الجامعة بينهم ، فإنها جعلت بينهم ولاءً ومحبة ونُصحاً ، ومن ثَمّ وصف سبحانه الملائكة بأنهم يؤمنون به ، ثم ذكر أنهم يستغفرون للذين آمنوا ، فهم يقولون من باب الوفاء بحقوق الأخوة الإيمانية ، والحرص على إيصال الخير للمؤمنين ودفع الضر عنهم :

﴿ يقولون ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا ﴾ .

والمعنى : أنهم يسألون الله تعالى متوسلين إليه سبحانه بسعة رحمته كل شيء ، وبسعة علمه المحيط بكل شيء ، أن يغفر سبحانه للذين تابوا ، وذلك بأن يمحو سبحانه عين الذنوب وآثارها .

أما محو عينها : بأن يبدل سيئاتهم التي تابوا منها فيجعلها حسنات .

وأما محو آثارها : فإن للذنوب آثاراً ظلمانية في قلب المذنب ، وفي نفسه ، وفي المكان الذي أوقع فيه الذنب ، وفي صحيفة أعماله ، فإذا تاب توبة نصوحاً مُحِيَ جميع ذلك ـ كما بيّنتُ ذلك مفصلاً في كتاب : (صعود الأقوال) في بحث التوابين .

﴿ فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ﴾ أي : صراط شرعك الذي أقمته لهم ، وأمرتهم أن يسيروا على منهاجه دون انحراف ولا اعوجاج ، لأنه مستقيم ، فلا يمشي عليه إلا من استقام في سيره ، قال تعالى : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصّاكم به لعلكم تتقون ﴾ .

﴿ وقهم عذاب الجحيم ﴾ أي : لأنه عذاب أليم .

والجحيم تدل بمعناهااللغوي ، تدل : على الشدة ، واللهب ، والضيق ، وفيها عذاب الحريق .

قال تعالى : ﴿ كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ﴾ .

فعذاب الجحيم هو كما وصفه الله تعالى بقوله : ﴿ عذاب أليم ﴾ ، و﴿ عذاب يوم كبير ﴾ ، و﴿ عذاب غليظ ﴾ ، و﴿ عذاب شديد ﴾ ، و﴿ عذاب مقيم ﴾ ، و﴿ عذاب مهين ﴾ ، و﴿ عذاب عظيم ﴾ . . .

وهذه الصفات هي حقائق وليست أوهاماً ، ولا من باب الإيهام ، بل من باب الإعلام عن حقائق واقعية ، فإن الله تعالى يقول الحق ، وقوله الحق كما أخبرنا بذلك ، وقوله الصدق ، ﴿ ومن أصدق من الله قيلاً ﴾ ؟

والصدق : هو الكلام المطابق للواقع .

والحق : هو بيان ما عليه حقيقة الشيء المُخبر عنه .

وكلامه سبحانه وتعالى هو الفصل ليس فيه هزل .

ولولا أنّ عذاب الجحيم حقيقة ثابتة ، لكان استغفار الملائكة ودعاؤهم للمؤمنين بأن يقيهم الله تعالى عذاب الجحيم لكان ذلك عبثاً . . !

﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ﴾ وفي هذا تمام الفضل

والنعمة على المؤمنين ، وذلك بأن يقيهم الله تعالى عذاب الجحيم ، ويتفضل عليهم بدخول جنات النعيم ، إذ لو وقاهم العذاب وحده ، ولم يدخلهم الجنة ؛ لبقوا على السور بين الجنة والنار . . فسبحان الكريم الغفار .

﴿ ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

وفي هذا الدعاء قرة أعين المؤمنين التائبين المتبعين سبيل ربهم - وفرّحهم بآبائهم ، وأزواجهم ، وذرياتهم ، فسيدخل من صلح منهم بالإيمان إلحاقاً بهم ، ليزداد نعيمهم ، ويكمل لهم سرورهم ، ويتضاعف فرحهم من جميع الوجوه والاعتبارات ، وهذا نظير قوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا ﴾ - أي : إيماناً قوياً كاملاً - ﴿ واتّبعتهم ذريّتهم بإيمان ﴾ - أي : إيمان دون إيمان آبائهم - ﴿ ألحقنا بهم ذريّتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرىء بما كسب رهين ﴾ .

وفي هذا دليل صريح على أن النسب الصالح ينفع الأصول والفروع ، فبه يلحق سبحانه المقصّر في عمله بالمجدّين والمحسنين في أعمالهم .

وأما المبطّىء في عمله عن السير والمتابعة أصلاً فإنه لم يسرع به نسبه .

وفي قوله تعالى : ﴿ وكان أبوهما صالحاً ﴾ دليل صريح على نفع النسب الصالح .

روى البزار وابن مردويه عن ابن عباس رفعه إلى النبي ﷺ قال : « إن الله يرفع ذرية المؤمن إليه في درجته وإن كانوا دونه في العمل لتَقرَّ بهم عينه ، ثم قرأ : ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم ﴾ » الآية .

ورواه البيهقي والحاكم وسعيد بن منصور وغيرهم عن ابن عباس موقوفاً ، وله حكم الرفع .

وروى الطبراني وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده .

فيقال : إنهم لم يبلغوا درجتك .

فيقول : يا رب قد عملت لي ولهم ـ فيؤمر بإلحاقهم به » .

وقرأ ابن عباس قوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا واتبعهم ذرّيتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم ﴾ الآية .

وقال أبو مجلز في معنى هذه الآية : يجمع الله تعالى للمؤمن ذريته في الجنة كما يحب أن يجتمعوا له في الدنيا .

﴿ وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

وهذا دعاء لهم أن يحفظهم الله تعالى من السيئات في الدنيا والآخرة ، بأن يقيهم من المساوىء والمكاره ، فلا يسوء لهم حال ولا مآل ، ولا يُساء لهم وجه في يوم ﴿ سيئت وجوه الذين كفروا ﴾ ، ومن وقاه الله تعالى السيئات في مواقف الحشر ، والسؤال ، والحساب ، والميزان ، والعبور على الصراط ـ فقد رحمه سبحانه برحمته الخاصة المعنيّة في قوله تعالى : ﴿ وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾ ، والمذكورة في قوله تعالى : ﴿ يختصّ برحمته من يشاء ﴾ .

ومن أعطاه الله تعالى تلك المكرمات ، وفاز بتلك المقامات ، فقد فاز فوزاً عظيماً ، ولذلك قال سبحانه : في آخر تلك الآيات : ﴿ وذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

اللهم اجعلنا منهم بجاه حبيبك الأكرم ﷺ عندك ـ آمين .

فما أكرم المؤمنين على ربهم ؟ إنهم لتستغفر لهم حملة العرش ومن حوله ، ويدعون لهم بكل سعادة وخير وبر ، وبالوقاية لهم من كل سوء وشر ، ويدعون لآبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، وما كان ذلك إلا عن أمر من الله تعالى لهم بذلك ، لأن الملائكة هم كما وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾ فهم أمريّون في جميع أقوالهم وأفعالهم ، لا يتقدمون لذلك إلا بأمر من الله تعالى لهم .

روى الحافظ عبد الرزاق عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ قال مطرف بن عبد الله بن الشّخّير : وجدنا أنصح عباد الله تعالى لعباده ـ الملائكة عليهم السلام ، ووجدنا أغشّ عباد الله تعالى لعباده ـ الشياطين . اهـ . .

فيا أخي : إذا كنت تحب أن تحفّ بك الملائكة عليهم السلام ، فليكن قلبك سليماً من : الغش ، والحقد ، والحسد ، وسوء الظن ، والبغض ، والسخرية بعباد الله تعالى وخاصة العلماء والصلحاء ، فلا تبغضهم ، ولا يكن في قلبك حقد عليهم ، أو غل ، أو انتقاص لهم ـ فإن ذلك يحلق دينك ولو بعد حين . .

عدد حملة العرش :

قال تعالى : ﴿ والمَلَكُ على أرجائها ويَحْمِل عرشَ ربِّك فوقَهم يومئذٍ ثمانية ﴾ .

فحملة العرش يوم القيامة ثمانيةٌ بنص الآية ، ولكن اختُلِف في عددهم الآن .

فقال بعضهم : هم الآن أربعة ، واستدلوا بما رواه ابن جرير بإسناده عن ابن زيد مرفوعاً : « إن العرشَ يحمله اليوم أربعة ، ويوم القيامة ثمانية » .

وقال بعضهم : هم الآن ثمانية ، واستدلوا على ذلك بما رواه ابن أبي حاتم بإسناده عن ابن عمر قال : (حملة العرش ثمانية ، ما بين موق أحدِهم إلى مؤخر عينيه مسيرة مائة عام) .

واختلف في المراد بالثمانية :

فقائلون بأنهم ثمانية من الملائكة ، وقائلون بأنهم ثمانيةُ صفوفٍ من الملائكة ، كما روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ ويَحمِلُ عرشَ ربك فوقهم يومئذٍ ثمانية ﴾ قال : ثمانيةُ صفوفٍ من الملائكة ، لا يعلم عدَّتهم إلا الله تعالى .

وقد نقل ذلك الحافظ ابن كثير في تفسيره وتاريخه .

وفي الأثر الذي رواه أبو الشيخ : (إن الحملة عجزوا في أول الأمر عن حمله فأمرهم الله تعالى أن يقولوا لا حول ولا قوة إلا بالله ـ فحملوه) .

ومما يدل على سعة العرش وعظم زِنته :

ما روى مسلم عن جويرية رضيَ الله عنها أن النبي ﷺ خرج من عندها ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة ، فقال : « ما زلت على الحال التي فارقْتُك عليها ؟ » .

قالت : نعم .

فقال النبي ﷺ : « لقد قلتُ بعدكِ أربعَ كلماتٍ ثلاثَ مرات لو وُزِنَتْ بما قلتِ هذا اليوم ـ أي : من أول النهار إلى ضحوته الكبرى ـ لَوَزَنَتْهُنَّ : سبحانَ الله وبحمده عددَ خلقِه ، ورِضاءَ نفسه ، وزِنَة عرشِه ، ومدادَ كلماته » .

فهذا مما يدل على أن عظمة العرش لا يعلم قدرها إلا الله تعالى ، كما لا يعلم عدد الخلق إلا الله تعالى .

عالم القلم الأول

قال تعالى : ﴿ ن . والقلمِ وما يَسْطُرون ﴾ .

فقد ذهب كثير من العلماء إلى أن هذا القَلَمَ المقسَمَ به هو القلم الأول الذي كُتب به الذِّكر الأول ، ومن ثَمّ قال العلامة السُّدِّي في قوله تعالى ﴿ ن والقلم ﴾ يعني : الذي كَتَبَ به الذِّكر - أي الذكر الأوَّل .

والذكر الأول هو الكتاب الجامع الذي ذكر فيه كل شيء ، وكتبت فيه جميع المقادير .

واستدلوا على ذلك بما جاء في الحديث الذي رواه أحمد في (مسنده) وأبو داود والترمذي - واللفظ له - عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب .

فقال : يا رب وما أكتب ؟ .

فقال : اكتب مقادير كل شيء حتى يوم القيامة . . » .

سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من مات على غير هذا فليس مني » .

وروى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يحدّث عن رسول الله ﷺ قال : « إن أول شيء خلقه الله القلم فأمره فكتب كل شيء » .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن هذه الكتابة هي التي كتبت قبل خلق

السماوات والأرض ، وأنها كانت بهذا القلم الأول ، الذي أجراه الله تعالى بالقدر ، حين كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة كما تقدم في حديث مسلم أن النبي ﷺ قال : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ـ وعرشه على الماء » .

ولكن ذهب كثير من العلماء إلى أن هذه الكتابة غير تلك الكتابة ، وأن الكتابة هي متعددة المراتب .

فهناك الكتابة الأولى لما خلق الله تعالى القلم .

وهناك كتابة ثانية قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة كما تقدم في الحديث .

وهناك كتابة ثالثة قبل خلق السماوات والأرض بألفي عام :

روى الترمذي عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى كتب كتاباً قبل أن يخلق السماوات والأرض بألفي عام ، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة ، لا يُقرأ بهن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان . . » ورواه الحاكم أيضاً وغيره .

وهناك كتابة رابعة : بعد خلق السماوات والأرض : روى البخاري وغيره عن عمران بن حصين رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « كان الله ولم يكن شيء قبله ـ وفي رواية : ولم يكن شيء غيره ـ وكان عرشه على الماء ، ثم خلق السماوات والأرض ، وكتب في الذكر كل شيء . . » الحديث كما تقدم بتمامه .

فالظاهر من هذا الحديث أن هذه الكتابة بعد خلق السماوات والأرض وهذا هو الذكر الثاني .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن هذا الذكر هو الذكر الأول المكتوب أولاً ، وأن الواو في قوله ﷺ : « وكتب في الذكر كل شيء » هي واو الحال .

والمعنى : والحال قد كتب في الذكر كل شيء من قبلُ .

وهناك كتابة خامسة قبل خلق آدم عليه السلام بأربعين سنة وهي أخصُّ من الكتابة التي قبلها :

جاء في (الصحيحين والسنن) ـ واللفظ للبخاري ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « حاجّ موسىٰ آدم ، فقال له : أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك فأشقيتهم .

فقال آدم : يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، أتلومني على أمر كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني ـ وفي رواية مسلم : أتلومني على أمر قَدّره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة !؟ » .

قال رسول الله ﷺ : « فَحَجَّ آدم موسىٰ » .

وقد بيّنت وجه حجة آدم على موسىٰ عليهما السلام في كتاب (الإيمان بالملائكة عليهم السلام) فارجع إليه .

وهناك كتابة سادسة : وهي التي تكتب عندما يكون الجنين في الرحم :

كما في حديث ابن مسعود ـ المتفق عليه ـ وفيه : « ثم يرسل الملك ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد . . » الحديث وسيأتي بتمامه ص٥٥ .

ولكل مرتبة من هذه الكتابات حِكَم وأحكام ، وشأن ونظام ، لا يحيط بعلمها إلا العليم العلّام ، **فمن ذلك** ما قاله بعض العارفين : أن الكتابة السابقة هي أعمّ من التي بعدها ، وأشمل للمقادير وأجمع ، فالكتابة حين

يكون الجنين في الرحم مثلاً متعلقة بشؤون الجنين الخاصة به : من أعماله ، ورزقه ،وأجله ، وسعادته أو شقوته ، وسائر ما يجري عليه إلى أن يموت ـ بخلاف الكتابة قبل خلق آدم عليه السلام بأربعين سنة فإنها تعمّ آدم وذرّيته وشؤونهم وأحوالهم وأعمالهم كلها ، والكتابة قبلها تعمّ مقادير الإنس والجن وغير ذلك من العوالم ، والتي قبلها هي أعم وأجمع وأكبر وأوسع ـ والله تعالى أعلم بجميع ما هنالك .

ونعود الآن إلى قوله تعالى : ﴿ ن . والقلم وما يسطرون ﴾ .

فهذا القلم المُقسم به في قوله تعالى : ﴿ ن والقلم ﴾ هو القلم الأعلى وهو القلم الأوّل الذي كتب به الذكر الأوّل ، وأما قوله تعالى : ﴿ ن ﴾ فاعلم أن النون يطلق في اللغة وله ثلاثة معان :

فقد يطلق ﴿ ن ﴾ ويراد به الحرف كبقية الحروف التي تتركب منها الكلمات .

وقد يطلق ويراد به اسم الحوت ـ قال تعالى : ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضباً ﴾ الآية .

وقد فُسّر هذا النون بقوله تعالى : ﴿ ولا تكن كصاحب الحوت . . ﴾ الآية .

وقد يطلق : ﴿ ن ﴾على المدد الذي يستمد منه القلم ، فيخطّ ويكتب ، كالحبر ونحوه ، فالمراد به هنا في قوله تعالى : ﴿ ن والقلم ﴾ المراد به المدد ، بدليل مقابلته بالقلم ، فذكر المدد أولاً ،ثم أقسم سبحانه بالقلم المستمِدّ ، وهذا المدَدُ هو مدد الله تعالى الذي أمدّ به القلم بالعلم بما هو كائن: فكتب ذلك ـ كما تقدم في الحديث : « قال له : اكتب ، قال : يا ربّ وما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة » .

وبهذا المدد صار القلم عالماً بما هو كائن ، فجرى في كتابة ذلك .

وإنما ذكر المدد الآلهي أولاً ، ثم أقسم بالقلم وما يسطرون ، لعِظم أمر المقسم عليه وهو : ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ ـ والمعنى : ما أنت يا رسول الله بنعمة ربك الذي أنعم عليك بالنبوّة الخاتمة ، والرسالة العامّة ، وإنزال القرآن العظيم عليك ، وإنزال الحكمة ، وإفاضة العلوم الآلهية ، والمعارف الربانية ، وإمداداته لك بالعلوم بما مضى ، وما هو آت ، وإطلاعه لك على كثير من المغيّبات ـ ما أنت بنعمة ربك في ذلك ـ بمجنون ؛ بل أنت لك العقل الأول والأرجح على جميع العقول ، والأكمل والأفضل ، فإن من آتاه الله تعالى ذلك ، وأنعم عليه بما هنالك لا يتحمله ؛ إلا من خصّه الله تعالى بعقل فوق مستوى العقول كلها ، ولا غرو ولا عجب فيما أعطاك يا رسول الله وفيما أمدَّك به ، فإن الذي أمدّ القلم الأول بما هنالك هو سبحانه أمدَّك بجميع ذلك ، ومن هنا تعلم المناسبة بين القسم والمقسم عليه ، فافهم ولا تكن أبكماً يا أخي .

روى الشيخان وغيرهما عن حذيفة رضي الله عنه قال : (قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً ، فما ترك شيئاً يكون من مقامه ذلك إلى : قيام الساعة إلَّا حدَّثه ، حفظه منا من حفظه ونسيه مَنْ نسيه) .

وروى مسلم عن عمرو بن أخطب الأنصاري رضي الله عنه قال : (صلَّى بنا رسول الله ﷺ يوماً الفجر فصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر ، فنزل فصلَّى ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر ، فنزل فصلَّى ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس ـ فأخبرنا بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فأعْلُمنا أحفظُنا) .

وإن بحار علومه صلى الله عليه وآله وسلم لا يحيط بها إلا الله تعالى الذي

أفاضها عليه ، وأمدَّه بها .

روى الشيخان وغيرهما عن أنس رضي الله عنه : (أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خرج حين زاغت الشمس فصلَّى الظهر فلما سلَّم قام على المنبر فذكر الساعة ، وذكر أن بين يديها أموراً عظاماً ثم قال : « من أحبَّ أن يسأل عن شيء فليسأل عنه ، فوالله لا تسألوني عن شيء إلَّا أخبرتكم ما دمت في مقامي هذا » .

قال أنس : فأكثر الأنصار البكاء ، وأكثر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « سلوني » .

فقام رجل فقال : أين مدخلي يا رسول الله ؟ قال : « النار » .

فقام عبد الله بن حذافة فقال مَنْ أبي يا رسول الله ؟ فقال : « أبوك حذافة » .

فأكثر أن يقول : « سلوني سلوني ») الحديث .

فقد أذن للصحابة أن يسألوه عن أيِّ شيء ما دام في مقامه ذلك ، لعلمه بجميع ما هنالك .

وقد جـاء في الحديث الذي رواه التـرمذي وأحمد وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « إني قمتُ من الليل فصليت ما قدِّر ، فنعستُ في صلاتي حتى استثقلت فإذا أنا بربي عز وجل فقال لي : يا محمد فيمَ يختَصم الملأ الأعلى ؟ .

قلت : لا أدري ربِّ .

قال : فيم يختَصم الملأ الأعلى ؟ .

قلت : لا أدري ربِّ .

قال : فيم يختَصم الملأ الأعلى ؟ .
قلت : لا أدري ربِّ » .

وفيه أن الله تعالى أفاض عليه العلوم ، وكشف له عن كل شيء حتى قال صلى الله عليه وآله وسلم : « فتجلَّى لي كل شيء وعرفتُ » فنال مقام الكشف عن الأشياء والعلم بها .

وفي رواية قال صلى الله عليه وآله وسلم : « فعلمتُ ما في السماوات وما في الأرض » .

وفي رواية : « فعلَّمني كل شيء » .
وفي رواية : « فما سألني عن شيء إلَّا علمتهُ » .

وقد ذكرتُ روايات هذا الحديث جميعها تامةً في كتاب (صعود الأقوال) فارجع إليها إن شئت ـ تجد نصوص الحديث كاملةً .

ومن هنا تعلم قوة المناسبة في قوله تعالى : ﴿ ن . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ .

فنون المدد من الله العليم العلام ، الواحد الأحد ـ مالها نفد إلى أبد الآبدين ، إلى حيث لا أزل ولا أبد .

فإن الله تعالى الذي أفاض على القلم فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة ، هو سبحانه أفاض على حبيبه الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم تلك العلوم القرآنية ، وتلك المعارف الآلهية ، والحكم الربانية ،قال تعالى : ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلَّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ .

وأما قوله تعالى : ﴿ وما يسطرون ﴾ فيشمل ـ والله تعالى أعلم ـ

ما تسطّره الملائكة من أفعال العباد ، وجميع أمورهم المقدّرة ، نقلاً عن الذكر الأول ، الذي خطّه القلم الأول . . .

وقد رُفع رسول الله سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ليلة المعراج لمستوى سمع فيه صريف الأقلام :

كما جاء في (الصحيحين) في حديث المعراج : « ثم رُفعت لمستوىً أسمع فيه صريف الأقلام » .

فسمع صلى الله عليه وآله وسلم أصوات الأقلام التي تسطّر أقضية الحق النافذ في الخلق ، ينقلون نسخاً عن اللوح المحفوظ .

وصريف الأقلام هو : صوتها وهي تجري بكتابة أقضية الله تعالى ، وبكتابة وحيه .

وجيء بكلمة صريف الأقلام ولم يقل أسمع أصوات الأقلام ، ذلك لأن ما تجري الأقلام بكتابته هو على أنواع ، ولها تصاريف متعددة .

قال المحققون من أهل المعرفة : وكان هذا السماع : سماع إدراك وفهم واطّلاع وعلم .

والمعنى : أن الله تعالى أقام حبيبه الأكرم ﷺ مقاماً ؛ بلغ فيه من رفعة المحل إلى حيث اطّلع على الكوائن ، وظهر له ﷺ مايُراد من أمر الله تعالى وتدبيره في خلقه ، وهذا هو المنتهى الذي لا تقدّم فيه لأحد عليه .

وإنما خصَّ الله تعالى حبيبه الأكرم سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلّم بهذا كما يشير إلى ذلك الحديث : « ثم رُفعتُ لمستوىً . . . » الحديث فُخُصَّ بالرفع لذلك المستوى صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وقوله تعالى : ﴿ وما يسطرون ﴾ يشمل أيضاً ما تسطّره الملائكة في

صحيفة كل جنين حين يمضي عليه أربعة أشهر كما جاء في (الصحيحين) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفةً ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يُرسل إليه الملك ، فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد .

فوالذي نفسي بيده إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ؛ وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » .

ولا تعارض بين حديث سماعه ﷺ صريف الأقلام تجري بالكتابة كما قلنا ، وبين قوله ﷺ : « رُفعت الأقلام وجفّت الصحف » ـ فإن الأقلام التي جفّت صحفها هي صحيفة كل إنسان كتبها الملك في صحيفته حين كان في بطن أمه ، ولهذا قال ﷺ : « جفَّ القلم بما أنت لاقٍ » .

وقوله تعالى : ﴿ وما يسطرون ﴾ يشمل أيضاً ما تسطّره الملائكة من أعمال بني آدم الصادرة عنهم ، واستدل العلماء على ذلك بقوله تعالى : ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ ـ أي : نكتب عليكم أعمالكم الصادرة منكم ، حتى تكون حجة عليكم إن أنكرتم ذلك .

فالاستنساخ من الذكر الأول قبل وقوعها للاطلاع عليها ، والعمل على تنفيذها ، كل ملك على حسب وظيفته الموكولة إليه .

والاستنساخ بعد صدورها من بني آدم لإحصائها عليهم والمجازاة عليها .

وفي قوله ﷺ : « إن أول ما خلق الله القلم فقال له : اكتب ، قال : يا رب وما أكتب . . » الحديث دليل على أن هذا القلم عالَم عظيم ؛ وعالِم كبير ، قد أفاض الله تعالى العليم الخبير عليه العلم والمعرفة بما هو كائن فكتب ما علّمه الله تعالى ، وأطلعه عليه ، وقد أدرك ذلك ووعاه ـ فسبحان العليم العلّام .

وقد خط هذا القلم وكتب تلك المقادير الواسعة في كتاب يسمّى : اللوح المحفوظ ، والإيمان بكتابة المقادير هو أحد أصول الإيمان بالقدر ، الذي هو الركن السادس من أركان الإيمان ، كما جاء في حديث جبريل عليه السلام حين سأل النبي ﷺ عن الإيمان فقال له ﷺ : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره . . » .

والكلام على الإيمان بالقدر وأبحاثه مفصلاً يحتاج إلى كتاب واسع ليس موضعه هنا ، ولكن أذكر كلمة موجزة تتعلق بالإيمان بالقدر تنبه الغافل ، وتعلم الجاهل ، ويقوى بها إيمان العاقل .

فأقول وبالله التوفيق :

جاء في لغة العرب : القَدَر ، والقدْر ، والتقدير بمعنى واحد ، تقول : قدرت الشيء قدْراً ـ مصدر ـ وقدَرَاً ـ اسم مصدر ـ ، وقدّرته تقديراً إذا دبرته ورتبته في دائرة فكرك قبل أن تصنعه أو تحدثه .

وأما معنى القدر بالنسبة إلى الله تعالى : فهو تقديره لجميع الأشياء التي يوجدها ـ بمقاديرها اللائقة بها ، وأحوالها التي ستكون عليها من مبدأ ونهاية ، وقوة وضعف ، وكياسة وبلادة ، وخير وشر ، وما تقع فيه من زمان ومكان ، وما يسبقها من مقدمات ، وما يتبعها من نتائج وآثار ـ وغير هذا . . . ، بحيث يكون جميع ذلك كما علمه سبحانه بعلمه القديم ، وأراده

بالإرادة السابقة ، وقضاه ، وحكم به بالقضاء الأول ، وكتبه في الذكر الأول ، ثم إنه سبحانه يخلق ذلك بقدرته سبحانه كما قال : ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ .

فالإيمان بالقدر يستلزم أموراً خمسة بها يتم الإيمان بالقدر :

الأول : الإيمان بعلم الله تعالى القديم السابق على وجود المقدرات .

الثاني : الإيمان بإرادته سبحانه لما قدّره ، ومشيئته لذلك .

الثالث : الإيمان بقضائه وحكمه بما سيكون .

الرابع : الإيمان بكتابته سبحانه لمقادير الأشياء قبل وجودها .

الخامس : الإيمان بأن جميع ما كان وما سيكون ، كل ذلك مخلوق بقدرته سبحانه .

وإليك بيان ذلك مع الأدلة :

أما الأول : فيجب على العاقل أن يعتقد أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً ، قال تعالى : ﴿ إن الله بكل شيء عليم ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وكان الله بكل شيء عليما ﴾ .

فهو سبحانه يعلم المخلوقات قبل أن يخلقها ، ويعلم كيف تكون بعد خلقها ، ويعلم ما لا يُخلق كيف يكون لو خلقه .

قال تعالى : ﴿ ألا يعلم مَنْ خَلَقَ وهو اللطيف الخبير ﴾ .

فعلمه بالمخلوقات سابق على خلقه ، وإلا فكيف يتصور خلقه إيّاه ؟ . .

فعلمه بالمخلوقات هو سابق على خلقها ، وقد خلقها على حسب علمه بها سبحانه .

وقال تعالى : ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ .

وقال تعالى في الكفار : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نردّ ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ .

فهو سبحانه يعلم أنهم لو ردوا إلى الحياة الدنيا لعادوا إلى كفرهم .

فهو سبحانه العليم بما كان ، وبما يكون ، وبما لا يكون كيف يكون لو كان .

وفي الحديث عنه ﷺ : « ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، أعلم أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً . . » الحديث .

وأما الثاني : وهو الإيمان بإرادته لما يخلقه :

قال تعالى : ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ فلا يوجد كائن إلا بإرادته سبحانه لذلك وبمشيئته ، قال تعالى : ﴿ ولو شاء ربك ما فعلوه ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ .

وأما الثالث : وهو الإيمان بقضاء الله تعالى : فالقضاء في اللغة هو الحكم ، ومعنى قضاء الله تعالى : هو الحكم الكلي الآلهي في أعيان الممكنات على ما هي عليه من الأحوال الجارية عليها في جميع العوالم .

قال تعالى : ﴿ إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿وإنْ منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ﴾ ، وفي (صحيح) مسلم في حديث طويل وفيه : قال ﷺ : « وإن ربي قال لي :

يا محمد إذا قضيت قضاءً فإنه لا يردّ . . » الحديث .

وقضاؤه ـ أي : حكمه على الأشياء بما تكون عليه ـ ذلك قائم على العدل الآلهي ، فلا ظلم ولا جور ، كما قال ﷺ في تعليمه دعاء الهم ورفع الكرب :

« اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماض فيّ حكمك ، عدل فيّ قضاؤك . . » الحديث .

وأما الرابع : وهو الإيمان بكتابته سبحانه لمقادير الأشياء قبل وجودها : فقد تقدم الدليل عليها من الكتاب والسنة .

وأما الخامس : وهو الإيمان بأن جميع ما كان وما يكون إنما هو بخلق الله تعالى :

قال تعالى : ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ هل من خالق غير الله ﴾ ؟!! .

وقال تعالى : ﴿ أروني ماذا خلق الذين من دونه ﴾ .

وهكذا العباد وأفعالهم وأحوالهم كلها بخلق الله تعالى ، قال سبحانه : ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ .

والخلق بمعنى : إيجاد الشيء من العدم ، أو من مادة سابقة ، هذا مما اختص الله تعالى به لا يشاركه فيه غيره ، كما قال تعالى : ﴿ هل من خالق غير الله ﴾ ؟!! .

وهذا هو الخلق التكويني الذي به الإيجاد ، قال تعالى : ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ .

فقد يكون من مادة مخلوقة سابقة ، كما قال سبحانه : ﴿ ومن آياته أن

خلقكم من تراب ﴾ الآية .

وقد يخلق الشيء من غير مادّة سابقة كما تقدم .

أما الخلق بمعنى التقدير والتصوير فقد يضاف للعبد ، قال تعالى : ـ لعيسى عليه السلام ـ ﴿ وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني ﴾ .

فالتصوير من عيسى ، وتكوين الخلق من الله تعالى .

وفي الحديث : « يقال للمصورين يوم القيامة أحيوا ما خلقتم » ـ أي : ما صورتم ـ .

وقد يراد بالخلق معنى الإختلاق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وتخلقون إفكاً ﴾ .

فائدة : ذكر علماء التفسير وعلماء الأصول والفقه أن إرادة الله تعالى جاءت في الكتاب والسنة على معنيين :

أحدهما : الإرادة الخلقية القدرية المتعلّقة بكل مراد ، فما أراد الله تعالى كونه كان ، وما لا فلا كون له ، وأحياناً يعبرون عنها بالإرادة التكوينية .

الثاني : الإرادة الأمرية التشريعية المتعلّقة بمحبة ما أمر به شرعاًورضيه ، ويحب سبحانه فعله من المأمور ويرضاه ، ويعبر عنها الفقهاء بالإرادة التكليفية ، كما نقل ذلك في (الدر المختار) عن العلماء المتقدمين .

قال العلامة الشاطبي في (الموافقات) : والإرادة على المعنيين : قد جاءت في الشريعة

فقال تعالى في الأولى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً ﴾ الآية .

وقال تعالى ـ حكاية عن نوح عليه السلام : ﴿ ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ ولكن الله يفعل ما يريد ﴾ .

وقال تعالى في الثانية : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم ﴾الآية .

وقال تعالى : ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ .

فلو كانت هذه الإرادة تكوينية قدرية لما حصل العسر لأحد ؛ ولتاب جميع العباد ـ وإنما هي إرادة تشريع فيها محبته ورضاه .

ثم قال الشاطبي رحمه الله تعالى : ولأجل عدم التنبه للفرق بين الإرادتين وقع الغلط في المسألة . اهـ ـ وأراد غلط المعتزلة .

وهكذا الكتابة منها قضائية قدرية ، قال تعالى : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ .

ومن هذا ما تقدم في الحديث : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء . . » الحديث .

وقد يراد بالكتابة : التشريعية المتضمنة محبة الله تعالى ورضاه لما كتبه قال

تعالى : ﴿ كُتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ﴾ الآية . أي : شرع ذلك لكم ، ولو كانت هذه الكتابة تكوينية قدرية لما تخلف أحد عن الصيام .

ومن ذلك تسمية الصلوات الخمس بالمكتوبات - أي : المفروضات شرعاً ، قال تعالى : ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباًموقوتاً ﴾ .

وهكذا القضاء : فقد يراد به الحكم الآلهي على الأشياء بما توجد عليه : قال تعالى : ﴿ إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ وهذا كما تقدم .

وقد يراد بالقضاء حكم الله التشريعي الذي فيه حبه ورضاه :

قال تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ - أي : شرع ذلك لكم وألزمكم بهذا الحكم . اهـ .

تنبيه وإعلام :

يجب على العاقل أن يعلم أن القضاء والقدر ، وأن كتابة المقادير السابقة ، لا ينفي ذلك اختيار الإنسان لأفعاله الإختيارية ،فإن القدر السابق ، وكتابة المقادير يشملان إختيار الإنسان -**بمعنى** : أنه سبحانه قدّر على الإنسان وأمر أن يُكتب عليه أن سوف يفعل كذا وكذا . . باختياره وإرادته ، فاختيار العبد للأعمال الاختيارية هو من جملة المقدّرات والمكتوبات ، والاختيار ثابت للمكلّف شرعاً وعقلاً وذوقاً ووجداناً .

فالشرع والعقل والذوق والوجدان كلها تثبت اختيار الإنسان :

أما ثبوت الاختيار شرعاً : فإن الشارع أثبت للإنسان حالة اختيار ورتّب المؤاخذة والمعاقبة على أفعاله التي تصدر عنه وهو مختار لها . .

كما أثبت الشرع للإنسان حالة اضطرار ، ورفع عنه المؤاخذة والمعاقبة

حال كونه فيها :

فقال تعالى : ﴿ حُرِّمتْ عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب ﴾ .

ثم قال تعالى بعد ذلك : ﴿ فمن اضطر في مخمصة ـ أي : مجاعة شديدة ـ غير متجانف لإثم ـ أي : غير مائل لإثم ـ فإن الله غفور رحيم ﴾ .

فبين سبحانه أنه حرم تلك المحرمات في غير حالة الإضطرار إليها ، أما إذا اضطر إليها بأن اشتد الجوع على الإنسان وخاف الموت على نفسه من شدة الجوع ؛ وليس هناك شيء يتناوله سوى تلك المحرمات ، فلا إثم عليه في تناولها لأنه مضطر إلى ذلك .

وقال تعالى : ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾ .

وقد نزلت هذه الآية ـ كما روى البيهقي وابن جرير ـ في عمار بن ياسر رضي الله عنهما حين أخذه المشركون فعذّبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا باللسان ؛ ولكن قلبه مطمئن بالإيمان .

فالمكرَه على محرم لا مؤاخذة عليه لأنه ليس له اختيار لذلك ، لأن المؤاخذة على الاختيار .

وقد فصل الفقهاء أقسام الإكراه وأحكامه المرخصة والموجبة .

وأما ثبوت الاختيار عقلاً : فإن كل عاقل يُفرّق بين الآثار الناشئة عن حركة البشر ، والآثار الناشئة عن حركة الشجر ، فإن وَخزةً تناله من قبل

البشر تُغضبه وتدفعه للانتقام ممن وخزه ، لأنه يعلم يقيناً أنها صدرت عن إنسان له اختيار وإرادة لذلك ، أما إذا مَرّ تحت شجرة يحرك الهواء أغصانها ، فوخزته ، أو جذبت طرف ثوبه أو خدشته ؛ فإنها لا تغضبه ولا يندفع للانتقام من الشجرة ، لأنه يعلم يقيناً أن الشجرة لا اختيار لها في ذلك .

فلو قلنا إن الإنسان لا اختيار له في أعماله الاختيارية للزم أن نعامل البشر في ذلك كالشجر .

أما ثبوت الإختيار ذوقاً وجدانياً : فإن الإنسان يعلم من نفسه أن له أعمالاًتصدر عنه باختياره وإرادته ، كذهابه ومجيئه ، وقيامه وقعوده ، ويعلم أيضاً أن له أعمالاً تصدر عنه ليس باختياره ، بل يكون مضطراً إليها ، ولا يستطيع دفعها ، كالعطاس ، والرعشة ، والتثاؤب ونحو ذلك .

وليس أحد من الناس يتساوى عنده صدور أعمال القيام والقعود وتناول الطعام والشراب ، مع العطاس والتثاؤب !! . . بل يفرق بينهما بذوق نفسه ووجدانه .

فاختيار الإنسان وإرادته للأمور ومشيئته لها ثابتة شرعاً وعقلاً ، وذوقاً ، وكل ذلك بخلق الله تعالى وإرادته ومشيئته كما قال ﷺ : « اعملوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خلق له » والتيسير يدل على التخيير ، فلم يقل ﷺ : فكل مجبور أو مكره لما خلق له ـ فهذا هو الجواب الجامع القاطع الذي جاء عن صاحب جوامع الكلم ﷺ .

فهو سبحانه خلق للإنسان اختياراً وإرادة ومشيئة ، فمن صفات الإنسان أنه مختار ومريد وذو مشيئة ، وقد وردت النصوص القرآنية والنبوية في نسبة الاختيار والمشيئة والإرادة للعبد :

قال تعالى : ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إنّ هذه تذكرة فمن شآء اتخذ إلى ربه سبيلا وما تشآؤن إلا أن يشآء الله إنّ الله كان عليماً حكيماً ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ﴾ فجميع أفعال العباد هي بخلق الله تعالى ومشيئته وما يشاؤون شيئاً إلا أن يشاءه الله تعالى ، فإذا شاءه شاؤوه .

فإن قيل : كونُ اختيار الإنسان وإرادته ومشيئته مخلوقاً لله تعالى ، وأن جميع ذلك بإرادة الله تعالى ومشيئته ، فإنه يلزم من ذلك أن صفة اختيار العبد ومشيئته وإرادته ما لها حقيقة وجودية ، ولا أثر لها من الاعتبارات ، وإنما هو ضرب من التخيّل أو التوهم !؟؟ . .

فالجواب عن ذلك : أن هذا اللازم باطل ، لأنه إذا كان يلزم من خلق الله تعالى لاختيار الإنسان ومشيئته وإرادته؛ وأن ذلك بمشيئة الله وإرادته ؛ إذا كان يلزم من هذا أنْ لا اختيار للإنسان ولا مشيئة ولا إرادة له ، وإنما هي أوهام ، فيجب أن يجري هذا اللزوم في بقية صفات الإنسان التي آتاه الله تعالى إيَّاها ، وخلقها فيه ، فإن المشيئة هي إحدى صفات الإنسان ، بل يجري هذا اللزوم في أصل وجود الإنسان الذي أنعم الله تعالى عليه بإيجاده وحياته ، وسمعه وبصره ، فإن من صفات الإنسان أنه موجود حيٌّ سميع بصير ، ولكن بجعل الله تعالى وخلقه ذلك ، وبإسماعه تعالى للعبد وتبصيره ـ قال تعالى في الإنسان: ﴿فجعلناه سميعاً بصيراً﴾ فسمع العبد وبصره موجودان حقيقيّان ، مخلوقان بخلق الله تعالى ومشيئته ، ومع ذلك فالعبد

سميع بصير حقاً ، وإلاّ فما الفرق بين السميع البصير وبين الأصمّ الأعمى .

كما وأن الإنسان هو حيّ ناطق حقاًبإحياء الله تعالى وإنطاقه له ، وبمشيئته سبحانه وإرادته ، ولا يصح أن يقال إن حياته ونطقه لا وجود لهما ولا اعتبار بهما لأنهما بخلق الله تعالى وإرادته ومشيئته ، لا يقال ذلك لأننا نقول إذاً :

ما الفرق بين الحيّ والميت ؛ وبين الناطق وغير الناطق ؟؟ وبين من يسمع ويبصر وبين من لا يسمع ولا يبصر ؟؟!!!.

بل إن الإنسان موجود بإيجاد الله تعالى وإرادته ، ولا يلزم من ذلك أنْ لا وجود للإنسان ، بل هو موجود حقاًوجوداًإمكانيا بإيجاد الله تعالى له ، وبمشيئته وإرادته وإلاّ : فما الفرق بين الإنسان بعد أن أُوجد ، وبينه قبل أن يوجد حين كان معدوماً ؟.

قال تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ ـ أي : قد أتى على الإنسان زمان واسع لم يكن شيئاً موجوداًفي عالم الكون الشهودي ، حتى يذكر باسمه أو بوصفه ، بل كان معدوماً ، إذاً فلنفكر مَنْ أوجده ؟ جاء الجواب : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة ﴾ الآية .

فالحق أن الإنسان موجود حيٌّ ناطقٌ ، سميعٌ بصيرٌ ، مُريدٌ مختارٌ ، ذو مشيئة إلى ما هنالك من بقية الصفات ، وكل ذلك بخلق الله تعالى وإرادته ومشيئته سبحانه .

وقد جاءت التكاليف الشرعية على نسبة ما أعطى الله تعالى الإنسان من القُوى الإدراكية والجسمية ، فلم يكلفه الله تعالى فوق طاقته ؛ وفوق ما آتاه .

قال تعالى : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ولا نكلف نفساً إلا وسعها ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ ـ أي : إلا ما تسعه قدرتها ، لأن التكليف لايَرِد إلا بفعل يقدر عليه المكلف ، أو المراد بوسعها : ما دون مدى طاقتها بحيث يتيسّر عليها لقوله تعالى : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج ﴾ ـ أي : مختلطة من ماء الرجل وماء المرأة ، كما بيّنه علماء التفسير ، ﴿ نبتليه ﴾ أي : خلقناه لنختبره بالتكاليف الشرعية : الأمر والنهي ، ﴿ فجعلناه سميعاً بصيراً ﴾[1] أي : وعاقلاً مفكراً فما ابتليناه واختبرناه بالتكاليف الشرعية إلا بعد ما أعطيناه ما يخوِّله ذلك من صفات السمع والبصر ، والإرادة والاختيار ، وما هنالك من العقل والمدارك ، فبعد ذلك كلفناه على نسبة ما أعطيناه ، ليتمكن من القيام بموجب التكاليف الشرعية .

فلم يخلق الله تعالى الإنسان عبثاً أي : لعباً لا لحكمة ، كما قال تعالى : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ ؟!! .

ولم يخلق الإنسان ويتركه سُدى ، قال تعالى : ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ ـ أي : مهملاً ، بل خلقه وتعهّده بالتكاليف التي فيها سعادته ومصلحته في الدنيا والآخرة ، فبعد ما أعطاه العقل والمدارك ، كلفه بالأمر والنهي ، وكانت نتيجة ذلك أن منهم البر ، ومنهم الفاجر ، ومنهم الطائع ، ومنهم العاصي ، ومنهم المؤمن الشاكر ، ومنهم المنكر الكافر ، ومنهم الصالح ، ومنهم الباغي ، وجميع هذه الأعمال التي اتصفوا بها قد نسبها

---

(١) وإنما خص السمع والبصر بالذكر لأنهما السببان العظيمان في إيصال المعلومات إلى دائرة العقل ومحيط الفكر ، ليعقلها العقل ويجول فيها الفكر ، ولذلك يسقط التكليف عن الذي خلق أصم وأعمى ، فلا يكلف إلا مَن كان سليمَ إحدى الحاستين : السمع أو البصر .

الله تعالى لعامليها نسبة وجودية حقيقية ، ولذلك رتب عليها الثواب لمن أطاع ، والعقاب لمن عصى .

ومِنْ ثَمَّ يجب الاعتقاد أن نسبة الأفعال والأقوال التي نسبها الله تعالى لعباده ، وإضافة المُضافات إليهم ، تلك النسب والإضافات لها حقائق وجودية وليست هي وهمية ولا خيالية .

قال تعالى : ﴿ ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور ﴾ ؟ .

وقال تعالى : ﴿ ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ﴾ - أي : وإنا لصادقون فيما قلنا إنهم بَغَوْا ، وإنَّ جزاءنا هو أمر حق وصدق .

وهكذا كما قال سبحانه : ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾ - أي : حقيقة لا وهماً .

وقال تعالى : ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ ، فنسبة الكسب والاكتساب إلى نفس الإنسان نسبة وجودية حقيقية ، لأن خبر الله تعالى هو صدق وحق ، كما هو الواقع ، ونسبة العمل والفعل ، والكفر والفسق ، والظلم والبغي ، إلى ما وراء ذلك مما أضافه الله تعالى ، ونسبه لعباده كلها حقٌّ وحقيقة ، ولذلك كانت الجنة والنار حقاً ، كما قال ﷺ : « والجنة حق والنار حق . . . » الحديث .

وقال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ وُقِفوا على ربهم قال : أليس هذا بالحق ؟ قالوا : بلى وربنا قال : فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ .

وقال تعالى في أصحاب النار : ﴿ فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴾ .

بل لو لم يكن للإنسان اختيار في عمل الطاعات والمعاصي ، والكفر

والإيمان ، لو لم يكن له اختيار ذلك ، لما استحق الكافر العذاب ، ولما استحق المؤمن الثواب والجنة ، لأن هذا آمن وعمل صالحاً بدون اختيار له ، بل انساق مضطراً إلى الإيمان والعمل الصالح ـ فَعَلامَ يثاب ، ولا اختيار فيما عمل ؟ وعلام يشكر في حين لا اختيار له في ذلك ، مع أن الله تعالى يقول : ﴿ إنَّ هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكوراً ﴾ .

وذلك الكافر أيضاً يكون قد كفر وعمل المعاصي بدون اختيار له ، بل انساق مضطراً إلى كفره ومعصيته ، فعلام يعذب ولا اختيار له فيما عمل ؟! وعلام يعاتب وينكر عليه ويلام ، مع أن الله تعالى قد عاتبهم ووبخهم قال تعالى : ﴿ أَلَمْ أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ .

وإذا كان الأمر كذلك فقد ضاعت حكمة التشريع الآلهي ، وضاعت حكمة الله تعالى في خلقه للجنة ثواباً ، وفي خلقه للنار عقاباً ، وضاعتْ حكمة إرساله الرسل صلوات الله تعالى عليهم : هداة إلى الخير ، ومحذِّرين من الشرِّ ، وحينئذٍ تكون قد ضاعت حكمة الله تعالى في إنزاله الكتب الآلهية ، بل ضاعتْ حكمة خلق الدنيا والآخرة ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وإلى هذا كله ينبِّه الله تعالى عباده بقوله : ﴿ أمْ حسب الذين اجترحوا السيئات ـ أي : فعلوا السيئات ـ أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون . وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتُجزى كل نفسٍ بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ .

فالله تعالى لا يظلم عباده ، وإنما يجزيهم بما كسبوه ، وكسبهم له حقيقة وجودية ، يترتَّب عليها الجزاء الحق .

فالله تعالى خلق العالَم بالحق ، ولا بدَّ أن ينتهي أمره إلى الحق ، ليقضي

الله تعالى الملك الحق بين عباده بالحق وهم لا يظلمون .

قال تعالى : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون ﴾ .

وقال تعالى مخبراً عن أهل الجنة وأهل النار ، بعدما دخل أهل الجنة الجنة ـ اللهم اجعلنا منهم بجاه حبيبك الأكرم سيدنا محمد ﷺ ـ وبعدما دخل أهل النار النار ـ أعاذنا الله تعالى منها ـ قال سبحانه : ﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحابَ النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ قالوا : نعم فأذَّن مؤذِّنٌ بينهم أن لعنة الله على الظالمين ﴾ .

أي : لأنهم ظلموا أنفسهم ، فعرَّضوها لعذاب النار ولم يرحموها ، كما أنهم ظلموا عباد الله تعالى ، فإن شأن من ظلم نفسه الكريمة عليه ـ من شأنه أن يظلم غيره ، وأيَّ ظلم أعظم من الكفر ؟ قال تعالى : ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾ .

وهكذا بيَّن الله تعالى في كثير من الآيات القرآنية : أن تعذيبه للكفار ليس هو بظلم ، وإنما هو بالحق ، فإنهم هم الذين ظلموا أنفسهم ، لأن الله تعالى أعطاهم العقل والاختيار ، وأرسل فيهم الرسل ، فجاؤوهم بالبينات والحجج القاطعات ، فكذبوا وعاندوا ، وأعرضوا بعدما ظهر لهم الحق ، فهم كافرون ـ أي : ساترون وكاتمون للحق بعدما ظهر لهم .

قال تعالى : ﴿ إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين . ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال : إنكم ماكثون لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنَّم زُمراًحتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خَزَنتها : أَلَمْ يأتكم رسلٌ منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا : بلى ﴾ ـ أي : جاءت رسلنا، وبينوا لنا وأنذرونا من العذاب يوم القيامة ـ فلم يحتجوا بتقدير الله تعالى عليهم ذلك ، لأن قدره سبحانه ليس حجة لهم ، وليس عذراً لهم ، ولو كان عذراً لقبله الله تعالى ، لأنه سبحانه يقبل العذر الصحيح كما جاء في الحديث الصحيح : «لا أَحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل».

وقال تعالى: ﴿ ولكن حقَّتْ كلمة العذاب على الكافرين ﴾ أي: فَحق العذاب عليهم لأنهم كفروا بعد ظهور الحق.

فاحتج عليهم سبحانه بعملهم وهو كفرهم ، ولم يحتج عليهم بقضائه عليهم ، وهذا كما قال تعالى في أهل النار : ﴿ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل ﴾ .

فجاءهم الجواب من الله تعالى ﴿ أَوَلَمْ نعمِّرْكم ﴾ ـ أي : نؤتكم عمراً متسعاً ﴿ أَوَلَمْ نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير . فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾ .

* * * *

عالم الروح

عالم اللوح ، وأم الكتاب ، والذكر الأول :

هذه الثلاثة جاء الخبر عنها في القرآن الكريم ، قال الله تعالى : ﴿ بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ﴾ .

فأخبر سبحانه أن هذا القرآن هو مكتوب في اللوح المحفوظ ، وسُمِّيَ بالمحفوظ : لأنه محفوظ عن الزيادة والنقص ، والتبديل والتغيير ، أو : لأنه محفوظ عن الاطلاع عليه إلا لمن أطلعه الله تعالى .

وهذا كما أخبر سبحانه عن كتابة القرآن في أم الكتاب قال سبحانه : ﴿حم والكتاب المبين إنا جعلناه قرآناًعربياًلعلكم تعقلون وإنه في أمّ الكتاب لدينا لعليٌّ حكيم ﴾ .

روى الترمذي عن عبد الواحد بن سليم قال : قدمت مكة فلقيت عطاء بن أبي رباح فقلت له : يا أبا محمد إن بالبصرة قوماً يقولون : لا قدر - أي : ليس هناك قدر سابق على وجود الأشياء .

فقال : يا بُنيَّ أتقرأ القرآن ؟ .

قلت : نعم .

فقال : فاقرأ الزخرف .

فقرأت : ﴿حم والكتاب المبين إنّا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون

وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم ﴾ .

ثم قال : أتدري ما أمَّ الكتاب ؟ .

قلت : لا .

قال : فإنه كتاب كتبه الله قبل أن يخلق السماوات والأرض فيه : إن فرعون من أهل النار ؛ وفيه : ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ﴾ .

قال عطاء : ولقد لقيت الوليد بن الصامت صاحب رسول الله ﷺ فسألته ما كان من وصية أبيك لك عند الموت ؟

فقال لي : دعاني فقال لي : يا بنيَّ اتق الله ، واعلم أنك لن تتقي الله حتى تؤمن بالله ، وتؤمن بالقدر كلِّه : خيره وشرِّه ، وإن متَّ على غير هذا دخلتَ النار .

إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب ، قال : وما أكتب ؟ قال : اكتب القدر ـ فكتب ما كان وما هو كائن إلى الأبد »[1] .

وقد كُتب هذا القرآن الكريم في أمِّ الكتاب كما تقدم في آيات من أول سورة الزخرف .

فهذا القرآن أمره كبير ، وشرفه عظيم ، عالي الكتاب ، رفيع الجناب ، يجب أن يكرم ويعظم ، لأن الله تعالى أكرمه وعظمه ، حيث وصفه بأنه ﴿ عليٌّ حكيم ﴾[2] .

---

(١) انظر (جامع الأصول) ١٠/١٠٦ .

(٢) سورة الزخرف .

واللوح المحفوظ قد كتب فيه القلم جميع المقادير :

روى الطبراني بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله تعالى خلق لوحاً محفوظاً من درَّة بيضاء ، صفحاتها من ياقوتة حمراء ، قلمه نور ، وكتابه نور ، لله في كل يوم ستون وثلاثمائة نظرة ـ وفي رواية لحظة ـ : يخلق ، ويرزق ، ويميت ، ويُحيي ، ويعزُّ ، ويذلُّ ، ويفعل ما يشاء »[1] .

قال العلامة المناوي رحمه الله تعالى : وبين النبي ﷺ به ـ أي بقوله : « قلمه نور وكتابه نور » ـ أن اللوح والقلم لا كألواح الدنيا المتعارفة ، ولا كأقلامها ، وكذا الكتابة ، قال : وليس في هذا الخبر ذكر طول اللوح وعرضه ، ولا طول القلم .

وفي رواية للطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما : « أن عرضه ما بين السماء والأرض » .

قال المناوي : **وأما القلم** ففي رواية لأبي الشيخ عن ابن عمر رضي الله عنهما : (أنّ طوله خمسمائة عام) . اهـ .

وأما أم الكتاب : فقد ذكره تعالى في أول سورة الزخرف كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ وإنه في أمّ الكتاب لدنيا لعليٌّ حكيم ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ يمحو الله ما يشآء ويثبت و عنده أم الكتاب ﴾ .

---

(١) قال في (فيض القدير) : ورواه الحاكم والحكيم ، قال الهيثمي : ورواه الطبراني من طريقين أحدهما رجاله ثقات . اهـ
قال العلامة المناوي : ولم يصب ابن الجوزي حيث حكم عليه بالوضع . اهـ
وعزاه في (الدُر المنثور) إلى البزار وابن جرير ، والطبراني ، وأبو الشيخ ، والحاكم ، وابن مردويه ، وأبي نعيم في (الحلية) والبيهقي في (الأسماء والصفات) بزيادة : « عرضه ما بين السماء والأرض » .

وفي (صحيح) البخاري من حديث المعراج : « فقال الجبَّار تبارك وتعالى : يا محمد .

قال : لبيك وسعديك .

قال : إنه لا يبدَّل القول لديَّ ، كما فرضت عليك في أم الكتاب ، قال : فكل حسنة بعشر أمثالها ، فهي خمسون في أمّ الكتاب ، وهي خمس عليك » .

وأما الذكر الأول :

فقد قال الله تعالى : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ .

قال الحافظ ابن كثير : قال مجاهد : الزبور : الكتب بعد الذكر[1] ، والذكر[2] : أمُّ الكتاب عند الله تعالى .

واختار ذلك ابن جرير رحمه الله تعالى ، وكذا قال زيد بن أسلم : هو الكتاب الأول .

وقال الثوري : هو اللوح المحفوظ .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الزبور : الكتب التي أنزلت على الأنبياء ، والذكر : أمُّ الكتاب الذي يكتب فيه الأشياء قبل ذلك . اهـ

فسمي الذكر لأنه كتاب ذُكِرَ فيه كل شيء سيكون .

يعني : أنَّ المراد بالزبور جنس الكتب السماوية النازلة على الأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه على نبينا وعليهم أجمعين ، هذا وإن أكثر أهل

---

(١) أي : بعد الذكر الأول ، وهذا من باب إطلاق اللفظ المفرد لإرادة الجنس .
(٢) أي : والمراد بالذكر هنا الذكر الأول ، الذي هو أمّ الكتاب .

العلم على أن أمّ الكتاب ، واللوح المحفوظ ، والذكر ، هي لمسمًّى واحد ، يقال له : **أم الكتاب** لأنه أصل الكتب القضائية كلها ومرجعها ، وأمُّ الشيء : أصله ومرجعه ، **ويسمى اللوح المحفوظ** لحفظه من التبديل والتغيير والزيادة والنقص ، **ويُسمىً الذكر** لأنه ذُكر فيه كل شيء ، كما جاء في (صحيح) البخاري و (سنن) الترمذي عن عمران بن الحصين رضي الله عنهما قال : دخلت على رسول الله ﷺ المسجد ، وعنده ناس من بني تميم .

فقال : « اقبلوا البشرى يا بني تميم » فقالوا : بشّرتنا فأعطنا . . ـ مرتين ـ .

فتغيّر وجهه ﷺ .

ثم دخل عليه ناس من أهل اليَمَن .

فقال ﷺ : « اقبلوا البشرى ياأهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم » .

فقالوا : قبلنا يا رسول الله .

ثم قالوا : جئنا لنتفقّه في الدّين ، ولنسألك عن أول هذا الأمر ـ أي : العالم ـ ما كان ؟

فقال ﷺ : « كان الله تعالى ولم يكن شيء قبله ـ وكان عرشه على الماء ، ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر كل شيء »[1] .

وهذا قوله تعالى : ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ﴾ .

(١) فبناءً على أن **الواو** في : « وكتب في الذكر كل شيء » **هي للحال** ـ أي : والحال وقد كتب في الذكر كل شيء ، أي : قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، كما تقدم في حديث مسلم ـ فيكون هذا الذكرُ الذكرَ الأول ؛ **وبناءً على أن الواو للعطف** على خلق السماوات والأرض فهو الذكر الثاني ، لأن كتابة المقادير لها مراتب متعددة مرتبة ، كما ذكرنا ذلك في كتابنا : (الإيمان بالملائكة) فارجع إليه .

يعني : أن كتابة جميع ما هنالك من كليات وجزئيات ، وظاهرات وخفيّات ، ومن حسّيات ومعنويات ، ومن حركات وسكنات ، كتابة ذلك وجمعه في ذلك الكتاب : هو على الله تعالى يسير .

وذهب بعض العلماء إلى المغايرة بين : أمّ الكتاب ، واللوح المحفوظ ؛ والذكر الأول ، وأن المحو والإثبات يأتي على اللوح المحفوظ ، وتفصيل الكلام على ذلك ليس موضعه هنا ، وإنما يبحث عنه في موضوع القضاء والقدر .

والمقصود أن القرآن الكريم أخبرنا عن تلك العوالم الغيبية الكبرى .

قال عبد الله : والظاهر ـ والله تعالى أعلم ـ أن أمّ الكتاب هو أول الكتب القضائية ، وهو عنده سبحانه فوق العرش ، وينزّل الله تعالى منه إلى اللوح المحفوظ ما شاء ، ويأمر القلم بكتابة ذلك ، فإذا نزلت الأمور إلى اللوح المحفوظ وكتبت : لاحت ـ أي : ظهرت ـ للملائكة الموكلين باللوح ، فيظهر ذلك للرؤساء الأربعة : جبريل وإسرافيل وميكائيل وعزرائيل ، كل واحد يلوح له ما وكل إليه تنفيذه ، ومنه تتنزل الأوامر إلى من دونهم من الملائكة في السماوات ، ويدل على أن أمّ الكتاب فوق العرش ، قوله تعالى : ﴿ وإنه في أمّ الكتاب لدينا لعليٌّ حكيم ﴾ .

وجاء ذلك مُصرَّحاًبه في حديث (الصحيحين) : « لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت غضبي » . الحديث برواياته .

وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ ، والله تعالى أعلم بما هنالك .

عالم سدرة المنتهى

عالم سدرة المنتهى : قال الله تعالى ﴿ ولقدْ رآهُ نَزْلَةً أُخْرى . عند سِدْرةِ المُنْتَهى . عندها جنةُ المأوى . إذْ يَغْشَى السِّدْرةَ ما يَغْشَى ﴾ .

وهذا عالم السدرة دون عالم الكرسي ، وفوق السماوات السبع .

والسدرة في اللغة العربية هي : واحدة السدر ، وهي شجر النَّبق ، وسمي هذا العالم بالسدرة لأنه على هيئة الشجرة ، محيطة بالسماء السابعة ، كما وصفها النبي ﷺ في حديث المعراج حيث قال ـ كما في (الصحيحين) وغيرهما ـ : « ثم ذُهِبَ بي إلى سِدْرة المنتهى فإذا أوراقُها كآذانِ الفِيلَة ، وإذا ثَمَرُها كالقِلال ، فلما غَشِيهَا من أمر الله تعالى ما غَشِيها تغيَّرتْ ، فما مِن خلقِ الله تعالى أحد يستطيع أن يصفَها من حسنها » الحديث .

وفي رواية للإمام أحمد وغيره : « ثم رُفِعتُ إلى سدرة المنتهى فإذا نبقُها مثلُ قِلال هَجَر ، وإذا ورقُها مثلُ آذانِ الفِيَلة ، فقال : هذه سدرة المنتهى ، قال : وإذا أربعة أنهار : نهران باطنان ونهران ظاهران » الحديث .

وجاء في رواية للبيهقي ـ كما أوردها الحافظ ابن كثير ـ وفيها : قال ﷺ : « ثم رُفِعتُ إلى سِدْرة المنتهى فإذا كلُّ ورقة منها تكاد تغطِّي هذه الأمة » .

وإنما وصفتْ السدرة بالمنتهى فهي سدرة المنتهى لأنها يَنتهي إليها ما يَعْرُج من الأرض ، ـ أي : مِن تحتها ، وينتهي إليها ما يَهبط من فوقها ، كما جاء

ذلك موضحاً في الحديث الذي رواه الإمام أحمد ـ وهو في (صحيح) مسلم ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : (لما أُسْرِي برسول الله ﷺ انتهى إلى سدرة المنتهى ، وهي في السماء السابعة : إليها ينتهي ما يَعرج من الأرض فيقبض منها ، وإليها يَنتهي ما يَهبط من فوقها فيقبض منها) .

﴿ إذ يَغْشَى السِّدرةَ ما يَغْشَى ﴾ قال : (فَرَاشٌ من ذهب) .

قال : (وأُعطيَ رسول الله ﷺ ثلاثاً : أعطي الصلوات الخمس ، وأُعطي خواتيمَ سورة البقرة ، وغُفِر لمن لا يشرك بالله شيئاً من أمته ـ المُقْحِماتُ) أي : الكبائر، وذلك بعد شفاعة النبي ﷺ .

* * * *

عالم الجنة

عالم الجنة :

وقد ذكر القرآن الكريم عالم الجنة ، وبينَّ أوصافها ، وما فيها من ألوان النعيم الجسماني ،والروحاني ، والقلبي ، والعقلي ، وذكر مراتب أهلها وأوصافهم ، وبينَّ مكانها العالي وأنها عند سدرة المنتهى فوق السماء السابعة :

قال الله تعالى : ﴿ ولقدْ رآه نَزْلَةً أُخرى . عند سِدْرةِ المُنْتَهى . عندها جنةُ المأوى ﴾ .

وقد رأها ﷺ ودخلها ليلة المعراج ، كما صحَّ ذلك في الأحاديث النبوية المتفق عليها .

والكلام على عالم الجنة مفصلاً تجده في كتاب لنا واسع في ذلك إن شاء الله تعالى .

* * * *

البيتُ المعمُور

البيت المعمور :

وقد ذكر القرآن الكريم البيتَ المعمور ، قال تعالى : ﴿ والطُّوْرِ . وكتابٍ مسطور . في رَقٍّ مَنْشُورٍ والبيتِ المعمور ﴾ . وهو في السماء السابعة ، وهو قِبلة أهل تلك السماء .

وقد رآه ﷺ ليلة المعراج ووصفه بقوله : « ثم رُفِعَ لي البيتُ المعمور ، يَدخُله كلَّ يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم » .

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى : يعني ـ أن الملائكة ـ يتعبَّدون فيه ويطوفون به ، كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم ، كذلك البيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة ، ولهذا وجد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام مسنِداً ظهرَه إلى البيت المعمور ، لأنه باني الكعبة الأرضية ، والجزاء من جنس العمل . اهـ .

وقال قتادة والربيع بن أنس والسدي : ذُكر لنا أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه : « هل تدرون ما البيت المعمور » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : « فإنه مسجد في السماء بحيال الكعبة ، لو خَرَّ ـ أي : البيت المعمور ـ لخرَّ ـ أي : سقط ـ على الكعبة ، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك ، إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم » .

وروى ابن جرير وغيره أن رجلاً سأل أمير المؤمنين علياً كرم الله وجهه عن البيت المعمور .

فقال : بيت في السماء يقال له : الضُراح وهو بحيال الكعبة من فوقها ، حرمته كحرمة البيت ـ أي : الكعبة ـ في الأرض ، يصلي فيه كل يوم سَبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون فيه أبداً ، ـ أي لأن الدَوْر لغيرهم فلا يلحقهم طيلة الدهر إلا أن يدخلوه مرة واحدة .

وفي هذا دليل على كثرة الملائكة عليهم السلام .

* * * *

عالم السماوات

لقد ذكر الله تعالى السماوات السبع في آيات كثيرة من القرآن الكريم لمناسبات متعددة ، فبيَّن سبحانه في تلك الآيات ـ المادة التي خَلَق منها السماوات ، كما بين عددها ، وذكر سبحانه علوَّها وسَعَتها ، وذكر سبحانه عِظَم خلقها ، وحسن بنائها ، وذكر سبحانه عجائب شمسها وقمرها ، وكواكبها ، ودورانها ، وطلوعها ، وغروبها ، واختلاف مشارقها ، ومغاربها ، كما دعا سبحانه في القرآن الكريم العبادَ إلى النظر في عجائب السماوات ، وأرشد العباد إلى الاستدلال بها على عظمةِ قدرةِ بانيها ، وحكمة رافعها ، وسعة علمه سبحانه ، كما بين سبحانه وجوهاً من الحُجج في خلق السماوات على حقِّيَّة ربوبيته ، وعلى وحدانيته ، وعلى حقِّية ما أخبر به من المعاد ، وحشر العباد ، وقدرته على ذلك ، كقوله تعالى : ﴿ بلْ عَجبوا أنْ جاءهمْ منذرٌ منهمْ فقال الكافرون : هذا شيءٌ عجيب . أئذا مِتْنا وكُنَّا تراباًذلك رَجْعٌ بعيد ﴾ فذكر سبحانه إنكار الكفار للحشر واستبعادهم القدرةَ على ذلك ، ثم أقام عليهم الحجة بقدرته على ذلك في قوله : ﴿ أَفَلَمْ ينظروا إلى السماء فوقَهم كيف بَنَيْناها وزيَّنَّاها وما لها من فُروج ﴾ .

أما إخباره سبحانه عن المادة التي خَلَق منها السماوات ، فقد قال سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الذين كفروا أن السماواتِ والأرضَ كانتا رَتْقاًفَفَتَقْناهما ، وجَعَلْنا من الماء كلَّ شيء حيٍّ أفلا يُؤْمنون ﴾ .

فكانت السماوات والأرض رتقاً ـ أي : جملة مُجْمَلة في الماء الذي قال فيه : ﴿ وكان عَرشُه على الماء ﴾ ففتقهما سبحانه أي : فصل وجودهما :

أولاً : إلى مرحلة تبخير الماء وتكثيفه ، فمن بخار ذلك الماء اللطيف خلق السماوات ، وهذا البخار هو الدخان المذكور في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إلى السماء وَهِيَ دُخَان ﴾ الآية .

وخلق سبحانه من كثيف ذلك الماء الأرضَ والأجرام الكوكبية ، ثم فصلهما إلى سبع سموات وسبع أرضين ، ثم أمطر السماء ، وأنبت الأرض .

ومما يدل على أن المراد بقوله تعالى : ﴿ كانتا رَتْقاً ﴾ أي : كانتا جُملةً في الماء ، يدل على ذلك قوله تعالى في آخر الآية : ﴿ وجَعَلْنا من الماءِ كلَّ شيءٍ حيّ ﴾ .

فقد روى الامام أحمد في (مسنده) عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قلت يا رسول الله إني إذا رأيتك طابتْ نفسي وقرَّتْ عيني فأخبِرني عن كل شيء ؟

فقال ﷺ : « يا أبا هريرة كلُّ شيء خُلِق من ماء » فهذا الحديث الشريف بيان للآية الكريمة كما تقدم أن في أحاديثه ﷺ بياناً للقرآن الكريم .

وهذا التفصيل الذي ذكرناه حول الآية الكريمة هو الذي جرى عليه حبر الأمة ابن عباس وغيره من الصحابة ، والسلف والخلف من أهل العلم والمعرفة ، وفي ذلك يقول بعض العارفين رضي الله عنهم أجمعين : تعال فانظر إلى هذا البناء العظيم ، الشديد الواسع ، الذي رفع الله تعالى سَمْكه أعظم ارتفاع ، وزيَّنه بأحسن زينة ، وأودعه العجائب والآيات ، وكيف ابتدأ خلقه من بخار ارتفع من الماء ، وهو الدخان المذكور في قوله تعالى :

﴿ ثُم استوى إلى السماءِ وهيَ دُخَان ﴾ الآية . اهـ .

وأما بيان عدد السماوات : فقد قال الله تعالى : ﴿ الله الذي خَلَق سبعَ سمواتٍ ومن الأرضِ مِثْلَهن يَتَنَزَّلُ الأمر بينهنَّ لِتَعْلَموا أنّ الله على كلِّ شيء قدير ، وأنّ الله قد أحاط بكل شيء عِلْماً ﴾ .

فخلق الله تعالى سبع سماوات وسبع أرضين ، وبين أن الحكمة في ذلك هي أن يُعلَم بقدرته على كل شيء ، وأن يُعلَم بإحاطة علمه بكل شيء .

فالعالَمُ علامةٌ على خالقه وصانعه ، وبه تُعلَم صفات خالقه وصانعه جل وعلا .

وقد بين سبحانه أن السماوات هي سبعُ طِباق ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كيفَ خَلَق الله سبعَ سمواتٍ طِباقاً ﴾ ـ أي : متطابقةً بعضها فوق بعض لا تنفكُّ عن طبقتها .

فلا يجوز تأويل سبع سموات طباق إلى معنى آخر ، فإن القرآن أُنزل بلسان عربي مبين ، وكيف يسوغ تأويل طبقة السماوات السبع إلى معنى آخر ، وقد جاء في أحاديث المعراج الواردة في (الجوامع والسنن والمسانيد) أن النبي ﷺ لما عُرِج به إلى السماوات استفتح له جبريل عليه السلام أبواب السماوات سماءً بعد سماء ، وصَعِد فيها سماء فوق سماء ، فهي طباق قطعاً .

ومن هنا يُعلم الإنسان علم اليقين الجازم الذي لا يُداخله الشك قطعاً : أن تأويل السماوات السبع بالكواكب السيارات السبع ـ هذا افتراءٌ صريحٌ على الله تعالى ، وعلى رسوله ﷺ ، وهو كلام باطل مردود من عدة وجوه :

أولاً : أن السماوات هي سبع بالنصّ القرآني القاطع ، الذي ليس فيه احتمال ولا إجمال ، وأما قضية السيارات من الكواكب فليست هي سبعة قطعاً ، بل ثبت عند علماء الفلك أن هناك سيارات من الكواكب أكثر من

سبعة .

ثانياً : أن السماوات السبع هي طباق ، كما أخبر الله تعالى ، وكما أخبر عن ذلك رسول الله ﷺ لما عاين ليلة المعراج ، أما الكواكب فليست هي طباقاً قطعاً ، بل هي هنا وهناك متباعدة .

ثالثاً : أن القرآن أخبر أن هذه الكواكب هي زينة للسماء الدنيا ، ومن المعلوم لغة وعرفاً وعقلاً أن زينة السقف غير السقف ، قال الله تعالى : ﴿ إنا زيَّنَّا السماءَ الدنيا بزينةٍ الكواكب ﴾ فالزينة هي غير المزيَّن قطعاً .

رابعاً : إننا نقول لمن يتأول السماوات السبع الطباق الوارد ذكرها في القرآن الكريم ـ نقول لمن يتأوَّلُها بأنها الكواكب السيارة السبعة : تعالَ فلْنختَبرْ رجلاً صادقاً أميناً ذا عقل كبير ، وفكرة واسعة ، وذا حكمة سديدة ، وعلم كبير ، وذا شجاعة ، وذا مقدرة وقوة ، قد أُعطيها ومُكِّن بها أن يخترق أجواء الفضاء ، وتفتح له أبواب السماء ، ويدخل السماوات واحدةً بعد واحدة ، ويكشفَ لنا عن تلك السماوات ، وعن عددها ، وما فيها من عجائب ، ومخلوقات ، وملائكة ، وأرواح ، وروحانيات .

نقول ذلك لأن العيان هو يكشف عن حقيقة الأمر ، ولا شك أن الخصم المخالف المدَّعي أن السماوات السبع هي الكواكب السبعة ـ لا شكَّ أنه يوافق على ذلك .

فنحن نقول : والله العظيم ما رأينا ولن نرى وما رأتِ الناس ولن ترى أصدقَ من سيدنا محمد رسول الله ﷺ ، ولا أعقل منه ، ولا أعلم منه ، ولا أشجع منه ، ولا أعظم حكمة ، وأوسع فكرة منه ، ولقد شهدتْ له أعداؤه بصدقه ، وأمانته ، وعفَّته ، ونزاهته ، فهذا مختار وموثوق لدى الجميع ، فهذا السيد المصطفى ﷺ قوّاه الله تعالى ومكَّنه من اختراق الفضاء

والانتهاء إلى عالم السماوات السبع ، وفُتحتْ له أبوابها ، ودخلها واحدة بعد واحدة ، ورأى ما فيها من الملائكة والأنبياء والمرسلين ، وما هنالك من الآيات ، وما فيها من عجائب المخلوقاتِ وكان ذلك ليلة معراجه الثابت بنص القرآن الكريم ، حيث يقول سبحانه : ﴿ ولقدْ رآه نَزْلَةً أُخْرى . عند سِدْرة المنتهى . عندها جنةُ المأوى ﴾ فهذه الآية الكريمة صريحة ، وهي نصٌ على أنه ﷺ وصل إلى سدرة المنتهى التي هي فوق السماوات السبع ، عندها جنة المأوى ، فلما انتهى إلى ذلك العالَم العُلْوي رأى ما رأى وهو عند سدرة المنتهى ، فهذه الآية هي نص في معراجه ﷺ إلى ذلك العالم العلوي ، كما أن قوله تعالى : ﴿ سُبْحانَ الذي أَسْرَى بعبدِه ليلاً من المسجدِ الحرامِ إلى المسجد الأقصى ﴾ الآية ـ نص في إسرائه ﷺ ، فالإسراء والمعراج ثابتان بنص القرآن الكريم .

وقد جاء تفصيل ذلك في أحاديث المعراج المتواترة ، وكلها تُخبر بأنه ﷺعُرِج به إلى السماوات ، وأنه دخل السماوات وجاوزها ، وأنها سبع سماوات ، فهذا هو الحق ، وماذا بعد الحق إلا الضلال ؟! والعياذ بالله تعالى .

وإذا كان الخصم المتأوِّل يزعم أنه لو كان هناك سماوات سبع لرآها أصحاب المراصد الكبرى ، والذين يَجوبون الأجواءَ البعيدة ، والفضاء الشاسع بآلاتهم ومصنوعاتهم .

فإننا نقول له في الجواب : إن عدمَ وُجْدان الشيء لا يدلُ على عدم وجوده ، فإن كثيراًمن الكواكب ما كانت تُرى لبعدها حتى اكُتشِفت بعدُ بواسطةالمراصد الكبرى ، ولم يزل هنالك كثير من الكواكب لم تُرَ بعدُ ، لبُعْدها في الارتفاع ، وإن هذه السماوات هي في غاية العلو والبعد ، فهي

سماوات ـ أي : عالية ـ قال تعالى ﴿ وبَنَيْنا فوقَكُم سَبْعاً شِداداً ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ أَأَنْتم أشدُّ خلقاً أم السماءُ بناها . رَفَع سَمْكَها فسوَّاها ﴾ .

فهم لم يطلعوا على حَقيقتها، ولم يَصِلوا اليها، فهي لم يَرَوْها لبُعْدها في علوها ، ولأنها ليست من جنس الكواكب ، فهي لا تُشبه أجرام الكواكب ، وليست كثافتُها وأجواؤها مثلَ كثافة الكواكب وأجوائها ، فالسماوات السبع عالم السموّ والعلوّ والنزاهة والقداسة ، فهي مليئة بملائكة الله تعالى ، والأرواح الطاهرة العالية القدسية النقية .

وقد جعل الله تعالى لها أبواباً ، عليها خَزَنة ، ولا يَفتح الخزنة باباًمن أبوابها لطارقٍ إلا لمن أذن الله تعالى له في ذلك ، كما ثبت ذلك كله بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام والتحية ، قال الله تعالى : ﴿ إن الذين كذَّبوا بآياتِنا واسْتَكْبَروا عنها لا تُفَتَّحُ لهمْ أبوابُ السماءِ ولا يَدْخلون الجنةَ حتى يَلِجَ الجَمَل في سَمِّ الخِيَاط وكذلك نجزي المجرمين ﴾ .

فهذه الآية صريحة في أن للسموات أبواباً ، وأن لها خُزّاناً ، بدليل أنها لا تُفتح للكفار ، أي :لا تَفتحها الخزنة للكفار ، لعدم الإذن الآلهي في ذلك ، بخلاف المؤمنين فإنها تفتح لهم بعد موتهم ، فتعرج أرواحهم إلى ربهم .

وقد بيَّن رسول الله ﷺ معنى هذه الآية في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في (مسنده) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن الميتَ تَحضُره الملائكة ، فإذا كان الرجلُ الصالح قالوا : اخْرُجي أيتها النفسُ الطيبة ، كانتْ في الجسدِ الطيِّب ، اخْرُجي حميدةً ، وأبشْري برَوْح ورَيْحان

وربٍّ غيرِ غضبان .

قال : فلا يزال يقال لها حتى تخرج ، ثم يُعرج بها إلى السماء ، فيُسْتفتح لها فيقال : من هذا ؟ فيقال : فلان .

فيقال : مرحباًبالروح الطيبة كانت في الجسد الطيب ، ادْخُلي ـ أي ادخلي السماء ـ حميدةً وأَبْشِري بروح وريحان ورب غير غضبان .

قال : فلا يُزال يقال لها ذلك حتى ينتهى بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل » أي : السماء التي يتجلَّى الله تعالى له فيها .

وفي رواية (المسند) عن البراء : « حتى يُنتهى بها إلى السماء السابعة » .

« وإذا كان الرجل السوء قالوا : اخْرُجي أيتها النفسُ الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ، اخرجي ذميمةً وأَبشِري بجحيم وغَسَّاق ، وآخرَمن شَكْله أزواج ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يُعَرج بها إلى السماء ، فيُسْتَفتح لها ، فيقال : من هذا ؟ فيقال : فلان .

فيقال : لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ، ارجعي ذميمةً ، فإنكِ لا تُفتح لكِ أبوابَ السماء ، فُيرسَل من السماء ويصير إلى القبر » الحديث .

قال الحافظ ابن كثير : ورواه النسائي وابن ماجه من طريق ابن أبي ذئب بنحوه . اهـ .

وفي رواية (للمسند) عن البراء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال فيها : « فيُصْعَد بها ـ أي : روح المؤمن ـ فلا يَمرّون بها ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الطيبة ؟!

فيقولون : فلان ابن فلان ـ بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في

الدنيا ـ حتى يَنتهوا به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له ، فيُفتح له فيُشيعه من كل سماء مقرَّبوها إلى السماء التي تليها ، حتى يُنتهى به إلى السماء السابعة .

فيقول الله تعالى : اكتبوا كتابَ عبدي في عليّين » .

ثم قال ﷺ في العبد الكافر بعدما تُقبض روحه قال : « فَيصعَدون بها ، فلا يَمرُّون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ؟

فيقولون : فلان ابن فلان ـ بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا ـ حتى يُنتهى بها إلى السماء الدنيا فيُستفتح له فلا يُفتح له ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ لا تُفَتَّحُ لهم أبوابُ السماءِ ولا يَدْخُلون الجنةَ حتى يَلِجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِيَاط ﴾ ـ الآية ـ فيقول الله تعالى : اكتُبوا كتابه في سِجِّين ، في الأرض السفلى ، فتُطْرح روحه طَرْحاً ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بالله فكأنما خَرَّ من السماءِ فتَخْطَفُه الطيرُ أو تَهوِي به الريحُ في مكانٍ سَحِيق ﴾ » إلى تمام الحديث .

فهذه الأحاديث صريحة في أن للسماوات أبواباً ، وأن على تلك الأبواب خَزَنة ، وأن أحداً لا يمكن أن يدخلها إلا بإذن من الله تعالى يأذن به للخزنة ، فيفتحون له ، وأنه لا يُؤْذن بالدخول فيها إلا للأطهار الطيبين ، لأن السماوات عالَم القدس والطهارة .

وقد أذن الله تعالى لحبيبه الأكرم سيدنا محمد ﷺ بدخول السماوات السبع ومجاوزتها إلى سدرة المنتهى ، إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام ، إلى ما هنالك ، وأرسل الله تعالى إليه أمين الله تعالى سيدنا جبريل على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وقد جاء في رواية البيهقي وغيره ـ لحديث المعراج قال من رواية أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « فعرج بي جبريل حتى انتهى إلى باب من أبواب السماء يقال له :

باب الحفظة ، وعليه ملك يقال له : إسماعيل ـ وهو صاحب السماء الدنيا ـ وبين يديه سبعون ألف ملك ، مع كل ملك جنده مائة ألف ، وفي رواية للبزار : تحت يده سبعون ألف ملك ، تحت يد كل ملك سبعون ألف ملك » .

كما جاء في أحاديث المعراج المتواترة ، أنَّ جبريل عليه السلام كان يَستفتح باب كل سماء فيقول : خازنُها الموكَّل على ذلك الباب : مَن ؟ فيقول : جبريل . فيقول : مَن معك ؟ فيقول : محمد ﷺ . فيقول : وقد أُرسل إليه ؟ فيقول : نعم ، فيقول : مرحباً به فَلَنِعْمَ المجيء جاء .

فليس الدخول في السماوات موقوفاً على القدرة والتمكُّن من الدخول إليها ، فالملائكة الذين عَرَجوا بروح المؤمن بعد موته قد وصلوا وانتهوا إلى أبواب السماء ، ولكن ما كان لهم أن يدخلوها إلا باستفتاحٍ وإذْن من الله تعالى .

وهؤلاء عالم الجن لقد أُعطُوا قوة الصعود والقدرة على اقتحام أجواء الفضاء وأبعاده ، ولكنهم لا يستطيعون أن يدخلوا السماوات ، ولا تُفتح لهم أبوابها ، إلا بإذن من الله تعالى ، ودليل قدرتهم على ذلك قول الله تعالى إخباراً عنهم : ﴿ وأنّا كنّا نَقْعُد منها مقاعِدَ للسمع ، فمَن يستمعِ الآنَ يَجِدْ له شِهاباً رَصَداً ﴾ .

فكانوا قبل بعثة النبي ﷺ يَعْلَون ، ويجاوزون أبعاد الفضاء حتى يَنتهوا إلى مواضع دون السماء ، تُمكِّنهم أن يسمعوا أحاديث الملائكة في السماء الأولى ـ عما يُجْريه الله تعالى في عالم الأرض وينفذه ، ولكن بعد بعثة النبي ﷺ حُجبت السماء بالشُّهُب ، والحرس الشديد على وجه أقوى وأعظم مما هو قبل البعثة ، فما عادوا يتمكنون من السمع ، كما جاء في (صحيح)

البخاري وغيره :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إنّ نبي الله ﷺ قال : « إذا قضى الله تعالى الأمرَ في السماء ضَرَبت الملائكة بأجنحتها خُضْعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صَفْوان ، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذي قال : الحق ، وهو العلي الكبير ، فيَسْمعها مسترِقُ السمع ، ومسترقو السمع هكذا بعضه فوق بعض ، فيسمع الكلمة فيُلْقِيها إلى مَن تحته حتى يُلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة ، فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا : كذا وكذا ؟ فيصدَّق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء » .

فالجن لهم قوة الصعود في أجواء الفضاء والعلوِّ نحو السماء الأولى ، ولكنهم لا يستطيعون الدخول فيها ، لعدم الإذن لهم في ذلك ، فعندهم قدرة على الصعود ولكن ليس عندهم سلطة الإذن بالدخول ، فإن الإذن من الله تعالى هو الذي يعطي المأذون سلطة الوصول إلى السماء والدخول فيها .

ولذلك نرى أن الله تعالى قد تحدَّى جميع الجن والإنس بأن يبذلوا جهودهم المستطاعة لينفذوا من أقطار السماوات والأرض ويقتحموها ويجتازوها ، وأعلمهم بأنهم لا يستطيعون ذلك إلا بإذن من الله تعالى يخوِّلهم ذلك ، قال تعالى : ﴿ يا معشرَ الجنِّ والإنس إنِ اسْتَطَعتمْ أن تَنْفُذوا منْ أقطارِ السماواتِ والأرضِ فانْفُذُوا لا تَنفُذون إلا بسلطان ﴾ أي : بإذن من الله تعالى إليكم في ذلك ، ويُعطيكم السلطةَ على ذلك ﴿ يُرْسَلُ عليكما شُوَاظٌ من نار ونُحاسٌ فلا تَنْتَصرانِ ﴾ - أي : هناك الموانع المحرقة تقهرهم وتمنعهم من ذلك .

فمجرد القدرة على الصعود في تلك الأجواء البعيدة لا تكفيهم في ذلك ، فإن الجن قادرون على ذلك ، ولكن لا بدَّ من الإذن الآلهي الذي يخولهم ذلك .

فالسماوات لها أبواب ، وعلى تلك الأبواب حجَّاب لا يفتحون إلا لمن أُذن له .

وهذه الأبواب السماوية متعددة :

فهنالك أبواب تنزل منها ملائكة الله تعالى إلى عالم الدنيا بتنفيذ أوامر الله تعالى ، والملائكة عليهم السلام على مراتب وأصناف ، ولكل صنف منهم أبواب معيَّنة لهم ، كما يدل على ذلك ما رواه مسلم في (صحيحه) ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (بينما جبريلُ عليه السلام قاعدٌ عند النبي ﷺ إذْ سمع نقيضاً ـ أي : صوتاً ـ من فوقه ، فرفع رأسه إلى السماء فقال : هذا بابٌ من السماء فُتِح اليوم لم يُفتَح قبل إلا اليوم ، فنزل منه ملك فقال ـ جبريل عليه السلام ـ: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قبل إلا اليوم ، فسلَّم وقال ـ أي : للنبي ﷺ ـ : أَبشِرْ بنورين أُوتيتَهما لم يُؤتَهما نبيٌّ قبلك : فاتحةِ الكتاب ، وخواتيمِ سورة البقرة لم تَقرأ بحرف منهما إلا أُعطيتَه) .

وهناك أبواب سماوية يصعد منها الكَلِمُ الطيب ويُرفع فيها العمل الصالح :

قال الله تعالى : ﴿ إليه يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ والعَمَلُ الصالحُ يَرفَعه ﴾ الآية .

وقد بينَّ ذلك سيدنا رسول الله ﷺ ، كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما مِن مؤمنٍ إلا وله بابان : بابٌ يصعدُ منه عملُه ، وباب ينزِلُ منه رزقه ، فإذا مات بَكَيَا

عليه ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَمَا بَكَتْ عليهمُ السماءُ والأرضُ ﴾ الآية .

والمعنى : أن قوم فرعون لما دمَّرهم الله تعالى لم تَبْكِ عليهمُ السماء ، لأنهم ما كان لهم أعمال صالحة أو أقوال طيبة تَصعد فيها ، ولم تبكِ عليهم الأرض لأنهم لم يكونوا يعبدون الله تعالى على وجه الأرض ، بأن يُصلُّوا له ويسجدوا ويطيعوه فيما أمرهم به سبحانه .

وأما المؤمن : فإذا مات بكتْ عليه السماء لفقدها أعماله الصالحة التي كانت تصعد في السماء ليل نهار ، وتبكي عليه الأرض لفقد صلواته وسجداته وعباداته عليها .

وقد فصَّلنا الكلام على ذلك مع الأدلة في كتابنا : (الصلاة في الإسلام) .

وهناك أبواب سماوية يتنزل منها أرزاق المؤمن ، كما تقدم في الحديث ، ينزل منها رزقهم الإيماني الذي تتغذَّى به أرواحهم وقلوبهم ، ورزقهم الجسماني الذي تتغذى به أجسادهم ، فإن الله تعالى لا يُنال ما عنده إلا بطاعته ، قال ﷺ : « ولا يَحْمِلنَّ أحدَكم استبطاءُ الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله تعالى ، فإن الله لا يُنال ما عنده ـ أي : الرزق الحلال الذي ينفع صاحبه في الدنيا والآخرة ـ إلا بطاعته » .

وهناك أبواب سماوية تفتح لإجابة الدعاء ولقبول السائلين وإعطائهم ما يسألون :

فقد روى الترمذي وحسَّنه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثةٌ لا تُرَدُّ دعوتهم : الصائمُ حتى يُفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم يَرفعها الله فوق الغَمام ، وتُفتح لها أبواب السماء ويقول الربُّ : وعزَّتي لأنصُرَنَّك ولو بعد حين » .

وروى الترمذي وحسّنه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما قال عبد لا إله إلا الله قطُّ مخلصاً ، إلا فتحت له أبواب السماء حتى يفضي إلى العرش ما اجتُنِبَتِ الكبائر » .

وروى الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « إذا نادى المنادي - أي : أذَّن للصلاة - فُتحت أبواب السماء واستُجِيب الدعاء ، فمن نَزَل به كرب أو شدّة فَلْيَتَحينِّ المنادي » الحديث .

وروى البيهقي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً : « إذا كان أول ليلة من رمضان فتحت أبواب السماء فلا يُغْلق منها بابٌ حتى يكونَ آخر ليلة من رمضان » الحديث .

وروى الإمام أحمد والترمذي وحسَّنه عن عبد الله بن السائب رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ : كان يصلي أربعاً بعد أن تزول الشمس قبل الظهر - أي : قبل فرض الظهر - وقال ﷺ : « إنها ساعة تُفتح فيها أبواب السماء فأحبُّ أن يَصعَد لي فيها عملٌ صالح » .

وهناك أبواب سماوية تَعرجُ فيها أرواح المؤمنين بعد موتهم : فتفتح لهم أبواب السماء ، سماء بعد سماء حتى السابعة ، كما تقدم الحديث في ذلك .

فالسماوات السبع هي عوالم موجودة حقاً ، كما أخبر عنها القرآن الكريم ، وكما رآها الرسول الكريم سيدنا محمد ﷺ ودخلها واحدة بعد واحدة ليلة المعراج .

وبينَّ ﷺ أن السماوات السبع مملوءة بالملائكة عليهم السلام :

فقد روى الترمذي عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني أرى ما لا تَرَوْن ، وأسمعُ ما لا تسمعون ، أَطَّتِ السماءُ وحُقَّ لها أن تَئِطَّ ، ما فيها موضعُ أربعِ أصابع إلا وفيه ملك واضعٌ جبهتَه لله تعالى

ساجداً ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً ، ولما تلذَّذْتم بالنساء على الفرش ، ولخرجتم إلى الصُّعدات تجأرون إلى الله تعالى » .

وروى ابن جرير والمروزي وغيرهما من طُرق متعددة عن ابن مسعود وغيره ، أن النبي ﷺ قال : « أطَّت السماء وحُقَّ لها أن تئطَّ ، ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك ساجدٌ أو راكع ثم قرأ : ﴿ وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون ﴾ » .

* * * *

١

عالم الميزان

قال الله تعالى : ﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان أن لا تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان والأرض وضعها للأنام ﴾ .

فالله سبحانه وتعالى ـ يخبرنا عن عظيم قدرته ، وعن عدله ، وحكمته في تصرفه في خليقته ، فهو سبحانه رفع السماء بقدرته ، والمراد بالسماء جنس السماوات السبع بدليل مقابلة ذلك بالأرض حيث قال تعالى : ﴿ والأرض وضعها للأنام ﴾ ، فهو بقدرته رفع السماء ، وبقدرته وضع الأرض .

ولكن بعدما رفع السماء نصب الميزان ـ أي : ميزان الحق والعدل كما هو مُقتضى الحكمة الإلهية ـ جلَّ وعلا ـ ، فجميع الأمور التي تجري ، وجميع الموجودات التي توجد ، كلها موزونة بميزان الحق والحكمة الإلهية سبحانه :

قال تعالى : ﴿ والأرض مددناها وأَلْقَيْنا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزّله إلا بقدر معلوم ﴾ .

وهذا الميزان هو المشار إليه في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى : يا بن آدم أَنفق أُنفق عليك » .

وقال ﷺ : « يمين الله ملأى لا تُغيضها نفقة ـ أي : لا تُنقصها نفقة ـ

سحَّاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم يُغض ما في يده ؛ وبيده الأخرى الميزان يخفض ويرفع . . » الحديث .

وجميع ما يجري به الميزان الإلهي من الخفض والرفع ، والعطاء والمنع ، كل ذلك مُقتضى حكمته وقسطه سبحانه .

قال تعالى : ﴿ شهد الله أنه لا إِله إلاّ هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إِله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ .

فتصرُّفاته في مخلوقاته سبحانه : كلها بالقسط ؛ الذي هو مقتضى أنه الإِله العزيز الحكيم ، كما ورد في (صحيح) مسلم عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال : « إن الله تعالى لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ـ أي : يخفض الخفض القسط ويرفع الرفع القسط ـ يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ؛ وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقتْ سبحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » .

وقوله تعالى : ﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان أن لا تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾ .

فقد أعلم سبحانه وتعالى عباده أن تصرفاته في خلقه وتدابيره ومعاملته لعباده هي بميزان الحق والحكمة ، فالواجب عليهم أن يكونوا في معاملاتهم على ميزان القسط والحق ، دون بخس ، ولا ظلم ، ولا نقص .

ولذلك قال سبحانه : ﴿ أن لا تطغوا في الميزان ﴾ ـ والمعنى : أعلمناكم بذلك لأجل أن لا تطغوا في الميزان ، ﴿ وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾ في جميع أموركم : المادّية والقولية ، والفعلية ، والمالية ، حتى في مدحكم وذمّكم ، وحبّكم وبغضكم . . .

وهذا الميزان غير الميزان الذي يوضع يوم القيامة للحساب والثواب والعقاب ـ قال تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ .

فهذه الموازين سوف توضع ليوم القيامة ؛ ولذلك قال تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ﴾ الآية .

وأما الميزان الأول الذي تقدم الكلام عليه فإنه قد وضعه الله تعالى من قبل ، كما قال تعالى : ﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان ﴾ .

روى الترمذي والإمام أحمد وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت : (جاء رجل فقال : يا رسول الله إنّ لي مملوكين يكذبونني ، ويخونونني ، ويعصونني ، فأشتمهم ، وأضربهم ، فكيف أنا منهم ؟

فقال رسول الله ﷺ : « يُحسب ما خانوك وكذبوك وعصوك ؛ وعقابك إياهم ـ فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً لا لك ولا عليك ، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك ، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتُصّ لهم منك الفضل » .

فجعل الرجل يبكي ، فقال له ﷺ : « أما تقرأ قول الله عز وجل : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ » .

فقال الرجل : يا رسول الله ما أجد لي ولهؤلاء شيئاً خيراً من مفارقتهم أشهدك أنهم كلهم أحرار) .

فموازين الحساب ، والثواب والعقاب ، توضع ليوم القيامة : ميزان الأعمال ، وميزان الأقوال ، وميزان الأخلاق ، وميزان الإخلاص ، كما بينت ذلك مفصَّلاً في كتاب : (الإيمان بعوالم الآخرة) .

عالم الكواكب

وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم عالم الكواكب في مواضع كثيرة ، يُبيِّن الله تعالى فيها لعباده بدائع حكمته ، وعجائب قدرته في خلق هذه النجوم وكثرتها ، وعجيب خلقها ، وأنه جعلها زينة للسماء الدنيا .

قال تعالى : ﴿ إنا زيَّنَّا السماء الدنيا بزينةٍ الكواكب ، وحفظاً مِنْ كل شيطان مارد ﴾ .

كما أن الله تعالى جعلها أيضاً أدلَّةً يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر :

قال تعالى : ﴿ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾ .

كما أنه سبحانه جعل من النجوم البروج والمنازل ، وجعل منها الثوابت ، والسَّيارة ، وجعل منها الكبيرة ، والكبرى ، ومنها الأقرب إلى الأرض ، ومنها الأبعد عنها ، ومنها البعيدة كل البعد بحيث لا تُرى إلا بالمراصد المكبِّرة ، وقدَّر سيرها في أفلاكها المرسومة لها بمقادير دقيقة ، فهي تجري بنظام وإحكام دون وقوع خلل في سيرها ، مع كثرتها ، ومع سرعتها ، وعظمة جرمها الذي يهوي سريعاً من الشرق إلى الغرب ، وهكذا دواليك . .

قال تعالى : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ .

فهي تهوي مسرعةً في سيرها .

وجعل سير السَّيارات منها مختلفاً ، فمنها ما يقطع مسافات القبة السماوية في أربع وعشرين ساعة ، ومنها ما هو دون ذلك على نسب مختلفة ، كما هو مفصَّل في كتب الفلك القديمة والحديثة .

وفي ذلك كله أدلة ساطعة تدل على وجود الخالق البارىء : وعلى قدرته وحكمته ، وعلى وحدانيته ، وأن القضية ليست طبيعة من ذاتها ، ولا خليقة خلقت من ذاتها ، ولا فليقة فُلقت من ذاتها ، بل هنالك خالق الطبيعة وطابعها ، وخالق الخليقة ومدبِّرها ، وفالق الفليقة ومسيرها ، قال تعالى : ﴿ قلْ أعوذُ بربِّ الفَلَق ﴾ أي : الفليقة ، فهو سبحانه بارىء البرية ، فالق الفليقة ، وخالق الطبيعة ، فليس هناك شيء من الأشياء له تأثير من ذاته ، ولا قِوام لشيء من ذاته ، ولا قوة لشيء من ذاته ، ولا حركة لشيء من ذاته ، وإنما المؤثر في الأشياء هو الله تعالى ، والقيُّوم الذي قامت به جميع الأشياء هو الله تعالى ، والقويُّ الذي له القوة جميعاً هو الله تعالى .

وقد نبَّه الله تعالى عباده في القرآن الكريم للتعقُّل والتبصُّر والتفكُّر في مواقع النجوم ، وما أودع الله تعالى في ذلك من حِكَم وأسرار ، وعجائب تَعجِز عن حصرها العقلاء والعلماء مهما اتَّسَعَ علمهم ، واستنارت عقولهم ، واستقامت لهم ثقافتهم .

قال تعالى : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بمواقعِ النجوم . وإنه لَقَسمٌ لو تَعلمون عظيم . إنه لَقرآنٌ كريمٌ . في كتابٍ مَكْنون . لا يَمَسُّه إلا المطَهَّرون . تنزيلٌ من ربِّ العالمين ﴾ .

وقد جرت عادة الله تعالى في القرآن الكريم أنه يُقسم بما يُقسم به من مخلوقاته ومصنوعاته ؛ لتضمُّنها الآياتِ والعجائبَ والحججَ الدالة على وجوده

سبحانه ووحدانيته ، وعظيم قدرته ، وبديع حكمته ، وكلما كان المخلوقُ الذي أقسم به أعظمَ آية وأبلغَ في الدلالة عليه كان إقسامه سبحانه به أكثر من غيره ، ولذلك أقسم الله تعالى بمواقع النجوم وعظَّم القسم بذلك حيث قال : ﴿ فلا أُقسمُ بمواقع النجوم . وإنه لَقَسم لو تعلمون عظيم ﴾ .

وجمهور أهل العلم سلفاً وخَلَفاً على أن المراد بالنجوم في هذه الآية : الكواكب السماوية ، وقال بعضهم : بل هي النجوم القرآنية ، يعني بذلك طوائف الآيات القرآنية حين كانت تنزل على الرسول ﷺ نجوماً ، أي : متفرقة آيات بعد آيات .

وقد استدل الجمهور على أن المراد بها نجوم السماء ، استدلوا على ذلك أن اسم النجوم عند الإطلاق ينصرف إلى نجوم السماء ، وبأنه سبحانه لم تَجْرِ عادته باستعمال كلمة : ﴿ النجوم ﴾ في آيات القرآن ، ولا في موضع واحد ، حتى تُحملَ هذه الآية عليه ، وإنما جرت عادته سبحانه باستعمال النجوم في كواكب السماء في جميع القرآن الكريم ، وبأنه سبحانه قد أقسم بهوِيِّ النجم في قوله تعالى : ﴿ والنَّجمِ إذا هَوَى ﴾ ، فهو نظير الإقسام بمواقعها في الآية التي نحن نبحث فيها .

والمراد بمواقع النجوم ـ مواقعُها في السماء ـ أي : مواضعها في السماء : كما نقل ذلك ابن كثير وغيره عن مجاهد ، ونَقَل أيضاً عن قتادة أنه قال : مواقعُها : منازلُها ـ وهو قريب من قول مجاهد ، ونَقَل عن الحسن وقتادة ـ وهو اختيار ابن جرير ـ أن مواقع النجوم هي مطالعها ومشارقها ، وهذا داخل في عموم قول مجاهد من أن المراد بمواقعها ـ هي مواقعها ومواضعها المعيَّنة لها في السماء .

ولا شك أن من أعظم الأدلة على وجود الله تعالى ووحدانيته ، وعلمه

سبحانه وقدرته وحكمته : أنه جعل لكل نجم موقعاً أقامه فيه ، وموضعاً عيَّنه له ، من حيث القرب والبعد بالنسبة لعالم الشمس ، وبالنسبة لعالم الأرض ، وبالنسبة لبقية النجوم السماوية ، فكل نجم من هذه النجوم السماوية التي لا يستطيع الإنسان أن يُحصيها لكثرتها ، كلُّ نجم منها له أبعاد ومسافات معيَّنة له ، ومحددة له ، لا يتجاوزها ، بينه وبين الشمس ، وبينه وبين سائر الكواكب ، وبينه وبين الأرض ، وكلُّ ذلك بمقادير دقيقة ، ونِسَب محدودة ، وجميع التقادير والمقادير ، وتعيين نسب الأبعاد بينها ، كُلُّ ذلك بتقدير الله العزيز العليم ، وفي ذلك ما لا يحيط بعلمه إلا الله تعالى من الأسرار والحِكَم ، والمصالح التي تعود على سكان هذه الأرض بكل خير ورحمة من الله تعالى ، بحيث لو اختلَّ نظام واحدة منها لاختلَّ النظام في هذا الكون ، ولذلك فإن الله تعالى إذا أراد تخريب هذا العالم وإقامة القيامة أوقع الخلل في نظام الفلك .

قال تعالى : ﴿ إذا السماءُ انْفَطَرَتْ . وإذا الكواكبُ انْتَثَرَتْ . وإذا البحار فُجِّرَتْ . وإذا القبور بُعْثِرتْ . عَلِمتْ نفسٌ ما قدَّمتْ وأَخَّرت ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إذا الشمسُ كُوِّرتْ . وإذا النجومُ انْكَدَرَتْ ﴾ الآيات .

فمهما علم العالمون ، وبحث الباحثون في أسرار مواقع النجوم ، والحكم المترتِّبة على مواقعها ، وما أودع الله تعالى في تلك النجوم من خصائص ومصالح ومنافع لعالم الأرض ـ فإن علمهم لا يُحيط بذلك ولا ينتهي بحث الباحثين في ذلك ، فإنه سبحانه وتعالى دائماً يقول : ﴿ وإنه لَقَسمٌ لو تَعْلمونَ عظيمٌ ﴾ ، فمهما علموا وبحثوا فإنه سبحانه يقول لهم : ﴿ وإنه لَقَسمٌ لو تعلمون عظيم ﴾ وهكذا دواليك ـ يعني : أن الأمر أعظم مما علمتم مهما علمتم وامتدَّ في ذلك علمكم واطلاعكم . . .

وقد بيَّن الله تعالى أن هذه النجوم مسخَّرات بأمره في منافع هذا العالم ، قال تعالى : ﴿ والنجومُ مسخَّراتٌ بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ كما في سورة النحل ، فهي مسخَّرةٌ في مصالح ومنافع أهل الأرض ، كما سخَّر لهم الشمس والقمر والبحر وغير ذلك ، وفي هذا كله دليل على عظيم قدرة الله تعالى وسعة علمه وحكمته .

وقال تعالى : ﴿ إن ربكم الله الذي خَلَق السماواتِ والأرضَ في ستةِ أيامٍ ثُم اسْتَوَى على العرشِ يُغْشي الليلَ النهارَ يَطْلُبه حثيثاً والشمسَ والقمرَ والنجومَ مسخَّراتٍ بأمره ، أَلَا لَهُ الخَلْقُ والأمرُ تباركَ الله ربُّ العالمين ﴾ .

وإن تلك الخصائص والمنافع ووجوه ارتباطها بعالم الأرض - لا يُحيط بها علماً إلا الله تعالى الذي خلقها وأبدعها ، وأودع فيها أنواعاً من الخصائص ، وأصنافاً من المنافع لأهل الأرض ، وهنا ينبغي للعاقل أن يفكِّر في وجوه هذا التسخير ، كما ينبغي للعاقل أن يقف متفكراً في هذه النجوم الكثيرة الكبيرة التي منها قدْرُ الأرض ، ومنها أكبر من الأرض ، وكلها قائمة في هذا الفضاء ، وليس هناك أعمدة تسندها ، ولا حبال تشدُّها ، إذاً هي على قدرة مَن تستند ؟ وبقوة مَن تقوم وتعتمد ؟

نعم الجواب في قول الله تعالى : ﴿ إن الله يُمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا ﴾ - أي : عن أماكنهما - ﴿ إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً ﴾ .

فهو سبحانه ممسك السماوات والأرض وما بينهما : من شمس وكواكب .

ثم ليتفكر العاقل في سير هذه النجوم وانتظام سيرها ، وفي سرعتها مع كبر جرمها وثقلها ، فأي قوة تُسيِّرها ؟ ومن الذي يدبِّر أمرها ؟

نعم : هذا هو الله رب العالمين ، فإنها مسخّراتٌ بأمره ، متحركة بقدرته

أودع الله تعالى فيها أسباباً يعود نفعها إلى هذا العالم الأرضي في حياته ، ومعاشه ، ونظامه ، وحَرِّه وبرده ، وجعل فيها ملائكة يدبرون تلك الأمور بإذن الله تعالى ، وبأمر الله تعالى لهم ، وبتعليماته لهم ، فهو المدبِّر الحقيقي ، وهكذا الكواكب ليس لها تاثيرات ذاتية وإنما نصبها الله تعالى أسباباً ، وأودع فيها خصائص ، ولكنه هو المؤثر الفعال لما يريد .

وليفكر العاقل في اختلاف أجواء تلك النجوم ، فمنها البارد ومنها الحارّ ، ومنها المائي الرطب ، ومنها الجافّ اليابس ، فَمَن الذي خصّصها بذلك وأمدّها وأعدّها لذلك ؟!! .

نعم : هذا هو الله رب العالمين، المشهودة قدرته ، والظاهرة حكمته في السماء والأرض ، وكلها مليئة بعوالم : منها المشهود ، ومنها غير مشهود ، فلم يخلق الله تعالى مكاناً فارغاً من المتمكن ، ولا سكنا فارغاً من ساكن فيه ، فإن ذلك عبث ولعب ، وقد تنزّه الله تعالى عن اللعب والعبث في تكوينه وتشريعه : قال تعالى : ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ﴾ ، بل من حكمته أن يخلق المكان ويُعدّه لمن يمكّنَه فيه ، ويهيء السكن قبل أن يخلق السكان ، قال تعالى : ﴿ ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابَّةٍ وهو على جمعهم إذا يشاء قدير ﴾ .

أما بث الدابَّة في الأرض فهو أمر معلوم .

والدابة تطلق في اللغة : على كل ماله دبيب من : إنسان ، وجانّ ، وحيوان ، وطير ، ونمل ، ونحل ، وهوامّ .

وأما بث الدابَّة في السماوات فما معناه ؟

فإن قلت : المراد بذلك الملائكة .

فالجواب : إن الله تعالى أفرد الملائكة بالذكر في قوله تعالى : ﴿ ولله

يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابَّة والملائكة وهم لا يستكبرون ﴾ ، فأفرد الملائكة بالذكر ، ولم يدخلهم في عموم قوله تعالى : ﴿ من دابة ﴾ ، بل ذُكروا على وجه العطف ؛ والعطف يقتضي المغايرة كما هو معلوم ، وهذا لأن الملائكة أجسام لطيفة نورانية ما لها دبيب ، فإنهم خلقوا من نور .

وأما الجن فلهم دبيب على حسبهم لأنهم خلقوا من مارج من نار ، والمارج له نوع من الكثافة كما هو معلوم .

إذاً ما المراد ببثّ الدابّة في السماوات ؟ . .

فالجواب ـ والله تعالى أعلم ـ أنه بث الدابة في الأرض أي : في جهة الأرض ظهرها وما علا من جوّها كالطيور والحيوان ونحوهما ، مما أوجده عليها .

وليس المراد ببث الدابة في الأرض أنه جعل الدابة ـ أَيْ : أنواع الدابة كلها في بطن الأرض وفي جوفها .

وكذلك بث الدابة ـ أي : أنواع من الدابة في السماوات ـ أي : في جهة السماوات العلوية ، والمراد بذلك الكواكب العلوية التي هي في جهة السماوات ، وهذا نظير قوله تعالى : ﴿ وكأين مِنْ آيةٍ في السماوات والأرض يمرون عليها ﴾ ـ أي : ويرونها بأعينهم ، والمراد هنا في جهة السماوات والأرض ؛ وليس المراد في داخل جوف السماوات ، وفي داخل الأرض ، فإنهم لم يمروا في داخل السماوات أصلاً كما هو أمر بديهي ، فإن الناس لم يمرُّوا في داخل السماوات ، وإنما يمرون على الآيات التي في جهة السماوات : من النجوم وغيرها ، فيعرضون عن التفكر في خلقها ولا يعتبرون .

فالدوابّ ـ أي : المخلوقات في تلك الكواكب ليست من جنس دوابّ

الأرض المخلوقة عليها ، بل هي نشأة أخرى ، لأنها ليست من مادة الأرض ؛ بل هي متناسبة مع كوكبها الساكنة فيه .

فذاك خلق آخر ، ولا يلزم أن تكون مرئية لبني آدم ، فإن الجنّ هم من سكان عالم الأرض ، ولا يراهم جميع الناس ، ما يشاهدهم من بني آدم إلا القليل ؛ بأسباب مختلفة ، ليس موضع بيانها هنا .

قال تعالى : ﴿ وهو على جمعهم إذا يشاء قدير ﴾ - أي : هو قدير على جمعهم كلهم ليوم الجمع والحساب ، ولا يعجزه شيء ، والله تعالى أعلم بما هنالك كله .

فما من كوكب إلا وهو ملىء بعالم روحاني مناسب لذلك الكوكب ، فما من مكان إلا وهو ملىء بالسُّكان ، فليس هناك فراغ وخلاء ، بل كله ملىء من الملأ الأعلى إلى الملأ الأدنى فافهم .

وأما قول بعض الناس : إنهم لم يعثروا ، ولم تثبت لديهم عوالم ساكنه في تلك الأجرام الفلكية - أي : الكواكب السماوية - **فيقال لهم** : عدم رؤيتكم أو اطلاعكم على سكان تلك الكواكب لا يدل على عدم وجودهم ، فإن سكانها منهم الملائكة ، وهم موجودون في عالم الأرض أيضاً ، ومنهم الروحانيون - نظير عالم الجن الروحاني ، الذين أسكنهم الله تعالى في الأرض من قبل خلق آدم عليه السلام ، فمن أشرف على كوكب الأرض قبل أن يهبط الله تعالى آدم عليه السلام إلى الأرض ، وقبل أن يُسكنه إياها - لا يرى خلقاً مشهوداً - في حين أنها - أي : الأرض - مملوءة بعالم الجن ، فإن الله تعالى خلقهم - وهم كثيرون - قبل الإنس بأزمنة بعيدة ، وأسكنهم الأرض قال تعالى : ﴿ والجانَّ خلقناه من قبل من نار السموم ﴾ ، ولكن الإنس لا يرونهم ، لأنهم الجن - أي : عالم خفي عن أبصار بني آدم ؛ ثم

أهبط الله تعالى آدم وانتشرت ذريته ، ولم يزل الجن ساكنين في الأرض ، وهم عالم حقيقي مكلَّف ، قال تعالى : ﴿ سنفرغ لكم أيها الثقلان ﴾ ، كما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة ، وقد بينت ذلك مع الأدلة في كتاب (الإيمان بالملائكة وبوجود عالم الجن) .

فعدم رؤية الجن ـ وهم عالم كبير وكثير ـ لا يدل ذلك على أنهم غير موجودين ، وهكذا الكواكب السماوية كلها مملوءة بعوالم الملائكة ، وغير الملائكة ، وهي كثيرة : فمنها الروحاني ، ومنها الجسماني اللطيف الشبيه بعالم الجن ؛ وغير ذلك من العوالم الروحية والروحانية ، وعوالم الأجسام العنصرية وغير العنصرية ، والله تعالى بكل خلق عليم .

فالكواكب عوالم كبيرة لها نظامها وخصائصها ، تتجلى فيها عظمة قدرة الله تعالى ، وسعة علمه ، وبدائع حكمته .

ومن ثَمَّ نرى أن الله تعالى ينعى في القرآن الكريم على الذين يمرون على الآيات السماوية والأرضية ، ويرون عظائم القدرة ، وبدائع الحكمة الإلهية ، ويشاهدون الدلائل على وجوده ، ووحدانيته وقدرته ، وعلمه وحكمته ، ولكنهم يعرضون عنها فلا يعتبرون ، ولا يتفكرون ، ولا يتذكرون ، بل يتعامَوْن عنها ، وقد بدت لهم فيها أنواره سبحانه ، وظهرت لهم فيها أسراره ، وتجلَّت فيها حكمته وعظمته وقدرته .

قال تعالى : ﴿ وكَأينْ من آيةٍ في السماوات والأرض يمرُّون عليها وهم عنها معرضون ﴾ .

فالله تعالى يتراءى لهم بأنواره ، وقدرته ، وحكمته في آيات السماوات والأرض ، وهم يعرضون عنها حتى لا يروا من ذلك شيئاً ، كِبْراً وعِناداً ، أو سفاهة وجهالة ، أو لأنهم رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، وأخلدوا إلى

الشهوات الحيوانية واستغرقوا فيها ، فلم يطمحوا إلى تلك المعارف القدسية ،والآيات العلوية ، لينهضوا من حضيض البهيمية إلى ذروة الكمالات الإنسانية الملكوتية ، ويتعرفوا إلى خالق الخليقة ، ورب الفليقة ، وبارىء البرية والنسمات والذرية ـ جلَّ وعلا ـ ولذلك قال الله تعالى في وصفهم : ﴿ إنْ هُمْ إلاّ كالأنعامِ بلْ هُمْ أَضَلُّ سبيلاً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَاتْلُ عليهمْ نَبأَ الذي آتيناه آياتِنا فانْسَلَخَ منها فأَتْبَعَه الشيطانُ فكان من الغَاوِين . ولو شِئْنا لَرَفَعْناه بها ولكنَّه أَخْلَدَ إلى الأرض واتَّبَعَ هواه فَمَثَلُه كَمَثَلِ الكلبِ إنْ تَحْمِل عليه يَلْهَثْ أو تَتْرُكْه يَلْهَثْ ذلك مَثَلُ القومِ الذين كَذَّبوا بآياتنا فاقْصُصِ القَصصَ لعلهم يتفكرون ﴾ .

ولما كانت آيات ربوبيته سبحانه ووحدانيته مشهودة جليّة في السماوات والأرض ، أمر العبادَ أن ينظروا في ذلك ويتفكروا ، قال تعالى : ﴿ قُلِ انْظُروا ماذا في السماواتِ والأرض ﴾ ؟! الآية .

وقال تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَنظُروا في مَلَكُوت السماواتِ والأرضِ وما خَلق الله من شيء ﴾ ؟ الآية .

وقال تعالى : ﴿ ومِنْ آياتِهِ خَلْقُ السماواتِ والأرضِ واخْتِلافُ ألسنتِكُمْ وألوانِكم إن في ذلك لآياتٍ للعالِمين ﴾ .

ومن البديهي أن الأكوان المحيطة بالإنسان هي السماوات والأرض ، فهذه السماوات الكبيرة ، وهذه الأرض الواسعة ، كلُّها آيات ودلائل دالة على وجود الله تعالى ووحدانيته ، فحيثما قلَّب الإنسان نظره يقع على تلك الآيات التي يتجلّى فيها نور الله تعالى ، وقدرة الله تعالى ، وحكمة الله ، فليس طريق التعرُّف إلى الله تعالى ضيّقاً ، وليس المنظار الذي يُريك نورَ الله تعالى وعظيمَ قدرته ، وسعة علمه ، وبديع حكمته ـ ليس ذلك المنظار

واحداً ، حتى يَجري عليه التزاحم والمضايقة ، أو الارتياب والاضطراب ، وإنما السماوات وما فيها ، والأرض وما عليها كلُّ أولئك مرايا يتراءى فيها نور الله تعالى ، ومناظرُ تَرَى فيها قدرة الله تعالى ، ومشاهدُ تَشهد فيها دلائل حكمته ، وسعة علمه سبحانه وتعالى ، فهو معلوم بكل شيء ، ويسبِّح بحمده كل شيء ، وآيات وجوده ودلائل وحدانيته مشهودة في كل شيء ، فمن نظر واعتبر ، وفكَّر في خلق كل شيء ، وفي صنع كل شيء ، عرف ربّ كل شيء .

ولذلك ترى أيها العاقل اللبيب أن الله تعالى قد دعا عباده إلى النظر في كل شيء،قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ ينظُروا في مَلَكُوتِ السماواتِ والأرضِ وما خلق الله من شيء ﴾ ؟.

وفي قوله تعالى : ﴿ أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء ﴾ تنبيه وإرشاد للعقلاء ، وذلك أنه سبحانه ذكر أقل الأشياء وأصغرها حجماً وأدقها جرماً ، فقال : ﴿ وما خلق الله من شيء ﴾ .

فتنكير كلمة ﴿ شيء ﴾ : يدل على تقليله ، وإدخال : ﴿ مِنْ ﴾ عليه يدل على جزئيته وبعضيته ، فيشمل ذلك الذرة ، التي هي جزء لا يتجزأ ، فإن فيها من عجائب قدرة الله تعالى وبديع صنعه ، ودقة النظام ، وحكمة الانتظام المطويِّ فيها ما تحار فيه الأفكار ، وتُدهش له العقول ، فجميع ذرات العوالم العلوية والسفلية تُريك قدرة الله تعالى وتُشهدك بدائع حكمته ، وإتقان صنعه ، قال الله تعالى : ﴿ صُنعَ الله الذي أتقن كل شيء ﴾ .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

هذا وإن الله تعالى أخبرنا أنه سبحانه جعل الكواكب زينة للسماء الدنيا ومصابيح فيها ، وحفظاً لها ، ورجوماً ترجم منها الشياطين :

قال تعالى : ﴿ وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظاً من كل شيطان ما رد لا يسمَّعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب . . ﴾ الآيات .

إنّ الكواكب زينة للسماء الدنيا ومصابيح كما تقدم .

وأما كونها حفظاً لها كما قال تعالى : ﴿ وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ .

فمعنى ذلك أنها جعلها الله تعالى سبباً في حفظ موارد التشريع ، وأمور التكوين ، وسبباً في حفظ بقاء وجود عالم الأرض ، فبنيرانها تُرمى الشياطين ، وتبعد عن استراق السمع ، وبها يحفظ نظام البقاء والحياة في عالم الأرض ، فهي كالمدارك في حفظ حياة جسم الإنسان ، ونظام وجوده وبقائه .

فإنه سبحانه أخبرنا أنها مسخرات لنا بأمره ، كما سخر البحار لنا ، فلو أن البحار فسدت ، أو جفّت لأفسدت حياة أهل الأرض ، وأفسدت هواءها .

وسخر الأنهار والشمس والقمر وجعلها أسباباً لنظام حياة الأرض ومَنْ عليها .

كذلك قال في النجوم : ﴿ والنجوم مسخرات بأمره ﴾ .

ولذلك إذا أراد الله تعالى تخريب هذا العالم ، وإقامة القيامة غيّر نظام الكواكب ، فيختلّ نظام سيرها ، وبعد ذلك تتناثر : قال تعالى : ﴿ إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت ﴾ الآيات .

هل الكواكب كلها دون السماوات أو بعضها في السماوات ؟

اختلف العلماء والعرفاء في ذلك .

فذهب كثير من العلماء والعارفين إلى أن بعض الكواكب التي نراها هي في داخل السماوات .

وذهب كثير من العلماء والعارفين إلى أن جميع الكواكب التي نراها هي دون السماوات السبع ، وذلك لأنه لم يثبت في آية قرآنية ، ولا حديث صحيح ، دليل صريح على أن بعضها في السماوات ، وإنما الظاهر من الآيات المتقدمة والأحاديث أن هذه النجوم والكواكب التي نراها هي دون السماء الأولى .

قالوا والأدلة على هذا والله تعالى أعلم بحقيقة ما هنالك هي متعددة :

أولاً : إن الله تعالى وصفها بأنها زينة للسماء الدنيا ، قال تعالى : ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينةٍ الكواكب ﴾ .

فالسماء الدنيا هي السقف ، والكواكب زينتها ، قال تعالى : ﴿ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتنا معرضون ﴾ .

ومن المعلوم في اللغة أن زينة السقف تكون تحته لا فوقه .

كما وصفها سبحانه بأنها مصابيح ، قال تعالى : ﴿ وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ﴾ الآية ، ومن المعلوم أن مصابيح السقف تكون تحته لا فوقه .

ثانياً : إنه تعالى جعل الكواكب حفظاًللسماء من كل شيطان مارد :

قال تعالى : ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظاً من كل

شيطان مارد لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحوراً ولهم عذاب واصب إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ .

فأقام سبحانه في كل كوكب ملائكة : لتسييره ، وتنفيذ تسخيره ـ قال تعالى : ﴿ والنجوم مسخّرات بأمره ﴾ وللمحافظة على السماء من كل شيطان مارد يحاول استراق السمع لأحاديث ملائكة السماوات ، التي تدور بينهم فيما يتعلق بتنفيذ أوامر الله تعالى في عالم الأرض ، والمغيّبات التي أطلعهم الله تعالى عليها ، فإذا حاول الشيطان المارد أن يسترق السمع رمته ملائكة تلك الكواكب بشهب نارية من ذلك الكوكب ، وترجمه فتحرقه إن أصابته ، وقد يفرّ وينهزم إذا شعر بذلك فيسلم ـ وهذا قوله تعالى : ﴿ إلَّا مَنْ خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ ، فلا يستطيع الجني أن يستمع إلى خبر السماء بتمامه ، وإنما قصارى جهده أن يخطف الخطفة فيسمع الكلمة ونصف الكلمة ثم يكذب فوقها مائة كذبة ، كما جاء ذلك في أحاديث (الصحيحين) و (السنن) و (المسانيد) ، فهذا دليل واضح على أن الكواكب هي دون السماء لحفظها ، وإبعاد الشياطين عن القرب منها ، والاستراق من أخبارها ، قال تعالى : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير ﴾ .

فلو كانت الكواكب فوق السماوات ـ كلها أو بعضها ـ لكان الرجم للشياطين بالشهب النارية نازلاً من فوق السماء ، ومخترقاً حجب السماوات حتى ينتهي إلى الشيطان الذي يحاول الاستراق من تحت السماء ، وهذا أمر بعيد ، فكون الكواكب زينة للسماء وحفظاً لها ، وكونها مسخرات لعالم الأرض ، وكونها مصابيح لعالم الأرض ، فإن السماوات غير محتاجة إلى مصابيح هذه الكواكب ـ كل ذلك دليل على أن الكواكب هي دون السماوات ، ولذلك فإنه لا يلزم من الوصول إلى الكواكب أو الاتصال بها ـ

لا يلزم من ذلك اختراق السماوات والدخول فيها ، فإن السماوات بعيدة العلّو رفيعة السمو ، لها أبواب متعددة : وعلى كل باب منها خزنة من الملائكة الكرام ـ عليهم السلام ـ لا يفتحون إلا لمن أذن الله تعالى له ، كما دل عليه حديث المعراج وغيره ـ والله أعلم بما هنالك .

هذا وإن النجوم كما تقدم هي مختلفة المواقع ، وهي مختلفة الأحجام ، والمساحات ، والأبعاد ، ومختلفة الأجواء ، فبعضها أبعد من بعض ، ولكن كل منها تابع لنظام شمسه ، وبين تلك الشموس ارتباطات واستمدادات ، وكلها منوطة في عالم العرش كما يدل على ذلك حديث أبي ذر رضي الله عنه المتقدم ، وفيه يقول رسول الله ﷺ : « يا أبا ذر أتدري أين تذهب الشمس » ـ أي : حين تغرب ـ فقلت : الله ورسوله أعلم .

قال : « تذهب تسجد تحت العرش ، فتستأذن فيؤذن لها ، ويوشك أن تستأذن فلا يؤذن لها فيقال لها : ارجعي من حيث جئت ، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل . . » الحديث[1] .

والدليل على تعدد الشموس قوله تعالى : ﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجاًوجعل فيها سُرُجاً وقمراً منيراً . . ﴾ كما هو قراءة حمزة وعلي والكسائي وخلف ـ بضم السين والراء بلا ألف جمع سراج ، فهذه قراءة سبعية كما هو معلوم ، وقرأ الباقون : ﴿ سراجاً ﴾ بالإفراد ، ولا شك أن المراد بالسراج ـ مفرداً ـ الشمس قال تعالى : ﴿ وجعلنا سراجاً وهاجاً ﴾ ، فإذا جُمع هذا المفرد لم يخرج عن معناه الفردي .

وأما قول من قال : إن المراد بالسُرُج : النجوم ـ فمردود من وجوه :

أولاً : إن النجوم ذكرها سبحانه قبل ، فقال : ﴿ تبارك الذي جعل في

---

(١) رواه الشيخان وغيرهما .

السماء بروجاً ﴾ والبروج هي المجامع الكبرى من النجوم ـ كما هو معلوم عند أهله ـ فقراءة الجمع تشير إلى الشموس الكونية عامّة ، وقراءة الإفراد تشير إلى شمس هذا العالم الأرضي ونحوها من الكواكب التابعة لها .

وجلّ الله تعالى العظيم الذي قال : ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ .

فقد بين سبحانه لعباده في هذا القرآن كل شيء ينفعهم ، ويصلح أمر دنياهم وآخرتهم ، من أحكام شرعية ، ومن إخبارات عن قضايا كونية ، يقيم بها سبحانه وتعالى حجته على جميع طبقات العباد ، ويبين لهم عظمة قدرته ، وسعة علمه وحكمته ، بحيث لم يبق ريبة لمرتاب ، ومن ثَمّ امتنّ على عباده فقال : ﴿ ما فرّطْنا في الكتاب من شيء ﴾ ـ أي : ما قصّرنا في بيان شيء . . وهذا يرجح القول بأن المراد بالكتاب هو القرآن لا غيره .

ثانياً : لم يَرِدْ إطلاق السُرُج على النجوم في آية من القرآن الكريم .

ثالثاً : قطعية المراد بالسراج مفرداًعند من قرأ : ﴿ وجعل فيها سراجاً ﴾ ، فإن المراد به قطعياً : الشمس ، فإذا جمع يراد به قطعاًالشموس هذا أمر بديهيّ .

رابعاً : إن القرآن الكريم كثيراً ما يقرن بين ذكر الشمس والقمر ، وقد يقرن معهما ذكر النجوم سابقاًأو لاحقاً ، فإذا فسرت السُرج في هذه الآية بالكواكب يكون ذلك خروجاًعن الظاهر الذي جاء به القرآن ، فيكون قد ذكر سبحانه النجوم والقمر ، ولم يذكر الشمس أصلاً : لا مفرداً ولا جمعاً ، وهذا غير صحيح ، فإن القرآن الكريم يكثر من ذكر الشمس والقمر والنجوم معاًفي كثير من الآيات القرآنية ، وكثيراًما يذكر الشمس والقمر معاً .

فمن الأول قوله تعالى : ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . . ﴾ .

ومن الثاني قوله تعالى : ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وهو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً[1] . . ﴾ .

---

(١) كثرت أقوال علماء اللغة وأقوال الحكماء في الفرق بين الضياء والنور فذهب بعضهم إلى أن الضياء هو ما كان نوره من ذاته دون انعكاس نور آخر فيه ، وأما النور فيطلق على ما هو منير من ذاته ، أو مستنير من غيره بالانعكاس فيه ، فالنور أعم والضياء أخص .
وذهب المحققون إلى أن كلاً من الضوء والنور يطلق على ما يطلق عليه الآخر منهما كالمترادفين ، وإنما نشأ الفرق بينهما من الاستعمال والاصطلاح ، لا من أصل الوضع واللغة ، ولذلك قال الحكماء : إن الضوء أكثر استعماله فيما له حرارة ووهج حقيقة أو مجازاً ، فالأول كالذي في الشمس كما في الآية الكريمة ، وأما الثاني وهو الحر المجازي كالذي ذكر في وصف التوارة ، قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسىٰ وهارون الفرقان وضياءً وذكراً للمتقين ﴾ ، وذلك لأن في التوراة في بعض أحكامها شدة وزيادة تكليف ، بسبب شدة بني إسرائيل وتشددهم ، فجاء الإنجيل بعد ذلك فخفف عنهم ، قال تعالى ـ مخبراً عن عيسى عليه السلام : ﴿ ولأحلّ لكم بعض الذي حرم عليكم ﴾ الآية .
ومن الحر المجازي في الضياء ما جاء في الحديث : « والصلاة نور ، والصبر ضياء » ويدخل تحت الصبر الصوم ، وأما الصلاة فوصفها بأنها نور لا حرّ فيها لأنها قرّة العين ، وراحة القلب ـ بسبب التوجه إلى حضرة الرب سبحانه وتعالى .
قال ﷺ : « وجعلت قرّة عيني في الصلاة » .
وكان ﷺ يقول : « يا بلال أرحنا بالصلاة » .
والضياء قد يطلق على المضيء كما تقدم ، وقد يطلق على شعاع النور المنبسط على الأشياء ، كما في قول سيدنا العباس عم النبي ﷺ يخاطب النبي ﷺ :

وأنت لـمّا ولدت أشرقت الأ   رض وضاءت بنورك الأفق

ويُروى : وأنت لما ظهرت . . .
=

خامساً : مما يدل على أن السراج في القرآن الكريم يراد به الشمس ، هو أن الله تعالى قد وصف في القرآن الكريم حبيبه الأكرم سيدنا محمداً صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم بأنه سراج منير ، فقال تعالى : ﴿ وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾ .

وذلك لأنه ﷺ هو شمس الوجود المنير لجميع العوالم .

كما أنه الرحمة المهداة لكل العوالم ، قال تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ .

فسمّاه الله تعالى سراجاً ، كما سمى الله تعالى الشمس الفلكية سراجاً ، ولكن فرّق بينهما في الوصف ، ليعتبر بذلك أولو الألباب ، وليتدبروا ، وليفكروا ، فيعرفوا أيَّ الشمسين أنفع ، وللخير أجمع ، وليعرفوا هذا العالم إلى أيّ الشمسين أحوج ، وليعرفوا أن هذه الشمس الفلكية هي كالجسم للعالم ، ولكن الشمس المحمدية هي الروح ، وليعرفوا أن الشمس الفلكية هي مآلها إلى الكسوف والفناء ، وأما الشمس المحمدية فهي الباقية المشرقة

= وكما في قول ورقة بن نوفل يصف النبي ﷺ في قصيدة له ومنها قوله :

بأن محمداً سيسود قوماً ... ويَخصِم من يكون له حجيجاً
ويظهر في البلاد ضياء نور ... يقيم به البريّة أن تموجا
فيلقى من يحارِبه خساراً ... ويلقى من يسالمه فلوجا
فياليتني إذا ما كان ذاكم ... شهدت فكنت أولهم ولوجاً

الفلوج : الظفر والنجاح

وأما القول بأن الضياء أقوى من النور أينما وقع فهو قول مردود .

قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا . . ﴾ الآية .

فوصف القرآن العظيم بالنور .

وقال تعالى : ﴿ الله نور السماوات والأرض ﴾ .

ولله المثل الأعلى ، والوصف الأسمى ، جلّ وعلا عن التشبيه والتمثيل . . اهـ .

المنيرة في جميع العوالم لجميع العوالم .

قال تعالى في شمس السماء الفلكية : ﴿ وجعلنا سراجاً وهّاجا ﴾ .

وقال تعالى في الشمس المحمدية : ﴿ وسراجاً مُنيرا ﴾ .

والفوارق بينهما كبيرة وكثيرة ، أذكر لك جملة منها ظاهرة مشهورة ، وأُكمل ذكر البقية في مناسبة أخرى ـ إن شاء الله تعالى ـ :

أولاً : أن شمس السماء الفلكية هي وهّاجة فهي تضرّ بوهجها إذا جاوز قدر الحاجة ، وإنما ينتفع البلاد والعباد ، والشجر والدواب ، منها بنسبة محدودة ، ويستغنون عنها مدة مديدة من الزمن .

وأما الشمس المحمدية فهي المنيرة ، ومن المعلوم أن النور لا يُستغنى عنه ليلاً ولا نهاراً ، فإن النور هو الذي يهديك للأمور ، ويُريك إياها ـ فلو دخلت بيتاً مظلماً تريد حاجة ، أو متاعاً فإنك لا تصل إلى ذلك إلا بواسطة النور ، فهذه الشمس المحمدية هي منيرة للقلوب والبصائر ، والأرواح والعقول ، والأفكار ، فإذا أشرق عليك نور الشمس المحمدية استنارت الروح ، والعقل ، والقلب والفكر ، وجميع المدارك ، وعرفتَ حقائق الأمور ، وعلمت العلم الحق الذي لا مرية فيه ولا شك .

وإذا أعرضت عن نور الشمس المحمدية وألقيت عليك حجاب الكِبر والعِناد ، أو الغفلة ، أو ظلمات الأهواء والشهوات ، فلم يصل إليك نورها ، وبقيت في ظلمات الشك والشكوك والشبهات والأوهام ، وتخبّطت في غياهب الظلمات .

قال تعالى : ﴿ آلر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فاتقوا الله يا أولي الألباب . الذين آمنوا قد أنزل الله

إليكم ذكراً . رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ﴾ .

ثانياً : إن الأبصار العينية هي في حاجة إلى شمس السماء الفلكية مدة من الزمن ، وأما البصائر القلبية والمدارك العقلية فهي في أشد الحاجة دائماً إلى نور الشمس المحمدية ﷺ .

قال تعالى : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾ .

ذهب البعض من السلف إلى أن المراد بالنور هنا القرآن الكريم ، واعتبر هذا العطف من باب عطف الصفات إلى بعضها .

وذهب كثير من السلف إلى أن المراد بالنور هو سيدنا محمد ﷺ ، بدليل أنه ذكر بعده القرآن في قوله تعالى : ﴿ وكتاب مبين ﴾ .

والأصل في العطف أنه يقتضي المغايرة .

وبدليل أنه لو كان المراد بالنور هنا القرآن الكريم لذكره وصفاً بعد الكتاب ـ أي : فيقال : قد جاءكم من الله كتاب نور مبين كما قال تعالى في ـ سورة آل عمران ـ ﴿ والكتاب المنير ﴾ .

ويدل على أن المراد بالنور هنا هو سيدنا محمد ﷺ قوله تعالى : ﴿ وسراجاً منيراً ﴾ .

ثالثاً : الشمس المحمدية في إشراقاتها على هذا العالم هي الممسكة لشمس السماء الفلكية ، وهي الساندة لها ، فما دامت آثار أنوار الشمس المحمدية المشرقة على هذا العالم ، فهذا العالم ثابت الوجود باقٍ ، فإذا غربتْ وزالت تلك الآثار النورانية المحمدية عن هذا العالم ، فقد آذن بالخراب والدَّمار ، فحينئذٍ تحدث الحوادث الكبرى ، فشمس السماء كورت ، والنجوم

انكدرت ، والبحار فجرت . . إلى ما هنالك .

والدليل على ذلك ما جاء في (الصحيحين) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى لا يبقى على وجه الأرض من يقول : الله الله » .

وفي رواية لغيرهما : « لا تقوم الساعة حتى لا يبقى على وجه الأرض من يقول : لا إله إلا الله . . » .

والمراد حتى لا يبقى على وجه الأرض من يؤمن بالله ، ومن المعلوم أن الإيمان هو نور في القلب يعبّر عنه اللسان بالكلام .

وإن الشمس المحمدية هي المنيرة لقلوب أهل الإيمان ، وهي المنيرة لأرواحهم ، ولأشباحهم ، بنص قوله تعالى : ﴿ وسراجاً منيراً ﴾ .

وقد جاء في (الصحيحين) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب درّيّ في السماء إضاءةً . . » الحديث .

ومن المعلوم أن الأقمار والكواكب تستمد نورها من شمسها ، فما هي شمس تلك الزمرة من الأقمار ، وتلك الزمرة من الكواكب ؟!!

نعم : إنما هي الشمس المحمدية صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ، ولقد أفاض الله تعالى النور الوضّاء على جميع ذرّات سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم روحاً وقلباً ، وعقلاً وسمعاً وبصراً ، وفي جميع مداركه ﷺ ، ولذلك كان يقول : « إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون » الحديث كما في الصحيح .

كما أنه ﷺ عَمَّه النور في جميع أجزاء جسده الشريف صلى الله عليه وآله وسلم ، ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم يضربون له المثل في نورانيّة

وجهه الشريف صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم بالشمس أو بالقمر ليلة البدر ، كما قال أبو هريرة رضي الله عنه : « ما رأيت أحسن من رسول الله ﷺ ، كأنّ الشمس تجري في وجهه » صلى الله عليه وآله وسلم .

وقال في حديث هند بن أبي هالة قال :

« كان رسول الله ﷺ يتلألأ وجهه ﷺ تلألؤ القمر ليلة البدر . . » صلى الله عليه وآله وسلم .

وفي ذلك يقول سيدنا العباس عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قصيدته يمدح بها النبي ﷺ :

وأنتَ لما وُلدت أشرقت الأر ... ض وضـاءت بنـورك الأُفُق

فنحن في ذاك الضياء وفي النو ... ر وسُبْـل الـرشـاد نخـترق

❊ ❊ ❊ ❊

عالم الأرض

وقد تناول القرآن الكريم ذكر الأرض في مواضع كثيرة ، بين فيها مادتها التي خلقها الله تعالى منها ، وهي زَبَدُ الماء المتكاثف ، كما تقدم تفصيل ذلك عند قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الذين كفروا أن السماواتِ والأرضَ كانتا رَتْقاً ففتقناهما وجَعَلْنا من الماءِ كلَّ شيءٍ حيٍّ ﴾ الآية .

وقلنا إن ذلك ـ كما قال المحققون ـ ليس هو هذا الماء المعهود لدينا ، لأن هذا الماء الذي نشربه هو أحد عناصر الحياة ، أما ذلك الماء الذي خُلِقت منه الأشياء ففيه جميع عناصر الحياة ، وهو المذكور في قوله تعالى : ﴿ وهُوَ الذي خَلَق السماواتِ والأرضَ في ستة أيام وكان عرشُه على الماء ﴾ ، فمنْ ذلك الماء الذي عليه العرش خَلَق الله تعالى هذه السماوات ، وهذا الفرش ـ أي : الأرض ، قال تعالى : ﴿ والأرضَ فَرَشْناها فنِعْمَ الماهِدُون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ الذي جَعَل لكم الأرضَ فِراشاً والسماءَ بِناءً ﴾ الآية .

وقد بين القرآن الكريم عدد الأَرَضين وأنها سبع أرضين ، بنص قوله تعالى : ﴿ الله الذي خَلَق سبعَ سماواتٍ ومنَ الأرضِ مثْلَهن يَتَنَزَّلُ الأمر بينهنَّ لِتَعْلَموا أن الله على كلِّ شيء قديرٌ وأن الله قد أحاطَ بكل شيء عِلْماً ﴾ .

فقوله تعالى : ﴿ ومنَ الأرض مِثْلَهنَّ ﴾ ينص على المماثلة في كونها سبعاً ، لأن المماثلة يجب أن تُحمل على المذكور نصاً .

وإنما أفرد القرآن الكريم ذِكْر الأرض مع أنها سبع أرضين ولم يجمعها كما جمع السماوات ، ذلك لأن **كلمة السماوات** هي سهلةُ التلفُّظ بها ، وخفيفة التلاوة على اللسان ، فمهما مرّ القارىء على المواضع على ذكر السماوات في القرآن مع كثرتها فإنه يتلوها بيُسْر وسهولة ، وكذلك كلمة الأرض بالإفراد ، فإنها سهلة التلفظ بها ويسرة التلاوة ، بخلاف **كلمة الأرضين** فإن التلفظ بها فيه نوع من الثِّقَل ، فلذلك لم يؤت بها في القرآن الكريم ، فإن الشارع قد حثَّ على الإكثار من تلاوة القرآن الكريم ، والمواظبةِ عليها دائماً آناء الليل وأطراف النهار ، وقد جاء ذكر الأرض في القرآن كثيراً في مواضع عديدة ، فلو أتى بكلمة أرضين مع كثرتها ، وكثرة تلاوتها ، لكان في ذلك نوعُ ثِقَل على اللسان وصعوبةٍ في التلاوة .

ولذلك نرى أن كلمة أَرَضين بصيغة الجمع جاءت في كثير من الأحاديث النبوية ، لأنها لم تبلغ في كثرة ذكرها ، وكثرة ترديدها ما بلغته في القرآن الكريم .

ومن ذلك ما رواه الترمذي عن بُريدة رضي الله عنه قال : شكا خالدُ بن الوليد رضي الله عنه فقال : يا رسول الله ما أنام الليل من الأَرَق !

فقال له النبي ﷺ : « إذا أويتَ إلى فراشك فقل : اللهم ربَّ السماواتِ السبعِ وما أَظَلَّتْ ، وربَّ الأَرَضينَ وما أقلَّتْ ، وربَّ الشياطينِ وما أضلَّتْ ، كنْ لي جاراً من شر خلقك كلِّهم جميعاً أنْ يَفْرط عليَّ أحدٌ ، أو أن يَبغي ، عزَّ جارُك ، وجلَّ ثناؤك ، ولا إله غيرك ، لا إله إلا أنت » .

ويدل قوله تعالى : ﴿ ومنَ الأرض مِثْلَهن ﴾ يدل ظاهراً على أنها طباق ، لأنه سبحانه وصف السماوات في بعض الآيات بأنها سبع طباق قال تعالى : ﴿ الذي خَلَق سبعَ سماواتٍ طِباقاً ﴾ الآية في سورة المُلْك .

فلما قال سبحانه في هذه الآية : ﴿ ومنَ الأرضِ مثلَهن ﴾ دل بظاهره على أن هذه المماثلة تشمل الطبقية أيضاً .

ويؤيد الظاهر ويثبته السنة النبوية ، فإنها بيان للقرآن الكريم ، فقد ورد عن رسول الله ﷺ في كثير من الأحاديث ما يدل على أن الأرضين هي طِباقٌ بعضها فوق بعض :

فمن ذلك ما رواه البخاري في (صحيحه) عن سالم عن أبيه ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَخَذ مِنَ الأرض شيئاً بغير حقِّه خُسِف به يوم القيامة إلى سبعِ أَرَضين » .

وروى الطبراني وابن حبان من حديث يعلى بن مرة مرفوعاً : « أيُّما رجلٍ ظَلَم شِبراً من الأرض كلَّفه الله تعالى أن يُحضِره حتى يَبلُغَ آخرَ سبعِ أرضين ، ثم يُطوقه يوم القيامة حتى يُقضى بين الناس »[1] .

والظاهر من قوله تعالى : ﴿ الله الذي خَلَق سبعَ سماواتٍ ومنَ الأرضِ مثلَهنَّ يَتَنَزَّلُ الأمر بينهن ﴾ الآية ، الظاهر من هذه الآية أن الأَرَضين هي سبعٌ طِباقٌ غيرُ متراكمة ، بل كل واحدة منها منفصلة عن الأخرى ومتباعدة ، كما هو الشأن في السماوات السبع ، وعلى هذا الظاهر جرى أكثر المحققين وجمهور أهل العلم .

كما أنه هو الظاهر من قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الذين كفروا أن السماواتِ والأرضَ كانتا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهما ﴾ ، فالفتق مسلَّطٌ عليهما ، فكما أنه سبحانه فَتَقَ رَتْقَ السماء ، فجعلها سبعاً طِباقاً متباعدة عن بعضها ، كذلك فَتَقَ رَتْقَ الأرض ، فجعلها سبع أرضين طِباقاً متباعدة عن بعضها .

ويبيِّن ذلك ويشهد له ما جاء في السنة النبوية .

---

(١) انظر (فتح الباري) ٥ : ١٠٤ .

فقد روى الإمام الترمذي في (سننه) بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : بينما نبي الله ﷺ جالسٌ وأصحابُه إذ أتى عليهم سَحَابٌ ، فقال نبي الله ﷺ : « هل تَدْرون ما هذا ؟ » .

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : « هذا العَنان ، هذه زوايا الأرض تسوقه إلى قوم لا يشكرونه ولا يَدْعونه » ، ثم قال : « هل تَدرون ما فوقكم ؟ » .

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : « فإنها الرقيع سقف محفوظ وموج مكفوف » .

ثم قال ﷺ : « هل تدرون كم بينكم وبينها ؟ » .

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : « بينكم وبينها خمسُمائة سنة » .

ثم قال : « هل تدرون ما فوق ذلك ؟ » .

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : « فإن فوق ذلك سماءً بُعْد ما بينهما مسيرةُ خمسِمائة سنة » .

حتى عدَّ سبعَ سماواتٍ ما بين كلِّ سماء كما بين السماء والأرض .

ثم قال ﷺ : « هل تدرون ما الذي تحتكم ؟ » .

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : « فإنها الأرض » .

ثم قال ﷺ : « هل تدرون ما الذي تحت ذلك ؟ »

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : « فإن تحتها أرضاً أُخرى ، بينهما مسيرةِ خمسِمائة سنة » .

حتى عدَّ سبعَ أرضين ، بين كل أَرْضينِ مسيرة خمسمائة سنة . الحديث[1] .

قال الحافظ ابن كثير : وقد روى الإمام أحمد هذا الحديث عن شريح ، عن الحكم بن عبد الملك ، عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ فذكره ، وعنده : « وبُعدُ ما بين الأرضَينْ مسيرة سبعمائة عام » .

ثم قال ابن كثير رحمه الله تعالى : ورواه ابن أبي حاتم ، والبزار من جديث أبي جعفر الرازي ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن أبي هريرة ، فذكر الحديث .

وقال ابن كثير : ورواه ابن جرير عن بشر ، عن يزيد ، عن سعيد ، عن قتادة عند قوله تعالى : ﴿ هُوَ الأولُ والآخِرُ والظاهِرُ والباطِنُ ﴾ ، قال قتادة : ذُكِر لنا أن نبي الله ﷺ بينما هو جالس في أصحابه إذْ مرَّ عليهم سحاب فقال ﷺ : « هل تدرون ما هذا ؟ » وذكر الحديث مثل سياق الترمذي سواء إلا أنه مرسل من هذا الوجه ، ولعل هذا هو المحفوظ ؟ والله أعلم . اهـ .

فالأرضون سبع طباق ، وهي لدى ظاهر النصوص القرآنية والنبوية متباعدة عن بعضها كما تقدم ، وعلى هذا جمهور أهل العلم والتحقيق ، فهي قائمة بإقامة الله تعالى لها في هذا الفضاء فوق بعضها ، والله تعالى هو ممسكها ، كما أنه هو ممسك السماوات والشمس والقمر وجميع الكواكب في هذا الفضاء الواسع ، قال الله تعالى : ﴿ إن الله يُمسِكُ السماواتِ والأرضَ أَنْ تَزُولا ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ ومِنْ آياتِه أن تَقومَ السماءُ والأرضُ بأمره

(١) ثم قال الترمذي : هذا حديث غريب من هذا الوجه . اهـ .

ثم إذا دعاكمْ دعوةً من الأرض إذا أنتم تَخْرجون ﴾ .

ولا ينبغي لعاقل أن يقول : لو كان ثَمة أرضون سبعة متباعدة عن بعضها لرآها علماء الفلك في اكتشافاتهم ! .

لأننا نقول : كم وكم من الكواكب في هذا الفضاء الواسع لم يصلوا إليها ، ولم يقفوا على حقيقتها ، ولم يعرفوا عنـــها شيئاً !! وما يُدريك أن سوف يأتي يوم يعثرون فيه على تلك الأرضين !

وذهب بعض العلماء إلى أن الأرضين السبع هي متراكمة وملتصقة ، كما حكى ذلك في (الفتح) وغيره ، وهو خلاف الحقِّ الظاهر الذي عليه الجمهور .

على أنه إذا جاز لنا أن نعدّ هذه الكرة الأرضية باعتبار تعدد طبقاتها المتراكمة فوق بعضها ـ إذا ساغ لنا أن نعدَّها سبع أرضين فينبغي أن نطَّرد هذه القاعدة في كل كتلة ذات طبقات متراكمة ، ينبغي أن نعدّ تلك الواحدة من الكتل سبعاً ، وهذا يجري في الكواكب أيضاً ، فإن الكواكب أيضاً فيها طبقات متراكمة متلاصقة ، كالشمس والقمر وسائر الكواكب ، فلا ينبغي أن نعدَّها باعتبار أنها كتلة متلاصقة ، بل باعتبار طبقاتها التي تكوَّنت تلك الكتلة منها ، وعلى هذا فينبغي أن نعدّ هذه الشمس التي نراها كتلة واحدة ـ ينبغي أن نعدها شموساً ! والقمرُ الواحد الذي نراه ينبغي أن نعده أقماراً ! والكوكبُ الواحد الذي نراه ينبغي أن نعدّه كواكب ! كلاً على حسب طبقاته ، وتعدد معادنه أو تربته ، وهذا غير صحيح ، لأن الله تعالى لما ذكر الشمس والقمر والكواكب ـ وهو خالقها العليم بها ـ أفردها ولم يجمعها لتعدد طبقاتها .

قال الله تعالى إخباراً عن الخليل إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة

والسلام : ﴿ فلما جَنَّ عليه الليلُ رأى كوكباً ﴾ ، ثم قال سبحانه : ﴿ فلما رأى القمرَ بازغاً ﴾ الآية ، ثم قال سبحانه : ﴿ فلما رأى الشمسَ بازغةً ﴾ الآية ـ وهذا كثير في آيات القرآن الكريم ، ورسول الله ﷺ أفرد جميع ذلك ، ولكنه لما ذكر الأرض جمعها في كثير من الأحاديث فقال : « وربَّ الأرضينَ وما أقلّتْ » .

وقال ﷺ في الغاصب : « خُسف به إلى سبع أرضين » .

وما جاء في ذكر الأرض مفردة فيعني بذلك الجنس ، كما هو معلوم .

هذا وإن العاقل لَمَّا يمرُّ على قول الله تعالى : ﴿ الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴾ لما يمرُّ العاقل على هذه الآية يفهم من فحواها أن الأرضين هي سبع متباعدة عن بعضها ، كما أن السماوات سبع متباعدة عن بعضها ، يفهم ذلك من المماثلة .

ولَمَّا يمرُّ على قول النبي ﷺ : « اللهم رب السماوات السبع وما أَظْلَلْنَ ورب الأرضين وما أَقْلَلْنَ . . » الحديث ـ يفهم من هذه المقابلة أن الأرضين هي سبع متباعدة عن بعضها ، كما أن السماوات سبع متباعدة عن بعضها ، بنص أحاديث المعراج والله تعالى أعلم .

وقد أكثر الله تعالى في القرآن الكريم من ذكر الأرض ، وبيَّن أنها من أعظم آياته الدَّالة عليه ، فجعلها فِراشاً ، وذلَّلها لعباده قال تعالى : ﴿ الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً ﴾ الآية .

وجعل فيها أرزاقهم ، قال تعالى : ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ﴾ .

فهو سبحانه جعلها ذلولاً مُنقادة لحفرها ، وشقها ، والبناء عليها ، ولم

يجعلها مستصعبة ، أو ممتنعة على من أراد ذلك منها ، وفي ذلك تسهيل لأسباب المعيشة والحياة ، وجعل فيها السُّبل ليتنقلوا فيها في قضاء حوائجهم وتصرفاتهم ، وأرساها بالجبال لئلا تميد ـ تضطرب ـ بهم .

قال تعالى : ﴿ وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيّام سواءً للسائلين ﴾ .

فقد بارك فيها سبحانه ، ومن بركاتها أن الحيوانات كلها وأرزاقها وأقواتها تخرج منها ، وتُخرج للعباد المعادن المختلفة ، وأنواعاً من المواد المشتعلة ، تكون عوناً للعباد على معاشهم ، ومتطلبات حياتهم ، وتقلباتهم في أعمالهم ، ومصانعهم وأسفارهم .

ومن بركاتها أنها تودع فيها الحبة الواحدة فتخرجها أضعافاً مضاعفة .

ومن بركاتها وخيرها أنها تحمل الأذى على ظهرها ، وتُخرج لك من بطنها أحسن الأشياء وأنفعها ، فتواري كل قبيح وتخرج كل حسن ومليح .

ومن بركاتها أنها تستر قبائح العبد وفضلات بدنه وتواريها ، وأيضاً تضمّه كما تضم الأم ولدها وتؤويه ، وتخرج له طعامه وشرابه ؛ فهي أم عطوف حنون .

ولذلك ينبغي أن يراعي العبد جانبها ، وأن يتقي الله تعالى ربه فوق ظهرها .

وقد جاء في الحديث الذي رواه الطبراني بإسناده عن ربيعة الحدسي أن رسول الله ﷺ قال : « تحفّظوا من الأرض فإنها أمكم ، وإنه ليس من أحد

عامل عليها خيراً أو شراً إلا وهي مُخبرة . . .» .

وقد بين سبحانه خلق الأرض ، وما أودع فيها ، والسماوات وما أوحى فيها ، وما بينهما ، فقال سبحانه : ﴿ قل أَئِنّكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض : إئتيا طوعاً أو كرهاً قالتا : أتينا طائعين فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ .

والمعنى : كيف تكفرون بالله الخالق ـ تنكرونه أو تشركون معه ـ والحال قد أشهدكم مشاهد ربوبيته في العوالم المحيطة بكم ، فهذه الأرض تحتكم ، وما عليها تشهد وتشهدكم آيات قدرة الله تعالى ، وعلمه ، وحكمته ، وهذه الجبال أمامكم فيها مشاهد قدرته وعلمه . . .

فذلك الله رب العالمين حقاً .

وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما : (أن الله تعالى خلق الأرض في يومين من زبد الماء الذي خلقت منه الأشياء المُسمّى بماء الحياة ـ كما تقدم ـ ، ثم استوى إلى السماء وهي دخان وهو بخار الماء فخلق السماوات في يومين ، ثم دحى الأرض بعد ذلك ، فأخرج منها مرعاها ، والجبال أرساها ، وخلق الآكام ، وما عليها من الأشجار ، وقدّر فيها أقواتها ، وذلك في يومين آخرين ، فهذا معنى وجعل فيها رواسي من فوقها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام . . .) .

ومن هنا تعلم أنه لا اختلاف بين قوله تعالى : ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهنّ سبع سماوات وهو بكل

شيء عليم ﴾ .

وبين قوله تعالى : ﴿ أَأَنْتُم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعاً لكم ولأنعامكم . . ﴾ .

وقد روى البخاري ما تقدم عن ابن عباس في الجمع بين هذه الآيات ، وكفاك بهذا البيان عن ترجمان القرآن ، رضي الله عنه .

وفي قوله تعالى : ﴿ وقدّر فيها أقواتها ﴾ ـ أي : قدر فيها المعايش والأقوات منذ خلقها على الوجه الذي يكفي جميع من يعيش على ظهرها إلى يوم القيامة : من إنسان ، وجانّ ، وحيوان ، وطير ، وسائر ما يدبّ عليها ، بحيث لا يقع خلل ولا نقص في تلك الموازنة المقدّرة لأقوات من يأتي على ظهر الأرض إلى يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ سواءً للسائلين ﴾ .

أي : سواء للسائلين سؤال الذات والحقيقة المفتقرة إلى إمداد خالقها لها بالبقاء ، والوجود ، والحياة ، كلاً على حسبه : الحيوان ، والإنسان ، والطيور ، وسائر ما يدبّ عليها ، فهم يسألون الله تعالى في كل لحظة أن يمدّهم بالوجود والبقاء ، والحياة إلى أجلهم المسمّى لهم كما قال تعالى : ﴿ يسأله مَنْ في السماوات والأرض ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾ ، بعد قوله تعالى : ﴿ وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ﴾ ـ فافهم واعتبر ، فهذا سؤال الذات والحقيقة والحال ، فإن حقائق ما على وجه الأرض وذواتها الوجودية هي تسأل ربّها ما يثبت عليها بقاءها وحياتها .

وأما سؤال الدعاء والقال فهو في قول الله تعالى : ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم . . ﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿ واسألوا الله من فضله ﴾ .

ولذلك ترى أيها العاقل أن الله تعالى يكشف لعباده كل حين عن أسباب جديدة تُخرج لهم الأقوات المقدّرة لهم ، ويوسّعها عليهم ، كما أنه يكشف لهم عن أسباب الطاقات والقوّات ؛ ليستعينوا بذلك على ما ينفعهم في معايشهم وحياتهم ، لأنه سبحانه هو الذي تكفّل بالأرزاق ، كما قال تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾ .

وهو الذي قدّر الأقوات ، وأودع في هذه الأرض آيات وآيات ، قال تعالى : ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ﴾ .

ولذلك دعا عباده إلى النظر إليها ، والتفكر في خلقها وسطحها ، قال تعالى : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ .

كما أنه سبحانه دعا عباده إلى التفكر فيما يخرجه من هذه الأرض ، وإلى التعقّل في آياتها ، قال تعالى : ﴿ وهو الذي مدّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون وفي الأرضِ قطعٌ متجاوراتٌ وجناتٌ من أعنابٍ وزرعٌ ونخيلٌ صِنْوانٌ وغيرُ صِنْوانٍ يُسقى بماءٍ واحدٍ ونفضّل بعضها على بعض في الأُكُلِ إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقلون ﴾ .

والمعنى : أن من عقل وتفكّر في آيات الأرض وعجائبها ، يعلم يقينا بلا شك أن هنالك رباً خالقاً ، عليماً ، قديراً ، حكيماً ، يشهد ذلك في جميع

مشاهد الكون ، فكيف لا يشهد بأنه لا إله إلا الله ؟!! وكيف لا يشهد بأن الذي جاء بهذا القرآن هو رسول الله حقاً صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم .

وأما قوله تعالى : ﴿ فقال لها وللأرض : ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا : أتينا طائعين ﴾ .

أي : أتيناك طائعين لأمرك في إيجادنا على الوجه الذي تختاره لنا ، من الشكل والوصف ، والعدد ، والمساحة ، والطبيعة ، والكيف ، والكمية ، وطائعين لأوامرك التي تحملنا إياها ، وتريد منا تنفيذها .

ولذلك ترى أيها العاقل أن السماء والأرض مطيعات لله تعالى فيما يأمرهنّ ؛ فلما أمر سبحانه السماء أن تمطر بماء منهمر ، وأمر الأرض أن تتفجر عيوناً لطوفان الكافرين من قوم نوح عليه السلام أطعن أمر الله تعالى في ذلك ، ولما أمر السماء بالإقلاع ، والأرض أن تبلع ماءها الذي فجرته أطعن الله تعالى في ذلك :

قال سبحانه : ﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر ﴾ الآية .

ولما أمر الله تعالى الأرض أن تحفظ أجساد الأنبياء أطاعت أمر الله تعالى ، قال ﷺ : « إن الله تعالى حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء . . . » الحديث .

وكذلك بعض الأولياء قد يكرمهم الله تعالى بذلك بسبب اتباعهم الكامل لسيدنا محمد ﷺ إمام الأنبياء والمرسلين .

وقد أمر الله تعالى الأرض أن تحفظ أعمال من على ظهرها من المكلفين ، وتحفظ أقوالهم وأفعالهم : الصالحة والطالحة ، وتتحمل هذه المسؤولية ،

وهذه الشهادة ، ثم تؤدي هذه الشهادة كاملة يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ يومئذ تحدّث أخبارها بأن ربك أوحى لها ﴾ الآية .

وقد بين ذلك ﷺ حيث قال : « أتدرون ما أخبارها » ؟

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : « هو أن تشهد على كل عبد وأمة ـ أي : كل ذكر وأنثى ـ بما عمل على ظهرها ؛ تقول الأرض : عملت يوم كذا : كذا وكذا ، فهذه أخبارها . . » الحديث .

وأما قوله تعالى : ﴿ وأوحى في كل سماء أمرها ﴾ .

الايحاء : هو الإعلام عن طريق خفيّ سريع ، ينتهي إلى الموحى إليه .

قال تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ﴾ .

وجيء هنا بحرف ﴿ في ﴾ حيث قال جلَّ وعلا : ﴿ وأوحى في كل سماء . . ﴾ ، ولم يقل : إلى لتضمّنه معنى الإيداع ، والمعنى : أعْلمنا كلَّ سماء أمرها ، وأودعناه فيها .

وذلك أن الله تعالى أوحى في كل سماء أمرها المناسب لها حسب استعدادها .

والمراد بالأمر ما يصلح به حالها ، وما يصلح به حال سكانها الذين أسكنهم الله تعالى في كل سماء ، من عالم الملائكة ، وعالم الروح ، وما رتّب فيها من منازل الأنبياء فيها صلوات الله تعالى وسلامه على نبينا وعليهم أجمعين .

كما جاء في أحاديث المعراج ، أن آدم عليه السلام في السماء الأولى ، وعيسى وابن خالته يحيىٰ في الثانية ، ويوسف في الثالثة ، وإدريس في

الرابعة ، وهارون في الخامسة ، وموسىٰ في السادسة ، وخليل الرحمن إبراهيم على نبينا وعليهم الصلاة والسلام في السابعة ، وهكذا الأنبياء كلٌ في سماء حسب أمر الله تعالى في تلك السماء ، لمناسبات واستعدادات ، وما وكل إليهم من المهمات والأمور المتعلقة بتلك السماء والأرض ؛ فإن من الأمور الموحاة في كل سماء ما يتعلق بعالم الأرض ، وما يخلق الله تعالى فيها ، وما يجري على ظهرها ، فهذه أمور تتنزل من السماء الموحاة فيها .

قال تعالى : ﴿ الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴾ .

فما يُخلق في عالم الأرض ، وما يحدث فيها ، كل ذلك له وجودٌ أمريٌّ في السماء التي أُوحِيَ فيها ذلك الأمر .

فما يحصل من التوالد والإذكار والإيناث له تعلق بأمر السماء الدنيا ، وكذلك سعادة السعداء من ذرّية آدم ، وشقاوة الأشقياء من ذرّيته ، وبيان أصحاب الجنة ، وبيان أصحاب النار منهم ، كل ذلك راجع إلى السماء الدنيا التي فيهاآدم عليه السلام ، ويدل على ذلك ما رواه البخاري وغيره في حديث المعراج يقول ﷺ : « فلما فتح علونا السماء الدنيا فإذا رجل قاعد عن يمينه أسودة ـ أي : أشخاص ، جمع سواد كأزمنة جمع زمان ـ وعن يساره أسودة ، فإذا نظر قِبلَ يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل شماله بكى » .

وفيه : « فقال جبريل عليه السلام : هذا أبوك آدم فسلم عليه فردّ علي السلام ثم قال : مرحباًبالنبي الصالح والابن الصالح » .

وَوَصَفُهُ بصلاح النبوّة ، وصلاح البنوّة يشير بذلك إلى أنه ﷺ هو الجامع لصلاح الأنبياء ولصلاح الأبناء على أكمل الوجوه وأعلاها ، وقد بلغ من

مرتبة الصلاح منتهاها .

وفي ذلك يفتخر آدم عليه السلام بأبوته للنبي ﷺ ـ نعم ولا فخر أفضل من هذا الفخر .

« قلت : يا جبريل ما هذه الأسودة ؟ قال : هذه الأسودة عن يمينه وشماله نسم بنيه ـ أي : أرواح بنيه ـ فأهل اليمين منهم أهل الجنة ، والأسودة التي عن شماله أهل النار » .

فهذه النسم ـ أي : الأرواح ـ هي التي لم تدخل الأجساد بعدُ وسوف تدخلها ، فإن الأرواح مخلوقة قبل الأجساد ومستقرها عن يمين آدم إن كانوا سعداء ، وعن شماله إن كانوا أشقياء ، وأما الأرواح التي دخلت في الأجساد فليست مرادة هنا ، وكذلك الأراوح التي دخلت في الأجساد ثم انتقلت بالموت إلى البرزخ فليست مرادة هنا أيضاً ، بل هي كما أخبر النبي ﷺ :

فقد روى الطبراني والبيهقي وغيرهما بسند حسن عن أم بشر بنت البراء وكعب بن مالك أن النبي ﷺ قال : « إن نسمة المؤمن تسرح في الجنة حيث شاءت ، ونسمة الكافر في سجين » .

قال بعضهم : إن النسم التي رآها ﷺ هي جميع الأرواح الآدمية ، باعتبار تمثلها في عالم المثال ـ والله تعالى أعلم .

وأما ما يتعلق بأشراط الساعة والدجّال ، وغير ذلك . . فمرجعه إلى الأمر المُوحى في السماء الثانية ، التي فيها سيدنا عيسىٰ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، يدلك على ذلك ما رواه الإمام أحمد وابن ماجه وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لقيت ليلة أُسري بي إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ فتذاكروا أمر الساعة فردّوا أمرهم إلى إبراهيم فقال : لا علم لي بها ،فردّوا الأمر إلى موسىٰ ، فقال : لا علم لي بها ؛ فردّوا الأمر إلى

عيسى ، فقال : أمّا وَجبتُها ـ أي : وقتها الذي تقع فيه ـ فلا يعلم بها أحد إلا الله تعالى ، وفيما عهد إليّ ربي ـ أي : أعلمني وهو في السماء الثانية ـ أن الدّجال خارج ـ أي : سيخرج ـ ومعي قضيبان ـ أي : أنزل ومعي قضيبان ـ فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص ، فيهلكه الله تعالى إذا رآني ،حتى إن الحجر والشجر يقول : يا مسلم إن تحتي كافراً فتعال فاقتله ، فيهلكهم الله تعالى ـ أي : يهلك الدجّال وأتباعه الكفرة ـ

ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم ، فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حدب ينسلون ، فيطؤون بلادهم ، ولا يأتون على شيء إلا أهلكوه ، ولا يمرون على ماء إلا شربوه ، ثم يرجع الناس إليّ فيشكونهم ، فأدعو الله عليهم ، فيهلكهم ويميتهم ، حتى تجوي الأرض ـ أي : تُنْتِن الأرض ـ من نتن ريحهم ، فينزل الله المطر فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر .

ففيما عهد إليّ ربي أن ذلك إذا كان ـ أي : وُجِدَ ووقع ذلك ـ فإن الساعة كالحامل المتمّ ـ أي : التي آن ولادتها ـ لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادتها ليلاً أو نهاراً » .

ومما يتعلق بالأمر الـمُوحى في السماء السابعة ـ قضايا التوحيد والإيمان ، وهي السماء التي فيها خليل الرحمن مسنداً ظهره إلى البيت المعمور بتوحيد الله تعالى وعبادته ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك يعبدون الله تعالى فيه ، ثم يخرجون ولا يعودون مرة ثانية الدهر كله ، لأن النوبة لغيرهم من الملائكة عليهم السلام .

ولذلك لما مرّ به سيدنا محمد ﷺ ليلة أُسري به أرسل معه إلى أمته بشارة كبرى ، وهدية عظمى ، كما روى الترمذي : عن ابن مسعود رضي الله عنه

قال : قال رسول الله ﷺ : « لقيت إبراهيم ليلة أُسري بي فقال : يا محمد أقرىء أمتك مني السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ـ أي : فيها بقاع أرضية واسعة صالحة للزراعة والغرس ـ وأن غِراسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » .

وزاد الطبراني : « ولا حول ولا قوة إلا با لله » .

ومن المعلوم أنّ هذه الكلمات هي أصول التوحيد ومجامعه .

فالتسبيح هو : تنزيه الله تعالى عما لا يليق بمقام ألوهيّته .

والتحميد هو : إثبات المحامد والكمالات المطلقة التي لا تتناهى ، إثبات ذلك لله تعالى على الوجه الذي يليق به .

ولا إله إلا الله : توحيده في التنزيه ، وإثبات المحامد والكمالات ، وأنّ غيره لا يشاركه في ذلك .

والله أكبر : والمعنى : أنه سبحانه هو أكبر مما سبّحناه ،وأكبر مما حمدناه ،وأكبر مما كبّرْناه ، وذلك أننا سبّحْنَاه وحمدناه وكبرناه على حسب علمنا به ، وإن علمنا به هو محدود ومتناه ، فإنّ أحداً لا يمكنه أن يحيط به علماً ، فلا يمكنه أن يحصي ثناءً عليه ، بل هو سبحانه كما هو أثنى على نفسه جلّ وعلا .

وأما ما يتعلّق بأحكام التشريع إحكاماًونسخاً فهو من أمر السماء السادسة ، تنزل عليها الأوامر من العرش ، ومنها تنزَّل إلى عالَم الأرض .

والدليل على ذلك ما جاء في حديث المعراج المتفق عليه أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما مرَّ على موسى عليه السلام ، وقد فُرض على أمته خمسين صلاة ، قال له موسى عليه السلام : « ارجع إلى ربك فسله التخفيف ، فإن أمتك لا تطيق ذلك » .

قال صلى الله عليه وآله وسلم : « فرجعتُ فوضع عني عشراً ، فرجعت إلى موسى فقال : بمَ أمركَ ؟

قلت : وضع عني عشراً ، قال : فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فرجعتُ فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله »، قال صلى الله عليه وآله وسلم : « فلم أزل بين ربي وموسى حتى أمرتُ بخمس صلوات ، فرجعت إلى موسى عليه السلام فقال : بِمَ أمرت ؟ قلت بخمس صلوات كل يوم ، فقال إنّ أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك .

قلت : قد سألتُ ربي حتى استحييت ، ولكن أرضى وأسلِّم ، فلما جاوزت موسى عليه السلام ، نادى مناد : أمضيت فريضتي ، وخففت عن عبادي ، هنَّ خمس وهنَّ بخمسين لا يبدل القول لديَّ » .

* * * *

عالم الملئكة

وقد تكلمت على عالم الملائكة في كتاب : (الإيمان بالملائكة عليهم السلام) ، وأتبعته ببحث نافع جداً حول عالم الجن فارجع إليه .

كما أنّ القرآن الكريم تناول ذكر عوالم كثيرة وكبيرة ، منها ما ذكرته في هذا الكتاب ، وثمَّة عوالم وعوالم ، مذكورة في القرآن الكريم ، ومبينة في أحاديث رسول الله ﷺ .

وسوف نبحث فيها ونفصلها إن شاء الله تعالى في كتاب مستقل ، لتتمَّ وتعمَّ الفائدة ، فيتذكر العاقل ، ويتعلم الجاهل ، ويقوى إيمان الموحِّد ، ويُوحِّد المُعطِّل الملحد .

وهذا هو مقصدي من نشر هذه الكتب ، وهو بُغيتي ، وذلك سعادتي وأُمنيتي ، فإن أبحاثي المتعلقة بكتاب الله تعالى ونشري لأحاديث رسول الله ﷺ ،لا أبغي بذلك إلا رضى الله تعالى ، ورضى رسوله ﷺ ، فقد قال الصادق المصدوق رسول الله الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، لأمير المؤمنين علي كرم الله تعالى وجهه : « لَأن يهدي الله بك رجلاًواحداً خير لك من حُمر النَّعَم » .

وإنّي لأحمد الله تعالى حمداًيليق بكماله ونواله ، أن جعل في كتبي نوراً محمدياً ، تزول به الشبهات ، وتمحى به الظلمات ، وذلك من فضل الله تعالى .

اللهم اجعلنا هداة مهتدين غير ضالين ولا مُضلِّين ، ولا فاتنين ولا مفتونين ، ولا غارِّين ولا مغرورين ـ آمين .

وإنما ذكر الله تعالى في القرآن الكريم أنواعاً كثيرة من العوالم ، لتعلم العقلاء علماً قطعياً سعة علمه سبحانه ، وعظمة قدرته ، وبديع حكمته ، ونفوذ إرادته ، وتشهد في العالم دلائل وحدانيته ، فهي عوالم ـ أي : علامات ودلائل وشواهد تُشهدك : « **لا إله إلا الله** » .

ففي آيات القرآن الكريم استعراض لذكر تلك العوالم ، وبيان عجائبها ، وبديع صنعها ، وكل ذلك أدلة على عظمة صانعها وخالقها ، قال تعالى : ﴿ صنع الله الذي أتقن كل شيء ﴾ .

أي : فاعقلوا معاشر الناس العقلاء وفكروا في وجوه إتقان خلق الله تعالى .

وقال سبحانه : ﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه ﴾ .

فإتقانه كل شيء ، وإحسانه لكل شيء ، ظاهر في كل شيء ، فكيف يُنكَرُ المُتقن الذي أتقنها ؟ وكيف يُنكَر المحسن الذي أحسن خلقها ؟!! فليفكروا في كل شيء ، يدلّهم على خالق كل شيء .

قال تعالى : ﴿ أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء . . . ﴾ الآية .

ولذلك كانت الرسل صلوات الله تعالى على نبينا وعليهم ، يقيمون الحُجج على أممهم بآيات الأكوان ، للاستدلال على المكوِّن ووحدانيته ، ويذكرون لهم العوالم ، لأنها مشاهد قدرة الله تعالى ، ومعالم دالَّة على سعة علمه وحكمته ، وعلامات دالّة على كمال جميع صفاته سبحانه ، كما سنوضحه إن شاء الله تعالى .

مُنَاظَرَاتُ الرُّسُلِ

صلوات الله تعالى وسلامه على نبينا وعليهم

لِأُمَمِهِمْ وَإِدْلَاؤُهُم بِأَنواعِ الحُجَجِ مِنَ العَوالِمِ الكَونِيَّةِ

لقد ذكر الله تعالى في الكتاب العزيز أنواعاً من مناظرات الرسل لأممهم ـ صلوات الله تعالى وسلامه على رسولنا وعليهم ـ وإقامتهم البيّنات القاطعة، والبراهين الساطعة على أممهم، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، ومناظرات الرسل لقومهم كانت متنوعة ومتعددة، في مجالس متعددة، فإن تبليغ الرسالة، ونشر الدعوة، يحتاج إلى مجالس متعدّدة، ولذلك تجد أن الله تعالى ذكر قصص الرسل ومناظراتهم لقومهم ـ ذكر ذلك في مواضع متعددة من القرآن الكريم ـ وليس ذلك من باب التكرار للقصة وما فيها من المناظرة ـ كما يظنه بعض الجهال ـ وإنما ذلك من باب ذكر ما جرى بين الرسل وأممهم من المجادلات في مجالسهم المتعددة، في الليل والنهار، ففي كل موضع من القرآن الكريم يذكر الله تعالى وجهاً من وجوه المناظرات والمجادلات، حسب المناسبة لذلك الموضع من القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿ كتاب أُحكمت آياته ثم فُصلت من لدن حكيم خبير ﴾.

والبحث في تلك المناظرات واسع جداً يحتاج إلى مصنف عظيم، ولكن أذكر في هذا الكتاب طرفاً من تلك المناظرات على وجه مختصر، وأترك ما وراء ذلك إلى كتاب آخر ـ إن شاء الله تعالى.

مناظرة سيدنا نوح على نبينا وعليه الصلاة والسلام لقومه

قال تعالى - مخبراً عن بعض مناظرات نوح لقومه :

﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً ألم تَرَوا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاًوجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً والله أنبتكم من الأرض نباتاًثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاًوالله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً .. ﴾ .

التفسير : قوله تعالى : ﴿ **مالكم لا ترجون لله وقاراً** ﴾ أي : مالكم لا تُبالونَ لله عظمة ولا إجلالاً ولا مهابة ، ولا تخشون عقابه ، فإن الله تعالى له العظمة كلّها ، وله العزة والجلال ، وهو الكبير المتعال ، فاخشوه وخافوا عقابه ، وعظموه ، وذلك بإيمانكم بوجوده ، ووحدانيته ، ومحامده ، وكمالاته التي لا نهاية لها .

﴿ **وقد خلقكم أطواراً** ﴾ - أي : والحال قد تجلَّت عظمته وعزّته وقدرته وحكمته في خلقكم وتطويركم ، وفي خلق العوالم المحيطة بكم ، السماوية والأرضية وما فيهما ، فكلها مظاهر قدرته ، ومجالي عظمته وكبريائه وعزّته .

﴿ وقد خلقكم أطواراً ﴾ : وذلك باعترافكم وإقراركم ، فإنه سبحانه خلقكم مُطوِّراً لكم في أطوار ، ومقلّباًلكم في حالات مختلفة ومتنوعة : أغذية ثم أخلاطاً ، ثم نطفاً ثم علقاً ، ثم مضغاً ، ثم عظاماً ولحوماً .... ﴿ ثم أنشأكم خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ .

ثم طوركم في أحوال مختلفة بعد الولادة : الطفولة ، ثم الصبا ، ثم الشباب ، ثم الكهولة ، ثم الشيخوخة ، فهذا مما يوجب على العاقل أن يعظم الله تعالى ويخشاه وأن يُجلّ مقامه ويهاب سلطانه . . إذاً : ﴿ مالكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً ﴾ تشاهدونها وتتقلبون فيها ، فمن المُطوِّر؟ نعم هو الله تعالى وحده .

ثم بعد ما ذكر لهم جملة من الآيات النفسية ، أتبعها بجملة من الآيات الآفاقية المحيطة بهم المشهودة لهم فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً ﴾ ـ أي : جعل القمر في جهتهن نوراً ـ ﴿ وجعل الشمس سراجاً ﴾ .

والمعنى : أن الله تعالى الذي جعل ذلك ، ونظم أمر العالم ، وأحكم صنعه ، إنّه حقاًالعظيم جليل ، عليم حكيم ، يجب إجلاله وتعظيمه .

ثم لفت نظرهم إلى التفكر فيما وراء هذا العالم ، وما بعد الموت ، وأنّ الإعادة هي حق كالبداءة فقال : ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً ﴾ ، فمن أنكر الإعادة يلزمه إنكار البداية ، فالذي أنبتكم من الأرض ، كما أنبت جميع النباتات هو يعيدكم فيها ، ويخرجكم إخراجاً آخر ، بنشأة أخرى .

ثم لفت عقولهم إلى التفكر في عناية الله تعالى ببني الإنسان ، ورأفته ورحمته بهم ، وإسباغ نعمته على عباده فقال تعالى : ﴿ والله جعل لكم الأرض بساطاً ﴾ أي : فأنتم تتقلبون في سهولها ، وتمشون عليها ، ممهّدة لكم كالبساط ، فليست كلها جبالاً أو أودية ، بل جعل لكم فسحها الكبير منبسطاً لكم سهلاً ممهداً : ﴿ لتسلكوا منها سبلاً ﴾ أي : طرقاً ﴿ فجاجاً ﴾ أي : واسعة ممتدة طويلة المساحة ، تذهبون فيها وتجيؤون ، وتسافرون

وتنعمون ، وتزرعون وتغرسون ، وتبنون فيها بيوتاً وقصوراً. . . ، إلى ما هنالك من المرافق والمنافع التي تعود عليكم . . .

وهذه إحدى مناظرات نوح ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ لقومه

* * * * *

مناظرة سيدنا إبراهيم الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام لقومه

قال الله تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر : أتتخذ أصناماً آلهةً إني أراك وقومك في ضلالٍ مبين وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين فلما جَنَّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال : لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغاً قال : هذا ربي فلما أفل قال : لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين فلما رآى الشمس بازغة قال : هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال : يا قوم إني بريّء مما تشركون إنّي وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين . وحاجّه قومه قال : أتحاجّونيِّ في الله وقد هدان ولا أخاف ما تُشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكَّرون وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأيّ الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ـ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أُولئك لهم الأمن وهم مهتدون ـ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم . . ﴾ .

فناظر الخليل ـ عليه السلام ـ عبّاد الأصنام من قومه ، وكان آزر هو زعيم القوم فوجّه الخطاب إليه لأن القوم تبع له .

﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة . . ﴾ ـ أي : أتجعل المصنوع من الأصنام التي أنتم ركبتموها بأيديكم ـ أتتخذونها آلهةً تُعبد فإنها

لا تضر ولا تنفع ، بل عن نفسها لا تدافع ولا تدفع ، بل المصنوع هو أحق أن يعبد صانعه الذي صنعه ولا عكس ؛ إذاً : ﴿ إني أراك وقومك في ضلال مبين ﴾ واضح لدى كل ذي عقل .

وكان آزر عمّ إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ ولم يكن والده النسبي ، وإنما أطلق عليه اسم الأب ، لأن العم يطلق عليه اسم الأب ، قال تعالى : ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً .. ﴾ ففي هذه الآية إطلاق الأب على الوالد النسبي ، وعلى الجد ، وعلى العمّ ، وهو إسماعيل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام .

وقد جاء إطلاق الأب على العمّ في جميع اللغات العربية وغيرها .

وكون المراد بالأب في قوله تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه .. ﴾ العمّ هذا هو الذي عليه الجمّ الغفير من العلماء المحققين والمؤرخين ، وهو الثابت بالأدلة :

أولاً : قال الزجّاج : ليس بين النسّابين ـ أي : علماء النسب ـ اختلاف في أن اسم أبي إبراهيم عليه السلام : (تارح) بتاء مثناة فوقية وألف وبعدها راء مفتوحة وحاء مهملة ، ويروى بالخاء المعجمة . اهـ .

وأخرج ابن المنذر بسند صحيح عن ابن جريج أن اسم والد إبراهيم عليه السلام (يترح أو تارح) . اهـ أي : وليس اسمه آزر بل آزر عمّه .

ثانياً : إن الله تعالى ذكر في القرآن الكريم أن إبراهيم عليه السلام قد استغفر لأبيه ـ أي : عمه ـ وأنه تبرّأ بعد ذلك منه ، ثم ذكر لنا أن إبراهيم قد استغفر لوالديه الذين ولداه ولسائر المؤمنين ، ولم يتبرأ بعد ذلك من هذا الاستغفار ، لأنه صادف محله وهو من المؤمنين .

قال تعالى : ـ في استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه أي : عمِّه : ﴿ واغفر لأبي إنه كان من الضَّالين ﴾ ثم بيَّن سبحانه فقال : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه ـ أي : عمه ـ إلا عن موعدة وعدها إيّاه فلما تبين له أنه عدوٌّ لله تبرأ منه . . . ﴾ الآية .

وأما استغفاره لوالديه فقد ذكره سبحانه في سياق القبول والإجابة : قال تعالى : ﴿ رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربَّنَا وتَقَبَّل دعاء ربَّنَا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب . . ﴾ .

فاستغفاره لوالديه الذَيْن ولداه الوارد في هذه الآية هو غير الاستغفار الوارد لأبيه ـ أي : عمه ـ في تلك الآية ويدل على ذلك الوجه الآتي :

ثالثاً : روى ابن المنذر في تفسيره بسند صحيح عن سُليمان بن صُرد قال : لما أرادوا أن يُلقوا إبراهيم عليه السلام في النار جعلوا يجمعون له الحطب حتى إن كانت العجوز لتجمع الحطب ، فلما تحقق ذلك ، قال : **حسبي الله ونعم الوكيل** ، فلما ألقوه قال الله تعالى : ﴿ يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾ فكانت .

فقال عمّه : من أجلي دفع عنه حرُّ النار ، فأرسل الله تعالى عليه شرارة من تلك النار فوقعت على قدمه فأحرقته .

وروى ابن المنذر أيضاً عن محمد بن كعب وقتادة ومجاهد والحسن وغيرهم : أن إبراهيم عليه السلام لم يزل يستغفر لأبيه ـ أي : عمّه ـ حتى مات ، فلما مات تبين له أنه عدوٌّ لله فلم يستغفر له ، ثم هاجر إبراهيم عليه السلام بعد موت أبيه ـ أي : عمه ـ وبعد واقعة النار هاجر إلى الشام ، ثم دخل مصر ، واتفق له مع الجبار ما اتفق ، ثم رجع إلى الشام ومعه هاجر ، ثم أمره الله تعالى أن ينقل هاجر وولدها إسماعيل إلى مكة فنقلهما ودعا هناك

فقال : ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ﴾ إلى قوله : ﴿ ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ ـ فدل ذلك على أن المذكور في القرآن بالكفر هو عمّه ، كما في الأثر الأول الذي رواه ابن المنذر ، وأن الذي هلك قبل الهجرة هو عمه ، ودل الأثر الثاني على أن الاستغفار لوالديه الذين ولداه ـ كان بعد هلاك أبيه ـ أي : عمه ـ بمدة طويلة ، وهذا ظاهر في أن الهالك أولاً هو العمّ الكافر ، المعبّر عنه بالأب مجازاً ، ولذلك لم يستغفر له بعد الموت على الكفر ، وأنّ الذي استغفر له بعدُ هو والده الحقيقي ووالدته .

ومن تدبّر في قوله تعالى إخباراً عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿ إذ قال إبراهيم لأبيه وقومه ماذا تعبدون ؟ أَئِفْكاً آلهة دون الله تريدون . . ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ أتعبدون ما تنحتون ؟ والله خلقكم وما تعملون . قالوا : ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم . فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين . وقال : إني ذاهب إلى ربي سيهدين . رب هب لي من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعي قال : يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال : يا أبتِ افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ ـ من تدبر في هذه الآيات وتأمّل فيها يتضح له جليًّا أنه هاجر بعد واقعة النار ، وبعد ذهابه إلى مصر ، ورجوعه ومعه هاجر ، وولدت له إسماعيل عليه السلام ، وهاجر بهما إلى مكة ، وهناك أُمر بذبح ولده إسماعيل ، ودعا بما تقدم في قوله تعالى : ﴿ ربنا إنِّي أسكنت من ذريتي . . . ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب . . ﴾ .

اللهم أدخلنا في سلك المؤمنين برحمتك يا أرحم الراحمين .

فأنت أيها العاقل ترى أن الاستغفار المتقدم هو خاصٌّ ـ أي : بعمه ـ وأما

هذا الاستغفار الثاني هو عامٌّ لوالديه ولجميع المؤمنين ، فدخل والده في عموم المؤمنين أيضاً بعدما خصَّهما .

فإن عاند معاند في هذا الموضوع ، قلنا له : إذا لم يكن الأمر كما بيّنت لك من الفرق بين الاستغفارين والمستغفر لهما ـ فما هو وجه التوفيق بين الآيتين الكريمتين ؟!

فإن الاستغفار الأوَّل تبرأ منه في الدنيا بعدما مات آزر على الكفر ، وأما الاستغفار الثاني فهو لنفسه ولوالديه وللمؤمنين ـ وعلَّق ذلك على يوم الحساب .

رابعاً : إن عمود نسب سيدنا محمد ﷺ من آدم إلى نوح ، إلى إبراهيم ، عليهم الصلاة والسلام إلى أبويه الشريفين كله طيب طاهر من دنس العُهر ، ونجس الكفر ، كما دل على ذلك ما رواه أبو نعيم وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً للنبي ﷺ أنه قال : « لم يلتق أبواي قط على سفاح ، ولم يزل الله تعالى ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة ، لا تنشعب شعبتان إلا كنتُ في خيرهما » .

فلم يلتق أحد من آبائه إلى آدم مع واحدة من أمهاته إلى حواء على سفاح ، ولم يزل ﷺ ينتقل من الأصلاب الطيبة بالإيمان إلى الأرحام الطاهرات من الشرك والسفاح ، فإن المشركين نجس كما في نص الآية .

وأما تخصيص الطهارة بأنها الطهارة من السفاح فحسبْ فإنه لا دليل عليه ، لأن العبرة لعموم اللفظ كما هو مقرر عند العلماء .

والبحث في طهارة عمود النسب الشريف ﷺ من الكفر والعهر سيأتيك مفصلاً مع الأدلة في هذا المصنف ـ إن شاء الله تعالى ـ .

والآن نعود إلى ذكر المناظرة بين الخليل ـ عليه السلام ـ وبين قومه :

قال تعالى : ﴿ فلما جَنَّ عليه الليل رأى كوكباً ﴾ . . الآية فبعد أن ناظر عُبَّاد الأصنام من قومه وأقام الحجة عليهم بأنها لا تُعبد ؛ لأنها مصنوعاتهم ، ولا تملك لهم نفعاً ولا تدفع عن نفسها ولا عنهم ضراً ، فبعد ذلك أخذ يناظر عُبّاد الكواكب من قومه ـ وقد كانوا يعبدون الكواكب السبعة وهي : الشمس ، والقمر ، وعطارد ، والمريخ ، وزحل ، والمشتري ، والزّهرة ، فأثبت لهم ـ بدليل تعاقب الأحوال بأنها محدثة ، لم تكن ثم كانت ، وفي ثبوت حدوثها دليل على وجوب أن يكون لها محدث أوجدها .

قال تعالى : ﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكباً ﴾ ـ أي : فلما رأى كوكباً من هذه الخمسة في مجمع من قومه الذين يعبدونها ﴿ قال هذا ربي ﴾ يحكي ما عليه عبّاد ذلك الكوكب ويعرّض بهم مبيناً لهم بطلان اعتقاد ألوهية الكواكب ، ومنبهاً لهم إلى التعقل والتفكر ، والتذكر والتبصر ، فموقفه في ذلك أنه مناظر لقومه ومدل لهم بالحجج ، وليس هو بناظر ومستدل ليتبين له الحق ؛ فإنه على توحيد الله تعالى والإيمان به منذ صغره ـ قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ﴾ .

فلما أفل الكوكب ، قال الخليل عليه الصلاة والسلام : ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ ـ أي : فلما غاب الكوكب قال ذلك ، والأُفول هو الذهاب مع الغياب ، ففي قوله : ﴿ لا أُحِبُّ الآفِلين ﴾ ردٌّ على قومه في اتِّخاذهم الكواكب آلهةً معبودةً ، وإبطالٌ لدعواهم ألوهيتَها ، فكأنه يقول : أنا أكره أن أعبد إلهاً يذهب فيغيب ، فإني لا أحب الآفل ، فكيف أعبده ؟ فإنّ العبادة هي حق الإله الذي لا يذهب ولا يغيب عن خلقه ، لافتقارهم الذاتي إليه ، وعدم استغنائهم لحظة عنه ـ ويتضح ذلك من وجوه :

أولاً : أن الإله الحق هو الذي خلق الخلق ، فلو كان هذا الكوكب أو

الشمس هو الخالق للعالم لم يصحَّ عقلاً أن يذهب ويغيب عنهم ، لحاجة خلقه إليه في إمدادهم بوجودهم وحياتهم ، وتقويتهم في حركاتهم وسكناتهم وجميع شؤوناتهم ، لأنه ما دام هو الذي أوجدهم فإما أن يكونوا استغنوا عنه بوجودهم بعدما أوجدهم ، وحينئذ يكون وجودُهم مثلَ وجوده ، أي : كما أنه مستغنٍ عن غيره ، فهم عنه أغنياء ، بل صاروا حينئذ آلهةً مثلَه ، فمالهم يعبدونه وهم مثلُه في وجودهم المستقل وبقائهم الذاتي .

على أنه لا يُتصور عقلاً أن يَستغنوا عنه بعدما أوجدهم ، لأنّ الذي يستغني بوجوده عن موجِده انتهاءً وبقاء ـ هو مستغنٍ عنه ابتداءً ، إذْ لا فرق في ذلك بين الابتداء والبقاء .

وإما أن يكونوا بعد وجودهم محتاجين إليه ـ كما هو المقرر شرعاً وعقلاً وواقعاً ـ فكيف يذهب موجِدُهم ويغيب عنهم ؟ فإنه إذا غاب عنهم وتركهم : فقدوا وجودهم الذي كان يُمدُّهم به فيرجعون إلى العدم .

وذلك لأن وجودهم وخروجهم من العدم ممكن وليس بواجب ، فإن وجودهم جاء بأمر واجب الوجود لهم بالوجود ، فما دام يُمدُّهم بالوجود فلهم وجود ، وإذا قطع عنهم مَدَد الوجود رجعوا إلى العدم ، لأن وجود الممكن ليس بواجب للممكن ولا مملوك له .

فإن حقيقة الإمكان تقتضي أن لا يثبت للممكن وجود ثابت ذاتيٌّ ، فإن هذا شأن واجب الوجود من ذاته ، فلو ثبت للممكن وجود ذاتي لأدى ذلك إلى انقلاب حقيقة الممكن إلى الواجب ، وهذا مستحيل ، كما أنّ حقيقة الممكن لا تثبت للممكن وجوب العدم الذاتي من نفسه ، فإن هذا شأن المعدوم المستحيل، فإنّ الممكن المعدوم قابل في كل لحظة للوجود، إذا توجَّه عليه الفاعل بالوجود ، وأمدَّه به ، ويدوم له الوجود ما دام الممدُّ يمدُّه ، لأن

الإمكانية لا تفارقه لحظة ، فكيف يستغني عن مدد واجب الوجود لحظة ؟!!!

فإذا غاب قيوم السماوات والأرض ومن فيهنَّ فمن الذي يقوِّم عالم السماوات والأرض ومن فيهن ؟ ومن الذي يُمد تلك العوالم بالإيجاد والإعداد ، وبالهواء والماء والغذاء إلى ما وراء ذلك ؟ بل من هو الذي يُمسك الأرض والسماء أن تَزولا عن أماكنهما وتتساقطا وتتهاويا ؟!.

قال تعالى : ﴿ إن الله يُمْسِكُ السماواتِ والأرضَ أن تَزُولا ولئِنْ زالتا إنْ أمسكهما من أحدٍ مِن بعده ﴾ الآية .

وإلى هذه البينة والحجة المشهودة أرشدنا النبي ﷺ حيث قال ، كما جاء في (صحيح) مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال : « إن الله تعالى لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يَخْفِضُ القِسطَ ويرفعه ، يُرفَعُ إليه عملُ الليل قبل عملِ النهار ، وعملُ النهار قبل عملِ الليل ، حجابُه النورُ ، لو كَشَفه لأحرقتْ سبحاتُ وجهِه ما انتهى إليه بصرُه من خلقه » .

فهو سبحانه لا ينام ، ولا يصحُّ له ولا يمكن أن ينام ، لأنه الحي القيوم الذي قامتْ به العوالم كلها ، وهو المدبِّر والمتصرِّف فيها بالعدل ، فهو يخفِضُ الخفضَ القسطَ ، ويرفع الرفعَ القسطَ جل وعلا .

فهو سبحانه وحده الإله الحق الذي فطر السماوات والأرض ، وهو الشاهد وليس بغائب ، وهو القديم الباقي وليس بذاهب .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عليهِمْ بعلمٍ وما كنَّا غائبين ﴾ - أي : ونقول لهم يوم الحساب : نحن كنا عليكم شهوداً ، وما كنا غائبين عنكم ، لكن ما كنتم تروننا بأعينكم الفانية في الدنيا ، لأنه لا طاقة لكم بذلك .

قال ﷺ : « واعلموا أنّ أحداً منكم لن يَرَى ربَّه حتى يموت » ، كما في (صحيح) مسلم .

فهو سبحانه على كل شيء شهيد ، وهو بكل شيء بصير ، وهو القائم على كل نفس بما كسبت ، وهو العليم الخبير .

وقال الله تعالى : ﴿ الله نور السماوات والأرض ﴾ ، فهو سبحانه منوِّر السماوات والأرض بنور الوجود بعد ما كانت في ظلمة العدم ، فإذا جاز أن يَغيب فمَنِ الذي يُفيض عليها نورَ الوجود ؟!!

فالله تعالى هو الربُّ الخالق وحده ، وهو الإله الحق وحده لا شريك له .

ولذلك قال الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام : ﴿ لا أحِبُّ الآفِلين ﴾ ، والمعنى أن الإله الآفلَ هو إله باطلٌ وليس بإله حق ﴿ إنما إلهكمُ الله الذي لا إله إلا هو ، وسِعَ كلَّ شيء عِلْماً ﴾ - فهو لا يُعبَد ولا يُحبُّ ، فإن المحبة هي قلب العبادة وروحها ، فكل عبادة لم تقم على أساس المحبة للمعبود فهي غير نافعة لصاحبها ، بل كيف يتصور عبادة من يبغضه ؟ .

قال تعالى : ﴿ والذين آمنوا أشدُّ حباً لله ﴾ .

وفي هذه المناظرة دلالة على أمرين هامين عظيمين :

الأول : دعوة الحائرين أو التائهين إلى طريق معرفة الله تعالى ، والإيمان بوجوب وجوده ووحدانيته ، وهذا الطريق واضح جداً ، وهو النظر في هذه الكائنات والمصنوعات والآيات الكونية ، ذات النظام والإحكام ، والتفكُّر في حالها ووضعها .

الثاني : تنبيه العقلاء وإعلامهم بأن كل ذي عقل وفكر ، متى تجرَّد وتفكَّر واعتبر في هذه المخلوقات المرئية ، والمصنوعات الكونية ، لابد من أن يصل إلى نتيجة حقة واضحة ثابتة لا ريب فيها ، وهي أن لهذه المخلوقات فاطراً

فَطَرها ، وخالقاً خلقها ، ولهذه المصنوعات صانعاً صنعها وأتقنها ، وإنْ لم تَرَه الأعين ، فإن رؤية المصنوعات تُثبت وجود الصانع لا محالة ، وبرؤية المخلوق تُثبت وجود الخالق لا محالة ، ورؤية البناء تثبت وجود الباني لا محالة . . .

ولذلك كانت نتيجة المناظرة : ﴿ إني وَجَّهتُ وجهيَ للذي فَطَر السماواتِ والأرضَ حنيفاً وما أنا منَ المُشْرِكين ﴾ ـ أي : هكذا تكون النتيجة لا محالة ، لكلِّ مَنْ نظر في هذا الكون وتفكَّر ، أو حاجَّ فيه وناظر .

* * * *

مناظرة الكليم سيدنا موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام وحجته على فرعون

ومن ذلك ما ذكره الله تعالى لنا في القرآن الكريم من حجته التي لقّنها لموسى الكليم عليه السلام حين مناظرته لفرعون ـ وقد أفحم فرعون وألقمه الحجر .

قال الله تعالى مخاطباً لموسى الكليم عليه السلام :

﴿ واصْطَنَعْتُك لنَفْسي . اذهَبْ أنت وأخوك بآياتي . ولا تنيا في ذكري . اذهَبَا إلى فرعون إنه طغى . فقولا له قولاً لَيِّناً لعلّه يتذكر أو يخشى . قالا : ربنا إننا نخاف أن يَفْرُط علينا أو أن يطْغَى . قال : لا تخافا إنَّنِيْ مَعَكُما أسمع وأرى . فَأْتياه فقولا إنّا رسولا ربِّك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتَّبع الهدى . إنَّا قد أُوحي إلينَا أنَّ العذابَ على من كذَّبَ وتَولّى . . ﴾ .

ففي هذه الآيات الكريمة يبين الله تعالى لموسى الكليم عليه السلام ، قبل أن يذهب إلى فرعون ، يبين له قوة إعداده سبحانه لموسى عليه السلام ، وقوة إمداده إيّاه ، وحيطة معيّته سبحانه له ، وما ينبغي لموسى الكليم أن يتدرّع به ، ويتحصّن به ، متوقيّاً شرّ الطاغية ، وذلك بالحفاظ على ذكر الله تعالى ، وعدم التواني فيه .

كما بين الله تعالى في تلك الآيات طريق عرض الدعوة إلى الله تعالى ،

وذلك بأن تكون بالقول الليّن ، والكلام اللطيف الظريف ، الذي يستميل المخاطب ، ويجذبه نحو الحق ، ويتباعد عن الكلام الغليظ ، والقول العنيف ، فيؤدِّي ذلك إلى النفرة والتباعد .

قال تعالى : ﴿ واصطنعتك لنَفْسي ﴾ أي : أنا الذي صنعتك ، وصنعت بقية الرسل الكرام ، صنعاً فائقاً في الحسن والكمال على صنع غيركم من الناس ، وأودعت فيكم من الخصائص والقوى ، والكمالات والقابليات ، والاستعدادات ، ما لا يوجد في غير الرسل ، ثم أسبغت عليكم نعمة الرسالة ، كما قال سبحانه : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ .

وذلك أن الله تعالى هو صانع العالم كلِّه ، ومن ذلك صنعه للإنسان ، وقد أتقن الله تعالى صنع كل شيء ، قال تعالى : ﴿ صنع الله الذي أتْقن كل شيء ﴾ .

ولكن صنعه للأنبياء والمرسلين فيه من الخصائص ما فيه ، ولذا جيء بقوله : ﴿ اصطنعتك ﴾ وهذه أبلغ من ـ صنعتك ـ كما هو معلوم في اللغة .

فهناك الصنع العام ، وهناك الاصطناع الخاص فافهم . .

ثم بين الله تعالى لموسى عليه السلام ، أنه سبحانه قد اصطنعه لنفسه ـ أي : فأنت يا موسى لي : حياتك وحركاتك ، وسكناتك ، وتقلّباتك كلها ـ وهكذا جميع رسل الله تعالى على نبينا أفضل الصلاة وأكمل التسليم وعليهم أجمعين .

وقد أمر الله تعالى إمام الأنبياء والمرسلين وأكرم الخلائق على رب العالمين سيدنا محمداً ﷺ أن يُعلن هذا المقام ، ويُعلم بذلك جميع الأنام ، فقال له : ﴿ قل : إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ﴾ .

وأعلن ذلك سبحانه في التوارة فقال له : « يا أيها النبي إنّا أرسلناك

شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأمّيّين أنت عبدي ورسولي . . » .

وأمره سبحانه أن يقول في توحيد الصلاة لربه : « أنا بكَ وإليكَ » - أي : أنا بكَ في جميع شؤوناتي ، وحركاتي ، وسكناتي ، وتقلّباتي ، وأقوالي ، وأفعالي كلها بك ، وإليك ، ليس فيّ شائبة لغيرك يا ربّ . صلى الله عليه وسلم كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون .

ثم قال تعالى : ﴿ اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري ﴾ - أي : لا تفترا ، ولا تضعُفا عن ذكركم لي في نفسكم ، ولا عن ذكركم لي أمام فرعون ، بالحمد لي ، والثناء عليّ ، وبيان عظيم قدرتي ، وسلطاني ، وكبريائي ، وإسباغ نعمتي على عبادي ، فإن في ذكركم لي قوة لكم ومَنَعة ، وحصانة لكم ، وإلى هذا يشير الحديث القدسي عن رب العالمين : « أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني » وفي رواية : « وأنا معه إذا ذكرني » وفي رواية : « وأنا معه حيث يذكرني »

فما ظنك بمن كان الله العظيم معه بالخصوص . . ! !

ثم قال تعالى : ﴿ اذهبا إلى فرعون إنّه طغى فقولا له قولاً ليّنا لعله يتذكر أو يخشى ﴾ - أي : فلا تقولا له قولاً غليظاً ، فيه العنف فيزداد كبراً وطغياناً ، بل قولا له قولاً ليّناً لينعطف وينجذب نحوكما ، فيُصغي إليكما ، ويتذكر بذكركما ، ويتّعظ ويخشى لوعظكما .

﴿ قالا : ربَّنا إنَّنا نخاف أن يفرط علينا ﴾ - أي : بأن تأخذه الحدّة فيعجل بالعقوبة من قبل تمام الدعوة وظهور المعجزة ، ﴿ أَو أَنْ يطغى ﴾ فيزداد طغيانه .

﴿ قال : لا تخافا إنّني معكما ﴾ بالحفظ والتأييد ﴿ أسمع وأرى . فَأتياه فقولا : إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم ﴾ - أي :

أطلقهم من ربقة استعبادك لهم ، وتسخيرهم في مشاقّ الأعمال ، ﴿ قد جئناك بآيةٍ من ربّك ﴾ تبرهن لك على وحدانيّة خالقنا ومولانا ، وتثبت لك حقيّة دعوانا .

﴿ والسلام على من اتَّبع الهدى ، إنَّا قد أُوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولّى . . . ﴾ .

ثم قال تعالى مُخبراً عما ألقاه فرعون من السؤال ، وعما أدلى به الكليم من الحجة في الجواب : ﴿ قال : فمن ربكما يا موسى ؟ قال : ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . قال : فما بال القرون الأولى ؟ قال : علمها عند ربي في كتاب لا يضلّ ربي ولا ينسى . الذي جعل لكم الأرض مهداً . وسلك لكم فيها سبلاً . وأنزل من السماء ماءً فأخرجنا به أزواجاً من نباتٍ شَتَّى كلوا وارعَوْا أنعامكم إنَّ في ذلك لآيات لأولي النُّهى . . . . ﴾ .

فهذه إحدى المناظرات التي جرت بين كليم الله تعالى وبين عدوّ الله تعالى .

وذلك أنّ فرعون راح يسأل موسى عليه السلام عن وصف رب العالمين ، الذي دعاه إليه موسى : ﴿ فمن ربكما يا موسى ﴾ ؟ أي : ما هو وصف هذا الرب الذي تدعوني إليه ؟ فأجاب الكليم : ﴿ ربّنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ يعني : أن الله ربنا الذي ندعوك إليه هو الذي أعطى كل شيء ، في عالم الوجود ، أعطاه وجوده الكوني اللائق به ، من حيث حقيقته الوجودية ، وصورته الكونية المناسبة له ، ومن حيث كمه وكيفه ، وزمانه ومكانه ، وشؤوناته وحالاته ، أعطاه ذلك كله حسب ما يليق به ، بمقتضى علمه سبحانه السابق الأزلي ، المحيط بكل شيء ، وحسب حكمته الشاملة لكل شيء ، وبقدرته التي لا يعجزها شيء ، ثم هدى ذلك الشيء الذي

أعطاه خلقه اللائق به المناسب له ، حسب مقتضى الحكمة الإلهية ، هدى ذلك الشيء لما فيه صلاح وجوده ، وحياته ، وبقائه ، ونظام معاشه ، ومعرفته ما يضرّه وما ينفعه من : مطعمه ومشربه ومأواه ؛ وما وراء ذلك .

والمعنى أنك يا فرعون انظر إلى جميع الأشياء : علويِّها وسفليِّها ، وكبيرها وصغيرها ، وإنسانها وحيوانها ، وطيورها ، إلى ما وراء ذلك ـ يتجلّى لك هذان الأمران العظيمان من جميع ما تشاهده من ذلك .

فلو نظرتَ إلى العصفور الذي هو نوع صغير من أنواع الطيور ، لرأيتَ فيه العجب العُجَاب كيف كماله الخَلْقي الذي أعطاه خالقُه فأحسنه وأتقنه وجمَّله ، فجعل له جناحين يطير بهما ، وذنباً بنسبة معينة في الطول والعرض يَتَّزنُ بها طيرانه وحركاته ، ومنقاراً بحجم معين به يلتقط مأكلهُ وبه ينظف جسمهُ ويزقُّ أولاده وفراخهُ وبه يدافع عن نفسهُ وبه يحمل العِيدان ليبنيَ مأوى له ولأُنثاه وفراخهُ وبه وبه . . ثم هداه إلى ما فيه صلاحُ وجوده وبقاءُ نوعه من : طعامه وشرابه ، ومن أين يجلبه وأين يجده ، وما ينفعه من المأكل وما يضره ، ومتى يهبُّ ويطير في النهار ، ومتى يهدأ ويسكن في الليل ، وإلى أين يأوي ليأمَنَ على نفسه وفراخه ، وقد هداه لمعرفة بني جنسه ، وعرَّفه بأنثاه ، وكيف ينزو عليها ، وكيف يعشِّشُ لولادة فراخه ليحفظهم ويربيهم ، ومتى يكون ذلك ، وكيف يزقها ، وكيف يعلِّم فراخه الطيران بتدرُّج ، وهداه لمعرفة عدوه من صديقه ، وكيف يفرُّ من عدوه ويتوارى عنه .

وهكذا النحلة ونظامها العجيب في كُوَراتها وخارج كوراتها .

وهكذا النملة في قريتها ونظامها في الجمع والتحصيل لمؤنة الزمن الطويل ، وتفقدُّها لمؤنتها خوف فسادها ، إلى غير ذلك مما أعطاه الله تعالى

لمخلوقاته ، وهداهم إليه ـ وذلك أمر كبير واسع جداً تعجز عن إحاطته العقول .

فلما سمع فرعون هذا الجواب من موسى عليه السلام ، وفيه الحجة البالغة ـ راح فرعون يفكِّر وينظر فيه ، فرآه حقاًّظاهراً في كل شيء ، ولم يستطع أن ينقضه أو يشاغب فيه ، بل راح يسأل على سبيل التعجب من وضوح هذا الأمر وكفر من كفر وجحود من جحد من الأمم السابقة : ﴿ قال : فما بالُ القُرونِ الأُولَى ﴾ ـ أي : فما بالُهم كفروا ؟ فمنهم المنكرُ وجودَ الله تعالى ، ومنهم المنكرُ لوحدانيته مع وضوح الدليل على وجوده سبحانه ووحدانيته ، وما هي حالهم التي صاروا إليها بعد الموت ؟ .

فأجابه الكليم عليه السلام بأن الله تعالى هو عليم بكفر من كفر من المعاندين والمعارضين ، وهو سبحانه عليم بأقوالهم وأعمالهم وفسادهم وشرورهم ﴿ لا يَضِلُّ ربي ﴾لا يُخطىء في شيء من ذلك ﴿ ولا ينسى ﴾ شيئاً من ذلك ، بل هو على كل شيء حفيظ ، وهو العليم بما كانوا عليه وبما صاروا إليه .

فهو سبحانه المحصي عليهم أقوالهم وأفعالهم ، وسوف يسألهم ويحاسبهم ، وهو معاقبهم على تفريطهم في جنب الله تعالى .

ثم راح الكليم عليه السلام يتابع لفرعونَ الحججَ الدالةَ على وجود الله تعالى ووحدانيته ، بآيات الله تعالى الآفاقيَّة ـ كما علمه الله تعالى ذلك فقال :

﴿ الذي جَعَلَ لكمُ الأرضَ مَهْداًوسَلَكَ لكم فيها سُبُلاً ﴾ ، إلى قوله سبحانه : ﴿ إنَّ في ذلك لآياتٍ لِأُولي النُّهَى ﴾ .

والمعنى : أن فيما تقدم من الحجج والأدلة الواضحة الظاهرة ، في الأنفس

والآفاق ، الدالة على حكمة الله تعالى في خلقه ، وحسن صنعه وإتقانه ـ كما قال تعالى : ﴿ صُنْعَ الله الذي أَتقنَ كل شيء ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ الذي أَحْسَنَ كلَّ شيء خَلَقه ﴾ .

﴿ إن في ذلك لآياتٍ لِأُولي النُّهىٰ ﴾ ـ أي : العقول المفكِّرة المتبصِّرة في الأمور ، التي تَحمل صاحبَها على اتِّباع طريق الحق والهدى ، وتنهى صاحبَها عن سلوك طريق الغَيِّ والرَّدى .

وهذه المناظرة هي إحدى المناظرات التي جرتْ بين موسى الكليم ، وعدوِّ الله فرعون ـ وقد ذكر القرآنُ لنا عدةَ مناظراتٍ بين الكليم وفرعون ، في عدة مجالس ، كان يدعوه فيها إلى الله رب العالمين .

فإن الرسل صلوات الله تعالى وسلامه عليهم ما كانوا يقتصرون في دعوتهم الكفار إلى الإيمان بربهم على مجلس واحد ، بل كانوا يعددون لهم المجالس ، ويأتونهم بأنواع من الحجج ، وألوان من الأدلة ، حسب ما يتطلَّبه الرد على شبهات الكفار ودعاويهم الباطلة .

ومن ثَمَّ يعلم العاقل أنه لا تكرار فيما قصَّه الله تعالى من أخبارهم ومناظراتهم ، فإنها جاءت في مجالس متعددة ، وأوقات مختلفة ، ولذلك نرى أن القرآن الكريم ذكر لنا في سورة الشعراء صيغة سؤال وجَّهه فرعون لموسى الكليم غير صيغة السؤال الواردة في سورة طه ، وجاء الجوابُ من الكليم بأسلوب آخر غير ذلك الأسلوب .

قال تعالى في سورة الشعراء :

﴿ قال فرعون : وما ربُّ العالمين ؟ . قال : ربُّ السماواتِ والأرضِ وما بينهما إنْ كنتمْ مُوقِنين . قال لمن حوله : أَلَا تستمعون ؟ قال : ربُّكم وربُّ آبائكم الأوَّلين . قال : إن رسولَكُمُ الذي أُرسِلَ إليكُم لَمَجْنون .

قال : رَبُّ المشرِقِ والمَغْرِبِ وما بينهما إنْ كُنْتُمْ تَعْقلون . قال : لَئِنِ اتَّخَذْتَ إلهاً غيري لأجْعَلَنَّكَ من المَسْجُونين ﴾ .

فترى أن السؤال هنا جاء بنص آخر ولون آخر ، وجاء الجواب بأسلوب آخر .

﴿ قال فرعون وما ربُّ العالمين ﴾ فجاء السؤال هنا بـ ﴿ ما ﴾ التي يُسأل بها عن الحقيقة ، وأما السؤال هناك فجاء بصيغة ﴿ مَن ﴾ التي يُسأل بها عن الصفة ﴿ قال : فمَنْ ربُّكما يا موسى ﴾ .

فالعرب تقول : ما هذا الشيء ؟ فيأتي الجواب بأنه فضة أو ذهب ونحو ذلك ، وإذا قيل : ومَنْ هو فلان ؟ فيأتي الجواب : فلان هو العالم الصالح الفاضل . . . إلخ .

فراح فرعون يسأل الكليم عن حقيقة ذات رب العالمين ، فقال : ﴿ وما ربُّ العالمين ﴾ ، فأجابه الكليم عن صفات رب العالمين ، لأن الصفات هي التي تُعرِّفك بكمالات الذات ، وتدل عليها ، لأن ذات الباري جل وعلا لا يُمكن لمخلوقٍ مّا أن يعرف كُنْهها .

فإن الله تعالى هو وحده واجب الوجود ، فهو القديم الذي لا أول لوجوده ، وهو الباقي الذي لا انتهاء لوجوده ، وأما المخلوق فهو ممكن الوجود ، فإن وجوده محدود ، له مبدأ وانتهاء ، فكيف يُدرِك صاحبُ الوجودِ الممكنِ المحدود حقيقةَ واجب الوجود المطلق الذي هو غير محدود ؟ وكيف يدرك ويحيط علماً : متناهي الوجود بما لا يَتَناهى في وجوب الوجود ؟ . وكيف يُحيط المخلوق المحاط بمن قد أحاط ؟ فإن الله تعالى أحاط بكل شيء علماً ، وأحاط بكل شيء قدرة ، فكيف يتصور أن تحيط الأشياء المخلوقة علماً أو قدرةً بمن أحاط بها علماً وقدرة .

قال تعالى : ﴿ يَعْلَم ما بينَ أيديهِمْ وما خَلْفَهم ولا يُحِيطونَ به عِلْماً ﴾ ـ يعني : أنّ علمه سبحانه محيطٌ بهم ، فهو العليمُ بما مضى عليهم وتقدَّمهم ، وبما يأتي عليهم وبما بعدهم ، فعلمه محيط بما هو أمامهم وما خلفهم ، فَهُمُ المحاطَون ، وأما هُمْ فَبِهِ لا يُحيطون ، لأنه واجب الوجود الذي لا حدَّ له ولا انتهاء ، فهو سبحانه كما هو ، لا يَعلم حقيقتَه إلا هو .

ولما سئل صلى الله عليه وآله وسلم فقيل له : صف لنا ربك ، وفي رواية : انسب لنا ربك .

نزل الجواب من رب الأرباب : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ، ولم يقل : قل الله أحد ، بل قال : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ أي : هو سبحانه كما هو ، لا يعلم حقيقته إلا هو ، وقد تَسمَّى باسم الله ، الاسم الجامع الدال على الذات الإلهية المتصفة بجميع صفات الكمالات التي لا تتناهى .

ولذلك كما قال الصديق الأكبر رضي الله عنه :

العجزُ عن دَرَكِ الإدراكِ إدراكُ والبحثُ عن سرِّ ذاتِ الربِّ إشراكُ

فمن راح يبحث عن ذات الرب فقد أشرك ، لأن بحثه عن حقيقة ذات الرب يدل على أنه يعتقد أن حقيقة ذات الرب سبحانه ـ هي كبقية الحقائق المخلوقة ، التي يمكن معرفة كنهها ، والإحاطة بعلمها ، وفي هذا تشبيه بين الخالق والمخلوق ـ فهو الشرك بعينه .

فإنّ الله تعالى لا تُشبه ذاته ذَواتِ المخلوقات ، ولا تُشبه صفاته صفات المخلوقات وهذا أساس العقيدة الإيمانية .

قال تعالى : ﴿ ليسَ كَمِثْلِهِ شيءُ وهُو السَّميعُ البصيرُ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ولم يَكُنْ لهُ كُفُواً أحد ﴾ .

فهو سبحانه وتعالى لا عديلَ له ولا مثيل ، ولا شبيه ولا نظير .

فلما أجاب موسى الكليمُ بالصفات الدالة على كمال الذات الآلهية حيث قال : ﴿ ربُّ السماواتِ والأرضِ وما بينهما إنْ كنتمْ مُوقِنين ﴾ ، راح فرعون يشاغب ﴿ قال : لمنْ حَوْلَه : أَلَا تَسْتَمعون ﴾ ؟ أي : إنني أسأله عن حقيقة رب العالمين ، وهو يُجيبني عن صفاته ، وأنه خالق السماوات والأرض وما بينهما !! فهذه مشاغبة من فرعون حول دليل الكليم ، فإن موسى عليه السلام أجاب بالجواب الحق القاطع ، الذي يُثبت له به وجود رب العالمين ، ووحدانيته لا محالة .

وكأنَّ موسى عليه السلام يقول لفرعون : إنّ رب العالمين الذي سألتني عنه هو حق لا شك فيه ، وهو واجب الوجود يقيناً لا ريب فيه ، فهذه السماوات ، وهذه الأرض ، وما بينهما أليست هي موجودةً يقيناً ؟ أم إنكم تَدَّعون أن وجودها خيال ووهم وليس بحقيقي ولا يقيني ، وأنتم من جملة ما بين السماء والأرض ، فإن كنتم توقنون بوجود السماوات وبوجود الأرض ، وبوجود ما بينهما ـ وأنتم من جملة ما بينهما ـ فيجب أن تكونوا أشدَّ يقيناً ، وأعظم إيماناً بالذي أوجد السماوات والأرض وما بينهما ، ولذا قال : ﴿ ربُّ السماواتِ والأرضِ وما بينهما إنْ كنتم موقنين ﴾ ـ أي إن : كنتم موقنين بوجود أيِّ موجودٍ في السماوات والأرض وما بينهما فيلزمكم اليقين على وجه أقوى وأحق ـ بوجود فاطر السماوات والأرض وما فيها ، فكما أنه لا شك في وجود السماوات والأرض ، كذلك لا شك في وجود فاطر السماوات والأرض من باب أولى وأحقّ وأثبت .

فإن العاقل إذا وقع نظره على بناء يعلم يقيناًوبداهةًأن هناك بانياً بناه ، ولو لم يَرَه بعينه ، ولا يَشُكُّ في ذلك ، بل ذلك عنده بدهي ، ولو قيل : إنه لا باني له لأنكر ذلك ، وحكم على ذلك بالجنون ، وهكذا في كل ما يراه .

وقد نبَّه الله تعالى إلى ذلك في جواب رسله الذي علَّمهم الله تعالى إياه إذ يقول : ﴿ قالتْ رُسلُهم : أفي الله شَكٌّ ؟!! فاطرِ السماواتِ والأرض ﴾ - أي : فهو سبحانه واجب الوجود ، الواحد الأحد حقاً ويقيناً ، لا ظناً ولا تخميناً ، فإنّ وجود المصنوع يُثبت لك وجود الصانع ، وإن المفطور يثبت لك وجود الفاطر ، وإن المخلوق يثبت لك وجود الخالق ، وإن البناء يثبت لك وجود الباني ، فهذه سماوات وأرض وما بينهما موجودة مشهودة ، فَمَنِ الذي فطرها ؟ ، ومَنِ الذي خلقها وأوجدها ؟ ومن الذي صنعها ؟ ومن الذي بناها ؟.

فإن قلت : لا باني لها فقد جُنِنْتَ .

وإن قلت : هم العباد ، فقد كذبتَ .

وإن قلت : هو الله تعالى فقد علمت وعقلت .

نعم هو الله رب العالمين ، ولا يستطيع ذلك أحد من العالمين .

قال تعالى : ﴿ الحمدُ لله فاطِرِ السماواتِ والأرضِ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ خَلَقَ السماواتِ والأرضَ بالحقِّ تعالى عَمَّا يُشرِكون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ صُنْعَ الله الذي أَتْقَنَ كلّ شيء ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ والسماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وإنَّا لمُوْسِعُون . والأرضَ فرشناها فنِعمَ الماهِدُون . ومِنْ كلِّ شيءٍ خَلَقْنا زَوجَيْنِ لعلكم تذكرون . فَفِرُّوا إلى الله إني لكمْ منه نذير مبين . ولا تَجْعَلوا مَعَ الله إلهاً آخَرَ إني لكم منه نذيرٌ مبين ﴾ .

وأما إذا ادَّعى المبطِلون أنّه لا يقين بوجود شيء ، وأن الموجودات السماوية والأرضية وما بينهما - هي موهومة الوجود ، وليست محقَّقةَ الوجود !!!

فيقال لهم : إذاً يلزمكم إنكارُ حقيقة وجودكم ، وإنكارُ كل حقيقة تتحسَّسون بها ، وبناء على ذلك فما الفرق بينكم الآن ، وبينكم قبل وجودكم في هذا العالم حين كنتم في العدم من آلاف السنين ؟! فإن كان لا فرقَ في ذلك **فتعالَوْا نُعدمْكم فنقتلَكم ونحرقَكم** ، فإن أبوْا ودافعوا عن أنفسهم ، فيقال : إنّه لا وجود لأنفسكم حقيقة ، بل أنتم تتوهمون وجودها ، وليست بموجودة يقيناًفي مذهبكم ، فنحن نعاملكم بمذهبكم ! **وهاتوا جميع أموالكم** لأنه لا حقيقة لها في الوجود ، بل هي أوهام ؟ **وإذا أخذناكم بالجريد والنعال** يجب أن لا تَفِروا من ذلك ، ولا تَضِجُّوا ، ولا تحزنوا لأنه لا حقيقة للأوجاع والآلام من شدة الضرب والفتك فيكم ، بل هي في مذهبكم موهومة ولا حقيقة لها ، **وإذا ضَجُّوا وصاحوا وتألموا** ، فيقال : أحسستم بوجود ألمٍ حقيقي أم وهمي ؟ فلا شك سوف يقولون بأنهم أحسوا بذلك حقيقة ، فيقال لهم : فقد ثبت عندكم وجودُ حقيقةً ، وإذا ثبت وجودُ حقيقةً ثبت وجود جميع الحقائق .

فكان جواب موسى الكليم جواباًقاطعاًلكل شبهة حيث قال : ﴿ ربُّ السماواتِ والأرض وما بينهما إنْ كنتمْ مُوقنين ﴾ .

ثم تابع موسى الكليم على نبينا وعليه الصلاة والسلام الحججَ الدالةَ على وجود الله تعالى ووحدانيته ، ليقطع على فرعون طريق المشاغبة ، فأتى بالدليل النفسي ثم بالدليل الآفاقي فقال : ﴿ ربُّكم وربُّ آبائكم الأولين ﴾ ، يعني : أنكم أنتم الذليلُ ، على وجود الله تعالى رب العالمين ، فأنتم ما خَلَقْتُم أنفسكم ولا تُحيونها ، ولا تميتونها ، وآباؤكم قبلكم ، وهكذا الأمر ـ إذاً ذلك الذي حَوَّلكم ونَقَلكم من العدم إلى الوجود ، وهو ينقلكم من الحياة إلى الموت ، هو حقاً واجب الوجود ، وهذا هو رب العالمين .

فراح فرعون يشاغب ويوارب فقال : ﴿ إن رسولَكُمُ الذي أُرسِلَ إليكم لَمَجنون ﴾ يعني : أن موسى يتخرَّص ، ويأتي بتخريف ، حيث يدعوكم إلى ربٍّ غيري .

فراح موسى الكليم على نبينا وعليه الصلاة والسلام يثبت لفرعون أنه هو المجنون فقال له : ﴿ قال ربُّ المشرقِ والمغربِ وما بينهما إنْ كنتم تَعْقِلون ﴾ والمعنى : أن رب العالمين هو الذي يتصرف في العالم ، ويدبِّر لهم أمورهم الخاصة والعامة ، والنفسية والآفاقية ، السماوية والأرضية ، فيُجْري الشمس والقمر بحسبان ، ويسيِّر الكواكب بانتظام وإتقان ، فقدّر للقمر منازل ينزل فيها ، وللشمس بروجاًتمرُّ عليها ، لما في ذلك من مصالح العالم وحياته ، ونظامه الزماني والكوني .

فإن كنت أنت الرب كما تزعم فتعالَ بدِّلْ سَيْر هذه الشارقات والغاربات ، وغيِّرْ نظامها كما تشاء ، فإنّ هذه المشارق والمغارب هي محيطة بالعباد الذين تَدَّعي أنك ربُّهم ، فتصرفْ في شأنها ، وأَنْتَ دبِّر أمرها كما تريد ، إنْ كنت وقومُك تعقلون ؟! ولا شك أنك لا تستطيع ذلك ، ولا شيئاًمن ذلك ، بل أنت وسائرُ العباد سواءٌ في أنك مخلوقٌ لرب العالمين ، **فأنت إذاً المجنون ، وأما موسى الكليم فهو العاقل الحكيم .**

فلما أفحمه الكليم عليه السلام في الحجة ، وغلبه في نتيجة المناظرة ، وعجز فرعون عن الردِّ ، وأظلم وجهه واسودَّ في ملأ من قومه ـ راح يهدِّد ويرعد فقال : ﴿ قال لئن اتخذت إلٰهاً غيري لأجعلنَّك من المسجونين ﴾ وهذا شأن المحجوج الأحمق ، حين يعجز عن الجواب ، فإنه يلجأ إلى التهديد .

وإلى هنا ينتهي ذكر بعض مناظرات سيدنا نوح وإبراهيم وسيدنا موسى صلوات الله تعالى على نبينا وعليهم ، أوردتها بمناسبة الكلام على عالم

السماوات والكواكب ،وأما استيفاء جميع مناظرات الرسل فيحتاج إلى كتاب خاص .

* * * *

عالم المثال

لقد ثبت في نصوص كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ ، أن هنالك عالماً برزخياًتتمثّل وتتظاهر فيه : **الملائكة** ، **والأرواح** ، **والمعاني** ، **والأعمال** ، **والأقوال** ، **والأزمنة** ، **والأمكنة** ، **وعالم الجن** بأمثلة حِسِّيَّةٍ تتناسب معها ، ويسمى هذا العالم عند العارفين والعلماء المحققين : عالم المثال ، ويُسمَّى : عالم الخيال المنفصل .

وهذا العالم من أوسع العوالم ، لأنّه جامع لمثال كل شيء ، حتى إن المعدومات الممكنة تتمثل فيه قبل ظهورها في عالم الكيان الخارجي .

قال الله تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناًشرقياً . فاتَّخذتْ من دونهم حجاباًفأرسلنا إليها رُوحَنَا فتمثَّل لها بشراًسويًّا ﴾ .

فجاء جبريل عليه السلام إلى السيدة مريم عليها السلام ، بصورة بشر سويِّ الخِلقة ، كامل البنية ، حسن الصورة ، يبشرها بغلام زكي النفس ، نامي الخير ، بَرِّ الوالدة ، مبارك أينما كان ، كما وصفه سبحانه بقوله : ﴿ وجعلني مباركاً أينما كنت ﴾ الآية ، فحيثما كان تبارك المكان لأن البركة نابعة منه ، ومصاحبة له ، وهكذا جميع الأنبياء ،وأعظمهم بركةً وأكثرهم إفاضةً للبركة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

قيل : إن جبريل ـ عليه السلام ـ جاءها بالصورة التي سيخلق الله تعالى عليها عيسى عليه السلام ، وذلك لتنظر إليه ، وتكون صورة عيسى الخَلْقية

على تلك الصورة المثالية ، التي جاء بها جبريل عليه السلام ، فإنّ الملائكة عليهم السلام يتمثلون بأمثلة مناسبة للحال التي جاؤوا بها .

ومما يدل على ثبوت عالم المثال ، ما ذكره الله تعالى عن الملائكة الكرام عليهم السلام ، حين جاؤوا إلى سيدنا إبراهيم الخليل ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ يبشرونه بغلام عليم .

قال تعالى : ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا : سلاماً قال : سلام قوم منكَرون فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال : ألا تأكلون ؟ فأوجس منهم خيفة قالوا : لا تخف وبشروه بغلام عليم ﴾ .

فقد ورد أن سيدنا جبريل وإسرافيل وميكائيل ـ ويروى معهم غيرهم ـ جاؤوا إلى خليل الرحمن إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام ضيوفاً في صور رجال شُبَّان حسان ، عليهم الجمال والكمال ، وتعلوهم المهابة والوقار ، فقالوا : سلاماً ، أي : نسلم عليك سلاماً ، ﴿ فقال سلامٌ ﴾ أي : عليكم سلامٌ دائم ، فحيَّاهم بأحسن من تحيتهم ، لأن تحيته كانت بجملة إسمية دالة على الثبوت والدوام .

وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على وجوه من ثناء الله تعالى على خليله إبراهيم على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأكمل التسليم ، وعلى وجوه من أدب الضيافة الكريمة ـ فصلت ذلك في كتاب : (الإيمان بالملائكة عليهم السلام) فارجع إليه .

فالملائكة عليهم السلام ـ تتمثل بأمثلة مختلفة ، حسب مناسبة الحال التي يأتون فيه وعلى حسب تنفيذ الأمر الذي جاؤوا فيه ، ولا يلزم من تمثل الملك بصورة بشر ، أن تناله الأحكام البشرية من الطعام والشراب ونحوها .

ولذلك لما قَدَّم لهم سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام الطعام لم يتناولوا منه شيئاً .

ومن التمثلات الملكية ما ورد في (الصحيحين) ـ واللفظ للبخاري ـ عن عائشة رضي الله عنها ـ أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟

فقال رسول الله ﷺ : « أحياناً يأتيني في مثل صلصلة الجرس ـ وهو أشدُّه عليَّ ـ فيفصم عني وقد وعيت منه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول » .

قالت عائشة رضي الله عنها : (ولقد رأيته ﷺ ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصَّد عرقاً) .

ومن تمثلات جبريل ـ عليه السلام ـ بصورة أعرابي ، ما ورد في الحديث ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال :

(بينما نحن عند رسول الله ﷺ ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر . .) الحديث .

وكان جبريل ـ عليه السلام ـ يأتي النبي ﷺ بصُوَر حسب المناسبة التي اقتضتها تلك الحالة .

فجاء يوم بني قريظة بصورة محارب عليه السلاح .

كما في (الصحيحين) عن عائشة رضي الله عنها قالت :

(لما رجع رسول الله ﷺ من الخندق ، ووضع السلاح واغتسل ـ تنظفاً من آثار السفر ـ أتاه جبريل ـ عليه السلام ـ فقال : قد وضعتَ السلاح ؟ والله ما وضعناه ـ أي : نحن الملائكة لم نضع السلاح)

وعند ابن سعد : (ولم تضع السلاح ملائكة الله تعالى اخرج إليهم) .

فقال ﷺ : « إلى أين ؟ » .

فقال ـ وأشار إلى بني قريظة ، فخرج إليهم النبي ﷺ) .

وعند الطبراني والبيهقي عن عائشة رضي الله عنها قالت : (سلَّم علينا رجل ونحن في البيت ، فقام ﷺ فزِعاً ، فقمتُ في أَثَره ، فإذا بدحية الكلبي ، فقال ﷺ : « هذا جبريل يأمرني أن أذهب إلى بني قريظة ») .

قالت عائشة : (فكأني برسول الله ﷺ يمسح الغبار عن وجه جبريل عليه السلام) .

فجاء جبريل عليه السلام بصورة الصحابيّ دحية بن خليفة المعروف بحسن صورته .

وعند البخاري : (وهو ـ أي : جبريل ـ ينفض رأسه من الغبار) .

وقال أنس رضي الله عنه : ـ كما في البخاري ـ : (وكأني أنظر إلى الغبار في زقاق بني غنم ـ موكب جبريل حين سار إلى بني قريظة) .

وعند ابن سعد : (فذهب جبريل ومن معه من الملائكة حتى سطع الغبار في زقاق بني غنم من الأنصار) .

ومن هنا يُعلم أنّ تمثلات الملائكة ـ عليهم السلام ـ تكون على مُقتضى الحالات التي يأتون بها كما أمرهم الله تعالى .

ومن ذلك تمثل الملك بصورة أبرص ، ثم بصورة أقرع ، ثم بصورة أعمى ، حيث أرسله الله تعالى يمتحنِ الذي كان أبرص ، والذي كان أقرع ، والذي كان أعمى ـ ثم أكرمهم الله تعالى بحسن الحال ، والصحة والكمال ، فجاء الملك يختبرهم : أيشكرون نعمة الله تعالى عليهم ، ويعرفونها ويؤدونها حقها ، أم يكفرون ويجحدون نعمة الله عليهم ؟!! .

ففي (الصحيحين) عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :

« إن ثلاثة من بني إسرائيل : أبرص وأقرع وأعمى ، أراد الله تعالى أن يبتليهم - أي : يختبرهم - فبعث إليهم ملكاً :

فأتى الأبرص فقال له : أيُّ شيء أحب إليك ؟

فقال : لونٌ حسن ، وجلد حسن ، قد قذرني الناس .

قال فمسحه الملك فذهب عنه ، فأُعطي لوناً حسناً ، وجلداً حسناً .

فقال له الملك : وأيُّ المال أحبُّ إليك ؟

فقال : الإبل .

فأعطاه ناقةً عُشَراء ، وقال : بارك الله لك فيها .

وأتى - الملك - الأقرع ، فقال : أيُّ شيء أحب إليك ؟

فقال : شعر حسن ، ويذهب عني هذا الذي قد قذرني الناس .

فمسحه - أي الملك - فذهب ، وأُعطي شعراً حسناً .

فقال الملك : فأيُّ المال أحبُّ إليك ؟

فقال : البقر .

فأعطاه بقرةً حاملاً ، وقال : بارك الله لك فيها .

وأتى - الملك - الأعمى ، فقال له : أيُّ شيء أحب إليك ؟

قال : يردُّ الله عليَّ بصري فأبصر الناس .

قال فمسحه الملك ، فردَّ الله إليه بصره .

قال : فأيُّ المال أحبُّ إليك ؟

قال : الغنم .

فأعطاه شاةً والداً .

فأنتج هذان وولَّد هذا ، فكان لهذا وادٍ من إبل ، ولهذا وادٍ من بقر ،

ولهذا وادٍ من غنم .

ثم إنه ـ أي : الملك ـ أتى الأبرص في صورته ـ أي : في صورة الأبرص حين كان أبرص ـ وهيئته ، فقال ـ الملك ـ له : رجل مسكين انقطعت به الحبال ـ أي : أسباب الرزق في سفره ـ فلا بلاغ له اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن ، والجلد الحسن ، والمال ، أسألك بعيراً أتبلَّغ به ـ أي : أتوصل به إلى مرادي ـ في سفري .

فقال له الأبرص : إنّ الحقوق كثيرة[1] .

فقال له ـ الملك ـ كأني أعرفك ألم تكن أبرص يقذرك الناس ، فقيراً فأعطاك الله تعالى ؟

فقال الأبرص : إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر ـ أي : كبيراً عن كبير في العز والشرف .

فقال له الملك : إن كنت كاذباً فصيَّرك الله إلى ما كنت .

وأتى الأقرع في صورته وهيئته ، فقال له مثل ما قال للأبرص ، فرد عليه الأقرع مثل مارد عليه الأبرص .

فقال له الملك : إن كنت كاذباً فصيَّرك الله إلى ما كنت .

وأتى الأعمى في صورته وهيئته فقال له : رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذي رد عليك بصرك ، شاة أتبلَّغ بها في سفري .

فقال له الأعمى : قد كنت أعمى فردَّ الله تعالى عليَّ بصري ، وفقيراً فقد

---

(١) يريد بذلك أن يعتذر عن الإعطاء والإعانة بمعاذير باطلة ، فيقول : إن الحقوق عليَّ كثيرة من جانب العيال والأقارب ، ومن هنالك .

وهذا جواب الأشحَّاء إذا طلب منهم العطاء ، فيعتذرون بأن عليهم مطالبة ، وهم في ضائقة وشدة ، وكان المَلَك يقول لهم : اللهم آمين .

أغناني ، فخذ ما شئت فوالله لا أجهدك بشيء أخذته لله ـ أي : لا أشق عليك في رد شيء .

فقال : أمسك مالك فإنما ابتليتم ، فقد رضي الله عنك ، وسخط على صاحبيك » .

وهذه التمثلات الملكية هي من باب التظاهر في مثال صوريٍّ ، مناسب للحال الذي جاء الملك فيها .

وهذا المثال له أحكامه الخاصة .

* * * *

تمثلات المعاني بصور مثالية

أما تمثلات المعاني بصور مثالية ، فقد روى مسلم في (صحيحه) عن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه ؛ اقرؤوا سورة البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو غيايتان ، أو فِرْقان من طير صوافٍّ تحاجَّان عن صاحبهما ، اقرؤوا البقرة فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ولا يستطيعها البَطَلة » .

وفي (المسند) عن أُبي بن كعب رضي الله عنه أن النبي ﷺ سأله : « أيُّ آية في كتاب الله أعظم » ؟

قال : الله ورسوله أعلم ـ فرددها مراراً .

ثم قال أُبي : آية الكرسي .

فقال ﷺ : « ليهنكَ العلم أبا المنذر ، والذي نفسي بيده ، إن لها لساناً وشفتين تقدِّس الملِك عند ساق العرش » .

وأصل الحديث في مسلم .

وروى الإمام أحمد في (مسنده) عن بريدة قال : كنت جالساً عند النبي ﷺ فسمعته يقول : « تعلَّموا سورة البقرة فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البَطَلة » .

قال ثم سكت ساعة ثم قال ﷺ : « تعلموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان ، يظلَّان صاحبهما يوم القيامة ، كأنهما غمامتان ، أو غيايتان ، أو فِرْقانِ من طير صوافٍّ .

وإنَّ القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب - أي : الضعيف - فيقول : هل تعرفني ؟ فيقول : ما أعرفك ، فيقول : أنا صاحبك القرآن الذي أظمأتك في الهواجر ، وأسهرتُ ليلك ، وإن كل تاجر من وراء تجارته ، وإنك اليوم من وراء كل تجارة - فيعطى الملك بيمينه ، والخلد بشماله ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ، ويكسى والداه حلَّتان لا يقوم لهما - أي : بقيمتهما - أهل الدنيا .

فيقولان - أي : والدا القارىء - : بِمَ كُسينا هذا ؟

فيقال : بأخذ ولدكما القرآن .

ثم يقال : اقرأ واصعد في درج الجنة وغرفها ، فهو في صعود ما دام يقرأ هَذّاً » - أي : وما دام يقرأ ترتيلاً .

ومن تمثلات المعاني :

تمثل القرابة الرَّحِمية وتعلّقها بعرش الرحمن جلَّ وعلا .

جاء في (الصحيحين) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت : هذا مقام العائذ بكَ من القطيعة ؟

قال : نعم ، أما ترضَين أن أصِلَ من وصلكِ وأقطع من قطعكِ ؟ .

قالت : بلى .

قال : فذاكِ لكِ » .

ثم قال رسول الله ﷺ : « اقرؤوا إن شئتم : ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطِّعوا أرحامكم أُولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾ » .

ومن عالم المثال ظهور المغيبات التي هي في عالم الغيب في صور المحسوسات في عالم الشهادة .

روى الترمذي وأحمد وغيرهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : (خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان فقال : « أتدرون ما هذان الكتابان ؟ » .

فقلنا : لا يا رسول الله إلَّا أن تخبرنا .

فقال رسول الله ﷺ للذي في يمينه ـ أي : مشيراً للكتاب الذي في يمينه ـ : « هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أجمل على آخرهم ، فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً » .

ثم قال ﷺ للذي في شماله : « هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً » .

فقال أصحاب النبي ﷺ : ففيمَ العمل يا رسول الله إن كان الأمر قد فرغ منه ؟

فقال ﷺ : « سددوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة ، وإنْ عمل أيَّ عمل ـ أي : وإن عمل أيَّ عملٍ قبل ذلك ـ وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإنْ عمل أيَّ عمل » ـ أي : قبل ذلك ـ

ثم قال رسول الله ﷺ ـ أي : فعل ـ هكذا ، فنبذهما ـ أي : نبذ الكتابين ـ ثم قال : « فرغ ربكم من العباد ، فريق في الجنة وفريق في السعير » .

ففي هذا دليل واضح على أن هذين الكتابين ليسا من العالم الشهودي ، إذ لو كانا كذلك لتلقاهما الصحابة حين نبذهما رسول الله ﷺ ، ولتزاحموا عليهما ، ليتبيَّنوا أمورهم ، وأمور آبائهم ، أهم في الجنة أم في النار ؟ ولكن حين نبذهما رسول الله ﷺ غابا عن الشهود ، وبقيا في غيبهما .

ومما يدل على ذلك أيضاً أنَّ أعظم كتاب في هذا العالم لا يتسع لأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وأسماء قبائلهم ، كما أن أعظم كتاب من هذا العالم لا يتسع لأسماء أهل النار ، وأسماء آبائهم وأسماء قبائلهم .

* * * *

تمثلات الأعمال

قال الله تعالى : ﴿ يوم تجد كلّ نفس ما عملتْ من خير محضراًوما عملت من سوءٍ تودُّ لو أنّ بينها وبينه أمداً بعيداً . ويحذِّركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ، ولا يظلم ربك أحداً ﴾ .

فهو سبحانه يُحضر للعباد أعمالهم التي صدرت منهم ، خيراًأوشراً ، فيجدونها حاضرة متمثلةً بصورها : الحسنات بصورٍ حسنة نورانية ، والسيئات بصور سيئة ظلمانية .

ولا يسوغ حمل ذلك على أنهم وجدوها مكتوبة في صحفهم لأنه سبحانه قال : ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ﴾ ولم يقل سبحانه : ووجدوا ما عملوا مكتوباً ، أو مسطوراً ، فإن الكتابة عليهم لها حكم آخر وموقف آخر .

فالأعمال لها صور مثالية يراها العباد كلهم في عالم القبر ، وعالم الحشر والحساب وما وراء ذلك من عوالم الآخرة .

أما تمثل الأعمال في عالم القبر :

فيدل على ذلك ما ثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الميت إذا وضع في قبره وإنه يسمع قرع نعالهم حين يولون مدبرين ، فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه ، وكان الصيام عن

يمينه ، وكانت الزكاة عن شماله ، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلاة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه .

فيؤتى من قِبَل رأسه فتقول الصلاة : ما قِبَلي مدخل .

ثم يؤتى عن يمينه فيقول الصيام : ما قِبَلي مدخل .

ثم يؤتى عن يساره فتقول الزكاة : ما قِبَلي مدخل .

ثم يؤتى من قبل رجليه فيقول فعل الخيرات من الصدقة والأمر بالمعروف والإحسان إلى الناس : ما قِبَلي مدخل . . . » الحديث .

قال المنذري : رواه الطبراني وابن حبان في (صحيحه) واللفظ له .

وأما تمثل الأعمال يوم القيامة :

ففي (المسند) عن الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « تجيء الأعمال يوم القيامة .

فتجيء الصلاة فتقول : يا رب أنا الصلاة .

فيقول : إنك على خير .

فتجيء الصدقة فتقول : يا رب أنا الصدقة .

فيقول : إنك على خير .

ثم يجيء الصيام فيقول : يا رب أنا الصيام .

فيقول : إنكَ على خير .

ثم تجيء الأعمال ـ أي : الحسنة ـ فيقول الله عز وجل : إنك على خير .

ثم يجيء الإسلام . . . » الحديث .

قال ابن كثير : تفرد به أحمد .

ففي هذا الحديث دليل ظاهر على تمثل الأعمال في عالم القبر ، وموقف الأعمال الصالحة مع صاحبها موقف المدافع عنه المحافظ عليه .

وفي (صحيح) مسلم أن النبي ﷺ قال : « والصلاة نور ، والصدقة برهان » .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ ذكر الصلاة فقال : « من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاةً يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا برهاناً ولا نجاةً ، وكان يوم القيامة مع فرعون وهامان وقارون وأُبي بن خلف » .

رواه الإمام أحمد وابن حبان في (صحيحه) وغيرهما .

وروى الطبراني عن عُبادة بن الصامت مرفوعاً : « إذا حافظ العبد على صلاته فأقام وضوءها وركوعها وسجودها والقراءة فيها قالت له : حفظك الله كما حفظتني ، وصعد بها إلى السماء ولها نور حتى تنتهي إلى الله عز وجل فتشفع لصاحبها » .

فالصلاة تتمثل بصورة مثالية نورانية ، ويصعد بها إلى السماء وهنالك تشفع بصاحبها عند رب العالمين .

* * * *

تمثلات الأقوال

جاء في (الصحيحين) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « كلمتان خفيفتان على اللسان ،ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » .

وقال ﷺ : « والحمد لله تملأ الميزان » .

وروى الترمذي وأحمد عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إن مما تذكرون من جلال الله التسبيحَ والتحميد والتهليل والتكبير يتعاطفن ـ أي : يجتمعن ـ حول العرش ، لهنَّ دويٌّ كدويّ النحل يذكِّرْن بصاحبهنَّ ، أفلا يحب أحدكم أن يكون له من يذكِّر به عند ربه ! » .

فللتسبيح والتحميد وسائر الأقوال التي يُذكر الله تعالى بها ، لها صور مثالية نورانية ، تجتمع إلى بعضها حول العرش وتشفع بصاحبها .

ومن ذلك تمثل القرآن يوم القيامة شفيعاً بصاحبه ، كما تقدم في قول النبي ﷺ : « اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه » .

ومن ذلك وقوف القرآن من الإنسان موقف الحجة له أو عليه ، كما صح عنه ﷺ أنه قال : « والقرآن حجة لك أو عليك » يعني : أن قرآن القارىء يأتي يوم القيامة حجة له إن عمل به ، وحجة عليه إن لم يعمل بموجبه .

ويوضح ذلك ما جاء عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ

قال : « يؤتى برجل يوم القيامة ويمثَّل له القرآن قد كان يضيِّع فرائضه ، ويتعدَّى حدوده ، ويخالف طاعته ، ويركب معاصيه ، فيقول : أيْ ربِّ حمَّلت آياتي بئس حاملٍ : تعدَّى حدودي ، وضيَّع فرائضي ، وترك طاعتي ، وركب معصيتي - فما يزال يقذف عليه بالحجج حتى يقال : فشأنك به ، فيأخذ بيده فما يفارقه حتى يكبَّه على منخره - أي : على وجهه - في النار .

ويؤتى بالرجل قد كان يحفظ حدوده - أي : حدود القرآن - ويعمل بفرائضه ، ويعمل بطاعته ، ويجتنب معصيته ، فيصيرِ خصماً دونه ، فيقول : أيْ ربِّ حمَّلت آياتي خير حامل : اتقى حدودي ، وعمل بفرائضي ، واتَّبع طاعتي ، واجتنب معصيتي - فلا يزال يقذف له بالحجج حتى يقال له : فشأنك به ، فيأخذ بيده فما يزال به حتى يكسوه حلَّة الإستبرق ، ويضع عليه تاج الملك ويسقيه بكأس الملك[1] » .

ومن ذلك تمثل الموت يوم القيامة بصورة كبش :

روى الشيخان والترمذي عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي منادٍ : يا أهل الجنة فَيشرئبُّون - أي : يرفعون رؤوسهم - وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت - وكلهم قد رأوه .

ثم ينادي منادٍ : يا أهل النار ، فيشرئبون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت - وكلهم قد رأوه .

---

(١) قال في (مجمع الزوائد) : رواه البزار وفيه ابن إسحاق وهو ثقة ولكنه مدلّس ، وبقية رجاله ثقات . اهـ ورواه ابن أبي شيبة وابن الضُّرَيْس ، كما في (منتخب الكنز) ، وذكره الحافظ ابن رجب في (جامع العلوم والحكم) من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

فيذبح بين الجنة والنار ـ وفي رواية : فيوقف على السور بين الجنة والنار ، فيضجع ويذبح ـ ثم يقول : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ، ثم قرأ : ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر . . . ﴾ » الآية .

* * * *

تمثلات الأموال

روى مسلم في (صحيحه) أن النبي ﷺ قال : « والصدقة برهان . . . » الحديث ، يعني : أن الصدقة تأتي يوم القيامة برهاناً لصاحبها على إسلامه ، وتشفع بصاحبها .

ومن ذلك تمثل المال الذي لا يُزَكَّى :

فعن ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « ما من أحدٍ لا يؤدّي زكاة ماله إلا مُثِّل له يوم القيامة شجاعاً أقرع ـ أي : حيَّة كبيرة قد حَلَس شعرها من طول عمرها ـ حتى يطوَّق به عنقه ـ ثم قرأ ـ النبي ﷺ ـ مصداقه من قوله تعالى : ﴿ ولا يحسبنَّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم ، بل هو شرٌّ لهم ، سيطوَّقون ما بخلوا به يوم القيامة ﴾ الآية ـ » .

قال الحافظ المنذري : رواه ابن ماجه واللفظ له ، والنسائي بإسناد صحيح ، وابن خزيمة في (صحيحه) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها ؛ إلا إذا كان يوم القيامة صُفِّحتْ له صفائح من نار ؛ فأحميَ عليها في نار جهنم ، فيكوى بها جنبه ، وجبينه ، وظهره ، كلما بَردت أعيدت له ، في يوم كان مقداره خمسين ألف

سنة ، حتى يقضى بين العباد ، فيُرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار » .

قيل : يا رسول الله فالإبل ؟

فقال ﷺ : « ولا صاحبِ إبلٍ لا يؤدِّي منها حقها ـ ومن حقها حلبها يوم وردها ـ إلا إذا كان يوم القيامة بُطح لها ـ أي : صاحبُها ـ بقاعٍ قَرْقَرٍ[1] أوفى ما كانت ، لا يفقد منها فصيلاً واحداً ، تطؤه بأخفافها ، وتعضُّه بأفواهها ، كلما مرَّ عليه أُولاها رُدَّ عليه أخراها ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين العباد ، فيُرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار » .

قيل : يا رسول الله فالبقر ؟

فقال ﷺ : « ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدِّي منها حقها ، إلا إذا كان يوم القيامة ،بُطح بقاعٍ قرقر أوفى ما كانت ، لا يفقد منها شيئاً ، ليس منها عقصاء ـ أي : ملتويةً القرن ـ ولا جلحاء ـ أي :لا قرن لها ـ ولا عضباء ـ أي : مكسورة القرن ـ فتنطحه بقرنها ،وتطؤه بأظلافها ، كلَّما مرَّ عليه أُوْلاها رُدَّ عليه أخراها ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين العباد ،فيُرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار . . . » الحديث ،رواه البخاري ومسلم واللفظ له .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « من آتاه الله مالاً فلم يؤدِّ زكاته مُثِّل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان، يُطوِّقه يوم القيامة، ثم يأخذ بِلِهْزِمَتَيْه ـ يعني : بشدقي مانع الزكاة ـ ثم يقول : أنا مالك ، أنا كنزك ـ ثم تلا هذه الآية : ﴿ ولا يَحْسَبنَّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شرٌّ لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ﴾ » الآية ، رواه البخاري ومسلم .

---

(١)القاع : المكان المستوي من الأرض ، والقرقر : هو الأملس .

تمثلات أيام الدنيا يوم القيامة

عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تحشر الأيام على هيئتها ، وتحشر الجمعة زهراء منيرة ، أهلها يحفُّون بها كالعروس تُهدى إلى خِدْرها ، تضيء لهم يمشون في ضوئها ، ألوانهم كالثلج بياضاً ، وريحهم كالمسك ، يخوضون في جبال الكافور ، ينظر إليهم الثقلان ـ أي : الجن والإنس ـ لا يطرفون تعجباً ، حتى يدخلون الجنة ، لا يخالطهم إلا المؤذنون المحتسبون »[1] .

وبالجملة فإنَّ عالم المثال هو عالم واسع كل السعة ، تتمثل فيه المحسوسات والمعنويات ، والأشباح والأرواح ، على اختلاف مراتبها .

فتبارك الله ربُّ العالمين .

ومن ذلك تمثلات الجنّ بصور مختلفة : صورة رجل ، أو بعض الحيوانات :

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : وكلَني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان ، فأتاني آتٍ فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته وقلت : لأرفعنَّك إلى رسول الله ﷺ .

---

(١)قال الحافظ المنذري في (الترغيب) : رواه الطبراني وابن خزيمة في (صحيحه) وقال : إن صح الخبر ، فإن في النفس من هذا الإسناد شيئاً .
قال المنذري : إسناده حسن وفي متنه غرابة ا هـ .

فقال : دعني ، فإنّي محتاج ، وعليَّ عيال ، ولي حاجة شديدة .

فخلَّيتُ عنه ، فأصبحتُ ، فقال النبي ﷺ : « يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة » ؟ فقلت : يا رسول الله شكا حاجةً شديدةً وعيالاً ، فرحمتُه وخلَّيت سبيله .

فقال ﷺ : « أما إنه قد كذبك ، وسيعود » .

قال أبو هريرة : فعرفتُ أنه سيعود ، لقول رسول الله ﷺ إنه سيعود ـ فرصدته ، فجاء يحثو من الطعام ، فأخذته ، فقلت : لأرفعنَّك إلى رسول الله ﷺ .

فقال : دعني فإنّي محتاج ، وعليَّ عيال ، لا أعود ـ فرحمته فخلَّيتُ سبيله ، فأصبحتُ ، فقال لي رسول الله ﷺ : « يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة » ؟

قلت : يا رسول الله شكا حاجةً وعيالاً ، فرحمته ، فخلَّيت سبيله .

فقال : « أما إنه قد كذبك ، وسيعود » .

قال أبو هريرة : فرصدتُه الثالثة ، فجاء يحثو من الطعام ، فأخذته ، فقلت : لأرفعنَّك إلى رسول الله ﷺ ، وهذا آخر ثلاث مرات ، إنّك تزعم أنّك لا تعود ثم تعود !

فقال : دعني أعلمْك كلماتٍ ينفعك الله بها .

قلت : وما هي ؟

قال : إذا أوَيتَ إلى فراشك فاقرأ آية الكرسيّ : ﴿ الله لا إله إلا هو الحيُّ القيوم . . ﴾ حتى تختم الآية[١] ، فإنّك لن يزال عليك من الله حافظ ،

---

(١) وفي رواية أبي المتوكل : عند كل صباح ومساء ، وفي حديث معاذ بن جبل زيادة : وخاتمة =

ولا يقربك شيطان ـ وفي رواية ابن مردويه : لم يقربك أحد من الجن صغير ولا كبير ، ذكر ولا أنثى ـ حتى تصبح .

فخلَّيتُ سبيله ، فأصبحت ، فقال لي رسول الله ﷺ : « ما فعل أسيرك البارحة » ؟

قلت : يا رسول الله زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليتُ سبيله !

فقال ﷺ : « وما هي » ؟

قلت : قال لي : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ ، وقال لي : لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ـ وكانوا أي : الصحابة أحرص شيء على الخير ـ

فقال ﷺ : « أما إنه صدقك ، وهو كذوب ، تعلم من تخاطب من ثلاث ليالٍ يا أبا هريرة » ؟

قلتُ : لا .

فقال : « ذاك شيطان » أي : شيطان من الشياطين .

وقد ذكر في (الفتح) من فوائد الحديث :

١ ـ أنه قد يتصوّر الشيطان ببعض الصور فتمكن رؤيته .

٢ ـ وأن الجنّ قد يأكلون من طعام الإنس .

٣ ـ ويظهرون لهم ويتكلمون بكلامهم .

٤ ـ وأنهم قد يسرقون ويخدعون . اهـ .

= سورةالبقرة : ﴿ آمن الرسول . . ﴾ إلى آخرها ، كما في (الفتح) .

فقد تشكَّل الشيطان الجني بصورةٍ ،وأتى إلى أبي هريرة في بيت الصدقة يحثو من الطعام ، وكان منه ما كان .

وقد وقع نظير ذلك مع أبي أيوب الأنصاري ،وأُبيّ بن كعب رضي الله عنهما كما في (سنن) النسائي وغيره .

ففي حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه أنه كان له جرن فيه تمر ، وأنه كان يتعاهده ،فوجده ينقص ، فإذا هو بدابَّةٍ شبه الغلام المحتلم .

قال أُبيّ بن كعب : فقلت له : أجنيٌّ أم إنسيّ ؟

فقال : بل جنيٌّ . . . الحديث .

* * * *

عالم الروح

قال الله تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح قلِ الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾

اعلم - علمني الله تعالى وإياك - أنّ هنالك عالمين يُسمى أحدهما عالم الأمر ، ويسمى الاخر عالم الخلق ، وقد ثبت ذلك عند المحققين من أهل العلم والمعرفة ؛ بأدلةٍ جاءت في الكتاب والسنة .

فعالم الأمر : هو ما أوجده الله تعالى وكوَّنه بأمر : كُنْ ، من غير مادّة يخلقه منها ،ومن غير مدة - ومن هذا العالم عالم الأرواح .

قال تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ﴾ .

أي : صدر وجوده عن أمر الله تعالى ، وهو قوله سبحانه : ﴿ كُنْ ﴾ من غير مادة سابقة عليه ، ومن غير مدَّة لتكوينه ،بل هو فوريُّ الوجود .

وأمّا عالم الخلق : فهو ما أوجده الله تعالى وكوَّنه بأمر ﴿ كُنْ ﴾ ولكن من مادّة سابقة عليه ، وفي مدة تناسبه ، ومن ذلك عالم الأجسام ،قال تعالى : ﴿ ومن آياته أنْ خلقكم من تراب ثمّ إذا أنتم بشرٌ تنتشرون ﴾ .

فجسم الإنسان مخلوق من مادة التراب ، وجسم الجان مخلوق من مارج من نار ،وأجسام الملائكة مخلوقة من نور .

روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ :

« خُلقت الملائكة من نور ، وخُلق الجان من مارج من نار ، وخُلق آدم مما وصف لكم » .

أي : من تراب ، ثم صار طيناً ، ثم صلصالاً كالفخار ، ثم نفخ فيه الروح .

ومن المعلوم أنّ هذا التقسيم ـ أي : عالم الأمر ، وعالم الخَلْق هو اصطلاح اصطلح عليه العلماء العارفون ، أخذاً من الآيات والأحاديث ، ـ ولا مُشاحة في الاصطلاح ـ .

وإن كان الواقع أن كلاً من العالَمَيْن هو مخلوق بالأمر أي : بقول الله تعالى : ﴿ كُنْ ﴾ ، كما أن عالم الخلق المخلوق من مادّة سابقة ، فإن المادة الأولى التي منها بدء الخلق هي مخلوقة بالأمر ، أي : بقوله تعالى : ﴿ كُنْ ﴾ ـ فافهم . . .

وعالم الروح يشمل : أرواح الملائكة ، وأرواح الجن ، وأرواح الإنس ، والأرواح العالية المجردة عن الأجسام ـ كما سيتضح إن شاء الله تعالى ـ

وقد اختلف العلماء في المراد بالروح المسؤول عنها في الآية الكريمة .

قال عبد الله : والظاهر ـ والله تعالى أعلم ـ أن المراد بها الروح التي تحيى بها الأجساد ، وأول ما يشمل الروح الإنساني .

والدليل على ذلك من وجوه :

أولاً : روى الشيخان وغيرهما ـ واللفظ للبخاري : في كتاب التفسير ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : بينا أنا مع النبي ﷺ في حَرْث ـ وفي رواية : بالمدينة ، أي : في أرض ذات نخل من المدينة ـ وهو ﷺ يتكىء على عسيب ، إذ مَرّ اليهود ، فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ، وقال بعضهم : لا يستقبلكم بشيء تكرهونه ، فقالوا : سلوه ؛ فسألوه عن

الروح .

فأمسك النبي ﷺ فلم يردّ عليهم شيئاً .

قال ابن مسعود : فعلمت أنه يوحى إليه ، فقمت مقامي ، فلما نزل الوحي ، قال : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربّي وما أُوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ .

وقد جاء في رواية الطبري وابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس : أن اليهود سألوا النبي ﷺ : أخبرنا ما الروح ؟ وكيف تعذب الروح في الجسد ،وإنما الروح من الله ؟!! فأتاه جبريل عليه السلام بالوحي : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي . . . ﴾ الآية

فأخبرهم النبي ﷺ بذلك .

فقالوا : مَن جاءك بهذا ؟

فقال :« جبريل » .

فقالوا : والله ما قال لك إلا عدوّنا .

فأنزل الله تعالى :﴿ قل : من كان عدواً لجبريل فإنّه نزَّله على قلبك . . . ﴾ الآية .

فأول ما تتناوله الآية الكريمة هو الروح الإنساني ،التي يَحيى بها جسد الإنسان ، وتشمل جميع الأرواح التي تحيى بها الأجساد ، فإن خصوص سبب النزول ، لا يمنع عموم الكلام النازل من عند الله تعالى ، ولكن سبب النزول هو قطعي الدخول في نص الكلام ـ كما هو مقرر عند أهل العلم ـ .

فقولهم : أخبرنا ما الروح ؟ وكيف تعذب الروح في الجسد ؟ ـ صريح في أنّهم أرادوا الروح الإنساني .

ثانياً : مما يدل على أن المراد بالروح المسؤول عنها في هذه الآية الكريمة هو الروح الإنساني ، هو أن السائل إنّما يسأل عن أمر اشتهر وثبت وجوده ، ولكنْ لم يقف على حقيقته ،فلمّا كانت الأجساد معلومة من حيث مادتها وخصائصها وتطوراتها وحقائقها ،ولكن الروح التي تحيى بها تلك الأجساد غير معلومة عندهم ، لأن العلم بها لا يكون إلا من طريق الوحي من الله تعالى ؛ فهذا هو قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ .

كما أنهم ـ أي :اليهود ـ قالوا لكفار قريش حين كان صلى الله عليه وآله وسلم قبل الهجرة ،قالت اليهود لكفار قريش : سلوه عن الروح ، ومن المعلوم أنّ كفار قريش ما كانوا يسمعون إلا بالروح الإنساني .

روى الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قالت : قريش لليهود : أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل .

فقالوا : سلوه عن الروح .

فنزلت : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ﴾ .

وبهذا استدل علماء التفسير على أن هذه الآية نزلت مرتين : مرة في مكة ، نزلت جواباً لقريش ،ونزلت ثانية في المدينة جواباً لليهود حين سألوه ﷺ بعد هجرته للمدينة المنورة ،وهذا له نظائر في القرآن الكريم ، فإن سورة الإخلاص نزلت في مكة حين قال المشركون للنبي ﷺ : انسب لنا ربك ،ونزلت ثانية في المدينة حين قالت له اليهود صف لنا ربك .

وفي هذا إعلام من الله تعالى ، وإعلان للملأ بأن أجوبته ﷺ هي مستندة إلى وحي الله تعالى وتعليمه .

ثالثاً : كان صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم يذكر الروح الإنساني ،ويبين أنها تنفخ في الجنين على تمام أربعة أشهر :

كما في (الصحيحين) عن ابن مسعود رضي الله عنه : قال : حدثنا الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم قال : « إن أحدكم - أي : كل إنسان - يُجمع خلقه في بطن أمّه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك ، فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أو سعيد . . . » الحديث .

فكان يذكر لهم الروح ويعني بها الروح الإنساني .

وقوله تعالى : ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ معناه : أن بدء خلق الروح من الله تعالى ، وأنّ خلقها صادر عن أمر الله تعالى ، وهو قوله تعالى : ﴿ كن ﴾ من غير سبب مخلوق تسببت عنه ، ولا مادّة ولا مُدَّة - وهذا شأن عالم الأمر عموماً .

والمحققون على أن الأرواح هي مخلوقة قبل الأجساد :

والدليل على ذلك من عدة وجوه :

أولاً : جاء في حديث المعراج - المتفق عليه - أن النبي ﷺ قال : « فلما فتح لنا - أي : فتح خازن السماء الدنيا الباب - علونا السماء الدنيا فإذا رجل قاعد : على يمينه أسودة ، وعلى يساره أسودة ، إذا نظر قبل يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل شماله بكى » .

فقال : « مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح » .

قال ﷺ : « فقلت لجبريل : من هذا » ؟

فقال : « هذا آدم ، وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نَسم بنيه - أي : أرواح بنيه - فأهل اليمين هم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله هم أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك وإذا نظر عن شماله بكى . . » الحديث .

فالنَسم جمع نَسَمَة على وزن قَصَب وقصبة ، فقد يُراد به نفس الريح أي : نسيم الهواء ،وقد يطلق على الروح الإنساني ؛ كما في هذا الحديث .

والدليل على أن المراد بالنسم في قوله : نسم بنيه ، أي : أرواح بنيه ، الدليل على ذلك ما رواه الطبراني والبيهقي بسند حسن عن أم مبشر الأنصارية ،وعن كعب بن مالك رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « إن نسمة المؤمن تسرح في الجنة حيث شاءت » أي : بعد الموت .

قال : « ونسمة الكافر في سجين » .

وروى الطبراني وغيره أن الصحابة رضي الله عنهم سألوا رسول الله ﷺ عن أرواح المؤمنين ـ أي : بعد الموت ـ

فقال : « في طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت » .

قالوا : وأرواح الكفار ؟

قال ﷺ : « محبوسة في سجين . . » .

فالمراد بالنسم في هذه الأحاديث الأرواح .

وقد بين الحافظ ابن حجر وغيره أن الأرواح التي رآها رسول الله ﷺ عن يمين آدم وعن شماله هي التي لم تدخل الأجساد بعدُ ، وهي مخلوقة قبل أجسادها ،وسوف تدخل أجسادها ،وأن مستقرها عن يمين آدم وعن شماله ، وقد أعلمه الله تعالى بما سيصيرون إليه من السعادة والشقاوة ، ولذلك كان يستبشر إذا نظر إلى مَنْ على يمينه ،ويحزن إذا نظر إلى من على شماله .

بخلاف الأرواح التي دخلت في أجسادها قال : فإنها ليست مرادة ،وبخلاف الأرواح التي انتقلت من أجسادها بعد الموت إلى

مستقرها ، قال : فليست مرادة أيضاً فيما يظهر .

وبهذا يندفع إيراد من يقول : كيف رأى رسول الله ﷺ أرواح بني آدم في سماء الدنيا مع أن أرواح المؤمنين تسرح في الجنة بعد الموت ، وأرواح الكفار في سجين ـ أي : أسفل السافلين ـ

ومما يدل على أن المراد بالنسم ـ في حديث المعراج ـ الأرواح ما صح عن أمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنه أنه قال : (والذي فلق الحبّة ، وبرأ النسمة ، إنه لعهد النبي الأميّ إليَّ ألاّ يُحبني إلا مؤمن ، ولا يُبغضني إلا منافق . . .) .

ثانياً : الأحاديث الواردة في عالم الذرّ :

ومنها قول أُبيّ بن كعب رضي الله عنه كما تقدم في رواية أحمد ، وفي رواية الحاكم بإسناد صحيح في قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا : بلى ﴾ الآية .

قال أبيّ بن كعب : جمعهم الله تعالى يومئذ جميعاً ، ما هو كائن من بني آدم إلى يوم القيامة فجعلهم أرواحاً ، ثم صوَّرهم واستنطقهم ، فتكلموا وأخذ عليهم العهد والميثاق .

فخطاب الحق سبحانه لهم بقوله : ﴿ ألست بربكم ﴾ ؟ وإقرارهم له بقولهم : ﴿ بلى ﴾ في هذا دليل وجود أرواحهم ، ولذلك فهموا عن الله تعالى ، وأجابوا بعد عقل وفكرة منهم وفهم ، فأقرّوا بقولهم : ﴿ بلى ﴾ ـ أي : أنت ربنا حقاً .

ثم قال لهم سبحانه : اعلموا أنّه لا إله غيري ، ولا ربّ غيري ، فلا تشركوا بي شيئاً ، وإني سأرسل إليكم رسلي ، يذكِّرونكم عهدي وميثاقي ـ أي : هذا العهد والميثاق الذي أخذته عليكم الآن ـ وأنزل عليكم

كتبي .

قالوا : شهدنا بأنك ربنا وإلهنا ، لا ربَّ غيرك فأقرُّوا بذلك . اهـ .

وسيأتي في هذا الكتاب ـ الكلام على عالَم الذرِّ وأحكامه بالتفصيل مع الدليل إن شاء الله تعالى . وذلك ص : ٢٤٦ .

ثالثاً : جاء في (صحيح) البخاري مُعلقاً عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف »

وجاء في رواية ابن منده بإسناده المتصل عن عمرو بن عبسة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تعالى خلق أرواح العباد قبل أن يخلق العباد بألفي عام ، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » .

وجاء في رواية لابن منده : عن النبي ﷺ : « خلق الله الأرواح قبل الأجساد بألفي عام » .

ورواية البخاري جاءت في (صحيح) مسلم .

وقد رواه أبو داود في كتاب الأدب والبخاري في : (الأدب المفرد) عن عائشة رضي الله عنها ، ورواه من طريق أخرى عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ورواه أبو يعلى في (مسنده) موصولاً ، وفي أوله : عن عمرة بنت عبد الرحمن قالت : كانت بمكة امرأة مزحة ، فنزلت على امرأة مثلها في المدينة ، فبلغ ذلك عائشة رضي الله عنها ، فقالت : صدق حبي ـ أي حبيبي ـ سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الأرواح جنود مجنَّدة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » .

ففي هذه الروايات يخبر ﷺ عن الأرواح ، وتقدمها على الأجساد ، وأنها خلقت أول خلقها على قسمين : من ائتلاف واختلاف ، فهي كالجنود المجنّدة المجموعة إذا تقابلت وتواجهت ، ومعنى تقابلها هو ما جعلها الله تعالى عليه من السعادة والشقاوة والأخلاق في مبدء الخلق ، فإذا تلاقت الأجساد التي فيها الأرواح في الدنيا ائتلفت مع صنفها ونظيرها حسبما خلقت عليه ، ولذلك ترى الخيِّر يحب الأخيار ويميل إليهم ، والشرير يحب الأشرار ويميل إليهم .

فما تعارف منها في عالم الأرواح ائتلف ههنا ـ أي : في عالم الأشباح ، وما تناكر هناك اختلف ههنا في الدنيا .

* * * *

شرف الروح الإنساني

إن روح الإنسان شريفة كريمة، أعلن الله تعالى شرفها وكرامتها؛ بأَنْ أضافها إليه فقال سبحانه: ﴿ فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾.

ففي هذه الآية الكريمة يخبر سبحانه عن شرف الإنسان جسماً وروحاً.

أما وجه تشريفه جسماً: فقد سوّاه سبحانه وعدّله، وخلقه في أحسن تقويم:

كما قال سبحانه: ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسوّاك فعدلك في أيّ صورة ما شاء ركبك ﴾.

وقال تعالى: ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾.

فقوله سبحانه: ﴿ فإذا سوّيته ﴾ نظير قوله تعالى لإبليس: ﴿ ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ ﴾ الآية.

فجسم الإنسان ليس كبقية الأجسام البهيمية الحيوانية، بل هو مشرف بتسوية الله تعالى له، وإحسان تقويمه ـ وهذه المكرمات لم ترد إلا في خلق الإنسان.

وأما وجه تشريف روحه: فقد أضافها سبحانه إليه حيث قال: ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾ والنفخ هنا كناية عن إيصال الروح بالجسم،

وإفاضتها على ذراته بالحياة ، بعدما صار مستعداً للروح . .

و ﴿ من ﴾ في قوله تعالى : ﴿ من روحي ﴾ هي للإبتداء ـ أي : من روح بدأ خلقها وإيجادها من الله تعالى ، وفي هذا بيان شرف الروح الإنساني ، وأنها ليست كغيرها من أرواح البهائم والحيوانات ، بل هي في أوج الكرامة والشرف ، والاستعداد للفيوضات والمعارف الإلهية ، والقضايا الإيمانية ، وفيها الأهلية لأن تكون موضع الخطابات الإلهية الشرعية : بالأوامر والمناهي ، والآداب الفاضلة ، والأخلاق العالية ، فيخاطبه الله تعالى بقوله : ﴿ يا بني آدم ﴾ ، وبقوله : ﴿ يا أيها الناس ﴾ ، وبقوله : ﴿ يا عبادي ﴾ ، وبقوله تعالى : ﴿ يا أيها الإنسان ﴾ ونحو ذلك . . .

والروح هي من العالم الأمريّ العُلوي ، هبطتْ إليك من المحل الأرفع ، وقرنت بهذا الجسم الإنساني الأرضي ، فإذا استعمل الإنسان هذا الجسم بالعبادة وأقامه في خدمة مولاه سبحانه ، وذلك : بأن يعمل بما أمر الله تعالى ، وانتهى عمّا نهاه الله تعالى ، فقد حافظ هذا الإنسان على كرامته وشرفه : روحاً وجسماً ، وصار يرتقي مراقي الكمال ، ووجدت روحه خفّة ولطافة ، وشعرت باللذة والراحة ، فتاقت إلى المستوى العالي الذي هبطت منه ، واشتاقت إلى عالمها العلوي المقدس ، وصار صاحبها إنساناً ربانياً .

وإذا اتَّبع الإنسان هواه ، وانغمس في الشهوات ، وانهمك في اللذائذ الجسمية المحرقة ، ثقلت الروح ، وهبطت من عالمها العلوي إلى الحضيض السفلي ، وصار إنساناً بهيميّاً حيوانياً . .

وفي هذا يقول الله تعالى في الكفار والفجار ، لما أخلدوا إلى الأرض واتبعوا أهواءهم ، وعموا وصمّوا في شهواتهم البهيمية : ﴿ **واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها** ﴾ ـ أي : لم يتلبس بمعانيها ، ولم يتحقق

بموجبها : اعتقاداً بما فيها من عقائد ، وعملاً بما توحيه من أعمال ، وتخلقاً بما فيها من أخلاق فاضلة ـ بل انخلع منها ، وخلعها كما يُخلع الثوب .

﴿ **فأتبعه الشيطان** ﴾ فاصطاده وافترسه ، ﴿ **فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها** ﴾ أي : بتلك الآيات فإنها تعلو بمن عمل بها ، وترفعه إلى المستوى العالي ، وبها يعلو من كان عالي الهمة ، ﴿ **ولكنه أخلد إلى الأرض** ﴾ أي : مال إلى زخارفها وملاذّها كل الميل ، حباً فيها ، وهياماً بشهواتها ﴿ **واتَّبع هواه** ﴾ أي : فهوى به هواه .

وهذا دليل دناءة همّته ، وخسَّة بُغيته ، لأنه قدم الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى ، فهو في ذلك : ﴿ **فمثله كمثل الكلب إنْ تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث** ﴾ والمعنى : أن شأن الكلب أن يلهث إن تركته ، أو حملت عليه وطردته ، وكذلك شأن من كفر وَأخلد إلى الأرض ، فهو يلهث على الدنيا متكالباً عليها ، فهو إن تركته يلهث على الدنيا حباً وهياماً ، لا تعلو همته ولا تنهض عزيمته ، ﴿ **ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا** ﴾ فإنها جاءت بما فيه الجمال والكمال ، وحسن الفِعال ، وصدق المقال ، وصلاح البال ، وكريم الخصال .

﴿ **فاقصص القصص لعلّهم يتفكرون** ﴾ فإنّ آيات الله تعالى جاءت بما فيه القضايا المعقولة المحكمة ، والبيّنات القاطعة الملزمة ، فمن تفكر أدرك ذلك وادّكر .

قال تعالى : ﴿ **كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته وليتذكر أولو الألباب** ﴾

اللهم اجعلنا منهم يا سميع الدعاء ـ اللهم آمين .

أول الأرواح خلقاً في عالم الأرواح

هو روح السيد الأكرم
سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

روى ابن سعد في (الطبقات) بإسناد حسن عن قتادة مرسلاً أن النبي ﷺ قال : « كنت أول الناس في الخلق ، وآخرهم في البعث » .

والمعنى أنه ﷺ هو آخر الأنبياء بعثاً في عالم الدنيا ، ولكنه هو أولهم خلقاً في عالم الأرواح .

كما ورد في رواية أبي نعيم : عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث » .

قال في (المقاصد) : رواه أبو نعيم في (الدلائل) وابن أبي حاتم في (تفسيره) وابن لال ، ومن طريقه الديلمي .

قال : وله شاهد من حديث ميسرة الفجر ، أخرجه أحمد والبخاري في (تاريخه) ، والبغوي وابن السكن ، وأبو نعيم في (الحلية) ، والحاكم وصححه بلفظ : « كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد »

وقد أقرّه الذهبي على تصحيحه ثم قال : ورواه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قيل يا رسول الله متى كنت نبياً ؟
قال : « كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد » .

ولقد أعطاه الله تعالى النبوة وختمها في عالم الأرواح قبل جميع الأنبياء :

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قالوا يا رسول الله :

متى وجبت لك النبوة ؟ ـ أي : متى ثبتت لك النبوة ـ

قال ﷺ : « وآدم بين الروح والجسد » .

قال الترمذي : حسن صحيح ، قال وفي الباب عن ميسرة الفجر .

ورواه الإمام أحمد عن ميسرة الفجر : قلت يا رسول الله متى كنت نبياً ؟

قال : « وآدم بين الروح والجسد » .

ورواه الإمام أحمد من وجه آخر بلفظ : متى جُعلتَ نبياً ؟

قال : « وآدم بين الروح والجسد » .

وروى الإمام أحمد عن العرباض بن سارية رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّي عند الله لخاتم النبين وإنَّ آدم لمنجدل في طينته » .

وروى ابن سعد في (الطبقات) من رواية جابر الجعفي عن الشعبي أن رجلاً قال : يا رسول الله متى استنبئت ؟

فقال ﷺ : « وآدم بين الروح والجسد » .

وهذا المرسل يعضده حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كما في رواية أبي نعيم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : يا رسول الله متى جعلت نبياً ؟

قال : « وآدم بين الروح والجسد »

وجاء في (المواهب وشرحها) : وفي أحكام ابن القطان فيما ذكره ابن مرزوق ، عن علي بن الحسين ، عن أبيه عن جده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه مرفوعاً ، أنه ﷺ قال : « كنت نوراً بين يدي ربي عزَّ وجلَّ ؛ قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف عام » .

قال المحققون من أهل العلم والمعرفة : وهذا يشير إلى النور المخلوق

المذكور في حديث جابر الذي رواه عبد الرزاق في (مصنفه) بلفظ :

قال جابر : قلت يا رسول الله : بأبي أنت وأمي أخبرني عن أول شيء خلقه الله قبل الأشياء .

قال : « يا جابر : إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره . . . » الحديث .

ومن المعلوم أنّ : « مِنْ » هنا ليست للتبعيض قطعاً بإجماع العارفين ، فإنّ نور الله تعالى وجميع صفاته لا تتجزأ ، وإنما هي للابتداء ، نظير قوله تعالى : ﴿ وسخَّر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ﴾ الآية أي : ابتداء خلقها منه سبحانه .

* * * *

معاني الروح الوارد ذكرها في القرآن الكريم

الروح في القرآن الكريم يأتي على عدة أوجه من المعاني :

أولاً : قد يذكر الروح في القرآن الكريم ويراد به الروح التي تحيا بها الأجسام ، ومنها الروح الإنساني كما في قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ﴾ الآية .

فالروح الإنساني هو مِن عالم الأمر الرباني اللطيف كما قال المحققون من أهل العلم والمعرفة ؛ كالإمام الغزالي وغيره ، الروح : جسم لطيف نوراني علوي ، ينفذ في جواهر الأعضاء ، ويسري فيها سريان الماء في الورد ، فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من الروح ، بقي ذلك الجسم الإنساني بإرادته وتحسسه وحركاته ، .وإذا فسدت هذه الأعضاء بسببٍ مَا وخربت عن قبول الروح ، فارق الروح البدن إلى عالم البرزخ .

ثانياً : قد يذكر الروح في القرآن الكريم ويراد به جبريل عليه السلام :

قال تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ قل : نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ .

فمن أسماء جبريل عليه السلام : أنّه الروح ، لأنه روح عظيمة قوية التأثير في الحياة .

ومن ثَمَّ كان من الحكمة أنه يرسل إلى مريم عليها السلام فينفخ فيها ، فيخلق الله تعالى عيسى عليه السلام ، ويعطى قوة على إحياء الموتى بإذن الله تعالى .

ويدلك على قوة روح جبريل عليه السلام ، ما ذكره الله تعالى في قصة السامري :

﴿ قال : فما خطبك يا سامريُّ ؟قال : بَصُرْتُ بما لم يبصروا به فقبضت قبضةً من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سَوَّلت لي نفسي ﴾ .

جاء عن سيدنا علي كرم الله وجهه ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن السامري رأى جبريل عليه السلام راكباً على فرس ـ حين جاء جبريل إلى موسى ليذهب معه إلى الميقات ـ فرأى ما لم يره غيره ، وذلك أن السامري بتبصير من الله تعالى ـ فتنةً له ـ بَصُر أي : رآى جبريل عليه السلام على فرس ، كلما رفع الفرس مقدمتيه ، أو مؤخرتيه عن التراب يخرج النبات وتدبُّ الحياة في التراب ، فعرف السامري أن هذا التراب فيه آثار حيوية ، فألقاها في جسد عجل قد صاغه من ذهب ، فكان له خوار البقر ، وذلك أن الحياة إذا دبت في جسد تعمل في الجسد حسب استعداده ، فلو وضع ذلك في صورة فرس لكان له صهيل . . .

فسيدنا جبريل عليه السلام قويُّ الروح ، عظيم التأثير في الحياة .

ومن صفات سيدنا جبريل عليه السلام أنه روح القدس ، وسُمي بذلك لقدسية نفسه ، وطهارتها ، ولأنه ينزل بالوحي الإلهي الذي فيه التقديس ، أي : ينزل بما يطهر النفوس ، ويقدس العقول والقلوب ، قال تعالى : ﴿ قل نزَّله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا ﴾ الآية .

فما أعظم هذا القرآن الكريم ، فإنه كلام الله تعالى الملك القدوس ، نزل

به روح القدس ، على أقدس قلب ، وأزكى نفس ، ألا وهو سيدنا محمد ﷺ مُزكي النفوس .

قال تعالى: ﴿ لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكِّيْهم ويُعلِّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ .

روى الحاكم والطبراني عن أبي المليح عن أبيه أنه صلّى مع النبي ﷺ ركعتي الفجر ، فصلَّى قريباً منه فسمعه يقول :

« اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ومحمد ﷺ : أعوذ بك من النار ـ ثلاث مرات ـ » .

ومن أسرار ذكر هؤلاء الملائكة الكرام الثلاثة مع اسمه الشريف ﷺ أن الله تعالى جعلهم أسباب الحياة :

فسيدنا محمد ﷺ جاء بروح العالم ، قال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ .

وبهذه الروح تحيى الأرواح والقلوب ، حياة سعيدة أبدية في الدنيا والآخرة ، ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لِمَا يُحْيِيكم ﴾ .

والمعنى : أنه ﷺ جاء بما فيه حياتكم ، لتحيوا في الدنيا حياة طيبة ، رضية مرضية ، ولتحيوا في الآخرة حياةً سعيدة هنيئة أبدية .

وفي قوله تعالى : ﴿ لما يُحْيِيكم ﴾ فيه تنبيه إلى شدة حاجة العالم إلى رسول الله ﷺ ، فإنه أحوج ما يكون الإنسان إليه هو ما يكون فيه حياته .

فمن استجاب لدعوة رسول الله ﷺ فقد تعرض لنفخ الروح القرآني في

روحه الإنساني وقلبه ، وبذلك يَحيى حياة الأبد .

فرسول الله الملكي ، يرسله الله تعالى لينفخ الروح الإنساني في الجنين ليحيى جسمه ، حياة مؤقتة بعمره المقدَّر له .

وأما سيدنا محمد رسول الله ﷺ فإنّه أرسله الله تعالى إلى جميع العالمين ، لينفخ في أرواحهم وقلوبهم ، روح القرآن ، ليحييهم حياة الأبد ـ فما أحوج العالم إلى سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ؟ .

ولذلك جاء عن سيدنا عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام أنه وصف النبي محمداً ﷺ بأنه روح الحق ـ يعني أنه روح من الله الحق ، أرسله لحياة الخلق .

فقد ذكر كثير من العلماء المتقدمين كابن قتيبة وابن ظفر وابن طُغْربك نقلاً عن الإنجيل إذْ ذاك : أن المسيح قال لتلاميذه : « إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي ، وأنا أطلب من الربّ أن يعطيكم فارقليطاً آخر ، يكون معكم الدهر كله : روح الحق ، الذي لن يطيق العالم أن يقتلوه » ـ أي : لا يقدرون على قتله لأن الله تعالى عصمه من القتل .

قال تعالى :﴿يا أيها الرسول بلِّغ ما أنزل إليك من ربك وإنْ لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾ .

ونقل ابن طُغْربَك الإمام العلامة المحدث سيف الدين عمر بن أيوب في كتاب (الدر المنظم) في مولد النبي المعظم ﷺ نقل عن السيد المسيح قال : « أنا أطلب من الرب أن يعطيكم فارقليطاً آخر ، يثبت معكم إلى الأبد ، هو روح الحق ، الذي لن يطيق العالم أن يقتلوه » .

وقال : « إن الروح الحق الذي يرسله ربي ، هو يعلمكم كلَّ شيء » .
والفارقليط : كلمة عبرانية معناه بالعربية : الرجل الحامد المحمود ، وهذا

هو سيدنا أحمد ومحمد رسول الله ﷺ ، كما قال تعالى مُخبراً عن عيسى عليه السلام : ﴿ ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ الآية

فهو صلى الله عليه وآله وسلم أحمد الحامدين من الأوَّلين والآخرين ـ لرب العالمين .

وجاء عن السيد المسيح عليه السلام : « إنّ أُركون العالم سيأتي » . اهـ

والأركون معناه : السيد العظيم والركن القويم .

وهذا سيدنا محمد ﷺ .

قال عليه الصلاة والسلام : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة . . » الحديث

فأنت يا سيدنا يا رسول الله ، ويا هادينا إلى الله تعالى ، ويا أكرم الأولين والآخرين على ربِّ العالمين ، أنت الذي يقال فيك حقاً ويقيناً ، وصدقاً :

إذا نحنُ أثنينا عليك بصالحٍ فأنتَ الذي نثني وفوق الذي نثني
وإن جَرَتْ الألفاظ منا بمدحةٍ لغيرك إنساناً فأنت الذي نعني

فأنت الذي أعطاك الله تعالى مقام السيادة على العالم ، فلنا الشرف والفخر أن جعلنا الله تعالى من أمتك صلى الله عليك وسلم ؛ كما أنت أهله ، وعلى آلك وأصحابك ، وعلينا معهم أجمعين ، أبد الآبدين .

قد شرَّف الله أرضاً أنت ساكنها وشَرَّف الناس إذ سَوَّاك إنساناً

وأما سيدنا ميكائيل عليه السلام فهو الموكل بالمطر الذي به حياة الأرض والنبات ، والإنسان والحيوان ، والطيور ، والبلاد والعباد . .

وأما إسرافيل عليه السلام فهو الذي ينفخ في الصور فيحيي الله تعالى بنفخته الموتى فإذا هم قيام لرب العالمين سبحانه .

والصور هو عالم كبير ، تجتمع فيه الأرواح بعد مفارقتها للأشباح ، وهذا

العالم هو قرنيُّ الشكل ، وليس هو بكروي الشكل ، كما فصَّلت ذلك في كتاب (الإيمان بعوالم الآخرة) وأوردت الأحاديث النبوية الواردة في ذلك ـ فارجع إليه .

وقد يطلق الروح ويراد به الوحي الإلٓهي النازل على الأنبياء والرسل صلوات الله تعالى وسلامه على نبينا وعليهم :

قال تعالى : ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ﴾ .

وقال سبحانه : ﴿ يُنزِّل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أنْ أنْذِروا أنّه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أَمْرِنَا ﴾

وهذا هو الوحي القرآني ، والنبوي المحمدي ، النازل على سيدنا محمد ﷺ ، فإنّ فيه حياة القلوب والأرواح ، وحياة العباد والبلاد ، وفيه الحياة السعيدة الأبدية ، وفي هذا تنبيه للعباد أن حياتهم الطيبة السعيدة هي منوطة بهذا الروح النبوي المحمدي ، فليتمسكوا بروحهم ، فمن تمسك بماأوحاه الله تعالى إلى رسوله ﷺ فقد حيي حياة الأبد ، ومن لم يتمسك بذلك مات ميتة الأبد ، قال تعالى في الكفار : ﴿ أموات غير أحياء وما يشعرون أيّان يبعثون ﴾ .

فالكفار أموات القلوب والأرواح ، وإن كانوا أحياء الأجسام والأشباح .

وأما المؤمنون فهم أحياء القلوب والأرواح وإن ماتت أجسادهم .

قال سبحانه : ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ﴾ الآية

والمعنى : إنما يستجيب لدعوتك يا رسول الله ـ الأحياء الذين يعقلون

ما تدعوهم إليه ويفهمون ، وأما الذين لا يستجيبون لك فهم موتى القلوب والأرواح ، وأمر الموتى إلى الله تعالى ، هو أنْ يبعثهم فيحاسبهم ، ويجازيهم بما كانوا يعملون .

وقد يُطلق الروح على نصر الله تعالى للمؤمنين المخلصين وتثبيتهم :

قال تعالى : ﴿ أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيَّدهم بروح منه ﴾ .

وهذا نظير قوله تعالى : ﴿ والله يؤيِّد بنصره من يشاء والله واسع عليم ﴾ .

والتأييد مشتق من : الأيد ، وهو القوة ؛ يقال : إدْتُه إذا قوَّيتُه ، وأيَّدتَه : إذا أكثرت من تقويتك له وكررتها .

ويحتمل أن يُراد بالروح هنا سيدنا جبريل عليه السلام ، كما جاء في الحديث : « اللهم أيد حساناً بروح القدس ، ما نافح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم » .

والمعنى : أيّده بجبريل عليه السلام ، ما دام يدافع عن رسول الله ﷺ .

وأما الروح في قوله تعالى : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلّا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾ .

فقد اختلف العلماء في المراد بذلك :

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : هو مَلَك عظيم من أعظم الملائكة خلقا يقف صفاً وحده .

وروي نظير ذلك عن ابن مسعود رضي الله عنه ، وقال : الروح في هذه الآية الكريمة : خلقٌ من خلقِ الله تعالى ، على صور بني آدم ، ولكن ليسوا من البشر ولا من الملائكة .

وقال بعضهم : الروح هنا : هم عالم الأرواح العالية المجردة عن الأجسام ، لا يعلم عددهم إلا الله تعالى ، وهؤلاء غير المُهيَّمين ، الذين هاموا في جلال الله تعالى وجماله عن أنفسهم ، وعمَّا سوى الله تعالى ـ كما بيَّنت ذلك في كتاب : (الإيمان بالملائكة عليهم السلام) .

وأما الروح في قوله تعالى في سورة القدر : ﴿ تَنزَّل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ﴾ .

فقد اختلف في المراد به ، والظاهر أنه الروح الأمين جبريل عليه السلام ، وخصَّه بالذكر بعد العموم لشرفه وعلوّ مكانته ؛ ولأنه قائد أُولئك الملائكة النازلين بالأمر الإلهي ـ كما وصفه سبحانه بقوله : ﴿ إنّه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مَكِينْ مطاع ثَمَّ أمين ﴾ .

يعني : أن جبريل عليه السلام له سيادة وقيادة لجيوش كبيرة من الملائكة عليهم السلام ، يأمرهم بأوامر فيطيعونه ولا يخالفونه ، لأن الله تعالى أمرهم بطاعته عليه السلام .

﴿ مطاع ثَمَّ أمين ﴾ ـ أي : أمين الله تعالى على وحيه وأوامره .

وقد ورد في عدَّة من روايات الأحاديث النبوية التي يُقوي بعضها بعضاً ، جاء فيها أن المراد بالروح في سورة القدر هو جبريل عليه السلام .

فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ـ في حديث فضل شهر رمضان ـ « وإذا كانت ليلة القدر يأمر الله عزَّ وجلَّ جبرائيل عليه السلام ، فيهبط في كَبْكَبَةٍ ـ أي : جموع من الملائكة ـ ومعه لواء أخضر ، فيركز اللواء على ظهر الكعبة » .

وفيه : قال : « فيحُثُّ جبرائيل عليه السلام الملائكة في هذه الليلة فيسلِّمون على كلِّ قائم وقاعدٍ ومُصلٍّ وذاكر ، ويصافحونهم ، ويؤَمِّنون على

دعائهم ـ حتى يطلع الفجر ، فإذا طلع الفجر ينادي جبرائيل عليه السلام : يا معاشر الملائكة الرحيل الرحيل

فيقولون : يا جبريل فما صنع الله تعالى في حوائج المؤمنين ، من أمة أحمد ﷺ ؟ »

فيقول : « نظر الله تعالى إليهم في هذه الليلة ، فعفا عنهم ، وغفر لهم إلا أربعة » :

فقلنا : يا رسول الله مَنْ هم ؟

قال : « رجلٌ مدمن الخمر ، وعاقٌ لوالديه ، وقاطع رحم ، ومُشاحن » .

قلنا : يا رسول الله ما المُشاحن ؟

قال : « هو المُصارم » أي : المقاطع لأخيه المسلم .

قال الحافظ المنذري بعدما روى الحديث بطوله : رواه البيهقي واللفظ له ، ورواه أبو الشيخ ابن حيان في (كتاب الثواب) قال : وليس في إسناده من أجمع على ضعفه . اهـ

وقد جاء في رواية لأبي الشيخ ، عن سلمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من فطر صائماً في شهر رمضان من كسب حلال صلّت عليه الملائكة ليالي رمضان كلّها ، وصافحه جبرائيل عليه السلام ليلة القدر ، ومن صافحه جبريل عليه السلام يَرقّ قلبه وتكثر دموعه » .

والمعنى : أنه يصير من أهل الخشية من الله تعالى ، وقد قال سبحانه : ﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير﴾ .

قال سلمان : قلت يا رسول الله أفرأيت من لم يكن عنده ـ أي : ما يجد

ما يفطرّ الصائم ـ؟

قال : « فقُبضة من طعام » .

قلت : أفرأيت إن لم يكن عنده بقية خبز .

قال : « فمذقة لبن » .

قال : أفرأيت إن لم يكن عنده .

قال ﷺ : « فشربة من ماء » .

* * * *

الروح والنفس والفرق بينهما

تقدم أن الروح يطلق على أمور متعددة ، ومنها الروح الإنساني .

وأما النفس فإنّها تطلق في الكتاب والسنة على أمور متعددة :

الأول : تطلق النفس على الروح الإنساني الذي به حياة الإنسان :

قال تعالى : ﴿ ولو ترى إذا الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم ﴾ - أي : أرواحكم .

وقال تعالى : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمّى إنّ في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون ﴾ .

ومن المعلوم في اللغة : أن التوفية معناها : القبض ، فقوله تعالى : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ - أي : يقبض الأرواح حين موتها ، وهذه توفية الموت ﴿ والتي لم تمت في منامها ﴾ - أي : ويقبض الأرواح التي لم يحن حينها يقبضها في منامها ، وهذه توفية النوم ، فيمسك التي قضى عليها الموت عنده ويعزلها عن البدن ، ويجعلها في عالم البرزخ ، ويرسل الأخرى التي توفاها توفية النوم ؛ يرسلها إلى أجل مسمّى - أي : الأجل المسمّى عنده المقدَّر لها ، فتبقى فيها الحياة حتى يأتي أجلها .

فذكر سبحانه في هذه الآية نوعين من التوفية ، وذلك لأن توفية الله تعالى

لعباده جاءت في القرآن على ثلاثة أنواع :

١ ـ **توفية النوم** : قال تعالى : ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ وبهذه التوفية تتوجه الروح إلى عالم آخر مع بقائها في الجسم ، فالحياة باقية في الجسم ، ولكن الروح توجهت إلى عالم برزخي ، بين عالم اليقظة وبين عالم الأرواح ، كما إذا توجه الإنسان بوجهه من أمام إلى خلف ، فإنه لا يرى ما أمامه ويرى ما خلفه .

٢ ـ **توفية الموت** : قال تعالى : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها . . ﴾ الآية ، وبهذه التوفية تقبض الروح ، وتفارق الجسم ، وتدخل في عالم البرزخ بين الدنيا والآخرة .

٣ ـ **توفية فيها قبض الروح والجسم معاً والأخذ بهما إلى عالم آخر** : قال تعالى في عيسى عليه السلام : ﴿ إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا . . . ﴾ الآية

والمعنى : إني قابضك إليّ جسماً وروحاً ، ورافعك إليّ بجسمك وروحك ، لأحفظك من القتل الذي همّ به أعداؤك .

ولا يصح تفسير التوفية هنا بالموت الذي هو قبض الروح عن الجسم ، لأن المعنى يصير حينئذ : إني متوفي روحك ورافع روحك إليّ .

وإنّ قبض الروح ورفعها إلى الله تعالى هو شامل لجميع المؤمنين ، وليس خاصاً بعيسى عليه السلام ، ولا خصوصية فيه ، فإن كل مؤمن بعد موته ترفع روحه إلى الله تعالى ، وتفتح لها أبواب السماء ، كما جاء في الأحاديث الصحيحة ، وقد أوردتها في كتاب (الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها) .

على أن تفسير التوفية لعيسى بقبض الروح عن الجسم وهو الموت هذا يتنافى مع قوله تعالى في عيسى عليه السلام : ﴿ وإنْ مِنْ أهل الكتاب إلا

ليؤمننّ به قبل موته ﴾ ، فلا يموت عيسى عليه السلام حتى يؤمن جميع أهل الكتاب حتى اليهود ، وهذا أمر لم يقع ، ولكنه سوف يقع قبل قيام الساعة ، حين ينزل إلى عالم الأرض ، كما دل على ذلك الآيات القرآنية والأحاديث المتواترة النبوية .

فسيدنا عيسى عليه السلام هو حَيٌّ الآن في السماء الثانية ، وقد تغلَّبت أحكام روحه على أحكام جسده ؛ فهو لا يحتاج إلى طعام وغذاء ، فإذا نزل إلى عالم الأرض عاد كما كان من قبل .

الثاني : قد تطلق النفس على القلب والسرّ الخفيّ فيه والقلب هو باب الروح إلى البدن حسّاً ومعنىً .

قال تعالى : ﴿ يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك . . ﴾ الآية

وقال تعالى : ﴿ يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون . . ﴾

فالأنفس في الآية الأولى هي القلوب في الثانية .

قال تعالى : ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله . . ﴾ الآية

وقال تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكِّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيتَ ويسلِّموا تسليما ﴾ .

فالإيمان الكامل هو التسليم الكامل لسيدنا محمد ﷺ فيما حكم به ، أو أخبر عنه ، دون توقف أو تردُّد ، أو شائبة كراهة أو استثقال تجعل في النفس أي : القلب حرجاً وضيقا بها ؛ وعدم انشراح لها .

قال الإمام السيد الهمام جعفر الصادق رضي الله عنه : لو أنّ قوماً عبدوا الله تعالى ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وصاموا رمضان وحجُّوا البيت ثم قالوا لشيء صَنَعَه رسول الله ﷺ : أَلَا صنع خلاف ما صنع ، أو وجدوا في أنفسهم حرجاً ـ لكانوا مشركين أي : كافرين ، ثم تلا الآية السابقة . اهـ

اللهم اجعلنا من الذين سلَّموا لرسول الله ﷺ تسليماً بفضلك يا ذا الفضل العظيم .

ومن جملة إطلاق النفس على القلب قوله تعالى مخبراً عن سيدنا نوح عليه السلام :

﴿ ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم إني إذاً لمن الظالمين ﴾

فكان الكفار من قوم نوح عليه السلام يزدرون ضعفاء المؤمنين بنوح عليه السلام ، ويسخرون منهم ، لأن فيهم الفقير والمسكين ، ويقولون : هؤلاء المساكين والضعفاء من قوم نوح ما عندهم خير ، فلو كان ما جئتَ به يا نوح خيراً لآتانا الله إيَّاه ، لأنه آتانا المال وهو خير الدنيا ، فزعموا أن من آتاه الله خير الدنيا وهو المال فإنه يؤتيه كلَّ خير سواه ، ومَنْ لم يؤتَ من خير المال الواسع في الدنيا فليس أهلاً لكل خير سواه ، كما قال الكفار للمؤمنين الضعفاء الذين آمنوا برسول الله ﷺ : ﴿ لو كان خيراً ما سبقونا إليه ﴾ ـ أي : لو كان ما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم خيراً ما سبقنا إليه صهيب وبلال وغيرهم من المساكين .

وهناك أجابهم نوح عليه السلام : ﴿ الله أعلم بما في أنفسهم ﴾ ـ أي : الله أعلم بما في قلوبهم من قوة الإيمان ، ونور الإيقان الذي فيه خير الدنيا

والآخرة .

وهكذا جاء في آيات كثيرة إطلاق النفس على القلب .

الثالث : إطلاق النفس على جملة الذَّات الإنسانية المشتملة على الروح والجسم :

قال تعالى : ﴿ ولو أنّا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم . . ﴾ الآية .

فالمراد بالأنفس هنا ذات الإنسان بجسمه وروحه ، بدليل قوله تعالى : ﴿ أو اخرجوا من دياركم ﴾ فإن الخروج من الديار إنما يكون بالجسم والروح ، وبدليل أن القتل لا يتصوَّر أن يأتي على الروح بلا جسم ، ولا يتصوَّر أن يأتي على الجسم ميت ماله روح .

ولما نزلت هذه الآية الكريمة قال أناس من الصحابة رضي الله عنهم : لو أمر ربنا بذلك لفعلنا ، فالحمد لله الذي عافانا ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : « إنّ من أمتي لرِجالاً الإيمانُ أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي » .

وهكذا يأتي إطلاق النفس على ذات الإنسان جسماً وروحاً كقوله تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم . . ﴾ الآية وغيرها من الآيات الكريمة .

قال تعالى : ﴿ وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فسلّموا على أنفسكم تحيةً من عند الله مباركةً طيبةً ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ﴾ الآيات الكريمة .

الرابع : إطلاق النفس على ذات الشيء بوجهٍ عام دون اختصاص بالأجسام ولا بالأرواح وأنواعهما :

فيقولون : نفس الشيء ويريدون ذاته ، وإن كانت حقائق الذوات مختلفة .

فيقال :

نفس القول ، أي : ذاته ، ونفس الفعل أي :ذاته ، ونفس الثوب ، ونفس الدار ، ونفس الشجرة والمراد ذاتها .

ومن باب إطلاق النفس على الذات قوله تعالى : ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلامٌ عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة . . ﴾ الآية

وقوله تعالى :﴿كتب على نفسه الرحمة ليجمعنّكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه . . ﴾ الآية.

والمعنى : أنه سبحانه كتب وأوجب على نفسه ـ أي : ذاته ـ الرحمة العامة لجميع المخلوقات .

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى حين خلق الخلق كتب على نفسه : إنّ رحمتي تغلب غضبي » .

وفي رواية للبخاري : « لمَّا خلق الله الخلق كتب في كتابٍ كتبه على نفسه فهو موضوع عنده فوق العرش : إن رحمتي تغلب غضبي » .

وفي الحديث القدسي الذي رواه مسلم يقول الله تعالى : « يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلتُه بينكم محرّماً فلا تظالموا . . » الحديث

وفي (الصحيحين) وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ

قال : « لا أحدَ أغيرُ من الله تعالى ولذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحبُّ إليه المدح من الله تعالى ولذلك مدح نفسه ، ولا أحد أحبّ إليه العذر من الله تعالى ومن أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل . . » .

وهكذا جاء في كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية إطلاق النفس على الله تعالى بمعنى الذات .

وقد اختلف العلماء في هذا الإطلاق أهو من باب الحقيقة أو من باب المشاكلة الحقيقية أو التقديرية .

فذهب بعض العلماء من المتكلمين والمحدثين إلى أن ذلك من باب المشاكلة تحقيقاً أو تقديراً ؛ أما التحقيقية فمثل قوله تعالى :﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك . . ﴾ ، والتقديرية في غير ذلك .

ولكن الجمهور من المتكلمين والمحدثين على أن ذلك من باب الحقيقة لا من باب المشاكلة ، فإن الله تعالى هو كما وصف نفسه بقوله : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ ، فالله تعالى لا يشبهه شيء في ذاته ، ولا في صفاته ولا في أفعاله ، ولا في شؤونه كلها ، فهو سبحانه هو كما هو ، ولا يعلم حقيقته إلا هو ، كما قال سبحانه : ﴿ قل هو الله أحد . . ﴾ .

وقد نزلت هذه السورة الكريمة لما سئل ﷺ فقيل له : انسب لنا ربك . وفي رواية : قالت اليهود : صف لنا ربك .

فجاء الجواب : ﴿ قل هو الله أحد﴾

أي : هو كما هو ، لا يعلم حقيقته إلا هو ، فلا يعلم كنهه ولا تُدرَك حقيقته ، ولا يُحاط به علماً ، قال تعالى : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما﴾ .

أي : بل هو المحيط بهم علماً وقدرة وتدبيراً ، قال تعالى : ﴿ ألا إنّه بكل شيء محيط ﴾ ، فكيف يحيط المُحاط بمن هو محيط به ؟

وقال تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ ـ أي : الأبصار القلبية والعينية ـ ﴿ وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ .

ومن ثم جاء في الحديث المروي من طرق متعددة عن ابن عمرو وابن عباس وأبي ذر رضي الله عنهم أن النبي ﷺ قال : « تفكروا في خلق الله ، ولا تفكروا في الله فتهلكوا » .

وفي رواية : « تفكَّروا في كل شيء ولا تفكّروا في ذات الله تعالى » ، وهناك روايات متعددة .

فالله تعالى هو كما وصف نفسه بقوله : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ .

فهاتان الجملتان فيهما من معاني التوحيد ما لا يحيط بعلمه إلا الله تعالى

فالآية الأُولى وهي قوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ فيها التنزيه المطلق عن كل شبه ومثيل ، وجاء هذا التنزيه على أبلغ وجه ، فجيء بعد النفي بأداتي التشبيه : الحرفية وهي الكاف ، والاسمية وهي مثل ، فإنهما الأصلان العظيمان من أدوات التشبيه ، وفي هذا تأكيد قوي لنفي التشبيه ، فلم يقل سبحانه : ليس مثله شيء ، بل قال : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ تأكيداً للنفي واستئصالاً للتشبيه ، فكأنّ النفي أعيد مرتين للتأكيد ، وزيد في تأكيد نفي التشبيه أن قُدِّم في الجملة وأُخِّر ، فلم يقل سبحانه : ليس شيء كمثله ، بل قال : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ وهذا أبلغ عند من يفهم أسرار البلاغة ، وفي ذلك أيضاً إشارة إلى أنّ هذا الوصف وهو التنزيه عن الشبه من جميع الحيثيات والاعتبارات هذا أمر انفرد به سبحانه .

ثم قابل هذا التنزيه عن الشبه مطلقاً ـ قابل ذلك بإثبات الكمال المطلق له وحده سبحانه على وجه لا يتناهى ، فقال سبحانه : ﴿ وهو السميع البصير﴾ ـ أي : وهو أيضاً العزيز الحكيم ، وهو العليم الحكيم ؛ وهو الخلّاق العليم ، وغير ذلك مما جاء من الصفات في بقية الآيات .

وبهذا الجمع بين التنزيه والإثبات ، يعلم اللبيب أن الإيمان به سبحانه يتطلب إثبات الكمالات المطلقة له سبحانه ، مع التنزيه عن الشبه ، فهو السميع البصير كما يليق به سبحانه ، ولكن لا يشبه سمع المخلوقات ولا بصرهم ولا يشبهونه .

كما أنّ من الإيمان أن التنزيه عمّا لا يليق به ملازم لإثبات ما يليق من الكمال الذي اتصف به سبحانه كما جاء في الكتاب والسنة .

وكما جاء التأكيد في نفي التشبيه ، جاء التأكيد في إثبات الكمال المطلق له سبحانه على وجه خاص به ، فقال : ﴿وهو السميع البصير﴾ ، ومن المعلوم أن هذه الجملة تدل على الحصر المعروف بالاختصاص والقصر ـ فإنها معرفة الطرفين .

وفرق بين قولك : زيدٌ قائم ، وزيدٌ القائم .

وبيان ذلك : أن السمع والبصر وسائر الكمالات التي اتصف بها سبحانه هي واجبة له ، وذاتية له سبحانه ، فهو سبحانه المتفرد بوجوب الكمال الذاتي وحده ، فصفات الكمال الآلهي ملازمة للذات قِدَماً وبقاءً ، وهي ذاتية له .

وأمّا ما سوى الله تعالى فما فيه من كمال فهو بجعل الله تعالى وإعطائه ، بعد أن لم يكن كذلك ، وأيضاً على وجه محدود ومعدود ، فالله تعالى هو السميع البصير ، وأما الإنسان فقال تعالى : ﴿ إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ﴾ .

فسمع الإنسان وبصره وسائر كمالاته مجعولة ، وليست واجبة له ، ولا ذاتيةً له .

وقال تعالى :﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلّكم تشكرون ﴾ وهكذا جميع صفات الكمال الآلهي كلها واجبة ذاتية له ،غير متناهية من كل الوجوه والاعتبارات ، فهو سبحانه واحد فيها لا يشاركه فيها غيره ، ولذلك جيء بها على وجه التخصيص والحصر ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد ﴾ ـ أي : لا غيره .

وقال تعالى : ﴿ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾

وقال تعالى : ﴿ وإنّ الله لهو العزيز الحكيم ﴾ .

وقال تعالى : ﴿إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إنّ ربك هو القوي العزيز ﴾ .

فأثبت سبحانه لنفسه الكمالات على وجه الإنفراد بها والتخصص ،لأن كمالات الحق سبحانه واجبة له ، ذاتية ، وغير متناهية ، وأما كمالات المخلوقات فهي بجعله سبحانه وبخلقه ، وبإعطائه لهم ذلك ، على نسب محدودة ، تُناسب استعدادهم الذي أعدهم به ، فإنّه تعالى هو المعدّ وهو الممدّ ، قال تعالى : ﴿ كلاًّ نمدّ ﴾ .

فلا مشابهة بين الخالق والمخلوق : لا في الذات ، ولا في الصفات ، ولا في الأفعال ، ولا في الشؤونات ـ عزَّ وجلَّ ، فهو سبحانه وتعالى ، هو كما هو ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ ،فمهما عرف العارفون من

جماله سبحانه وكماله فإنما ذلك على حسب استعدادهم وقابليتهم ، ومراتبهم ومقاماتهم ، قال تعالى : ﴿وقل ربِّ زدني علماً﴾ .

مراتب النفس وأصنافها

للنفس باعتبار الصفات التي اتصفت بها أصناف مختلفة المراتب :

الأولى : النفس الأمّارة بالسوء :

وهذه هي النفس المذمومة ، وهي التي تأمر صاحبها بكل سوء في الحال أو المآل ، وتحاول أن تميل بصاحبها إلى داعية الأهواء الذميمة ، والإفراط في الشهوات المحرمة ، لما فيها من بواعث الشهوة ، والقوى الغضبية ، والدواعي الجسمية الأرضية ، وهذه النفس لا يخلص صاحبها من شرها ، وسوء أذاها ، إلا بالالتجاء إلى الله تعالى ، والاستعانة بالله تعالى ، والتعوذ به من شرها .

قال تعالى مخبراً عن امرأة العزيز : ﴿ إنّ النفس لأمّارة بالسوء إلا ما رحم ربي إنّ ربي غفور رحيم ﴾ .

فمن استعاذ بالله تعالى من شرها أعاذه الله تعالى ، ومن تحصّن به حفظه الله تعالى .

وقد عَلّم رسول الله ﷺ أمته ، وأرشدهم إلى طريق التخلص من شرور النفس ، وبيّن ﷺ أنّ النفس تحتاج إلى مجاهدة : روى البخاري عن ابن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » .

وفي رواية ابن حبان : « المسلم من سلم الناس من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » .

وروى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه ، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم » .

وزاد البيهقي في روايته : « والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله تعالى . . »

فلما كانت النفس فيها دواعي الهوى والشهوات المفرطة ، وفيها القوى الغضبية ، وجميع ذلك يؤدي إلى الشرور والفساد ، لذلك جاءت الشريعة الإلهية بأنظمة وأحكام ، فيها حِكَم تحوط الإنسان وتحفظه من آفات النفس ودواعيها ، وتنظم له مصارف شهواته ، ومصرف قواه ، وتصرف عنه داعية الهوى السيء .

قال تعالى : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإنّ الجنة هي المأوى . . ﴾ .

فإذا جاهد الإنسان نفسه ، واستعان بالله تعالى : نصره الله تعالى عليها ، فيصير مسلماً مسالماً ـ أي : مسلماً : لأوامر الله تعالى ، ومسالماً لعباد الله تعالى .

ويصير مؤمناً بالله تعالى صادقاً ، بحيث يصدق قوله وعمله وحاله ، يصدق إيمانه القلبي فيأمنه الناس على دمائهم وأعراضهم وأموالهم ، ويصير مهاجراً : هاجراً للخطايا والذنوب ، ولا يتم ذلك إلا بهجرة جلساء السوء الغارقين في الخطايا والذنوب .

وهنا يتبين للإنسان سوء عواقب الذنوب والخطايا ، وقباحة المعاصي

والفجور ، وما تؤدي إليه من مفاسد وشرور ، ويعلم محاسن الأعمال الصالحة ، والأخلاق الفاضلة ، والمعاملة الحسنة ، وما تؤدي إليه من خير وصلاح وفلاح ، يعود عليه ، وعلى أسرته ، وعلى بيئته ، وعلى مجتمعه عامة ـ ومن هنا يلوم الإنسان نفسه على ما فرّط ، ويحزن على ما سبق منه من هَنَاتٍ وسيئات ،فينتقل إلى صنف النفس اللوامة .

الثانية : النفس اللّوامة :

قال تعالى : ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللّوامة .. ﴾ .

اللوامة : صيغة مبالغة مشتقة من اللوم ، قال الحسن البصري ومجاهد وغيرهما في تفسير النفس اللوامة : هي التي تلوم نفسها على ما فات وفرط منها ، وتندم على فعل الشر لِمَ فعلته ، وتندم على التقصير من عمل الخير لم تستكثر منه ، فهي لم تزل لائمة ؛ وإن اجتهدت في الطاعات والعبادات . اهـ فالمبالغة في الكيف باعتبار الدوام على اللوم .

فالنفس الأمّارة هي التي أعرضت عن التمسك بالشرع الآلهي ، واستجابت لداعية الإنحراف المائل إلى اللذائذ والشهوات الفاحشة ، وتجذب صاحبها إلى بهيميّة الحيوانية ، وهي مأوى الشر ومنبع الفساد .

وأما اللّوامة : فهي انتبهت من غفلتها ، واستيقظت من نومة البهيميّة بموقظ الشريعة الربانية ،وموقظ من المذكرات الدينيّة ، والمواعظ الإلهية ، وعادت باللائمة على نفسها بسبب تفريطها أو تقصيرها .

ومن اللوم تتولد الندامة ، والندامة هي أسف أليم يعتري النفس ، ويحرق القلب ، فيحمل النادم على ترك المساوىء ، والإقلاع عن الذنوب التي أوقعته في الندامة ، وبذلك يدخل في باب التوبة النصوح ، قال ﷺ : « الندم توبة » وقال : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » ـ وهناك يلتحق

بالتائبين الذين قال تعالى فيهم : ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ .

فإذا تاب وأناب نال مرتبة الطمأنينة وصار صاحب نفس مطمئنة .

الثالثة : النفس المطمئنّة :

قال تعالى : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنّة ارجعي إلى ربك راضية مرضية ﴾ .

والطمأنينة : هي سكون القلب مع الأمن والأنس ، وارتياح القلب لما يطمئن به .

فالطمأنينة تستلزم أموراً ثلاثة :

١ ـ الاستقرار والسكون :

قال تعالى : ﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة ﴾ ـ أي : ساكنة قارّة لا يحدث فيها ما يوجب القلق والإنزعاج .

وقال تعالى : ﴿ فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة . . . ﴾ ، فبعد أن ذكر سبحانه حالة السفر والقصر فيه ، وحالة الحرب وكيفية الصلاة في تلك الحالة ، قال : ﴿ فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة ﴾ ـ أي : فإذا استقررتم وسكنتم من السير والخوف ، فأقيموا الصلاة ـ أي : أدّوها بتمامها في أوقاتها والقيام فيها . . . إلخ .

٢ ـ المحبة والاستئناس القلبي لما يطمئن به :

قال تعالى : ﴿ وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله ﴾ فطمأنهم سبحانه بما يحبونه ويفرحون به .

٣ ـ الرضا التام بما اطمأن به :

قال تعالى : ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ .

فالرجاء يطلق على توقّع الخير حقيقة ؛ ويطلق على توقع الشر ، ويطلق على مطلق التوقّع من باب المجاز ، فقوله تعالى : ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ ـ أي : لا يؤمّلون ولا يحبون لقاءنا ، لأنهم عَمُوا وصمّوا بحب الدنيا ، ﴿ ورضوا بالحياة الدنيا ﴾ الفانية الدنية ، بدلاً عن الحياة السعيدة الأبديه ، ﴿ واطمأنوا بها ﴾ ـ أي : سكنوا إليها ، وأقاموا بها إقامة من لا يبرح ولا يفارقها ، ﴿ والذين هم عن آياتنا غافلون ﴾ ـ أي : غفلوا عن الآيات التي نبّهتهم ، وأيقظتهم ، وأعرضوا عنها ، آيات التدوين المتلوّة ، وآيات التكوين المرئية ، ﴿ أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ ـ فتلك مقرّهم ومسكنهم الذي لا بَراح ولا خروج منه .

فقوله تعالى : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ ـ أي : النفس التي ثبتت على عبادة الله تعالى ، وأقامت على تقواه ، وذلك بامتثال أوامره سبحانه ، والانتهاء عما نهى ، على الوجه الذي جاء في شرع رسول الله ﷺ ، مع المحبة الصادقة ، والرضى الكامل ، فإنهما الركنان في تحقق الطمأنينة :

أما المحبة : فهي محبة الله تعالى ، ورسوله ﷺ ، ومحبة ما أحبه الله تعالى ورسوله ﷺ ، وكراهة ما كان مكروهاً عند الله تعالى ورسوله ، كما قال رسول الله ﷺ : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان ـ أي : ومن ذاق الحلاوة أحبها وتعشّقها ـ أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله كما يكره أن يلقى في النار » متفق عليه .

فهذا شأن النفس المرضية المطمئنة ،تكره الكفر والمعاصي والفسوق ، وتحب العبادة والطاعة ،والكلم الطيّب .

قال تعالى : ﴿ ولكن الله حَبَّبَ إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون .. ﴾

فأطلق الإيمان هنا فهو ينصرف إلى العموم ، بحيث يشمل الإيمان التصديقي القلبي ، ويشمل الإيمان القولي ،ويشمل الإيمان الفعلي : وهو امتثال الأوامر ، ولذلك قابله بثلاثة أمور : **الكفر** وهو : جحود القلب ـ أي : الكفر الاعتقادي ،**والفسوق** ـ أي : الفسوق القولي ، كما قال ﷺ : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » **والعصيان** : أي : مخالفة الأوامر .

وأما **الرضى** فقد وصف الله تعالى به النفس المطمئنة فقال : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية ﴾ .

أما الراضية : فهي النفس التي رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبسيدنا محمد ﷺ رسولاً ،كما في (صحيح) مسلم وغيره عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً ،وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ رسولاً » .

فمن تحقق بمقام الرضى بالله رباً ؛ وبالإسلام ديناً ؛ وبسيدنا محمد ﷺ رسولاً ؛ فقد تحقق بمقام الذوق القلبي لحلاوة طعم الإيمان ،ومتى تمكن الذوق تمكن الحب والشوق ،وعشق القلب تلك الحلاوة ، وامتزجت في القلب ، وأُشربها ، وسرى ذلك في جميع حواسّه ، وجوانحه ، وجوارحه ، وذرّاته ، لأنّ القلب هو الذي يضخّ في ذرات الجسم ، وبهذا المقام يكمل له

الإيمان ،ويثبت له الأمان والاطمئنان ، فينشرح الصدر ، ويمتلىء القلب بنور الرب جل وعلا ، فلا رِدّة بعد ذلك ولا انحراف .

وقوله ﷺ : « ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ،وبمحمد ﷺ رسولاً » هذا يدل على أنّ القلب الحيّ بالإيمان له ذوق أقوى من ذوق اللسان ، فإنّ اللسان يذوق طعم الماديات من المطعومات والمشروبات ونحوها ،وأما الجنان ـ وهو : القلب ـ فهو يذوق طعم ما هو أعلى وأرقى من الماديات ، فهو يذوق حلاوة الإيمان والقرآن ، والمحبة ، والعلم والعرفان ،ويذوق حلاوة المعارف الإلهية ،والتجليات الربانية . . .

فالأذواق والمواجيد هي ثابتة في الشرع ، فلا تنكر ذلك على أولياء الله تعالى . . .

وقد تقدم قوله ﷺ : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان » . الحديث .

كما أن القلب الحيّ بالإيمان الكامل له شمٌ أدق من شم حاسة الأنف .

فهذا سيدنا يعقوب عليه السلام : يشمّ ريح قميص يوسف عليه السلام من مسيرة ثمانية أيام على ما روي عن ابن عباس .

وقال الحسن في رواية عنه : من مسيرة ثلاثين يوماً .

وفي رواية عنه : من مسيرة عشرة ليال . .

وأيّاً كان فالمسافة بعيدة ما بين بيت المقدس ومصر .

قال تعالى : ﴿ ولما فصلت العير قال أبوهم : إنِّي لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ﴾

والمعنى : لما خرجت العير من عريش مصر قاصدة مكان يعقوب عليه

السلام عند بيت المقدس، قال: ﴿ إني لأجد ﴾ - أي: أشم، فالمراد وجود حاسة الشم ﴿ لولا أن تفندون ﴾ أي: تنسبوني إلى الفَنَد وهو ضعف الرأي والعقل، بسبب الهرم وكبر السن.

فلم يكن هذا الشم بحاسة الأنف، إذ لو كان كذلك لشمّه من حول يعقوب - إخوة يوسف، ولكنه شمٌ قلبي، والقلب هو باب الروح، على أن الشم بحاسة الأنف هو محدود بمسافة معيّنة كما هو معلوم.

ومن هذا الشم القلبي الروحاني، ما جاء عن أنس بن النضر رضي الله عنه، الذي شم ريح الجنة من جهة أُحد.

روى الشيخان والترمذي عن أنس رضي الله عنه قال: غاب عمّي أنس بن النضر عن قتال بدر - أي: غزوة بدر - فقال: غبت عن أول قتال النبي ﷺ المشركين - أي: جعل يأسف ويحزن - قال: لئن أشهدني الله مع النبي ﷺ قتال المشركين - أي: في غزوة أخرى - ليرينّ الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون فقال: إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني: المسلمين الذين خالفوا أمر النبي ﷺ بملازمة الجبل، ووراء جيش المسلمين - وقال أبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعني المشركين، ثم تقدم بسيفه فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: أنس بن النضر لسعد بن معاذ يا سعد بن معاذ: الجنة وربِّ النضر، إني لأجد ريحها من دون أحد، ثم تقدم - أي: خاض غمار الحرب - قال أنس بن مالك رضي الله عنه: فوجدنا به بضعاً وثمانين ما بين ضربة بالسيف، وطعنة بالرمح، ورمية بالسهم، قال: ووجدناه وقد مثّل به المشركون فما عرفه أحد إلا أخته: الرُّبيِّع بنت النضر، عرفته بشامة له، أو ببنانه.

قال أنس بن مالك: كنا نرى أن هذه الآية نزلت فيه وأشباهه:

﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ﴾ اللهم ارحمنا بهم يا أرحم الراحمين .

وهكذا يكرم الله تعالى أحبابه وأولياءه فيشمّون ما لا يشم غيرهم ، وقد تواتر عن القطب الرباني سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه ،وعن جميع أولياء الله تعالى أجمعين أنه كان يعرف مراتب الرجال بالشم ، فيشم الرجل فيعلم مرتبته التي هو فيها .

وهكذا أولياء الله تعالى لهم الكرامات من الله تعالى ،بسبب صدقهم وإخلاصهم في اتباعهم لرسول الله ﷺ .

كما أن للقلب بصراً يدرك ما لا يدركه بصر العين ،قال تعالى : ﴿ وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ﴾ ـ أي : الأبصار العينية ـ ثم قال تعالى : ﴿ يقلب الله الليل والنهار إنّ في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾ ـ أي : الأبصار القلبية وتسمى : البصائر القلبية ، قال تعالى : ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم ﴾ ـ أي : مبصّرات تُجلّي لكم نور الحق ، ﴿ فمن أبصر فلنفسه ﴾ ـ أي : فمن أبصر ذلك النور بقلبه بأن أقبل على ذلك ، وفتح قلبه ، فذلك الخير لنفسه يعود، ﴿ومن عَمِي﴾ ـ أي : عمي قلبه عنها بأن أعرض عنها ، ولم يقبل بقلبه عليها ،كما قال تعالى : ﴿ فعموا وصمّوا ﴾ الآية ، ﴿ ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بوكيل ﴾ فالعمى الحقيقي المودي بصاحبه هو عمى القلب لا عمى البصر العيني ، قال تعالى : ﴿ فإنَّها لا تعمى الأبصار ولكنْ تعمى القلوبُ التي في الصدور ﴾ .

فكم من أعمى البصر ولكن كله عيون ،لأن قلبه بصير ، وكم من بصير العين ولكنه أعمى القلب فهو في ضلال وجنون .

وإن بصائر القلوب إذا قوي فيها نور الإيمان بالله تعالى ، وأسرار معرفته ـ تُرِي صاحبها العجب ، وتنفذ وتخترق الحجب ـ ولا أريد أن أدخل في تفصيل ذلك ، لأن البحث فيها واسع الأطراف وممتد الأكناف ، وكُتُب القوم رضي الله عنهم كالإمام الغزالي وأمثاله قد فصلت ذلك تفصيلاً والحمد لله رب العالمين .

ونعود إلى الآية الكريمة التي نحن في ظلها : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية ﴾ في هذه بشارة بالرضى عنها كما قال تعالى : ﴿ يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ﴾ ، وفيه إعلانه سبحانه للملأ الأعلى والأدنى ـ بالرضى عن صاحب النفس المطمئنة ، رضي الله تعالى لأنه رضي بالله رباً ، ورضي رسوله ﷺ لأنه رضي به رسولاً .

قال سبحانه : ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين ﴾ .

نزلت هذه الآية في تكذيب دعوى المنافقين الإيمان والمحبة الصادقة لله تعالى ، فكانوا يزعمون أنهم يرضون الله تعالى ، في الوقت الذي كانوا يؤذون فيه رسول الله ﷺ ، فردّ الله تعالى عليهم دعواهم ، بأنّه لا إيمان يُقبل عند الله تعالى إلا برضى الله ورسوله ﷺ ، فإنّ رضى الله تعالى لا يتم لعبد إلا برضى رسول الله ﷺ ، وإنّ رضى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً هو الدليل الصادق على رضى الله تعالى .

وفي الحديث الذي رواه الترمذي عن ابن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « رضى الرب في رضى الوالد ، وسخط الرب في سخط الوالد » .

فإذا كان هذا في الأب الجسماني ، فما ظنك بالأب الروحاني ، الذي هو

أولى بك من نفسك وأبيك وأمك فافهم . . .

وها نحن نقول كما قال سيدنا عمر رضي الله عنه : (اللهم إنّا نسألك رضاك ، ورضى نبيك سيدنا محمد ﷺ ، ونعوذ بك من غضبك ، وغضب نبيك سيدنا محمد ﷺ) .

ومتى تمّ للعبد مقام الرضى ، أعلن الله تعالى في الملأ الأعلى رضاه عنه ، فيحبونه ويرضون عنه ، ويحمدونه ويثنون عليه ، ويدعون له بالرحمة ، وبعد هذا الإعلان يسجل اسمه في الديوان ، فتحفه عناية الرحمن ، فلا انحراف بعد ذلك ولا طغيان .

روى الإمام أحمد عن ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إنّ العبد ليلتمس مرضاة الله تعالى فلا يزال كذلك فيقول الله تعالى لجبريل : إنّ عبدي فلاناً يلتمس أنْ يرضيني ألا إنّ رحمتي عليه ، فيقول جبريل : رحمة الله على فلان ، ويقولها حملة العرش ، ويقولها من حولهم ، حتى يقولها أهل السموات السبع ، ثم يهبط إلى الأرض » .

وفي رواية ابن مردويه : « فيقول الله تعالى : إن رضائي عليه . . . » الحديث .

فيعلن سبحانه رضاه ورحمته عليه ، كما قال سبحانه : ﴿ يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات . . . ﴾ الآية .

فلهم البشارة بالرضوان ـ من الله تعالى ـ في الحياة الدنيا ، كما قال سبحانه : ﴿والسابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعدّ لهم جنات . . . ﴾ الآية .

فبشر السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، ومن تبعهم بإحسان إلى

يوم الدين ـ بشرهم بالرضى ، وبأنّ لهم غداً في الآخرة جنات تجري من تحتها الأنهار .

كما أن لهم البشرى بالرضوان الآلهي عند انتقالهم من الدنيا ، ودخولهم في البرزخ ، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وغيره عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار ، فانتهينا إلى القبر ولما يُلحد .

فجلس رسول الله ﷺ ، وجلسنا حوله ، كأنّ على رؤوسنا الطير ، وفي يده ﷺ عود ينكت به الأرض ، فرفع رأسه فقال : « استعيذوا بالله من عذاب القبر » ـ مرتين أو ثلاثاً ـ ثم قال ﷺ : « إن العبد إذا كان في انقطاع من الدنيا ، وإقبال من الآخرة ، نزل إليه ملائكة من السماء ، بيض الوجوه ، كأنّ وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مدّ البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس المطمئنة ، اخرجي إلى مغفرة من الله تعالى ورضوان ، فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من السبقاء ، فيأخذها فإذا أخذها لم يَدَعوها ـ أي : لم يتركوها ـ في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن ، وفي ذلك الحنوط ، فيخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها إلى السموات ، فلا يمرّون على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الطيبة ، فيقولون : فلان بن فلان ـ بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا » الحديث بتمامه ، كما هو في كتاب (الايمان بعوالم الآخرة) .

كما أن لهم البشرى بالرضوان حين يدخلون جنات عدن التي وعدهم الرحمن .

جاء في (الصحيحين) وغيرهما عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى : يا أهل الجنة .

فيقولون : لبيك ربنا وسعديك .

فيقول لهم : هل رضيتم ؟

فيقولون : وما لنا لا نرضى يا ربنا ، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك .

فيقول سبحانه : أُحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً » .

اللهم اجعلنا منهم بجاه حبيبك الأكرم سيدنا محمد ﷺ ـ اللهم آمين .

وفي هذا يقول تعالى : ﴿ ورضوانٌ من الله أكبر .. ﴾ الآية .

قال تعالى : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعي إلى ربك راضية مرضية . فادخلي في عبادي وادخلي جنتي ﴾ .

فيقال لها : فادخلي في عبادي ـ أي : زمرة عبادي المضافين إليّ ، المخصصين بي ، الذين تحققوا بالعبودية لي ، والذين شرفتهم بحبي ، وبقربي ، وتوليتهم ، وتكفّلت بهم .

وقد أخبرنا سبحانه عن دعاء نبي الله سليمان ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ قال تعالى : ﴿ قال : رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾ .

والمعنى : أدخلني في جملتهم ، وأثبت اسمي مع أسمائهم ، واحشرني يوم

القيامة في زمرتهم ، وأدخلني الجنة معهم .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : إن سليمان عليه السلام يريد مع إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ، ومن بعدهم من النبيين . اهـ .

وإنّ إمام الأنبياء والمرسلين هو سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

ومعنى ذلك أنّه أراد بالصالحين هنا أهل مقام صلاح النبوة والرسالة ، الذين هم أفضل الصالحين ، وأفضل هؤلاء الأفضلين ، بل سيدهم هو سيدنا محمد ﷺ ، الذي أشار الله تعالى إلى انفراده ﷺ بمرتبةٍ في الصلاح لم يشاركه فيها غيره ، قال تعالى : ﴿ إنّ وليي الله الذي نَزَّل الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴾ .

وكان ليلة المعراج كلما مرّ على نبي رحب به قائلاً : مرحباً بالنبي الصالح ، فخُصَّ بأعلى مرتبة في الصلاح ﷺ .

ولذلك ينبغي أنْ يعلم أنّ الصلاح قد يُراد به الصلاح الأكمل الخاص .

وهذا يعرف من دلالة القال أو الحال ، قال تعالى مخبراً عن الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام :

﴿ ربّ هب لي حكماً وألحقني بالصالحين ﴾ ، فدلالة حاله تدل أن المراد بالصالحين هنا صلاح الرسالة والنبوة ، ومن ذلك قول يوسف الصديق : ﴿ توفَّني مسلماً وألحقني بالصالحين ﴾ ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين . وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين ﴾ ، فهذا كله يراد به الصلاح الخاص بالأنبياء والمرسلين ، وهو أكمل مراتب الصلاح .

وقد يراد به صلاحاً أدنى من صلاح النبيين وصلاح الصديقين وصلاح الشهداء : قال تعالى : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما ﴾ ـ اللهم اجعلنا منهم بفضلك .

فقد ذكر سبحانه مراتب الفضل على الترتيب ، الأفضلين وهم النبيون ، ثم الصديقون ثم الشهداء ، ثم ذكر الصالحين ، فدل ذلك على أن المراد بالصالحين هنا الذين في مرتبة الصلاح ، دون مرتبة من قبلهم ، ولم يُرد جميع مراتب الصالحين ، فإنّ العطف يقتضي المغايرة ، وذكر المراتب يدل على التفصيل حسب التفضيل ـ فافهم ذلك . . .

وإن كانوا كلهم قد تغمدهم الله تعالى بفضله ، وتَطَوَّل عليهم بطَوْله ، ولذلك قال سبحانه في الآية التي بعدها : ﴿ذلك الفضل من الله ﴾

وهنا قد يقول الإنسان : ما دام العطاء من باب الفضل فلِمَ لمْ يتفضّل على جميع العباد .

أجابه الحق سبحانه بقوله : ﴿ وكفى بالله عليماً ﴾ فهو أعلم بمواقع الفضل ﴿ ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ والله أعلم حيث يجعل رسالته ، والله أعلم حيث يجعل خلافته ، والله أعلم حيث يجعل وكالته ، قال تعالى : ﴿ فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ﴾ ، والله أعلم حيث يجعل ولايته ، فليس أحدٌ من الخلائق أهلاً أن يكون إمام المرسلين وخاتم النبيين إلا سيد العالمين ، وأكرم الأولين والآخرين على رب العالمين ، سيدنا ومولانا ، وروح أرواحنا ، وقرة أعين أبصارنا وبصائرنا ، سيدنا محمداً صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً أبداً أبداً ، الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً ﴾ .

فتدبر قوله سبحانه في ختم الآية : ﴿ وكان الله بكل شيء عليما ﴾ تفهم إنْ كان عندك فهم ؛ وإن لم يكن عندك فهم عن الله تعالى فسلْه سبحانه أنْ يفهّمك ، لأن الفهم الصواب هو من عنده ، قال تعالى : ﴿ ففهّمناها سليمان . . . ﴾ الآية .

فافهم الإشارة بل صريح الكلام الإلهي الدالّ على أنه سبحانه هو عليم ، وفي علمه القديم أن منصب ختم النبوة ليس من أحدٍ أهلاً له إلاّ السيد الأكرم ، سيدنا محمد ﷺ .

وقد يراد بالصالحين عامة الصالحين على اختلاف مراتبهم ، كما جاء في حديث التشهد وفيه : « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . . . » الحديث .

ثم قال ﷺ : « فإذا فعلتم ذلك سلمتم على كل عبد صالح في السماء والأرض » ، وفي رواية : « أصابت كل عبد صالح في السماء والأرض » - يعني شملت تحيتكم بالسلام جميع الصالحين على مختلف مراتبهم ، وهذا من جملة أسرار التشهد ، فإن فيه السلام والتحية لجميع عباد الله الصالحين ، وأنت تعلم أنّ للسلام جواباً - فاستبشر بالجواب الأحسن من تحيتك .

فلما جلس المصلي دخل في حضرة قرب ، وجلس جلوس عبد أمام رب العالمين ، فبدأ بالتحيات لله تعالى فقال : « التحيات لله والصلوات والطيبات لله » ثم خصّ سيد أهل الحضرة الإلهية الذي فضله الله تعالى على سائر الخليقة والبرية ، بالتحية الخاصة ، اللائقة بمقام نبوّته ، الفاتحة للنبوات ، والجامعة والخاتمة لها ، فجاء بتحية فيها الخطاب تعظيماً لذلك الجناب قائلاً : « السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته » ، ثم عمّ بالتحية جميع الصالحين في السماوات والأرضين ، ومن المعلوم أن الله تعالى

الذي شرع التحية ، شرع لها الجواب فافهم ـ وتفصيل الكلام على حديث التشهد ومعانيه وأسراره يملأ صحفاً كثيرة كبيرة ليس موضعها هنا .

وقوله تعالى : ﴿ فادخلي في عبادي وادخلي جنتي ﴾ فيه بشارة لصاحب النفس المطمئنة ، يبشره الله تعالى في الدنيا بإدخاله في دائرة عباده الذين توكل بهم ربهم ، وتولاهم ، فما للشيطان عليهم من سلطان ، قال تعالى : ﴿ إنَّ عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً ﴾

فإنه سبحانه وكيلهم ، وكّلوا إليه أمورهم ، وتوكلوا عليه ، فتوكل بهم ، وكفى به وكيلاً ، وهو نعم الوكيل ، فأخلصهم إليه ، وخلصهم من غيره . ولذلك قال إبليس : ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾

كما أنه سبحانه يبشرهم بالأمان والإطمئنان ، وأنواع الجنان ، في جميع العوالم والمواقف ، التي فيها المخاوف في الدنيا ، وحين ارتحالهم عنها ، ودخولهم في البرزخ .

كما روى ابن جرير وابن مردويه وابن أبي حاتم وأبو نعيم عن سعيد بن جبير قال : قُرئتْ عند النبي ﷺ آية : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية ﴾ فقال أبو بكر رضي الله عنه : إن هذا لَحَسن

فقال رسول الله ﷺ : « أما إنَّ الملك سيقولها لك عند الموت » .

وفي رواية الحكيم الترمذي : عن سليم بن أبي عامر رضي الله عنه قال : سمعت أبا بكر الصديق رضي الله عنه يقول : قُرِئَتْ عند النبي ﷺ هذه الآية ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية ﴾ فقلت : ما أحسن هذا يا رسول الله ؟! فقال ﷺ : « يا أبا بكر إن الملك سيقولها لك عند الموت » .

وروى الطبراني وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه

قال : مات ابن عباس رضي الله عنهما في الطائف ، فجاء طير لم تر عين خلقته - أي : شبيهه - فدخل نعشه ثم لم ير خارجاً منه ، فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر - لا يدرى من تلاها - ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي ﴾ .

وها نحن ندعو بما علمنا رسول الله ﷺ : اللهم إني أسألك نفساً مطمئنة ، تؤمن بلقائك ، وترضى بقضائك ، وتقنع بعطائك - آمين لنا ولأحبابنا ومن حَسَّنَ ظنه بنا .

فقد روى الطبراني وابن عساكر عن أبي أمامة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال لرجل : « قل : اللهم إني أسألك نفساً مطمئنة ، تؤمن بلقائك ، وترضى بقضائك ، وتقنع بعطائك » .

وهكذا يبشر الله تعالى عباده في مواقف الحشر ، والحساب ، والسؤال ، والمرور على الصراط ، فيقول لهم : ﴿ يا عباد لا خوفٌ عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون . . . ﴾ الآيات .

اللهم اجعلنا منهم ، بجاه حبيبك الأكرم سيدنا محمد ﷺ ، وبكرامته عليك - آمين .

* * * *

عالم الذر

وأخذه سبحانه الميثاق الأول على بني آدم

قال الله تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريَّتهم وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم قالوا : بلى شهدنا أنْ تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين أو تقولوا إنّما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون ﴾ .

روى الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما[1] عن النبي ﷺ قال : « إنّ الله تبارك وتعالى أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنَعْمان ـ جبل قرب عرفة ـ يوم عرفة ، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها ، فنثرها بين يديه ، ثم كلَّمهم قبلاً ـ أي مقابلةً ـ قال : ﴿ ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا أَنْ تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين . . ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ .

وروى ابن جرير بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم . . ﴾ الآية ، قال : أخرج الله ذرية آدم من ظهره كهيئة الذرّ .

وعن أُبيٍّ بن كعب رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني

---

(١) ورواه النسائي وابن جرير وابن مردويه كما في (تفسير) ابن كثير و(الدر المنثور) .

آدم من ظهورهم ذريتهم . . ﴾ الآيات ، قال : فجمعهم له يومئذ جميعاً ـ أي : جمع لآدم جميع ذريته ـ ما هو كائن منه ـ أي : يولد منه ـ إلى يوم القيامة ، فجعلهم في صورهم ، ثم استنطقهم فتكلَّموا ، وأخذ عليهم العهد والميثاق ، ﴿ وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم قالوا بلى . . ﴾ الآية .

قال سبحانه : فإنّي أُشهد عليكم السموات السبع ، والأرضين السبع ، وأشهد عليكم أباكم آدم أنْ تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا ، اعلموا أنّه لا إله غيري ، ولا ربَّ غيري ، ولا تشركوا بي شيئاً ، وإنّي سأرسل إليكم رُسُلاً ، لينذروكم عهدي وميثاقي ، وأُنزل عليكم كتبي .

قالوا : نَشْهد أنَّك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك ، ولا إله لنا غيرك ـ فأقرُّوا له يومئذ بالطاعة[1] .

ورأى ـ أي : آدم ـ فيهم الأنبياء مثل السُرُجْ عليهم النور ، وخُصّوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة فهو الذي يقول تعالى فيه : ﴿ وإذاأخذنا من النبيين ميثاقهم ﴾ الآية .

وهو الذي يقول تعالى فيه : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ هذا نذير من النذر الأولى ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وما وجدنا لأكثرهم مِنْ عهدٍ وإنْ وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ الآية .

وروى ابن جرير بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (إن

(١) وقد جاء هذا الحديث في (مسند) الإمام أحمد من رواية ابنه عبد الله عن أبيه ، ورواه ابن أبي حاتم ، وابن جرير وابن مردويه وغيرهم .

الله تعالى مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وتكفّل لهم بالأرزاق ، ثم أعادهم في صلب آدم ، فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر ـ أي : الذي جاءت به رسل الله تعالى تُذكّر بالميثاق الأول ـ نفعه الميثاق الأول ، ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يُقرّ به ـ أي : بل كفر بما جاءت به رسل الله تعالى ـ لم ينفعه الميثاق الأول ؛ ومن مات صغيراً قبل أن يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول على الفطرة) اهـ .

ومن المعلوم في علم الحديث أن أقوال الصحابة رضي الله تعالى عنهم في ذلك لها حكم المرفوع إلى النبي ﷺ ، لَأنَّها أمورٌ لا مجال للرأي فيها كما هو معلوم . . .

وإنّ أول من قال : بلى هو سيد العالمين ، وإمام الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

جاء في جزء من (أمالي) أبي سهل بن القطّان عن سهل بن صالح الهمذاني قال : سألت أبا جعفر محمد بن علي بن الحسين بن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه : كيف صار محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم يتقدم الأنبياء وهو آخر من بعث ؟ .

فقال رضي الله عنه : (إن الله تعالى لما أخذ الميثاق من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ كان محمد ﷺ أول مَن قال : بلى ـ أي : أنت ربنا ـ ولذلك صار محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم يتقدّم الأنبياء وهو آخر من بعث) .

وهذا من جملة أوليَّات المراتب العالية ، التي خصَّه الله تعالى بها ، كما

ذكرتها مع الأدلة في كتاب (شهادة لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) .

فالله تعالى أخذ العهد على جميع بني آدم في ذلك العالم ، وهو يُسمَّى عالم الذرِّ ، وكلُّهم أقرُّوا له بأنّ الله تعالى هو ربهم ، وتلك هي الفطرة الدينية التي فطر الناس عليها في ذلك العالم .

قال تعالى : ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدِّين القيِّم ﴾ الآية .

فالفطرة هي : الدين القيم ، وقد نهى الله تعالى عباده عن تغيير وتبديل فطرتهم فقال : ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ ـ أي : لا تبدلوا خلق الله تعالى فيما فطركم الله تعالى عليه ، فهو نفي معناه النهي .

وفي هذا يقول رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ـ أي : الدين القيِّم ـ فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمَجِّسَانه كما تُنْتَجُ البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسُّون فيها من جدعاء ؟! حتى تكونوا أنتم تجدعونها » الحديث .

فالأصل في كل مولود أَنّه يولد على الفطرة التي فطره الله تعالى عليها يوم عالم الذرّ ، وهي : الدّين ، وتوحيد الله تعالى ، بدليل قوله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يُهوّدانه أو يُنصّرانه أو يُمجّسانه . . . » ـ أي : ثم يتغير ويعتريه الكفر بسبب أبويه الكافرين ، أو قرينه ، أو شيطانه ، كما جاء في حديث مسلم بن عياض المجاشعي في حديث قدسي طويل وفيه يقول سبحانه : « وإنّي خلقتُ عبادي حنفاء كلهم ، وإنّهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحَرّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم ، وأَمَرَتْهم أنْ يشركوا بي ما لم أُنْزِل به سلطانا . . » الحديث .

ولذلك يقال للكفار يوم القيامة كما في الأية الكريمة : ﴿ أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ .

وقد أرسل الله تعالى الرسل ، وأنزل الكتب ، وبها يُذكّرهم سبحانه بعهدهم وميثاقهم ؛ فجاءت رسل الله تعالى وذكّرتهم ، وبيّنت لهم ، وأقامت لهم الحُجج والأدلة ؛ ولكنهم جحدوا ذلك ، وستروا نور الحق بعدما بدا لهم وظهر ، فحقّت كلمة العذاب على الكافرين ـ أي : لأنهم كفروا ـ أي : ستروا ـ وجحدوا الحق بعدما انجلى لهم وعرفوه ، قال تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وميثَاقَهُ الذي واثقكم به إذْ قُلْتُم سمعنا وأطعنا. . . ﴾ الآية .

روى ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في معنى هذه الآية :

﴿ واذكروا نعمة الله عليكم ﴾ قال : النعم آلاء الله تعالى .

﴿ وميثاقه الذي واثَقَكُم به ﴾ قال : الميثاق الذي واثق به بني آدم بعد استخراجهم من صلب آدم ـ أي : يوم عالم الذرّ .

وقد قال بذلك مُقاتل بن حيان ، وفي هذا يقول سبحانه : ﴿ وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين ﴾ .

ولذلك يقول الله تعالى للكفار يوم القيامة : ﴿ أَلم أعْهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنّه لكم عَدُوٌّ مبين وأنِ اعبدوني هذا صراط مستقيم ﴾ الآيات .

فالرسل صلوات الله تعالى وسلامه على نبينا وعليهم أجمعين ذكّرت العباد بذلك العهد والميثاق ، وأخذوا من العباد العهد والميثاق على أنْ يوفّوا بعهدهم الأول مع الله تعالى ؛ فمن وفّى بعهده مع رسوله وأطاعه فقد وفّى

بعهد الله الأول ؛ ومن لم يوفّ بعهده مع رسوله لم يف بعهده مع الله تعالى في عهده الأول . .

وقد جاء في حديث **سيد الاستغفار** ـ المتفق عليه ـ عن أوس بن أوس رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم : « اللهم أنت ربي لا إله إلاّ أنت خلقتني ، وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعتُ، أبوء لك ـ أي :أعترف لك ـ بنعمتك عليّ ، وأبوء لك ـ أي : أعترف وأُقرّ ـ بذنبي فاغفر لي فإنّه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت .

من قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة ، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يُصبح فهو من أهل الجنة . . » .

وقد جاء في حديث الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة حين فرغ من صلاته يقول : « اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي ، وتجمع بها أمري ، وتَلَمُّ بها شَعَثي ، وتردُّ بها غائبي ، وترفع بها شاهدي ، وتزكّي بها عملي ، وتلهمني بها رشدي ، وترد بها ألفتي ، وتعصمني بها من كل سوء » الحديث إلى قوله ﷺ : « اللهم يا ذا الحبل الشديد ، والأمر الرشيد ، أسألك الأمن يوم الوعيد ، والجنة يوم الخلود ، مع المقرَّبين الشهود ، الركع السجود ، الموفين بالعهود ، إنك رحيم ودود ، وإنّك تفعل ما تريد » إلى تمام الحديث .

* * * *

حمل الإنسان أمانة الله الكبرى

وفي هذا العالم ـ أي : عالم الذرّ ـ حَمَلَ الإنسانُ أمانة الله تعالى الكبرى والتزمها .

قال تعالى : ﴿ إنّا عرضنا الأمانَةَ على السموات والأرض والجبال فأبين أنْ يحملنها وأَشفَقْنَ منها وحملها الإنسان إنّهُ كان ظلوماً جهولاً ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوبَ الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ .

والكلام في معنى هذه الآية الكريمة له وجوه :

الأول : بيان المراد بالأمانة ؛ فقد جاء عن كثير من الصحابة رضي الله عنهم ، وعن جمهور التابعين أن الأمانة هنا هي : أمانة الله تعالى الكبرى التي ائتمن الله تعالى عليها عباده ، أَنْ يُؤَدُّوها ، ويرعوها حق رعايتها ، وهي : التكاليف الدينية ، التي فيها الأوامر والمناهي ، المشتملة على أداء حقوق الله تعالى ، وأداء حقوق خلق الله تعالى ؛ ومن لم يقم بموجب هذه الأمانة فقد وقع في الخيانة ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾ .

فهذه الأمانة تشمل حقوق الله تعالى على عباده ، وهي الواجبات التعبدية :

روى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ إنا عرضنا الأمانة ﴾ الآية ، قال : (الأمانة : هي الفرائض) - أي : الواجبات الدينية فعلاً وتركاً .

كما روى ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله تعالى : ﴿ إنا عرضنا الأمانة . . ﴾ الآية ، قال : (الأمانة هي ما أُمروا به وما نهوا عنه) - أي : الأوامر والمناهي .

وسئل الضحاك عن الأمانة في الآية الكريمة فقال : هي الفرائض ، وحقٌ على كل مؤمن أن لا يغش مؤمناً ، ولا معاهداً - أيَ : ذمياً - في شيءٍ : قليل ولا كثير ، فمن فعل ذلك فقد خان أمانته ، ومن انتقص من الفرائض شيئاً فقد خان أمانته . اهـ

يعني : أن الأمانة هي أداء حقوق الله تعالى التي فرضها وأوجبها من العبادات ، وأداء حقوق عباد الله تعالى كاملة موفورة .

وروى عبد الرزاق وغيره عن زيد بن أسلم رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الأمانة ثلاث : الصلاة ، والصيام ، والغسل من الجنابة » .

وروى الإمام أحمد ومسلم وغيرهما عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من أعظم الأمانة عند الله تعالى يوم القيامة الرجل يُفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سِرَّها » .

وروى الترمذي وأبو داوود وغيرهما عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا حدَّث الرجل بالحديث ثم التفت فهي أمانة » - أي : فمعنى ذلك أنّ حديثه هو سرٌ فلا يجوز إفشاؤه .

وعن ابن عمرو رضي الله عنهما قال: مِنْ أمانة الله تعالى عند الإنسان

السمع والبصر ، فلا يصرفهما فيما نهى الله عنه .

قال : ومن تضييع الأمانة النظر في الحجرات والدور . اهـ

أي : أن التطلُّع من النوافذ إلى بيوت الناس ودورهم ، ومن الأسطحة والعُليَّات ، هذا كله خيانة مع الله تعالى ، ومع خلق الله تعالى ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ـ

وليس هناك مُنافاة ولا مُناقضة ، بين تلك النقول من الأحاديث وأقوال السلف في معنى الأمانة في الآية الكريمة ، فإنّها كلها مُتَّفقة ، وراجعة إلى أصل واحد ، وهو التكاليف الشرعية : الأوامر والمناهي بأنواعهما وينطوي تحت هذه الأمانة الكبرى ـ جميع الأمانات : النفسية ، والمالية ، والقوليَّة والعرضية بأنواعها ، وأداء هذه الأمانة كاملةً إنما يكون بطاعة الله تعالى ورسوله ﷺ ، ولذلك جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومَنْ يُطِعِ الله ورسولَه فقد فاز فوزاً عظيماً : إنّا عرضنا الأمانَةَ على السموات والأرض والجبال . . ﴾ الآية .

وجاءت الآية الكريمة بعدها تُخبر عن نتائج وعواقب مَنْ خانها ، وعواقب من أداها ووفَّاها حقها ، ورعاها حقَّ رعايتها ، فقال سبحانه بعد تلك الآية : ﴿ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً﴾ .

الوجه الثاني : في عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال :

روى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وغيرهم عن ابن جريج وغيره : أن الله تعالى لما خلق السموات والأرض والجبال قال : إني فارض فريضة ، وخالق جنة وناراً ، وثواباً لمن أطاعني ، وعقاباً لمن عصاني ،

وعرض على السماء الدنيا أن تحمل هذه الأمانة ـ فأبت ، ثم التي تليها ـ فأبت ، حتى فرغ من السموات ، ثم عرض ذلك على الأرضين ـ فأبين ، ثم عرض ذلك على الجبال ـ فأبين أنْ يحملنها ، وأشفقن من حمل الأمانة ، مخافة التقصير في حقها ـ ثم لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام واستخرج الذرّية من صلبه عرضها على آدم وذرّيته ـ أي : في عالم الذرّ ـ فقبلها الإنسان ، وحملها والتزمها .

وقيل : إن الإنسان ـ أي : جنس الإنسان ، حملها والتزمها بدون أن تعرض عليه .

وهذا قوله تعالى : ﴿ وحملها الإنسان ﴾ .

والمراد بالإنسان : الجنس ، كما في قوله تعالى : ﴿ وخُلق الإنسان ضعيفاً ﴾ ، و﴿ خُلق الإنسان من عجل ﴾ ـ أي : جنس الإنسان .

الوجه الثالث : قوله تعالى : ﴿ وحملها الإنْسان إنَّه كان ظلوماً جهولاً ﴾ :

هذه الجملة ـ أي : قوله تعالى : ﴿ إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ تعليلية وهي ما يُسمى في البلاغة : **استئناف بياني** ، جاءت جواباً عن سؤال مقدَّر من الجملة السابقة ، وهي قوله تعالى : ﴿ وحملها الإنْسان ﴾ ، وهذا التعليل له وجهان :

الأول : كأنّه قيل ما السبب الباعث له على حملها ؟ جاء الجواب : ﴿ إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ ، ولذا جاءت منفصلة ، أي : غير معطوفة ، كما هو معلوم في علم البلاغة ، والمعنى : أن الإنسان حملها لأنَّه في أشدِّ الحاجة إلى حملها والقيام بها ، لأنّه رأى نفسه ظلوماً جهولاً بسبب الدواعي الموجودة فيه ، من القوة الغضبية التي تحمله على الظلم ، والقوة الشهوانية التي تحمله على

الجهل العلمي والعملي ، فحملها حتى تكون واقيةً له من الظلم والجهل ، ومانعةً له عن الإفراط والتفريط في قواه الغضبية والشهوانية الحيوانية ، وتكون الأمانة باعثةً له وحاملةً للإنسان على التحقق بالعدل والفضل ضد الظلم ؛ وحاملةً له على العلم والعمل ضد الجهل ، وبذلك يسعد سعادة الأبد في الدنيا والآخرة ، ويكون الإنسان بذلك إنساناً ربّانياً ، إيمانياً ، علوياً ، ولا يكون إنساناً بهيمياً حيوانياً كالبهائم والحيوانات في صفاته ، وانهماكه في شهواته ، ولا يكون شرس الأخلاق ذميم الخصال والفعال ، كالحيوان الشرس في مزاجه ومعاملته ، كما قال تعالى في الذي انسلخ من أمانة الله تعالى : ﴿ واتل عليهم نَبأ الذي آتيناه آياتنا فانْسَلَخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنّه أَخْلد إلى الأرض واتَّبع هواه فمثله كمثل الكلب إنْ تحمل عليه يلهث أوْ تَتْرُكْه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ .

فقوله تعالى : ﴿ إنّه كان ظلوماً جهولاً ﴾ جملة مُعَلِّلة لحمل الإنسان أمانة الله تعالى الكبرى ، وبيان أنّه حملها محتاجاً إليها أشد الحاجة ، فإنْ وفّاها حقها صار عادلاً فاضلاً ، وعالماً عاملاً ، وإنْ لم يقم بها ويوفّ حق الأمانة بقي ظلوماً جهولاً .

ويوضح لك هذا أنّك تقول : عرضت الماء على فلان فأبى أن يشرب ـ أي : لأنه ليس بعطشان ؛ وتقول : عرضت الماء على فلان فشرب إنه كان عطشاً .

وتقول : عرضت الطعام على فلان فأبى أنْ يأكل ـ أي : لأنه كان شبعاً ؛ وعرضت الطعام على فلان فأكل إنّه كان جائعاً ـ والمعنى : إنّه أخذ الطعام وأكله لأنّه كان جائعاً محتاجاً إلى الطعام ، وهذا ظاهر . . .

فلما كان الإنسان فيه الدواعي الغضبية والشهوانية ، وبواعث الكبر والأنانِيَّة ، رأى أنَّ سعادته ، وتزكية نفسه ، وتكميلها ، والارتقاء بها إلى الدرجة العليا في الكمال ، لا يتم له ذلك إلّا بحمل هذه الأمانة والتحقق بها لشدة حاجته إليها ، وكانت نتيجة حمل الإنسان لها والتزامه بها : منهم لم يؤد حقها بل خانها ، ومنهم أدّاها حقها والتزمها ، ولذلك قال تعالى بعد هذه الآية : ﴿ ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ .

ومن المعلوم أنّ الظلم والجهل هما سببان عظيمان في إفساد أمر الإنسان : خاصّته ، وعامّته ، ومجتمعه ، فإن الظلم يشمل ظلم الإنسان نفسه وغيره .

والجهل نوعان : علمي وعملي

فالأول : كما في قوله تعالى :

﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فَأَتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا : يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال : إنكم قوم تجهلون ﴾ .

والثاني : كما في قوله تعالى خبراً عن يوسف عليه السلام :

﴿ وإلّا تصرف عنّي كيدهنَّ أصب إليهنّ وأكن من الجاهلين ﴾ .

والمعنى : إن لم تصرف عني كيد النساء ، فإنّني أخشى فتنتهنَّ ، وأن أميل إليهنّ ، وأقع في الحرام ، وأنا أعلم أنّه حرام ﴿ فصرف عنه كيدهنّ إنّه هو السميع العليم ﴾ .

ومن الجهل العملي ما جاء في قوله تعالى : ﴿ إنّما التوبةُ على الله للذين يَعملون السوء بجهالة ثم يَتُوبون من قَريب فَأُولئك يتوبُ الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً ﴾ .

ولذا قال السلف رضي الله عنهم : كل ذنب عُصي الله به فهو جهالة .

الوجه الثاني في التعليل : ويجوز أن تكون جملة : ﴿ إنّه كان ظلوماً جهولاً ﴾ جواباً عن سؤال مقدّر من الجملة السابقة ، وهي قوله تعالى : ﴿ وحملها الإنسان ﴾ كأنّ سائلاً سأل : ماذا كان موقف الإنْسان بعدما حملها والتزمها ؟ هل وفّاها حقها ، وأدى واجبها أم لا ؟ فجاء الجواب : ﴿ إنَّهُ كان ظلوماً جهولاً ﴾ ، ويعني بذلك أكثر أفراد الإنسان وغالبهم ، وهم الكفار الذين خانوا أمانة الله تعالى ، كما قال سبحانه : ﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ ـ أي : أكثر الناس ـ .

وقالِ تعالى : ﴿ وما أكثَرُ النَّاسِ ولو حرصت بمؤمنين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إنّ الإنسان لظلومٌ كفّار ﴾ .

يعني : أنّ الأكثر من بني الإنْسان والأغلب ، ولكن هناك من ليس بذلك وهم المؤمنون ، إلا أنّهم أقل من أولئك ، قال تعالى : ﴿ والعصر إنّ الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ .

وهذا له نظائر وأشباه في القرآن الكريم كقوله تعالى : ﴿ إن الإنسان لَكَفُور ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وكان الإنسان أكثَر شيَءٍ جَدلاً ﴾ .

الوجه الرابع : **في قوله تعالى : ﴿ إنّا عرضنا الأمانة . . ﴾ الآية** :

الإشادة بشأن الإنسان الذي حمل الأمانة بصدق ، ووفّاها حقها ، ومدحه بكمال استعداده ، وأنّه قد حمل حملاً عجزت عنه السموات والأرض والجبال ، وما ذاك إلاّ لأنّ هذا الإنسان قوي الاستعداد ، كامل القابلية ، عالي المطمح إلى مرتبة الكمال ، واسع الفكر والعقل ، يُحب المعالي ، ورفعة

المنزلة ، وعلوَّ المقام ، والتقرب من حضرة الرب جلا وعلا ، ونيل مقعد الصدق عند مليك مقتدر ، وما ذاك إلا بحمل هذه الأمانة ، ووفائها حقها ، والتحقق بمقتضى هذه الأمانة : أمراً ونهياً ، وتخلُّقاً ، ومعاملة ، ومعاشرة ، إلى ما وراء ذلك .

وإن قيل : كيف تُعرض الأمانة ، التي هي : تكاليف فيها أمر ونهي ، على السموات والأرض والجبال ، مع أنّها ليست من العقلاء المُكلفين ، ولا حياة لها ؟

فالجواب : أنّ كل شيء موجود بقوله تعالى : ﴿ كُنْ ﴾ ففيه حياة تُسمى حياة الوجود ، وبهذه الحياة الوجودية تعرف الجمادات ؛ والنباتات ؛ والأرض ؛ والسموات ؛ ربّها وفاطرها وخالقها ، وتسبحه ، وتحمده ، وتهلله كل على حسبه ، قال تعالى : ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومَنْ فيهن وإنْ مِنْ شيءٍ إلا يُسَبِّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنّه كان حليماً غفوراً ﴾ .

وقال في داود عليه السلام : ﴿ إنّا سخرنا معه الجبال يسبحن بالعشي والإشراق ﴾ .

وبهذه الحياة تعقل الخطاب عن الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا : أتينا طائعين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ قيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلِعي وغِيْضَ الماء . . ﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿ إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحُقَّتْ ﴾ أي : أصغت لأمر ربها بالإنشقاق وحُقَّ لها ذلك .

وقال تعالى : ﴿ وإذا الأَرْضُ مُدَّتْ وأَلْقَتْ ما فيها وتخلت وأذنت لربّها وحقت ﴾ أي : أصغت لأمر ربها مجيبة ، ومسرعة لتنفيذ ما أمرها ، من إخلاء ما في بطنها من الموتى ـ وحُقّ لها ذلك ، لأنّ الله تعالى ربها ، وهي مخلوقة له سبحانه وتعالى .

وقال تعالى في الأرض يوم القيامة : ﴿ يومئذ تُحدث أخبارها بأنّ ربّك أوحى لها ﴾ ، فالله تعالى يوحي إلى الأرض يوم القيامة أنْ تحدث أخبارها ـ أي : بما جرى على ظهرها من أعمال المكلفين ـ .

كما أنّ السموات والأرض والجبال هي متحققة بالمحبة لله تعالى ، فتحب ما يحبه الله تعالى ، وترضى به ، ـ كما سيأتي تفصيل ذلك في موضعه من هذا الكتاب مع الأدلّة إن شاء الله تعالى ـ وتغضب لما يغضب الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هَدّاً أَنْ دعوا للرحمن وَلَدا وما ينبغي للرحمن أنْ يتخذ ولداً ﴾ .

وقال تعالى ـ في الكفار إذا ماتوا ـ :

﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ﴾ .

وجاء في الأحاديث أنّ السموات والأرض تبكي لموت المؤمن .

وقد بيَّنت أنواع الحياة وأحكامها في كتاب : [الإيمان بعوالم الآخرة] .

فإن قيل : إن السموات والأرض والجبال ليس فيها دواعي الشهوات ، ولا القوات الغضبية ، كما هي في الإنسان حتى يكلفها ؟

فالجواب : إنّه لا يلزم من تكليفها وتحميلها الأمانة المشتملة على الأوامر والمناهي ، لا يلزم أنْ تكون مثل تكاليف الإنسان ، وإنّما هي تكاليف تتناسب مع وجودها ، وخلقها ، واستعدادها ، فيكلفها بحمل أمانة تتناسب معها ، وفيها الأوامر والمناهي ، ويجعل فيها الدواعي والبواعث

للفعل والترك ، فيكون تكليفاً مناسباً لها .

وفي هذه الآية الكريمة ، تنبيه إلى شرف حامل الأمانة ، الموفّي حقها كاملاً ، وقوة استعداده واستمداده ، وأنّه قد حمل ، وقام بحمل عجزت عن حمله السموات والأرضون والجبال ؛ ذلك لأنّ قيامه بأوامر الله تعالى ، وانتهاءه عمّا نهى الله تعالى ، وصدقه في أعماله وأقواله مع الله تعالى ، وإخلاصه لله تعالى ، واستسلامه لأمر الشريعة ـ مع دواعيه النفسية إلى المخالفات ، وارتكاب المحرمات ، والموانع الشيطانية التي تصدّه عن سبيل الله تعالى ـ إنّ هذا الأمر عظيم ، يحتاج إلى قوة صارمة ، وعزيمة جازمة ، تعينه على ذلك ، وما ذاك إلّا بقوة من الله تعالى ، وإعانةٍ منه ؛ كما قال تعالى :﴿إياك نعبد وإيّاك نستعين ﴾ .

ولذلك جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في [مسنده] والترمذي في [سننه] عن أنس رضي الله عنه قال :قال رسول الله ﷺ : « لما خلق الله الأرض جعلتْ تميد وتكفَّأ ـ أي : تتحرك وتضطرب وتتمايل كالنخلة ـ فأرساها بالجبال ، فاستقرَّتْ ، فتعجبت الملائكة من شدة الجبال ، فقالت الملائكة : يا ربنا هل خلقت خلقاً أشد من الجبال ؟ فقال : نعم الحديد .

فقالت : يا رب هل خلقت خلقاً أشد من الحديد ؟ قال : نعم النار .

قالت الملائكة : هل خلقت خلقاً أشد من النار ؟ قال : نعم الماء .

قالت الملائكة : هل خلقت خلقاً أشد من الماء ؟ قال : نعم الريح ـ أي : الهواء ـ

قالت الملائكة : هل خلقت خلقاً أشدّ من الريح ؟ قال : نعم ابن آدم ـ إذا تصدق بصدقة بيمينه فأخفاها عن شماله » .

يعني إذا تصدق بصدقة مخلصاً فيها لله تعالى ، لا رياء فيها ولا سمعة ،

حتى إن شماله لم تعلم ما أعطته يمينه ، لقوة إبعاد نفسه عن الرياء والسمعة ، والنفاق ، وحب الظهور والمفاخرة .

ولا شك أنّ الخلاص من داءات النفس وعللها ـ بالإخلاص لله تعالى وحده ـ هذا أمر كبير ، يحتاج إلى قوة قوية ، ألا وهي قوة الله تعالى ، التي بها يقوى المؤمن على طاعة الله تعالى ، ويتباعد عن معاصيه ، فإنّه مؤمن بأنّه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وقد نقل كثير من العرفاء والعلماء عن أمير المؤمنين سيدنا علي كرم الله وجهه قوله :

دواؤك فيك وما تشعر   وداؤك منك وما تبصر
فما حاجة لك من خارج   وفكرك فيك وما تنظر
وتزعم أنّك جرم صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر

ومن أحكام عالم الذرّ

وفي هذا العالم ـ أي : عالم الذرّ ـ أَطْلَعَ الله تعالى أبا البشر آدم عليه السلام ، أطلعه على أهل الجنة من ذريته ، وعلى أهل النار ، وجعل لكلٍ علامة يعرفهم بها ، فجعل علامة المؤمنين من ذريته نوراً وبياضاً ، وهو نور إيمانهم ، وبياض أعمالهم ، وجعل علامة أهل النار سواداً وقترة كالحُمَمة ـ أي : الفحمة السوداء المحترقة ـ .

روى الإمام أحمد واللفظ له والبزار والطبراني عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « خلق الله آدم حين خلقه ، فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرّية بيضاء كأنهم الذرّ ـ أي : وهم عالم الجنة ـ وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرّية سوداء كأنهم الحُمَمْ ـ جمع حُمة أي : الفحم ـ فقال للذي في كتفه اليمنى : إلى الجنة ولا أُبالي ، وقال للذي في كتفه

اليسرى : إلى النار ولا أُبالي » .

ولذلك يأمر الله تعالى يوم القيامة آدم عليه السلام أن يُخرج أهل النار من ذرّيته ، ويُميّزهم عن غيرهم ، ليساقوا إلى النار :

كما في [الصحيحين] و [مسند] الإمام أحمد واللفظ له عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه ، عن النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم قال : « إنَّ الله تعالى يقول يوم القيامة لآدم عليه السلام : قُم فجهز من ذرّيتك تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار ، وواحداً إلى الجنة » .

فبكى النبي ﷺ وبكوا ـ أي : بكى أصحاب النبي ﷺ ـ .

ثم قال لهم رسول الله ﷺ : « ارفعوا رؤوسكم فوالذي نفسي بيده ما أمتي في الأمم إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود» ـ فخفّف ذلك عنهم .

فأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم هم أكثر أهل الجنة ، كما ذكرت جملة واسعة من الأحاديث النبوية الدالة على ذلك في كتاب [التقرب إلى الله تعالى] ، ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد في [مسنده] عن ابن بريدة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « أهل الجنة عشرون ومائة صفٍ ، هذه الأمة من ذلك ثمانون » .

ورواه الترمذي وابن ماجه وغيرهما والطبراني ولفظه : « أهل الجنة عشرون ومائة صف ، ثمانون منها من أمَّتي » .

وروى أصحاب [السنن] وأحمد وغيرهم عن مسلم بن يسار الجهني ، أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سئل عن قول الله تعالى : ﴿ وإذْ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم . . ﴾ الآية ؟.

فقال : سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال : « إن الله تعالى خلق

آدم ، ثم مسح ظهره بيمنيه فاستخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هؤلاء للجنة ؛ وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هؤلاء للنار ؛ وبعمل أهل النار يعملون » .

فقال رجل يا رسول الله : ففيمَ العمل ؟

فقال رسول الله ﷺ : « إنّ الله تعالى إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة ، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة ؛ فيدخله به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار ؛ حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار ؛ فيدخله به النار » .

والمعنى : أنّ الله تعالى إنما يُؤاخذ الناس بأعمالهم التي عملوها باختيارهم وإرادتهم لها ؛ وليس الثواب والعقاب مُرتباً على علمه تعالى السابق على أعمالهم ، ولا على قضائه وكتابته عليهم ؛ دون أن تصدر عنهم تلك الأعمال بمشيئتهم واختيارهم .

كما جاء في [الصحيحين] وكما جاء في رواية ابن جرير وابن مردويه عنه ﷺ قال : « إنّ الله قد أخذ ذرية آدم من ظهورهم ، ثم أشهدهم على أنفسهم ، ثم قال هؤلاء للجنة ، وهؤلاء للنار ، فأهل الجنة مُيسَّرون لعمل أهل الجنة ، وأهل النار مُيسَّرون لعمل أهل النار » .

فكل ميسَّر لما خُلق له ، وليس مجبوراً على عمله الخير أو الشر ، وإنما يفعل ذلك باختياره ، ولذلك لم يُعاقب المُكره المجبور على حرام ، ولا المضطر إلى الحرام : لأنّه لا اختيار له .

قال تعالى : ﴿ إلّا مَنْ أُكره وقَلْبُهُ مطمئن بالإيمان ، ولكن مَنْ شَرح بالكفر صَدْراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عليكم الميتةُ والدّمُ ولحم الخنزير ﴾ إلى قوله

تعالى : ﴿ فمن اضطُر في مَخْمَصة ﴾ ـ أي : مجاعة ـ ﴿ غير مُتَجانِفٍ لإثْم فإنّ الله غفور رحيم ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثْم عليه إنّ الله غفور رحيم ﴾ .

ولا شك أنّ المشيئة للمكلف ثابتة ، والإرادة ثابتة له ، قال تعالى في إثباتهما : ﴿ وقل الحق مِنْ ربكم فَمَنْ شاء فليؤمن وَمَنْ شاء فليكفر ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ من كان يريد حَرْث الآخرة نَزِد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نُؤْتِه مِنْها وماله في الآخرة من نصيب ﴾ .

هذا وإنّ الله تعالى أطلع آدم عليه السلام في عالم الذّر على الأنبياء من ذريته ، وعرَّفه بهم ، وجعل لهم علامةً خاصة ، وهي : لمعان أنوار النبوة الساطعة ، أمثال السُرُج تُضيء ، وتفيض النور على غيرهم .

روى البيهقي في [الأسماء والصفات] وابن مردويه وابن عساكر عن أبيٍّ بن كعب رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وإذْ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ﴾ الآية ، فذكر الحديث كما تقدم ـ ص٢٤٦ ـ عن أبي بن كعب ، وقال فيه : ورأى ـ آدم عليه السلام ـ الأنبياء فيهم ـ أي في ذريته ـ مثل السُرُج عليهم النور ، وخُصُّوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة ، وهذا قوله تعالى : ﴿ وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومِنْ نوحٍ وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأَخَذْنا منهم مِيثَاقاً غليظاً ﴾ .

وجاء في رواية ابن أبي حاتم : « وقال آدم عليه السلام : يا رب من هؤلاء الذين أراهم أظهر الناس نوراً ؟

قال : هؤلاء الأنبياء يا آدم من ذريتك » .

فعالم الذرّ هو عالم حقيقيٌّ ، ثبت عند الجماهير من المحدثين ، والعلماء

العارفين بالكتاب والسنة .

ومن الأحاديث الصحيحة الدَّالة على ثبوت عالم الذرّ :

ما رواه الشيخان وأحمد وغيرهم عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى يوم القيامة لأهون أهل النار عذاباً ـ أي : من الكفار ـ : لو كانت لك الدنيا كلها أكنت مفتدياً بها فيقول : نعم ، فيقول الله تعالى : قد أردت منك أيسر من هذا وأنت في صلب آدم لا تشرك بي شيئاً ولا أدخلك النار وأدخلك الجنة فأبيت إلا الشرك . . . » .

فاستخرج الله تعالى الذرّية من صلب آدم عليه السلام وأخذ عليهم العهد فلما جاءوا إلى الدنيا أرسل الرسل وبعث الأنبياء يذكّرونهم ويبلّغونهم ، ويأتونهم بالبيّنات قال تعالى : ﴿ رسلاً مبشّرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ الآية .

وقال الله تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ الآية كما في سورة الحديد .

وقال تعالى : ﴿ ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوحٍ وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ الآية في سورة إبراهيم .

فما من رسول إلّا وقد جاء بالبينات التي تبين الحق من الباطل والهدى من الضلال ، وتقوم بها الحجة على قومه ، وتزول بها شبهاتهم ، فإن أبان لهم نور الحق ، وأعرضوا عنه ، أو جحدوه وعاندوا ، فقد كفروا ـ أي : ستروا نور الحق الذي ظهر لهم ، فهم كافرون حقاً لقيام الحجة عليهم ، وظهور البرهان .

أخذ الله تعالى الميثاق من النبيين

في عالم الذر
على تبليغ الرسالة، وإقامة الحجة، ونصح الأمة

قال الله تعالى : ﴿ وإذْ أَخذنا من النبين ميثاقهم ومنكَ ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾ .

روى أبو نعيم في [الدلائل] وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه في قول الله تعالى :﴿وإذْ أَخَذْنا من النبيين ميثاقهم . . . ﴾ الآية ، قال ﷺ : « كنت أوّل النبيين في الخلق وآخرهم في البعث[1] » ـ فبدىء قبلهم .

وأخرج ابن أبي شيبة عن قتادة رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ إذا قرأ : ﴿ وإذْ أَخَذنا من النبيين ميثاقهم . . ﴾ قال : « بُدىء بي في الخلق ، وكنت آخرهم في البعث » .

وروى ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه قال : ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان إذا قرأ : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم . . ﴾ يقول : « كنت أول الأنبياء في الخلق وآخرهم في البعث » .

وروى ابن أبي عاصم والضياء في [المختارة] عن أبي بن كعب رضي الله عنه مرفوعاً : «بدىء بي الخلق ، وكنت آخرهم في البعث » .

وتقدم في الحديث قول أبي بن كعب رضي الله عنه بعد أن استخرج

---

(١) ورواه الحسن بن سفيان وابن عساكر وغيرهم .

الله تعالى ذرّية آدم من صلبه قال : « ورآى فيهم الأنبياء مثل السُرج عليهم النور ، وخصّوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة ، وهو الذي يقول الله تعالى فيه : ﴿ وإذْ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم ﴾ » الآية .

وهذا دليل على أنّ هذا الميثاق كان في عالم الذرّ .

وأخرج الطبراني وابن مردويه وأبو نعيم عن أبي مريم الغساني رضي الله عنه أنّ أعرابياً قال : يا رسول الله ما أول نبوّتك ؟

فقال ﷺ : « أخذ الله تعالى مني الميثاق ، كما أخذ من النبيين ميثاقهم » ثم تلا قول الله تعالى : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذْنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾ .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ وإذْ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك . . ﴾ الآية ، قال : في ظهر آدم ـ يعني : كانوا في ظهره ـ فاستخرجهم وأخذ منهم الميثاق ، قال : وقوله تعالى : ﴿ وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾ قال مجاهد : ميثاقاً أغلظ مما أخذه على الناس .

يعني : أنّ الله تعالى أخذ ميثاقاً عاماً ، وعهداً عاماً لجميع بني آدم ، بما فيهم الأنبياء والرسل صلوات الله تعالى عليهم أجمعين ، ثم أخذ من النبيين ميثاقاً آخر ـ ودخل فيهم الرسل ، من باب أولى ، لأنّ كل رسول فهو نبيّ كما هو معلوم ـ ولكنّ الميثاق من النبيين كان أغلظ لِعظم المسؤولية في التبليغ والدعوة إلى دين الله تعالى الحنيف ، والنصح لعباد الله تعالى ؛ وإقامة الحجة عليهم ، وإرشادهم إلى كل خير ، وتحذيرهم من كل شرّ .

فقد أخذ عليهم الميثاق الأول العام ، الذي أخذه الله تعالى على جميع بني

آدم ، المشتمل على توحيد الله تعالى ، وعلى عبادته وحده سبحانه ؛ والقيام بأوامر الله تعالى ، والانتهاء عمّا نهى سبحانه ، فيما ينزله في كتبه ، وما يوحيه إلى أنبيائه ورسله صلوات الله عليهم ، ثم أخذ الله تعالى على الأنبياء ميثاقاً ثانياً خاصّاً بهم ـ كما تقدم ـ وكلهم قد التزم ذلك الميثاق ، وأبدى قبوله وتعهّده بالقيام بموجب الميثاقين ، ولذلك لما جاؤوا إلى عالم الدنيا ؛ جاءوا وقد استصحبوا حال الميثاقين معهم ، فالتزموا منذ صغرهم توحيد الله تعالى وعبادته ؛ وترك ما عليه قومهم من الكفر والشرك ، والمنكرات بأنواعها ، وذلك بحفظٍ من الله تعالى لهم ، ووقايته إيّاهم ، حتى إذا بلغوا سِنّ النبوة أعطاهم الله تعالى النبوة ، وأعطى الرسل منهم أيضاً الرسالة ، فجاءتهم العصمة من الله تعالى التي هي فوق مقام الحفظ والوقاية ـ كما هو معلوم عند أهله ـ وقد استخلصهم الله تعالى قبل النبوة فأخلصوا له فهم مخلَصون ومخلِصون ، قال تعالى : ﴿ إنا أَخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وإنّهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ﴾ ، فأخبر عن إخلاصهم قبل النبوة ، ثم ذكر اصطفاءهم بالنبوة ، وقال سبحانه : ﴿ واذكر في الكتاب موسى إنّه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً ﴾ فأخبر سبحانه عن كونه مخلصاً قبل النبوة ، ثم أخبر عن كونه رسولاً نبياً ، ولذلك أعاد قوله ﴿ كان ﴾ ، كما قال في إسماعيل عليه السلام : ﴿ إنه كان صادق الوعد ﴾ أي قبل النبوة ﴿ وكان رسولاً نبياً ﴾ وقال في يوسف : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنّه مِنْ عبادنا المخْلَصِين ﴾ .

ومن هنا تعلم رفعة مستوى الأنبياء على غيرهم ، وعناية الله تعالى بهم منذ صغرهم ،وتوليته إيّاهم ، فحفظهم من الزيغ والشبهات والشهوات المحرمة إلى غير ذلك ؛ ولو أنَّ أحدهم صدر ذلك منه قبل النبوة لكان حجة لقومه عليه بعد النبوة ؛ ولقالوا له : أنت كنت بالأمس تفعل ذلك ، فما

بالك الآن تنهى عنه !!!

ولقد كان أعداء الرسل يحرصون كل الحرص على أن يعثروا على زلّة أو قبيحة صدرت من رسلهم ، ولكنّهم لم يجدوا شيئاً من ذلك أبداً ، ولذلك ترى أنّ القرآن الكريم يذكر عن أعداء الرسل : أَنّهم كانوا يتّهمون الرسل بالسحر لَمّا يرون المعجزات ،ويتّهمونهم بالجنون لَمّا يخبرونهم عن الآخرة والمغيبات ، ولم يذكر عنهم أنّهم اتّهموهم بالمنكرات والقبائح ؛ مع جهدهم في الكذب على رسلهم . .

ومن حفظ الله تعالى لأنبيائه ووقايته لهم ، أَنْ أَلْهمهم رعاية الغنم قبل النبوَّة :

روى الشيخان والإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم نَجنى الكَباث (وهو النضج من ثمر الأراك) .

فقال ﷺ : « عليكم بالأسود منه ، فإنه أطيبه ، فإنّي كنت أجنيه إذْ كنت أرعى الغنم » .

قلنا : وكنتَ ترعى الغنم يا رسول الله ؟

قال : « نعم وما من نبيٍّ إلاَّ وقد رعاها » .

وروى الإمام أحمد وغيره عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : افتخر أهل الإبل والشاء .

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « بُعث موسى وهو راعي غنم ، وبُعث داوود وهو راعي غنم ، وبعثتُ وأنا راعي غنم لأهلي بأجياد » ـ وهو موضع في بطحاء مكة ـ .

ونقله الله تعالى من رعيه الغنم إلى رعاية الأمم ﷺ .

والحكمة في ذلك لها وجوه :

أوّلاً : اعتزالهم الناس ، وإقبالهم على الله تعالى ، وخلوتهم مع الله تعالى ، عابدين له ، ومسبحين ، وحامدين ، ومهللين ، ومكبرين ، مستنزلين الرحمة والبركة ، وملتمسين مواقع الخير والخصب للأغنام التي رعوها ، فإن الراعي يكون حريصاً على إشباع غنمه وسمنها ، وكل ذلك أعمال يحبها الله تعالى ويرضاها : العزلة ، والخلوة مع الله تعالى ، والتسبيح ، والتحميد ، واستنزال الرحمة ، والرحمة بالحيوان ، والحرص على ما فيه خيرها .

ثانياً : البعد عن الكفرة من قومهم ، والفجرة منهم ، والبعد عن فسادهم ، وأذاهم ، وشرورهم ، فلا يرون ما يغضب الله تعالى ، ولا يسمعون ما يوجب سخطه ، وهذا من العبادة .

ثالثاً : ما قاله جمهور العلماء المتقدمين رضي الله عنهم ـ كما نقله أهل السير ـ قالوا : إن الحكمة في رعي الغنم قبل النبوة هي أن يحصل لهم التمرُّن برعيها على ما سيكلَّفون بأمور أمتهم ، ولأنّ في مخالطة الغنم ما يحصِّل الحلم والشفقة ، ولأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعى ، ونقلها من مسرح إلى مسرح ، وعلموا اختلاف طباعها ، وشدة تفرقها ؛ مع ضعفها ، واحتياجها إلى من يتعهدها ، أَلِفوا من ذلك الصبر على الأمّة ، وعرفوا اختلاف طباعها ، وتفاوت عقولها ، فجبروا كسيرها ، ورفقوا بضعيفها ، وأحسنوا تعهد الأمة .

وخصَّت بذلك : لأنها أضعف من غيرها ، ولأنّ تفرقها أكثر من تفرق الإبل والبقر ؛ لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها ، ومع أن الغنم أكثر تفرقاً فإنها أسرع انقياداً واستجابة لراعيها . اهـ

وفي ذكره ﷺ رعيه الغنم دليل على عظيم تواضعه ، والحاوي للتصريح بنعمة الله تعالى عليه وعلى إخوانه النبيين حيث ألهمهم الله سبحانه ذلك ـ صلوات الله تعالى عليه وعليهم أجمعين وسلامه إلى أبد الآبدين .

وقد بين الله تعالى في القرآنِ الكريم عنايته الخاصّة بأنبيائه ورسله ـ صلوات الله تعالى وسلامه على نبينا وعليهم أجمعين ـ منذ صغرهم ، وبيّن تعهّده سبحانه بإرشادهم ، وتسديدهم ، وحفاوته بهم ، فذكر حالهم قبل النّبوة ، وأنّهم نشؤوا على الطهر والنقاء ، والسداد والرشاد ، فهذا خليل الرحمن ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ يذكر الله تعالى ـ حاله قبل النبوة فيقول تعالى : ﴿ولقد آتينا إبراهيم رُشدهُ مِنْ قَبْل وكُنّا به عالمين﴾ .

والرشد : هو العمل بما فيه صلاح الدنيا والآخرة ـ ضد الغيّ وهو ما يفسد أمر الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿قد تبين الرشد من الغيّ . . ﴾ .

فالرشد والرشاد ضد الغيّ .

وقد وصف الله تعالى كُمّل المؤمنين بالرشاد ، قال تعالى : ﴿ ولكنّ الله حبّب إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فَضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم﴾ .

فالراشدون : هي صفة المؤمنين الكمّل كما قال ﷺ : « . . فعليكم بسنّتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي » الحديث .

فنشأة الخليل عليه الصلاة والسلام منذ صغره على الرشاد .

ولما أرسله الله تعالى آتاه الحجة القاطعة على قومه ، قال تعالى : ﴿وكذلك نري إبراهيم مَلَكُوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال : هذا ربِّي فَلَمّا أَفَل﴾ ـ أي : غاب ـ ﴿ قَال : لا أحب الآفلين﴾ ـ وفي هذا يردّ على عُبّاد ذلك الكوكب ـ ﴿ فلما رأى القمر

بازغاً قال : هذا ربي فلما أفل قال : لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ﴾ ـ وفي هذا يردّ على عباد القمر ـ ﴿ فلما رأى الشمس بازغة قال: هذا ربي هذا أكبر ﴾ ـ أي : في نظر عبّادها ـ ﴿ فلما أفلت قال: يا قوم إنِّي بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض ﴾ .

ثم قال سبحانه بعد تلك الآيات : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجاتٍ من نشاء إنّ ربّك حكيم عليم ﴾ .

فكان ذلك مناظرة لقومه وحجة عليهم قطعاً ، وليس ذلك من باب النظر والاستدلال لنفسه .

وإذا كان بعض الأولياء قد استصحبه حال الميثاق العام كما ذكر العارفون عن الشيخ داود الطائي وأمثاله ، فكان يقول : الآن أسمع قول الله تعالى: ﴿ ألستُ بربكم ﴾ فما ظنك بأنبياء الله تعالى وخليله ؟ نعم إنهم قد استصحبهم حال الميثاق العام والخاص بهم ـ هذا هو الحق .

وهذا كليم الله تعالى موسى ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ يَذْكر الله تعالى عنايته به منذ صغره ، وتولّيه إيّاه ، واصطناعه سبحانه موسى لنفسه ، عبداً ، موحداً ، عابداً لربه ، ثُمَّ نبياً كريماً ، ورسولاً كليماً .

قال تعالى: ﴿ولقد مَننّا عليك مرة أخرى إذْ أوحينا إلى أمِّك ما يوحى أَنِ اقذفيه في التابوت فاقْذِفِيهِ في اليَمِّ فليلقِهِ اليَمُّ بالساحل يأخذه عدوٌّ لي وعدوٌّ له وَأَلقيتُ عليك مَحَبَّةً مِنِّي ولتصنع على عيني ﴾ .

إلى قوله تعالى : ﴿واصْطَنَعْتُكَ لنفسي ﴾ .

فقد تربى موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام بعناية الله تعالى ، ونشأ في رعاية الله تعالى ، واصطنعه الله تعالى لنفسه ـ أي : استخلصه واختاره ، خالصاً لله تعالى ، يعبد الله تعالى ، ويقيم حجة الله تعالى على المخالفين ،

ويبلغ رسالة الله تعالى ، فهو لله تعالى منذ نشأته الأولى ـ وهكذا جميع رسل الله تعالى صلوات الله تعالى على نبينا وعليهم اصطنعهم لنفسه ، والاصطناع من الافتعال أبلغ من الصنع ، وهو مأخوذ من الصنيعة والإحسان ، والتخصيص بالإكرام .

وهكذا سيدنا عيسى على نبينا وعَليه الصلاة والسلام ، نشأ منذ صغره على توحيد الله تعالى وعبادته فقد أخبر الله تعالى عمّا قال في المهد : ﴿قال إنِّي عَبْدُ الله آتانِيَ الكتابَ وجَعَلَني نبياً وجعلني مُباركاً أينما كُنْتُ وأَوْصَاني بالصّلاة والزَّكاة ما دُمْتُ حيّاً وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أَمُوتُ وَيَومُ أُبعثُ حيّاً . . ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وإنَّ الله ربِّي وربُّكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ ، هذه الجملة معطوفة على قوله :﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دُمْت حياً ﴾ و ﴿ إنَّ الله ربي وربكم ﴾ أي : وأوصاني بأنّ الله ربي وربكم .

وهكذا يوسف الصديق ،أوحى الله تعالى إليه بالفرج الحقيق في شدة الكرب والضيق ﴿ وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾ .

فإذا كان هذا حال المرسلين قبل النبوة ، فما ظنك بإمامهم الأكرم ، وصاحب شفاعتهم حبيب الله تعالى الأكرم ، ورسوله المعظم ، الذي يعمُّ لواؤه جميع الأنبياء ، سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ، فقد تربَّى بعناية الله تعالى ، ونشأ في رعاية الله تعالى ، وكان في جميع أطواره وتقلّباته ﷺ ، وتنقّلاته من أصلاب الطاهرين ، إلى أرحام الطاهرات ، وفي حَمْله وولادته ﷺ ، ونشأته وطفولته ، إلى بلوغه سنّ البلوغ ، إلى مقام النبوة والرسالة ، إلى ما لا نهاية ، كل ذلك كان ولا يزال ، في عين العناية الربانية ، كما قال تعالى مخصّصاً له بهذه المنقبة العالية على أكمل وجوهها قال تعالى : ﴿ واصْبِر لحكم ربّكَ فإنّك بأعيننا . ﴾ الآية .

فَبَشَّرَهُ سبحانه عن طريق الخبر المؤكّد بإنّ، وجاء هذا الخبر بجملةٍ اسمية دالة على الثبوت والدوام ، منذ بدء وجوده ﷺ إلى ما لا نهاية ، ولم تأت هذه الفضيلة لغير سيدنا محمد ﷺ .

نعم لقد قال تعالى لموسى الكليم :﴿ولتصنع على عيني ﴾ فعلّق ذلك بالفعل أي : بفعل الصنع ، كما قال لنوح عليه السلام : ﴿ واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ﴾ وقال تعالى : ﴿ تجري بأعيننا ﴾ الآية ، كل ذلك علقه بالأفعال ـ فافهم الفارق بين ذلك وهذا ، وتدبر ، ولا تكن من المحجوبين .

وإنني أكتفي بموجز هذا الكلام في هذا المقام حذراً من التوهم الباطل وسوء الأفهام .

﴿ فإنك بأعيننا ﴾ الآية . أي : أنت يا محمد ﷺ بعنايتنا الخاصّة بك ، وعلى مرأى منّا خاص بك ، حيثما كنت ، وحيثما تكون .

ولذلك قال سبحانه :﴿إنّه يَراكَ حين تقوم وتقلّبك في الساجدين ﴾ .

قال قتادة في هذه الآية الكريمة : إنّه يراك قائماً ، وجالساً ، وعلى حالاتك كلها .

وهذا القول يشمل قيامه ﷺ متهجداً في الليل ، وقيامه ﷺ إلى الصلوات ويشمل قيامه ﷺ من المجلس ، وقيامه ﷺ خطيباً . .

وفي هذا كله دليل عناية سبحانه بهذا الرسول الكريم ﷺ ، وأنه عليه الصلاة والسلام على مرأى خاص من الله عزّ وجلّ في كل أحواله .

وأما قوله تعالى: ﴿ وتقلّبك في الساجدين ﴾ .

قال قتادة : إنّه يراك وحدك حين تصلي ، ويراك إماماً في الساجدين .

وقال مجاهد : كان رسول الله ﷺ يرى من خلفه في الصلاة كما يرى من

بين يديه . اهـ

وهذا من خصائصه ﷺ ، كما جاء في [الصحيحين] وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « هل ترون قبلتي ههنا ، فوالله ما يخفى عَليَّ خشوعكم ، ولا ركوعكم ، وإنّي لأراكم من وراء ظهري » .

وروى البزار وابن مردويه وأبو نعيم في [الدلائل] وابن أبي حاتم من طريقين عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ وتقلبك في الساجدين ﴾ ، قال ابن عباس : ما زال النبي ﷺ يتقلب في أصلاب الأنبياء ، حتى ولدته أمّه نبياً .

وفي رواية عنه قال : تقلبه ﷺ من صلب نبي إلى صلب نَبِي ، حتى أخرجه الله تعالى نبياً . اهـ(١)
وفي رواية عن قتادة وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ وتقلبك في الساجدين ﴾ قالا : المراد بالساجدين المؤمنين .

وهذا يشمل أولاً الأنبياء الذين تقلب في أصلابهم ، ويشمل غيرهم من بقية أصوله ، فإنّهم كانوا على توحيد الله تعالى ، وخاصّة الأبوين الكريمين ، فإنّهما على الملّة الحنيفيّة ، كانا موحّدين لله تعالى ، ومؤمنين به سبحانه ، على أصل الفطرة الدينية ، التي فُطروا عليها ، بدليل قوله ﷺ : « بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً حتى كنت من القرن الذي كنت فيه » كما في البخاري وغيره .

فكل قرن من آدم إلى قرنه ﷺ فيه مؤمنون ، وفيه كفار ، ولا شك أنّ المؤمنين هم أهل الخير ، فلما قال ﷺ : « بعثت من خير قرون بني

---

(١) وانظر ذلك في [تفسير] ابن كثير و[الدر المنثور] وغيرهما .

آدم . . . » الحديث ، أي : بعثت من خير المؤمنين الذين هم خير كل قرن حتى قرنه ﷺ ، فإنّ فيه المؤمنين الموحّدين ـ وإن كانوا قلّة ـ ، فبعث من خيرة كل قرن ، فدل ذلك على أنّ كل أصوله موحدة مؤمنة بالله تعالى ، ولا سيما الأبوين الشريفين .

روى أبو نعيم في [الدلائل] والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « ما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرهما ، فأخرجت من بين أبويّ فلم يصبني من عهر الجاهلية ، وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي ، فأنا خيركم نفساً وخيركم أباً » ﷺ .

وأخرج أبو نعيم في [الدلائل] عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة ، مصفّى مهذّباً ، لا تنشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما » صلى الله تعالى عليه وآله وسلم .

* * * *

حكم الأبوين الشريفين

إعلم أن الأبوين الشريفين هما ناجيان من العذاب حقاً كما عليه الأئمة الأجلّة من أهل السنة ، وأنهما على الإيمان ، وذلك : **إما عن طريق أنّ الله تعالى أحياهما له فآمنا به** ﷺ ، كما روى ذلك جماعة من المحدثين ـ وهذا من باب الإكرام لسيدنا محمد ﷺ ـ ، **أو لأنهما من أهل الفترة** وهم ناجون ، **أو باعتبار أنهما** ماتا على الفطرة الدينية ، بدليل أنهما لم يُشركا ، ولم يعبدا صنماً ، **فالحق كل الحق أنهما مؤمنان ناجيان** ، حتى قال بعض المفسرين المحققين : وأنا أخشى الكفر على من يقول فيهما بغير ذلك . اهـ

فلو لم يكن سوى أنّهما على الملّة الحنيفية لكفاهما ذلك إيماناً وتوحيداً .

وقد سئل القاضي أبو بكر ابن العربي أحد أئمة المالكية رحمه الله تعالى عن رجل قال : إن أبا النبي ﷺ في النار .

فأجاب : بأن من قال ذلك فهو ملعون ، لقول الله تعالى : ﴿ إنّ الذين يُؤذُونَ الله ورَسُوله لَعَنَهم الله في الدنيا والآخرة . . . ﴾ قال : ولا أذىً أعظم من أن يقال عن أبيه : إنّه في النار . اهـ

وهاك تفصيل ذلك وتوضيحه :

الطريق الأول في نجاتهما بسبب أن الله تعالى أحياهما فآمنا :

أما الدليل على أنّ الله تعالى أحياهما فآمنا به ﷺ ، فقد جاء ذلك في

الحديث ، أنّه ﷺ سأل ربه أنْ يحيي له أبويه ـ فأحياهما له ، فآمنا به ثم أماتهما .

وقد ذكر كثير من أئمة حفاظ الحديث : أن هذا الحديث من قسم الضعيف الذي يجوز روايته في الفضائل والمناقب ، لا من قسم الموضوع كما زعمه ابن الجوزي ، كما نص على ذلك : الحافظ أبوبكر الخطيب البغدادي ، والحافظ أبو القاسم الطبراني ، والحافظ ابن عساكر ، والحافظ أبو حفص ابن شاهين ، والحافظ أبو القاسم السهيلي ، والإمام القرطبي ، والحافظ محب الدين الطبري ، والحافظ ناصر الدين بن المنير ، والحافظ أبو الفتح فتح الدين بن سيد الناس ، ونقله عن بعض أهل العلم ومشى عليه الصلاح الصفدي في نظم له ، والحافظ شمس الدين الدمشقي في أبيات له فقال :

حبا الله النبي مزيد فضل على فضل وكان به رؤوفا
فأحيا أمّه وكذا أباه لإيمان به فضلاً منيفا
فسلِّم فالقديم بذا قدير وإن كان الحديث به ضعيفا

والحديث الضعيف إذا تعددت طرقه دَلّ ذلك على أنّ له أصلاً ـ كما هو مقرر عند علماء الحديث .

روى الحافظ محب الدين الطبري بسنده عن عائشة رضي الله عنها ، أن النبي ﷺ نزل الحجون ـ موضع بمكة ـ كئيباً حزيناً ، فأقام به ما شاء الله عز وجل ، ثم رجع مسروراً فسألته عن ذلك فقال ﷺ : « سألت ربي إحياء أمّي فأحيا لي أمّي فآمنت بي ثم ردّها » ـ أي : إلى الموت ـ

وروى الحافظ ابن شاهين بسنده عن عائشة رضي الله عنها ، أن النبي ﷺ نزل إلى الحجون كئيباً حزيناً ، فأقام به ما شاء الله عز وجل ثم

رجع مسروراً وقال : « سألت الله ربي فأحيا لي أمّي فآمنت بي ثم ردّها » .

وروى الخطيب بإسناده مثل ذلك ، وروى الدار قطني نحوه كما في [المواهب] وغيرها .

وأورد السهيلي في [الروض] حديثاً وجده بخط جَدّه يرفعه إلى أبي الزناد ، عن عروة عن عائشة رضي الله عنها (أنّ رسول الله ﷺ سأل ربه أن يُحيي أبويه فأحياهما له فآمنا به ثم أماتهما) .

قال السهيلي : والله تعالى قادر على كل شيء ، وليس يعجز رحمته وقدرته شيء ، ونبيه ﷺ أهل أن يختصه الله تعالى بما شاء من فضله ، وينعم عليه بما شاء من كرامته . اهـ

وقد أحيا الله تعالى على يده ﷺ جماعة من الموتى : منهم ابنة الرجل الذي قال للنبي ﷺ : لا أومن بك حتى تجيء لي ابنتي ، فجاء إلى قبرها وناداها ، فقالت : « لبيك وسعديك » رواه البيهقي في [الدلائل] .

وتوفي شاب من الأنصار فتوسّلت أمه - وهي عجوز عمياء - (بهجرتها لله ورسوله فأحياه الله تعالى) رواه البيهقي وابن عدي وغيرهما .

ولما مات زيد بن خارجة - من سُراة الأنصار - كشفوا عنه فسمعوا على لسانه قائلاً يقول : (محمد رسول الله) الحديث رواه ابن أبي الدنيا وغيره .

وما جاء في بعض الأحاديث مما يتوهم منها عدم نجاة الأبوين الشريفين فهو محمول على ما قبل إحيائهما وإيمانهما به ﷺ .

وقد ذهب كثير من محققي العلماء إلى أن الأبوين الشريفين هما من أهل التوحيد وقد ماتا على ذلك ، ولم يثبت بدليل قطعي أنّهما مشركان ، ولكنّ الله تعالى أراد أن يشرّفهما بإيمانهما برسالة ابنهما سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم ؛ فأحياهما له ليؤمنا به ، ليسرّهما ويُسرّ بذلك حبيبه

الأكرم صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم ، وستأتي الأدلة على توحيدهما .

وأما الطريق الثاني على نجاة الأبوين الشريفين فهو أنهم من أهل الفترة :

وأهل الفترة ناجون ، ـ وأهل الفترة هم كل من كان بين رسولين ، ولم يكن الأول مرسلاً إليهم ، ولا أدركوا رسالة الثاني ـ وقيل : كل من لم يدرك رسالة رسول من الرسل ، سواء أرسل إليه أَوْ لَا ـ والأكثر على الأول .

ومن المعلوم أنّ أهل الفترات متعددون ، ولكنْ إذا أطلقت الفترة يراد بها ما بين سيدنا عيسى وبين سيدنا رسول الله سيدنا محمد ﷺ ، قال تعالى : ﴿ يا أهلَ الكتَاب قَد جَاءكم رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لكم على فَتْرة من الرسُل أنْ تَقُولُوا ما جاءَنَا مِنْ بَشيرٍ ولا نَذير فَقْد جاءكم بَشِيرٌ ونَذِيرٌ والله على كل شيء قدير ﴾ .

وتلك الفترة كانت مدتها : ستمائة سنة ، وقيل خمسمائة وستون ، وقيل : خمسمائة وأربعون .

والفترة في اللغة : هي على وزن فَعلة ، والمادة تدل على الانقطاع والسكون عن العمل ، والمراد بها هنا : انقطاع ما بين الرسولين .

وقد ذهب جمهور العلماء : إلى نجاة أهل الفترة ، وأنّهم لا يعذبون ، لأنّهم لم تبلغهم الدعوة ، ولم تقم عليهم الحجة ـ وقد جرى على ذلك أئمة الشافعية في الفقه ، والأشاعرة في الأصول ، وقد نص على ذلك الإمام الشافعي رضي الله عنه في [الأم] ، و[المختصر] ، وتبعه جميع الأصحاب ، فلم يشذ أحد منهم بالمخالفة ـ كما نقل ذلك عنهم المحققون .

والأدلة على القول بنجاة أهل الفترة كثيرة أذكر جملة منها : قال تعالى : ﴿ وما كُنَّا مُعَذِّبينَ حتىّ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ .

قال الحافظ السيوطي : أخرج ابن أبي حاتم في [تفسيره] عند هذه الآية بسند حسن عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الهالك في الفترة يقول : رَبِّ لَمْ يأتني كتابٌ ولا رسولٌ ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ لَوْلَا أرسلتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِك ونَكونَ مِنَ المؤمِنِين ﴾ » .

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم في [تفسيرهما] عن قتادة في الآية قال : إنّ الله تعالى ليس بمعذّب أحداً حتى يسبق إليه من الله خبر ، أو تأتيه من الله بيّنة اهـ ـ أي : بواسطة رسول الله ﷺ .

فقد أخبر سبحانه أنّه لا يعذِّبُ أحداً حتى يَبعث رسولاً يهدي إلى الحق ، ويردع عن الضلال ، ويأتي بالبينات ، ويقيم الحجج ، ويمهد الشرائع ؛ وبذلك تقوم حجة الله تعالى على العباد ، ولا يبقى عذر لأهل العِناد .

قال الله تعالى : ﴿ رُسُلاً مَبَشِّرين ومُنذرينَ لِئَلَّا يكون للنّاسِ عَلى الله حُجَّةٌ بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ .

فلو أنّه سبحانه عذبهم قبل أن يرسل إليهم رسولاً لاحتجوا بأنّهم لا يعلمون ، كما أخبر سبحانه بقوله : ﴿ ولو أنّا أَهْلَكْناهُم بعذابٍ مِنْ قبلِه لقالوا : ربَّنَا لَوْلَا أرسلت إِلَيْنَا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نَذِلَّ وَنَخْزَى ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبةٌ بما قَدَّمَتْ أَيْدِيهم فيقولوا : ربَّنَا لَوْلَا أرسلت إِلَيْنَا رسولاً فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين . ﴾ الآيات .

وقال تعالى : ﴿وما أَهْلَكْنَا مِنْ قرية إلّا لَها مُنْذِرُون ذِكْرى وما كُنَّا ظَالِمين ﴾ .

فقوله تعالى : ﴿ وما كُنّا معذِّبينَ حتى نبعثَ رسولاً ﴾ **هذا عام في عذاب**

الدنيا وعذاب الآخرة ، فلا يُهلك قوماً في الدنيا ولا يعذبهم في الآخرة إلّا بعد إرسال رسول فيهم ، وإقامة الحجة عليهم .

أما الدليل على أنه لا يعذبهم في الدنيا إلا بعد إرسال الرسول فيهم ، فقد قال تعالى : ﴿ وما كان رَبّك مُهلِكَ القُرى حَتّى يَبْعَثَ في أُمِّها رَسولاً يَتْلو عَلِيْهم آيَاتِنَا وما كنّا مُهلِكي القُرى إلّا وأَهْلها ظَالِمُوْن ﴾ .

فيبعث فيهم الرسل بالبينات ، وتقوم الحجة عليهم ، فهناك من يجحد ويعاند ، فيكون ظالماً لنفسه ، لأنّه عَرَّضَها للعذاب ، فيستحقون العذاب والهلاك ، بعنادهم وإعراضهم عن قبول الحق الذي ظهر بالبينات ، فيهلكهم وهم ظالمون لأنفسهم ، ولكنّه سبحانه ما ظلمهم .

قال تعالى : ﴿ وما ظَلَمْنَاهُم ولَكِنْ كَانَوا أَنْفُسَهم يَظْلمُون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿وما كان ربُّك لِيُهْلِك القُرى بِظُلمٍ وأَهْلُها مصلحون ﴾

فالله تعالى لا يعذب ولا يهلك قوماً بسبب ظلم فعلوه ؛ وهم غافلون عنه ، ولم ينبهوا عليه ، ولم يُنهوا عنه ؛ بل إنّه سبحانه ينبههم ، ويحذرهم من المظالم والمحارم بواسطة الرسل صلوات الله تعالى عليهم ، وإنزال الكتب ، حتى لا يُبقي لهم عذراً بسبب جهلهم ، أو غفلتهم وعدم علمهم .

وقوله تعالى : ـ في الآية السابقة ـ ﴿ وما كَانَ ربّك مُهلِكَ القُرى حتى يبعث . . ﴾ يدلك على أنّ الرسل صلوات الله تعالى عليهم إنّما يبعثهم الله تعالى من خيرة البلاد والمدن المتحضرة ، فإنّ الأمّ معناها الأصل والمرجع ، فهو سبحانه يبعث في أمهات القرى ـ أيْ : أمهات المدن رسولاً يبلغ أهل تلك الأم ، ومن حولها من القرى ؛ وتسمى أمهات القرى في الوقت الحاضر بالعواصم ، فكل مجموعة من البلاد لها عاصمة يُرجع إليها في

أمورها وتدابيرها ومصالحها ، ولما كانت أم أمهات القرى والبلاد عامة هي : مكة المكرمة ، بسبب وجود بيت الله تعالى المعظم فيها ، وهي : الكعبة المشرفة ، التي دُحيت الأرض من تحتها حين خلق الله تعالى الأرض ، وإليها مرجع البلاد في حَجّها ومُصلاّها وغير ذلك ، فهي الأمُّ الكبرى لجميع الأمهات ، لذلك اقتضت حكمة الله تعالى أن يبعث فيها صاحب الرسالة العامة لجميع البلاد ، شرقها وغربها ، وشمالها وجنوبها ، قال تعالى : ﴿ وكذَلكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرآناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرى وَمَنْ حَوْلَها ﴾ .

فقوله تعالى :﴿ومن حَوْلَها ﴾ يشمل جميع البلاد في جميع الجهات ، لأنّ مكة المكرمة هي قلب الأرض كلها ـ بسبب بيت الله المعظم ـ .

وأما الدليل على أنّ الله تعالى لا يعذب في الآخرة إلاّ بعد إرسال الرسل بالبينات ، وإقامة الحجج بالآيات ، وإزالة الشبهات ، وتذكيرهم بيوم الحساب .

فقد قال الله تعالى : ﴿ وسِيق الذين كفروا إلى جهنم زُمَراًحتى إذا جاؤوها فُتِحَتْ أَبْوَابُها وقال لَهُم خَزَنَتُها : أَلَمْ يَأتِكُم رسُلٌ مِنْكم يَتْلُون عَلَيْكم آيَاتِ رَبِّكُم وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُم هذا ؟ قَالَوا : بَلى وَلكِن حَقَّتْ كَلِمَةُ العذَابِ عَلى الكافِرين قيلَ : ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّم خَالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوى المتَكَبِّرين . . ﴾ .

فانظر في جواب الكفار وقولهم : ﴿ ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ والمعنى : أنّهم اعترفوا بإقامة الحجة عليهم ، وأنّ رسلهم قد بلَّغتهم ، وبَيّنت لهم ، وأظهرت لهم نور الحق ، ولكنّهم تَعَاموا ، وراحوا يعاندون ويعارضون كِبْراً وعتواً ، فكفروا ـ أي : ستروا الذي ظهر لهم

بجحودهم وتكذيبهم ، ووقفوا وراء حجاب كبرهم وإنكارهم ، فهم حقاً كافرون ـ أي : ساترون الحق وجاحدوه ، كما قال تعالى : ﴿ أولئكَ هُمُ الكافِرون حقاً ﴾ الآية من سورة النساء .

ولذلك كانت النتيجة أنّهم قالوا : ﴿ بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ أي : لأنهم كافرون وجاحدون للحق بعدما تبين لهم ، فقد اعترفوا بحقية العذاب عليهم ، كما قال تعالى : ﴿كلما أُلْقيَ فيها فَوجٌ سَألهم خَزَنَتُها أَلَمْ يأتِكم نَذيرٌ قَالُوا : بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذيرٌ فَكذَّبْنَا وقُلْنَا ما نَزّلَ الله مِنْ شيءٍ إنْ أَنْتُم إلاّ في ضلالٍ كَبيرٍ وقالوا : لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ ﴾ ـ أي : لما جاءت به النذر سماع فهم ـ ﴿ أَوْ نَعْقِلُ ﴾ ـ أي : نتعقّل ما قاله النُذُر ـ ﴿ ما كُنّا في أَصْحاب السّعِير فاعترفُوا بِذَنْبهم فَسُحْقاً لأَصْحَابِ السَّعِيرْ ﴾ .

فما ظلمهم الله تعالى ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

وقال تعالى : ﴿ وقالَ الذينَ في النَّار لِخَزَنَةِ جهَنَّم ادعُوا رَبّكُم يُخَفِّفْ عَنّا يوماً من العذابِ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُم رُسُلُكمْ بالبَيِّنَات ﴾ ؟ ـ أي : الآيات والحجج القاطعة التي تبين الحق بيانا واضحا جليّاً ـ ﴿ قالَوا : بلى ﴾ ـ أي : قد جاء رسلنا بالبينات الواضحة الساطعة ـ ﴿ قَالُوا : فَادْعُوا وَمَا دُعَاء الكافرين ﴾ ـ أي : الجاحدين للحق ، الساترين له بعد ظهوره ـ ﴿ إلا في ضلال ﴾ .

وقال تعالى : ـ مخاطباً للكفار الذين استحقوا النار ـ : ﴿ يا مَعْشر الجنّ والإنس أَلَمْ يَأتِكُمْ رُسُل منْكم يَقُصُّون عَلَيكُم آيَاتي وينذرونكم لِقاءَ يَومِكم هذا ؟ قالوا : شَهِدْنَا على أَنْفُسِنا وَغرّتهم الحَياةُ الدُّنْيا وشَهِدُوا عَلى أَنفُسِهم أَنّهم كَانُوا كافرين ﴾ ـ أي : جاحدين الحق بعدما ظهر لهم ﴿ ذلك أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبك مُهلِكَ القُرى بِظُلمٍ وأَهْلُها غَافلون ﴾ .

فقد تبين لك من جميع ما تقدم أنّ الله تعالى لا يعذب إلا بعد إرسال الرسل بالبينات ، وإقامة الحجج القاطعات ، فأمّا أهل الفترة : فإنّهم لم تبلغهم الرسالة ، ولم تقم عليهم الحجة ، فهم لا يعذبون ، كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ وما كنّا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ .

وقد جرى على هذا المسلك في والدَيْ سيدنا رسول الله ﷺ قوم من كبار العلماء فصرحوا بأنّهما لم تبلغهما الدعوة .

قال الإمام السيوطي رحمه الله تعالى : وهذا المسلك أول ما سمعته من شيخنا شيخ الإسلام شرف الدين المناوي ، فإنّه سئل عن والِد رسول الله ﷺ هل هو في النار ؟!

فزبر السائل زبأرة شديدة ـ أي : زجره وانتهره بشدة ـ.

فقال السائل : هل ثبت إسلامه ؟

فقال : إنه مات في الفترة ، ولا تعذيب قبل البعثة . اهـ

قال عبد الله : والشيخ شرف الدين قد لازم الحافظ وليّ الدين العراقي ، وتخرج به في : الفقه والأصول ، وسمع الحديث منه ، ومن الشرف ابن الكويك ، وتصدى للإقراء والإفتاء ، وتخرج به الأعيان من أولي العلم ، وولي تدريس الفقه الشافعي ، وقضاء الديار المصرية ، وله تصانيف متعددة ، وتوفي سنة /٨٧١/هـ رحمه الله تعالى .

قال الحافظ : وقد نقل سِبط ابن الجوزي في كتاب [مرآة الزمان] عن جماعة ـ فإنه حكى كلام جده على حديث إحياء أمه ﷺ ثم قال ما نصه : وقال قوم : قد قال الله تعالى : ﴿ وما كنّا مُعَذبين حتَّى نبعث رسولا ﴾ ، قال: والدعوة لم تبلغ أباه وأمه فما ذنبهما ؟ اهـ

فالأبوان الشريفان لم تبلغهما دعوة رسول ، وذلك لبعد العهد بالرسل

السابقين ، فإن آخر الرسل قبل بعثة نبينا سيدنا محمد ﷺ هو سيدنا عيسى عليه السلام ، وكانت الفترة بينهما نحو ستمائة سنة ، ثم إنّهما كانا في زمن جاهلية ، وقد طبق الجهل مشارق الأرض ومغاربها ، وتوفي الذينَ يعرفون الشرائع ، ويبلغون الدعوة على وجهها التام ، إلا نفراً يسيراً من أحْبار أهل الكتاب ، مفرقين في الأمصار ، كالشام وغيرها من بلاد الروم ، ولم يعهد تقلب الأبوين الشريفين في البلاد ، والأسفار إلا إلى المدينة ، ولا عَمّر والده ﷺ عُمراً طويلاً ، بحيث يقع لهما فيه التنقيب ، فإنّ والده ﷺ عاش من العمر نحو ثماني عشرة سنة ، ووالدته ﷺ توفيت في حدود العشرين تقريباً كما صححه الحافظ العلائي ، ومثل هذا العمر لا يتسع للفحص عن المطلوب في مثل ذلك الزمان ، لا سيما والمرأة مصونة في بيتها عن الاجتماع بالرجال ، فهما من أهل الفترة الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ الآيات كما سبق .

فإن قيل : فما هو الجواب عن الحديث الذي رواه مسلم عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله أين أبي ؟

قال : « في النار » ـ فلما قفّ ـ أي : ذهب ـ دعاه فقال : « إن أبي وأباك في النار.. » .

فقد أجاب الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى عن ذلك فقال : إنّ هذه اللفظة : ـ إن أبي وأباك في النار ـ لم يتفق على ذكرها الرواة ، وإنما ذكرها حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس رضي الله عنه ، وهي الطريق التي رواه مسلم منها .

وقد خالفه مَعْمَرُ عن ثابت فلم يذكر : إن أبي وأباك في النار ، ولكن قال : « إذا مررت بقبر كافر فبشره بالنار » .

والمعنى أنه ﷺ يريد بذلك أن يخبر الرجل أن أباه ليس وحده في النار لكفره، بل له أمثال في النار قد كفروا، ومن المعلوم أن الكفر هو الستر، فالكافر في الشرع هو الذي ستر نور الحق بعدما بان له وظهر ، بأنْ جَحَدَهُ وكَذَّبَ عناداًوكبراً ، أو اتباعاً لهواه .

قال الحافظ السيوطي : وهذا اللفظ : أي : « إذا مررت بقبر كافر فبشره بالنار » ـ لا دلالة فيه على أنّ والده ﷺ في النار ، لأنّه ﷺ لم يذكر فيه والده أصلاً .

قال : وهذا اللفظ أثبت من حيث الرواية ، فإن مَعْمراً هو أثبت من حماد ، فإن حماداً تُكلم في حفظه ، ووقع في أحاديثه مناكير ، ذكر المحدثون أن ربيبه دسّها في كتبه ، وكان حماد لا يحفظ ، فحدث بها ، فوهم فيها ، ومِنْ ثَمّ لم يُخَرج له البخاري شيئاً ، ولا خرج له مسلم في الأصول إلا من روايته عن ثابت .

وقال الحاكم في [المدخل] : ما خرج مسلم لحماد في الأصول إلا من حديثه عن ثابت ، وقد خرج له في الشواهد عن طائفة .

وأما مَعْمَرٌ فلم يُتكلم في حفظه ، ولا استنكر شيء من حديثه ، واتفق على التخريج له والرواية عنه الشيخان ـ فكان لفظه أثبت وأصح .

قال رحمه الله تعالى : ثم وجدنا الحديث ورد من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، بمثل لفظ رواية معمر عن ثابت عن أنس ، فأخرج له البزار والطبراني والبيهقي من طريق إبراهيم بن سعد عن الزهري عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ :أين أبي ؟

قال : « في النار » .

قال : فأين أبوك ؟ قال : « حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار » .

قال : وهذا إسنادٌ على شرط الشيخين ، فتعين الاعتماد على هذا اللفظ ، وتقديمه على غيره . اهـ

قال عبد الله : وليس في هذا الحديث ما يدل على أنّ أباه ﷺ في النار ، فإنه ﷺ لم يقل له إن أبي وأباك في النار ، وإنّما أخبره أنّ هناك كفاراً أمثال أبي الرجل ، كفروا بعدما تبين لهم الحق الذي جاء به ﷺ ، فحيثما مرّ بقبر واحد منهم فبشّره بالنار .

قال : الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى : فعلم أنّ اللفظ الأول ـ إنّ أبي وأباك في النار ـ هو من تصرف الراوي ، رواه بالمعنى على حسب فهمه . اهـ

يعني : أن الراوي فهم من قوله ﷺ : « حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار » ـ فهم من ذلك أنّ أباه أيضاً في النار ، فهذا وَهْم من الراوي ، نشأ عن سوء فهمه فحدث بمعنى ما فهمه .

قال الحافظ السيوطي : وقد وقع في [الصحيحين] روايات كثيرة من هذا النمط ، فيها لفظ تصرف فيه الراوي ، والحال غيره أثبت منه ، كحديث مسلم عن أنس في نفي قراءة البسملة ، وقال الشافعي : إن الثابت من طريق آخر ينفي سماعها ـ أي : سماع البسملة ـ من قارىء الفاتحة في الصلاة ، ففهم منه الراوي نفي قراءتها ، فرواه بالمعنى على ما فهمه فأخطأ .

قال رحمه الله تعالى : ونحن أجبنا عن حديث مسلم في هذا المقام عن قول الراوي : إن أبي وأباك في النار ، أجبنا بنظير ما أجاب به إمامنا الشافعي رضي الله عنه عن حديث مسلم في نفي قراءة البسملة . اهـ

وقد أورد الحافظ السيوطي أحاديث متعددة الطرق ، منها ما رواه

ابن ماجه ، ومنها ما رواه الحاكم وصححه ، وما رواه غيرهما ، وليس في شيء منها لفظ : إن أبي وأباك في النار .

قال عبد الله : فانظر يا أخي العاقل رعاك الله تعالى : أتأخذ برواية انفرد بها حماد ! وتدع بقية الروايات . . فالحق أحَقّ أن يتبع ، ورواية الأكثر هي المعوّل عليها ـ ويد الله مع الجماعة .

قال الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى : ولو فرض اتفاق الرواة على اللفظ الأول ـ أي : لفظ : إن أبي وأباك في النار ـ كان ذلك معارضاً لما تقدم من الأدلة . اهـ

يعني : الأدلة القرآنية والأحاديث النبوية الدالة على أن أهل الفترة وهم الذين لم تبلغهم الدعوة هم ناجون غير معذبين ، بنص قوله تعالى : ﴿ وما كُنَّا معذِّبِينَ حتى نبعث رسولا ﴾ وبقية الآيات المتقدمة . . .

قال رحمه الله تعالى : والحديث الصحيح إذا عارضته أدلة أخرى هي أرجح منه وأقوى : وجب تأويله . اهـ

قال عبد الله : نعم هذا إذا اتُّفق على صحته ، فيكون ظاهره غير مراد ، ويؤوّل دفعاً للتعارض .

أما الحديث الذي نحن فيه ، وما فيه من لفظ : إن أبي وأباك في النار ـ فإنّه رواية المتكلم فيه ـ ولم يتفق على صحة هذا اللفظ . .

هذا وقد ذهب كثير من أئمة العلماء المتقدمين إلى نجاة الأبوين الشريفين باعتبار أنهما من أهل الفترة ، وأهل الفترة هم ناجون غير معذبين ، وقد ذكرت لك الأدلة القرآنية فيما سبق .

قال الإمام أبو عبد الله بن خلفة الوشتاني الأُبِّي المالكي المتوفى سنة /٨٢٧/هـ قال في شرحه على صحيح مسلم في الجزء الأول ص :

/٣٧٠/ : قال بعدما نقل عبارة الإمام النووي رحمه الله تعالى عند رواية : « إن أبي وأباك في النار » ـ أنّ من مات في الفترة على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان في النار ، وليس هذا من التعذيب قبل بلوغ الدعوة ، لأنّه بلغتهم دعوة إبراهيم عليه السلام . اهـ كلام النووي رحمه الله تعالى .

قال العلامة الأبِّي معقباً على كلام النووي : تأمّل ما في كلامه من التنافي ، فإنّ من بلغتهم الدعوة ليسوا بأهل فترة ، فأهل الفترة هم الأمم الكائنة بين أزمنة الرسل الذين لم يرسل إليهم الأول ، ولا أدركوا الثاني ، كالأعراب الذين لم يُرسل إليهم عيسى ، ولا لحقوا النبي ﷺ .

قال : والفترة بهذا التفسير تشمل ما بين كل رسولين ، ولكن الفقهاء إذا تكلموا في الفترة فإنّهم يعنون بها التي بين عيسى عليه السلام ، وبين النبي ﷺ ، وذكر البخاري عن سلمان أنّها كانت ستمائة سنة ، ولما دَلّت القواطع أي :ـ الأدلة القرآنية والنبوية القاطعة ـ أنّه لا تعذيب حتى تقوم الحجة ، علمْنا أنّهم ـ أي : أهل الفترة ـ غير معذبين . اهـ كلام الأبي رحمه الله تعالى .

فتبين لك أنّ أكثر أهل العلم على أنّ أهل الفترة غير معذبين ـ لما تقدم في الآيات القرآنية .

فإنْ قلت : جاءت أحاديث صحيحة في تعذيب بعض أهل الفترة كحديث : « رأيت عمرو بن لحي يجرّ قُصبته ـ أي : أحشاءه ـ في النار » .

وحديث : « صاحب المحجن في النار » وهو الذي كان يسرق الحاج بمحجنه ، فإذا أبصر به قال: إنما تعلق بمحجني الحديث .

فقد أجاب العلماء عن ذلك بأجوبة متعددة :

الأول : أنّها أخبار آحاد فلا تعارض الآيات القطعية .

الثاني : انّ العذاب قاصر على هؤلاء بِسَبَبٍ الله تعالى هو أعلم به .

الثالث : وهو الأظهر والأوجه والأحق ولا ينافي الجواب الثاني ، وهو أنّ التعذيب الوارد في بعض أهل الفترة إنّما هو بِسبب تَضْلِيلهم لمن كان على الفطرة من قومهم ، وشرعوا لهم ما يخالف الشرائع التي أدركوا آثارها : من تحريمهم ما أحلّ الله تعالى ، وتحليلهم ما حرم الله تعالى ؛ ليصرفوا وجوه الناس إليهم ، أو بسبب فسادهم ، أو شرورهم ، أو إضرارهم بعباد الله تعالى .

فمن المعذبين بالسبب الأول : عمرو بن لحيّ فإنه أوّل من سَنَّ للعرب عبادة الأصنام ، وشرع لنفسه ولقومه ما تهواه نفسه ، فحلل ،وحرم ، وبحّر البحيرة ،وسيب السائبة ، ووصل الوصيلة ـ وتبعته قبائل من العرب في ذلك ، حتى كانت لقبائلهم حول البيت ثلاثمائة وستون صنماً سوى ما لهم في موضع استقرارهم ، ثم لم يكتفوا بعبادة الأصنام حتى عبدوا الجن ، ونسبوا لله البنات ،واتخذوا بيوتاً لها سدنة وحجّاب يضاهون بها الكعبة ـ قال الله تعالى :

﴿ ما جعل الله منْ بَحيرةٍ ولا سائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ ولكنَّ الذين كَفَروا يَفْتَرونَ على الله الكَذِبَ وأَكْثَرُهُم لا يَعْقِلُون ﴾ .

ومن المعذبين بالسبب الثاني صاحب المحجن الذي كان يسرق الحاج بمحجنه ، ويدعي نزاهة نفسه ،ويقول : إنّ المتاع المسروق قد علق بمحجنه ، واستشرى ضرره .

وهكذا هنالك كثير من جاهلية العرب ، كانت شرورهم مستطيرة ، وأضرارهم بعباد الله تعالى كثيرة ، وظلمهم وظلماتهم شهيرة .

وقد ذكر المحققون من أهل العلم ، وشراح الحديث ، وأهل السّير ، أنّ

أهل الفترة كانوا على ثلاثة أصناف :

الصنف الأول : من أدرك التوحيد ببصيرته ، وهؤلاء منهم من لم يدخل في شريعة : كقُس بن ساعدة ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وأصحابه ، ومنهم من دخل في شريعة حق لم تتغير ولم تتبدل كتُبَّع وقومه من حِمْيَر ، وأهل نجران .

الصنف الثاني : من بَدّل وغيّر ، وشرع لنفسه ولقومه ، فحللّ وحرّم ، ومن المعلوم أن التحليل والتحريم والتشريع إنّما هو من الله تعالى رب العالمين ، وليس للمخلوق أن يحلل أو يحرم ، ومن هذا الصنف : عمر بن لحيّ وأمثاله ، ومن هذا القسم من طَغى وبَغى وظلم واستطار شره على العباد .

الصنف الثالث : من لم يشرك ، ولا دخل في شريعة نبي ، ولا ابتدع لنفسه شريعة ، ولا دان بدين ، بل بقي عمره على غفلة عَنْ هذا كله . .

فيحمل من صح في الحديث تعذيبه على هذا القسم الثاني .

أما الصنف الثالث : فهم أهل الفترة حقيقة ، وهم غير معذبين ؛ للأدلة القرآنية القاطعة .

وأما أهل القسم الأول فهم من الموحدين الناجين المكرمين بدخول الجنة ، كقس بن ساعدة ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، فقد قال رسول الله ﷺ في كل منهما : « إنّه يبعث أمة وحده . . » .

وبناء على ذلك فإنّ الأبوين الشريفين ليسا من الصنف الثاني قطعاً ، فإنهما وجميع أجداده ﷺ كانوا أشراف العرب ، وسادتهم ، وكِرامَهم ، وهم أهل السخاء والكرم ، نجدة المنقطعين ، وإغاثة الملهوفين ، ونصرة المظلومين ، وعون المساكين ، وتتحاكم قبائل العرب إليهم ؛ إذا اختلفوا فيما

بينهم ، ويرجعون إليهم إذَا الأَمْر أهمَّهم ـ لا سيما عبد المطلب جد النبي ﷺ ، صاحب المقام المهيب ، والشأن العجيب ، والسماحة ، والشجاعة ، والسخاوة ، والرأي الصائب ، والفكر الثاقب .

قال الحافظ الزرقاني : قد ورد ما يدل على أنّه كان على الحنيفية والتوحيد حيث تبرأ من الصليب وعابديه .

فقد روى ابن سعد عن ابن عباس رضي الله عنهما : أنّ عبد المطلب قال لما قدم أصحاب الفيل :

لاهُمّ إنّ المرء يمنـ ـع رحاله فامنع رحالك
لا يَغْلِبَنّ صليبهم ومحالهم أبداً محالك

وفي [طبقات] ابن سعد بأسانيده المتعددة قال عبد المطلب لأم أيمن : يا بركة لا تغفلي عن ابني ـ محمد ـ ﷺ ـ فإنّي وجدته مع غلمان قريباً من السورة ـ الشجرة ـ وإن أهل الكتاب ـ أي : علماء أهل الكتاب ـ يقولون : إن ابني محمداً ﷺ نبي هذه الأمة . اهـ

قال عبد الله : فسمع ذلك عبد المطلب من علماء أهل الكتاب ، وأقر ذلك ، ولم ينكر عليهم ، وأخذت هذه البشارة من قلبه ونفسه موضع القبول والتسليم ، وأثرت فيه ، ولذلك أوصى به بركة ـ أم أيمن ـ حاضنته ، بالعناية والاهتمام به ، وعدم الغفلة عنه ـ فافهم .

وكان عبد المطلب يقرب النبي ﷺ : فكان ﷺ يدخل على جده عبد المطلب إذا خلا ، وإذا نام ، ويجلس على فراشه ، وكان أولاد عبد المطلب لا يجلسون عليها .

قال ابن إسحاق : كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة ، وكان لا يجلس عليه من بنيه أحد إجلالاً له ، وكان ﷺ يأتي حتى يجلس عليه ،

فتذهب أعمامه أي : أولاد عبد المطلب يؤخرونه ، فيقول لهم عبد المطلب : دعوا - اتركوا - ابني ، ويمسح عبد المطلب على ظهره بيده ، ويقول : إن لابني هذا لشأناً .

ومن جملة الأدلة التي استدل بها الإمام فخر الدين الرازي وغيره على توحيد عبد المطلب أنّه ﷺ انتسب إليه يوم حنين فقال :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

صلى الله عليه وسلم

قال الإمام السيوطي : وهذا أقوى ما يقوى به مقالة الإمام فخر الدين ومن وافقه ، لأن الأحاديث وردت في النهي عن الانتساب إلى الآباء الكفار اهـ .

وقد توفي عبد المطلب وله ﷺ ثمان سنين ، وقيل تسع ، ولعبد المطلب عشرة ومائة سنة ، وقيل : مائة وأربعون سنة ، وقيل : مائة - كما في [المواهب] وغيرها - .

وقد أوصى عبد المطلب ابنه أبا طالب بكفالة النبي ﷺ ، وكان أبو طالب إذا أراد أن يطعم عياله - يغديهم ، أو يعشيهم - يقول : كَمَا أنتم حتى يحضر ابني ، فيأتي رسول الله ﷺ فيأكل معهم ، فيفضل من طعامهم ، وإذا كان لبناً شرب ﷺ أولهم ، ثم يشربون ، فيروون كلهم من قعب واحد - أي : إناء واحد - وإنْ كان أحدهم ليشرب قعباً وحده .

فيقول أبو طالب : إنّك يا محمد لمبارك .

وروى أبو نعيم وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان بنو أبي طالب ليصبحون عُمشاً رُمصاً ، وكان ﷺ يصبح صقيلاً دهيناً كحيلاً ، وكان أبو طالب يحبّه حبّاً شديداً لا يحب أولاده كذلك ، ولا ينام إلا إلى

جنبه ، ويخرج به ﷺ متى خرج .

وكان يستسقي به ﷺ في سنة القحط فيسقون .

وفي ذلك يقول أبو طالب في قصيدته المشهورة :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

صلى الله تعالى عليه وآله وسلم

قال الحافظ الزرقاني رحمه الله تعالى : وقال الشَّهْرَسْتَاني : مما يدل على إثبات عبد المطلب المعاد والمبدأ ، أنّه كان يضرب بالقداح على ابنه ، ويقول : يا ربّ أنت الملك المحمود ، وأنت ربي الملك المعيد ، مَنْ عنده الطارف والتليد .

قال : ومما يدل على موقفه بحال الرسالة ، وشرف النبوة ، أنّ أهل مكة لما أصابهم ذلك الجدب ، أمر عبد المطلب أبا طالب أنْ يحضر بالنبي ﷺ وهو صغير السن فاستسقى عبد المطلب به . اهـ

وقد نقل ابن هشام وغيره عن الزهري أنه قال : كان عبد المطلب أول من سَنّ دية النفس مائة من الإبل ، فجرت في قريش والعرب ، وأقرها رسول الله ﷺ . اهـ

وقال الرَشاطيُّ رحمه الله تعالى : وكان عبد المطلب ممن حَرّم الخمر على نفسه في الجاهلية ـ أي : لم يشربها ـ وكان ينهى عنها ، ومن المعلوم أن نهي عبد المطلب عن الخمرة يتوجه أولاً على أولاده ، فقد نشأ ابنه عبد الله الشريف على تلك المبادىء الفاضلة ، والخصال الكاملة وتوفي وعمره ثمان عشرة سنة ـ كما تقدم عن العلائي .

وإذا عرفت ذلك ، علمت أن الأبوين الشريفين ليسا من دعاة الضلالة ، ولا كانا من أهل الفساد في البلاد ، ولا من أهل الظلم للعباد ، وقد توفي

والده ﷺ عبد الله وهو شاب ما بلغ العشرين ، كما تقدم ، فأنى له أنْ يظلم أو يدعوا إلى الضلالة ؟

فهما ليسا من القسم الثاني من أهل الفترة قطعاً .

فهم إمّا من الصنف الثالث من أهل الفترة ، وهم ناجون غير معذبين ، للأدلة القرآنية القطعية الثبوت والدلالة ، ورواية : « إن أبي وأباك في النار » متكلم فيها ، ومخالفة لبقية الروايات في الحديث كما تقدم .

وإما أن يكون الأبوان الشريفان من الصنف الأوّل الموحدين ، الباقين على الحنيفية ، وهي ملة جدهما إبراهيم الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، كما يدل على ذلك ما يأتي :

الطريق الثالث في نجاة الأبوين الشريفين :

إنّ الأبوين الشريفين لم يثبت عنهما شرك ، بل كانا على الحنيفية دين جدهما الخليل إبراهيم ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ ، كما كان زيد بن عمرو بن نفيل وأمثاله ، وقد جزم الإمام الرازي بهذا القول ، وأتى على ذلك بوجوه من الأدلة :

ومنها : ما جاء في الحديث الذي رواه أبو نعيم وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قال : « لم أزل أُنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات » .

وقد قال الله تعالى : ﴿ إنّما المشْرِكُونَ نَجَسٌ . . ﴾ الآية .

قال الإمام الرازي : فوجب أن لايكون أحد من أجداده ﷺ مشركاً ـ أي : فمن باب أولى الوالدان الكريمان ، فإنهما ليسا بمشركين ـ .

وقال : لأنّه لو قيل إنّ فيهم مشركاً لتنافى هذا القول مع الآية .

أما أنك تقول : أراد بذلك الطهر من السفاح ، فهذا صرف للكلام عن المراد به ، فإنه ورد في عدة أحاديث ، فيها التصريح منه ﷺ بأنه خرج من نكاح لا من سفاح - كما تقدم في قوله ﷺ :

« خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح ، من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي ، فأنا خيركم نفساً ، وخيركم أباً » ﷺ تسليما كثيراً أبداً .

قال الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى : وقد وجدت لقول الإمام الرازي أدلّة قويّة ما بين **عام وخاص** :

فالعام مركب من مقدمتين :

إحداهما : أنّه قد ثبت في الأحاديث الصحيحة أنّ كل جد من أجداده ﷺ هو خير أهل قرنه ، كحديث البخاري قوله ﷺ : « بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً ، حتى بُعثت من القرن الذي كنت فيه » ، وقد جاءت أحاديث كثيرة في هذا المعنى ، وفي طهارة أصله ﷺ .

الثانية : أنّه قد ثبت أنّ الأرض لم تَخْلُ من سبعة من المسلمين فصاعداً ، يدفع الله تعالى بهم عن أهل الأرض ، فروى عبد الرزاق في [مصنفه] وابن المنذر في [التفسير] بسند صحيح على شرط الشيخين عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قال :

(لم يزل على وجه الأرض سبعة مسلمون فصاعداً ، فلولا ذلك هلكت الأرض ومن عليها) .

قلت : وأحاديث الأبدال ثابتة عند أهل التحقيق .

وروى الإمام أحمد في [الزهد] ، والخلّال في [كرامات الأولياء] بسند صحيح على شرطهما عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : (ما خلت الأرض من بعد نوح من سبعة يدفع الله تعالى بهم عن أهل الأرض

قال الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى : فإذا قرنت بين هاتين المقدمتين ، أنتج ما قاله الإمام فخر الدين الرازي ، بأنّه كل جد من أجداده ﷺ من جملة السبعة المذكورين في زمانه ، فهو المدّعى ـ المطلوب ـ .

وإنْ كان غيرهم لزم أحد أمرين :

إما أن يكون غيرهم خيراً منهم وهو باطل لمخالفته الحديث الصحيح : « بعثت من خير قرون بني آدم » الحديث .

وإما أن يكونوا خيراً منه وهم على الشرك ، وهو باطل بالإجماع ، وفي التنزيل : ﴿ ولعَبْدٌ مؤمِنٌ خَيْرٌ من مشرك . . ﴾ الآية .

فثبت أنّ أجداده صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم هم على التوحيد ، ليكونوا خير أهل الأرض ـ كل في زمانه ـ .

قال : وأما الخاص : فروى ابن سعد في [الطبقات] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (ما بين نوح إلى آدم من الآباء كانوا على الإسلام) .

وروى ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

(كان بين آدم ونوح عشرة قرون ، كلهم على شريعة نوح ، إلى أنْ ملكهم نمرود فدعاهم إلى عبادة الأوثان ففعلوا) .

قال : فعرف من ذلك أنّ أجداد النبي ﷺ كانوا مؤمنين بيقين ، من آدم إلى زمن نمرود ، وفي زمنه كان إبراهيم الخليل ﷺ[1] ثم قال : وقد صحت الأحاديث في البخاري وغيره وتضافرت نصوص العلماء بأن العرب من عهد

---

(١) قلت : وقد بيّنت لك الأدلة أن آزر ليس والد إبراهيم ، بل هو أبوه ـ أي : عمّه ـ أنظر ص١٤٧ ـ وأن والديه مؤمنان ؛ بدليل قوله تعالى : ﴿ رَبَّنا اغْفِر لي ولِوالِدي وللمؤمنين ﴾ الآية .

إبراهيم ﷺ هم على دينه ولم يكفر أحد منهم إلى عهد عمرو بن عامر الخزاعيّ ـ وهو الذي يقال له عمرو بن لحيّ ـ فهو أول من عبد الأصنام وغيّر دين إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وحمل العرب على ذلك وكان قريباً من زمن كنانة جد النبي ﷺ .

ثم ذكر الإمام السيوطي رضي الله عنه ما يشهد لإيمان عدنان ، ومَعدّ ، وربيعة ، ومضر ، وخزيمة ، وأسد ، وإلياس ، وكعب بن لؤي ـ وهكذا إلى أبيه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم .

وبهذا تعلم طهارة العمود النسبي من آدم عليه السلام إلى أبيه عبد الله ﷺ ـ فكلهم أطهار من الشرك .

وقد تقدم ـ ص١٤٧ ـ أنّ آزر هو عم سيدنا إبراهيم الخليل ـ على التحقيق ـ وأما والداه فهما مؤمنان بنص : ﴿ ربنا اغفِرْ لي ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ ، كما تقدم ـ ص١٤٦ ـ في قوله تعالى : ﴿ وإذْ قال إبراهيم لأبيه آزر . . ﴾ الآية .

هذا وقد ذكرتُ لك أيها القارىء الكريم ، صاحب القلب السليم ، أشهر الطرق التي سلكها كثير من الأئمة المحدثين ، وكبار من العلماء المحققين ، في نجاة الأبوين الشريفين ، وهناك طرق أخرى في نجاة الأبوين الشريفين ، هي مذكورة في رسائل متعددة ، للحافظ السيوطي ، ومذكورة أيضاً في شروح الحديث ، وفي كتب السِيَر ، كالمواهب وشرحها وغير ذلك . . .

والمحصل من البحث المتقدم : أن القول بنجاة الأبوين الكريمين هو المعتمد عند كثير من العلماء والفقهاء ، وأهل السنة من أئمة الحديث ، وهو الحق .

قال الإمام القسطلاني رحمه الله تعالى ـ بعدما نقل الكلام على نجاة الأبوين الشريفين ـ قال في [المواهب] : والحذر كلّ الحذر من ذكرهما بما فيه نقص ، فإنّ ذلك يؤذي النبي ﷺ ، لأن العرف جارٍ بأنّه إذا ذكر أبو الشخص بما ينقصه ، أو وُصف بوصف ـ وذلك الوصف فيه نقص ـ تأذّى ولده بذكر ذلك له عند المخاطبة .

وقد قال ﷺ : « لا تؤذوا الأحياء بسبِّ الأموات » رواه الطبراني في [معجمه الصغير] .

قال الحافظ الزرقاني رحمه الله تعالى : وقد روى الإمام أحمد والترمذي عن المغيرة بن شعبة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تسبُّوا الأموات فتؤذوا الأحياء » .

وقال الزرقاني : وقد روى ابن مندَهْ وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاءت سبيعة بنت أبي لهب إلى النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله إن الناس يقولون : أنتِ بنت حطب النار .

فقام رسول الله ﷺ وهو مغضب فقال : « ما بال أقوام يؤذونني في قرابتي ، ومن آذاني فقد آذى الله تعالى » .

ثم قال الحافظ الزرقاني رحمه الله تعالى : وقد بَيَنَّا لك أيها المالكي حكم الأبوين .

فإذا سئلت عنهما فقل : هما ناجيان في الجنة ـ إمّا لأنّهما أحياهما الله تعالى حتى آمنا به ، كما جزم به الحافظ السهيلي ، والقرطبي ، وناصر الدين بن المنير ـ وإن كان الحديث ضعيفاً ـ ووافقه جماعة من الحفاظ ـ لأن الحديث الضعيف جاء في منقبة ـ أي : فضيلة ـ والحديث الضعيف يعمل به في الفضائل والمناقب عند المحدثين .

قال : وإما لأنّهما ماتا في الفترة قبل البعثة ، ولا تعذيب قبلها ، كما جزم به العلامة الأُبّي المالكي ـ شارح مسلم ـ

قال : وإما لأنهما على الحنيفية والتوحيد ، ولم يتقدم لهما شرك ، كما قطع به الإمام السنوسي والتلمساني المتأخر .

قلت : وذلك لأنه لم يثبت دليل على أنّهما كانا مشركين .

قال الحافظ الزرقاني رحمه الله تعالى : فهذا ما وقفنا عليه من نصوص علمائنا ـ أي : المالكية ـ ولم نر لغيرهم ما يخالف قولهم ، إلا ما يشم من نفس ابن دجنة وقد تكفل بردّه القرطبي ـ . اهـ

قال عبد الله : وهكذا يقال لكلٍ من الشافعية والحنفية والحنابلة : إذا سئلت عن الأبوين الكريمين فقل : هما ناجيان في الجنة ، بناء على الوجوه الثلاثة التي ذكرها الحافظ الزرقاني رحمه الله تعالى ، فقد أطبقت الأئمة ،والأشاعرة من أهل الأصول ، والشافعية من الفقهاء ،على أنّ مَنْ مات ولم تبلغه الدعوة يموت ناجياً ويدخل الجنة .

قال الحافظ السيوطي :وهذا مذهب لا خلاف فيه بين الشافعية في الفقه ، والأشاعرة في الأصول ، ونص على ذلك الشافعي في [الأم] و[المختصر] وتبعه سائر الأصحاب من غير خلاف ، واستدلوا على ذلك بعدة آيات منها قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتّى نَبْعَثَ رَسولاً ﴾ . . إلى آخر ما ذكره الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى . اهـ

كما أنّ الحنفية متفقون على أنّ من مات من أهل الفترة على التوحيد فهو ناج ، مثل : قس بن ساعدة ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وغيرهما ـ وإنما الخلاف فيمن مات منهم مشركاً .

ولعل لهذا البحث عودة مع زيادة من الإيضاح ، في دفع أوهام من قد

يتوهم ، وشبهات من قد يشتبه : فيما يمر عليه في بعض كتب السير ونحوها .

ولقد ختم الحافظ الزرقاني رحمه الله تعالى ومن قبله هذا البحث بقوله :

سئل القاضي أبو بكر بن العربي ـ أحد أئمة المالكية ـ عن رجل قال : إن أبا النبي ﷺ في النار .

فأجاب : بأنه ملعون ، لقول الله تعالى : ﴿ إن الذين يؤذون الله ورسوله لَعَنهم الله في الدنيا والآخرة وأعَدّ لهم عذاباً مهيناً ﴾ .

قال : ولا أذىً أعظم من أن يقال : أبوه في النار . اهـ

ثم ذكر الحافظ الزرقاني قصةً رواها ابن عساكر بسنده ، وأبو نعيم ، والهروي في [ذم الكلام] وفيها : أنّ عمر بن عبد العزيز سمع رجلاً من كُتّاب دواوينه يقول : كان أبو النبي ﷺ مشركاً .

فقال عمر بن عبد العزيز : آه ، ثم سكت ، ثم رفع رأسه ثم قال : أأقطع لسانه ؟ أأقطع يده ورجله ؟ أأضرب عنقه ؟!!!

ثم قال عمر بن عبد العزيز للرجل القائل ذلك : لا تَلِ لي شيئاً ـ أي : لا تتولّ لي أمراً من الأمور ـ

وفي رواية : أعرض عنه وقال لوزيره : لا يلي لي شيئاً ما بقيتُ ، وعزله عن الدواوين كلّها ـ أي : جميع الوظائف . اهـ ملخصاً .

وقد جاء في أبيات للسيدة آمنة رضي الله عنها قُبيل وفاتها :

كما روى ذلك أبو نعيم في [الدلائل] من طريق ابن شهاب الزهري عن أسماء بنت رُهم عن أمها أنّ آمنة قالت مخاطبةً لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهي في علتها التي ماتت فيها :

بـارك فيـكَ الله من غــلام يا بن الذي مِنْ حَوْمة الحِمام
نجـا بعـون المـلِك العـلَّام فُودي غَداة الضرب بـالسهام
بمائةٍ من إبلٍ سوام[1]
إنْ صح ما أبصرتُ في المنام[2] فـأنتَ مبعـوث إلى الأنـام
تُبعث في الحِلّ وفي الحـرام تُبعث في التحقيق والإسـلام
دين أبيـك الـبَرِّ إبـراهـام تبعث بـالتخفيـف والإسـلام
فـالله أنهاكَ عـن الأصنـام أَنْ لا تـواليهـا مـع الأقـوام

ثم قالت : كلُّ حيّ ميت ، وكل جديد بالٍ ، وكل كبير يفنى ، وأنا ميتة ، وقد تركتُ خيراً ،وولدتُ طُهراً ـ ثم ماتت .

وللحافظ السيوطي ـ رحمه الله تعالى ـ رسائل متعددة في نجاة الأبوين الشريفين ـ فارجع إليها فإنّ فيها الأدلة الكافية والوافية . .

ومن المقام الخاص به ﷺ وهو مقام : ﴿ فإنك بأعيننا ﴾ من هذا المقام ما ذكر الله تعالى في سورة : ﴿ والضحى ﴾ من عناية الله تعالى الخاصة به ﷺ منذ صغره ،قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجِدكَ يتيماً فآوى . ووجدك ضَالاً فَهدى . ووَجَدك عَائِلاً فأغنى . فَأمّا اليَتِيمَ فَلا تَقْهَر . وأمّا السَّائِل فلا تَنْهر . وأمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّك فَحَدِّث ﴾ .

فهو ﷺ على مرأى من الله تعالى في جميع أطواره ،فلقد آواه الله تعالى ، ورباه بعنايته ،وأغناه بعد العيلة .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضالاً فهدى ﴾ فاعلم أنّ الله تعالى قال في

---

(١) فودي أبوه من الذبح ـ والقصة معلومة ـ .

(٢) قولها : إن صح ما أبصرت : أي : النور الذي رأته خرج منها في المنام ثم في اليقظة حين الولادة الشريفة كما صح ذلك .

سورة النجم : ﴿ والنَّجْمِ إذا هَوى ما ضَلَّ صَاحِبُكم وَمَا غَوى ﴾

فهذا كله كلام الله تعالى ، وما كان من عند الله فلا اختلاف فيه ولا تناقض أبداً ، قال تعالى : ﴿ ولو كان مِنْ عِنْدِ غَيْرِ الله لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كثيراً ﴾

ولكن يجب أن تتدبر معاني الآيات ، وتنزِّل المعاني منازلها ـ فقوله تعالى : ﴿ ما ضَلّ صاحبكم وما غوى ﴾ ـ فلقد نفى سبحانه عن حبيبه الأكرم ﷺ الضلالة التي هي ضد الهُدى ،وهي الضلالة عن الحق والخير والصلاح ، ونفى عنه الغِواية التي هي ضد الرشاد ؛ والغواية : هي العمل بخلاف الحق مع العلم بالحق ، فنزّه الله تعالى رسوله الكريم ﷺ عن صفتي الضلالة والغواية ـ نصّاً مؤكّداً بالقسم ، ومقرراً لأعدائه ﷺ من قومه ، الذين تربّى بينهم ، ونشأ فيهم ، بأنهم يعلمون ذلك ، ولذلك قال لهم : ﴿ ما ضَلَّ صاحِبُكم وَمَا غوى ﴾ ـ أي : فهذا صاحبكم الذي عرفتموه بصدقه وأمانته ، وهديه ورشاده ؛ منذ صغره ، إلى شبابه ، إلى بلوغه مقام النبوة ، هو معلوم عندكم ، بل أنتم أعلم الناس به كما قال تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُم فَهُم لَهُ منكرون . . . ﴾ ، فإنهم ما عثروا له على ضلالة ولا غواية ، وذلك النفي وهو قوله تعالى : ﴿ ما ضَلَّ صَاحِبُكُم وَمَا غوى ﴾ فيه شهادة من الله تعالى لحبيبه الأكرم ﷺ ، بأنّه على الهدى والرشاد منذ صغره .

والهدى هو العلم بالحق ، يقال : فلان يمشي في الطريق على هدى ـ أي : على علم بالطريق الموصل للمقصود .

والرشاد هو العمل بالحق ، فنشأ صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم هادياً مهدياً بهدي الله تعالى له ، وراشداً بإرشاد الله تعالى إيّاه .

وفي هذه الآية الكريمة : ﴿ ما ضَلَّ صاحبكم وما غوى ﴾ بيان منّة

الله تعالى على حبيبه الأكرم ﷺ ، بما هداه الله تعالى من الحق ، وأرشده إليه من العمل الجامع لكل خير قبل النبوَّة ، ثُمَّ بعد ذلك هَدَاهُ هدي النبوة والرسالة .

كما أنه امتنّ سبحانه على خليله إبراهيم ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ فقال تعالى : ﴿ ولَقد آتَيْنَا إبْراهِيمَ رُشْده مِنْ قَبْلُ وكُنَّا بِهِ عالمين ﴾ ـ أي : آتاه الله تعالى الرشد من قبل النبوة ، فأرشده لما هو الحق ، وما فيه الخير الجامع ، ثم أنزل عليه هديَ النبوة والرسالة .

وكما أنه امتنّ سبحانه على جميع المؤمنين ـ أهل الإيمان الكامل ـ بالرشاد ، فقال سبحانه : ﴿ ولكنَّ الله حَبَّبَ إلَيْكُمُ الإيمانَ وَزَيَّنَهُ في قلوبكم وكَرَّهَ إلَيْكم الكُفْر والفُسوقَ والعِصْيان أولئك هُمُ الراشِدُونَ فَضْلاً مِنَ الله ونِعْمة . . ﴾ الآية .

فالرشاد كلمة جامعة لكل خير في الأولى والآخرة ، ولذا جاء في القرآن الكريم : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إليّ أنّه استَمع نَفَرٌ مِنَ الجِن فقالوا : إنّا سَمِعْنا قُرآناً عَجَباً يَهْدي إلى الرُشْد فَآمنّا بِه . . ﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿ وقَال الذي آمَنَ يا قَومِ اتَّبعون أَهْدِكُم سَبِيل الرَّشَاد . . ﴾ .

فالله تعالى أعلن شهادته لجميع العالمين أنّ حبيبه الأكرم ﷺ ، هو من قبل النبوة ما ضلّ وما غوى ـ أي : بل هو على الهدى والرشاد ، وهذان وصفان جامعان للعلم النافع ، والعمل الصالح ؛ كما قال ﷺ : « . . فعليكم بسنّتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديّين من بعدي ، وإيَّاكم ومحدثات الأمور ، فإنّ كل بدعة ضلالة . . » الحديث .

فقوله تعالى : ﴿ ما ضَل صَاحِبُكم وما غَوى ﴾ دليل قاطع بأنّه ﷺ نَشَأ

منذ صغره مَهْدِيّاً بهدي الله تعالى ، وراشداً بإيتاء الله تعالى له رشده ؛ كما آتى الله تعالى إبراهيم رشده . . .

فلم يَعرض لحبيب الله تعالى الأكرم صلى الله تعالى عليه وآله وسلم منذ صغره زيغ ولا شك ، ولا تردد في توحيده ومعرفته بربه ، وإفراده سبحانه بالعبادة ؛ ولم تمرَّ عليه حالة اضطراب ، أو قلق نفساني أو قلبي ، بل هو على هدىً ورشاد في عقيدته ، وعلمه بالحق ، ومعرفته بربه ، وعبادته لله تعالى ، كما ألهمه الله تعالى .

فقد كان يعبد الله تعالى قبل النبوة كما في [الصحيحين] أنّه كان يخلو بغار حراء ، ويتحنّث فيه ـ أي : يتعبّد ـ الليالي ذوات العدد . . الحديث .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فهدى ﴾ فأقول ـ وبالله التوفيق ـ :

أولاً : لما نَفى سبحانه الضلال عن رسول الله ﷺ في قوله تعالى : ﴿ ماضَلّ صَاحِبكم وما غوى ﴾ كان النفي للضلال عامّاً ؛ كما هو معلوم في اللغة . . ، وفي نفيه للضلال ـ إثبات للهدى العام لكل خير وفلاح ، فلما قال سبحانه : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ ، أراد بقوله : ﴿ ووجدك ضالاً ﴾ معنىً خاصاً وأراد بقوله تعالى : ﴿ فهدى ﴾ هدياً خاصاً ، وهذا أمر لا يختلف فيه إثنان .

ثانياً : إذاً ما المراد بـ ﴿ ضالاً ﴾ هنا ، وما المراد بالهدى ؟

نعم : إنّ المراد من ذلك يتّضح لك من عدّة وجوه :

الوجه الأول : النظر في سباق هذه الآية الكريمة ولحاقها .

قال تعالى : ﴿ أَلَم يجدك يَتيماً فأوى . وَوَجدكَ ضَالاً فَهدىٰ وَوَجَدك عَائِلاً فأغْنَى . فأمّا اليَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ وأَمّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَر وأَمّا بِنعمَةِ رَبِّك فحدّث ﴾ فإنّ القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين ، فلا بد من فهمه من الوقوف على

قواعد اللغة العربية ،من حيث : علم النحو ، والصرف ، ومن حيث علوم البلاغة ، وهذا من أهمّ العلوم في الفهم . . .

فجاءت تلك الآيات الكريمة على قاعدة : ـ اللف والنشر ـ كما هو معلوم ـ ومِنْ ثَمّ وجب أَنْ تُقَابَلَ كل جملة من الجمل السابقة تُقابل بجملة من الجمل اللاحقة . . .

فقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يجِدْكَ يَتيماً فَآوى ﴾ يقابله جملة : قوله تعالى : ﴿ فأمّا اليَتِيمَ فَلا تَقْهَر ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَوَجَدك عَائلاً فَأغنى ﴾ يقابله جملة : ﴿ وأمّا السَّائِلَ فَلا تَنْهر ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدى ﴾ مُقابل بقوله تعالى : ﴿ وأما بِنِعْمَةِ ربِّك فَحدّث ﴾ .

إذاً ما هي تلك النعمة الكبرى التي أُمر ﷺ أن يحدّث بها ؟

نعم : هي هديه للنّبوة والرسالة ، وما احتوى ذلك عليه من العلم بالكتاب والحكمة ،وهي المعْنِيّة في قوله تعالى : ﴿ ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ ربك بمجنون ﴾ ، فإن نعمة النبوة هي أعظم النعم وأفضلها ،قال تعالى : ﴿ فأولئك مَعَ الذينَ أَنْعم الله عَلَيْهم من النبيين ﴾ الآية ، وقال تعالى في عيسى عليه السلام : ﴿ إنْ هُوَ الاَّ عَبْد أنعمنا عليه ﴾ أي : بالنبوة ﴿ وَجَعْلَناهُ مَثلاً لِبني إسرائيل ﴾ .

وقد امْتَنّ الله تعالى على حبيبه الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم فقال : ﴿ ما أَنْتَ بنعمة ربّك بمجنون ﴾ ، أي : بل أنت أكمل خلق الله تعالى عقلاً ،وأذكاهم فهماً ، وأوسعهم قلباً ، وبذلك صِرتَ أهلاً لنزول هذا القرآن العظيم ،وختم النبوة ، ونزول الحكمة العالية ، ولذلك كان ﷺ

يتحدّث بنعمة الله تعالى بالنبّوة وختمها به ، والرسالة العامّة ، ونزول القرآن الكريم عليه فيقول : « أنا خاتم النبيين ولا نبيَّ بعدي » .

ويقول : « كان كل رسول يُبعث إلى قومه خاصّة وبعثت إلى الأحمر والأسود » .

وفي رواية : « وبعثت إلى الناس كافة » .

فالنعمة في قوله تعالى : ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ هي المعنية في قوله : ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ .

الوجه الثاني : هو أنَّ القرآن الكريم يُفسِّر بعض آياته بعضاً ، فهذه الآية : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ ، يفسرّها قوله تعالى : ﴿ آلر . تِلْكَ آياتُ الكتابِ المبين نَحْنُ نَقُصّ عَلَيْكَ أَحْسن القَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إلَيك هذا القُرآنَ وإنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِن الغَافِلين ﴾ فإن الغفلة هنا ليست الغفلة المطلقة المذمومة بسبب تقصير أو نحوه ،وليست غفلة ضلالة ولا غواية ، وإنّما هي عدم علمه ودرايته بكتاب الله تعالى وعلومه ، وما احتوى عليه ، ويوضح ذلك قوله تعالى : ﴿ وكذلِكَ أَوْحَينَا إِلَيْك رُوحاً مِنْ أَمْرِنا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ ولا الإيمان . . ﴾ الآية ـ أي : ما كان عندك علم بالكتاب تلاوةً ، ولا بياناً لمعانيه ، حتى أقرأناك إيّاه ، وعلّمناك إيّاه ،وبيّنّا لك معانيه ،فهذا معنى : ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ﴾ .

وأما قوله تعالى : ﴿ ولا الإيمان ﴾ فمعناه : ما كنت تدري تفاصيل الإيمان العملي ، المشتمل على الفروض والواجبات والقربات ، كالصلوات الخمس ، والصيام ، والحج ، وسائر الفروض والواجبات والقربات ، فإنّها كلها إيمانٌ عملي ، كما قال تعالى في الصلاة : ﴿ وما كان الله لِيُضِيع إيمانكم ﴾ أيْ : صلاتكم ، فإن الآية نَزَلَتْ في شأن الصلاة ،وتشمل بقية

ـ أي : ما كان لك علم بتفاصيل ذلك ، حتى علّمناك يا رسول الله ﷺ ، وهذا قوله تعالى : ﴿ وأَنْزَلَ الله عَلَيْك الكِتَابَ والحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكَنْ تَعْلَمْ وَكان فَضْلُ الله عَلَيْك عَظِيماً . . . ﴾ .

فهذا الهدى في قوله تعالى : ﴿ وَوَجدك ضالاً فهدى ﴾ هو هدي النبوة والرسالة ، بإنزال القرآن الكريم ، والحكمة النبوية ، وما يحتوي عليه ذلك من علوم إلهية ، ومعارف ربانية ، وأسرار وأنوار ، وفيوضات وفتوحات ؛ مما لا يعلم حدّه إلا الله تعالى الذي أعطاه .

الوجه الثالث : هذا الهدي المعنيُّ في قوله تعالى : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ هو : هدي النبوة والرسالة ، وذلك أنّ الله تعالى هدى جميع الأنبياء هدياً نبوياً ، كلٌّ واحد منهم على حسب مرتبته ومقام نبوّته ، قال الله تعالى في أبي البشر آدم ـ عليه السلام ـ : ﴿ ثمَّ اجتباه ربّه فتاب عليه وهدى ﴾ أتظن أنّ آدم كان قبل ذلك حين أسكنه جنته ـ أكان لا يعرف ربه ، وليس مؤمناً بربه ؟ كـلا بل كان قبل الأكل من الشجرة مؤمناً كاملاً ، وعارفاً كبيراً ، فالمراد بقوله تعالى : ﴿ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ أي : هداه هدي النبوة ، واجتباه للنبوة ، بعد أن لم يكن نبياً ، كما أخبر سبحانه عن جميع الأنبياء بهذا الهدى والاجتباء قال تعالى : ﴿ وتلك حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إبراهيم على قومِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاء إنّ رَبَّك حَكِيمٌ عَلِيمٌ . وَوَهَبْنَا لَهُ إسْحـق وَيَعْقُوبَ كُلاً هَدَيْنَا ونوحاً هدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذرّيته دَاوُد وسُلَيْمان وأَيُّوبَ ويوسُفَ ومُوسى وهَارُون وكَذلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ وزكريا ويَحْيى وعيسى وإلْيَاس كُلٌ مِنَ الصالحين وإسماعيل والْيَسَعَ وَيُونُسَ ولُوطاً وَكُلا فَضَّلْنَا عَلى العالمين . ومِنْ آبائِهم وَذُرِيَّاتِهِمْ وإخْوَانِهم وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إلى صراط

مستقيم . ذلك هُدى الله يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهَم مَا كَانُوا يَعْمَلُون أُولئك الذِينَ آتَيْناهُمُ الكتابَ والحُكْمَ والنبُوَّةَ فإنْ يكفر بها هؤلاء فَقَد وَكَّلْنَا بها قَوْماً لَيْسُوا بِها بكافِرين أُولئك الذَينَ هَدى الله فبهداهُمُ اقْتَدهْ ﴾ ـ أشار بقوله تعالى : ﴿ أولئك ﴾ ـ إلى الأنبياء الذين تقدم ذكرهم ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فبهداهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ .

فلقد هدى الله كل نبي هدياً نبوياً خاصاً به حسب مقامه ، وأما سيدنا محمد ﷺ إمام الأنبياء والمرسلين ، فقد جمع الله تعالى له هديَ جميع الأنبياء قبله ؛ إلى هديه المحمدي ، اللائق بمقامه الذي أقامه الله تعالى ، وهو أنّه خاتم النبيين والمرسلين ، ولذلك قال تعالى : ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ ، ولم يقل : فبهم اقتده ، فإنّ الله تعالى أمره أن يقتدي بهديهم ، ومعلوم أنّ هُداهم من الله تعالى ليس منهم ، ولَمْ يقل : فبهدى بعضهم اقتده بل قال : ﴿ فَبِهُداهم ﴾ ـ أي : هداهم كلهم الذي هداهم الله به ، فقد جمع الله تعالى هدى جميعهم إلى هديه المحمدي ـ كما قلنا ـ ، ولذلك أمر الله الأنبياء كلَّهم أن يتبعوه ، قال تعالى : ﴿ وإذْ أَخَذَ الله ميثاق النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكمْ مِنْ كِتابٍ وحِكْمَةٍثُمَّ جَاءَكُم رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكم لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ولَتَنْصُرنّه . . ﴾ الآية .

وذلك لأنّ هديهم هو موجود عنده ، وزاد عليهم هدياً محمدياً جامعاً ، لائقاً بمنصبه ﷺ فما عندهم من الهدى فهو عنده صلى الله عليه وآله وسلم ، وخصَّه الله تعالى بالهدى المحمدي الأكمل ، والأجمع ، والأرفع ، وأما الأنبياء فليس عندهم جميع ما عنده .

وليس على الله بمستبعد أنْ يجمع الكُلّ في أحمد
صلى الله عليه وسلم

فهو إمام الكل حقاً وحقيقةً ، ولذلك قال صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم : « لو كان موسى حيَّاً لَمَا وسعه إلا أنْ يتّبعني » .

وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿ إنّما أنْتَ مُنْذِرٌ ولكلِّ قومٍ هاد ﴾ ـ والمعنى : أنت هادٍ لكل قوم ، فإنّ هديك يا رسول الله مُتَّسِعٌ خيره وبرّه ؛ وفلاحه ونجاحه ؛ لجميع عباد الله تعالى من الأولين والآخرين .

قال سيدنا علي رضي الله عنه : (ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله تعالى محمداً وهو حيّ ليؤمننّ به ولينصُرنّه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بُعث محمد ﷺ وهم أحياء ليؤمنن به ولينصُرنّه) .

وقد ورد ذلك أيضاً عن حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

وقد أكد الله تعالى ذلك العهد عليهم ، ووثقه فقال :

﴿ قال : أَأَقْرَرْتُم وأَخَذْتُم على ذلكم إصْري ؟ قالوا : أقررنا قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ ـ فانظر في قوة هذا العهد والميثاق .

ولنرجع إلى أصل البحث وهو أنّ الرسل صلوات الله على نبينا وعليهم تولّاهم الله تعالى بعنايته الخاصة ، منذ صغرهم إلى ما وراء ذلك ، ولم تزل إمدادات الحق ـ جلَّ وعلا ـ تمدّهم بالخير والهدى والسداد والرشاد ، ولم يزالوا من صغرهم يُعدُّهم الله تعالى ، ويرقّيهم في درجات الكمال ، ويؤهّلهم لمنصب النبوة والرسالة ـ فضلاً منه ومِنَّةً ـ بعد أنْ هيّأهم لذلك وأعدّهم . .

ولذلك لما تطاول أعداء الرسل إلى مقام الرسل قالوا كما في الآية : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤمِنَ حَتّى نُؤتى مِثْل مَا أُوتي رُسُل الله ﴾ ، ردّ الله تعالى عليهم بقوله : ﴿ الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ والمعنى : أنّ رسالة الله تعالى

شأنُها كبير ، ومقامها عظيم ، فلا يليق أنْ تكون إلا في موقعها ، وموضعها الذي هيّأه الله تعالى لها . .

ولذلك قال تعالى ـ في سيدنا محمد ﷺ لما أعطاه ختم النبوة ، قال : ﴿ ما كان مُحَمّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ولكِنْ رَسُولَ الله وَخَاتَم النَّبِيينَ وَكان الله بكل شيء عليماً . . . ﴾ .

فالله تعالى عليم بعلمه الأزلي ، بالموقع اللائق به ختم النبوّة ، ألا وهو حبيب الله تعالى الأكرم ، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ـ لا غيره .

بل إنّ جميع المراتب الإلهية التي منحها الله تعالى عباده المكرمين ، لا بد وأن تلقى مواقعها المتأهّلة لها ، قال تعالى في أصحاب رسول الله ﷺ ومن سار على طريقهم قال تعالى : ﴿ وَأَلْزَمَهم كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ الله بِكُلِّ شيء عَليماً ﴾ الآية .

فلا بدّ للمقام الكريم من الأهلية والاستعداد قال تعالى : ـ مخبراً عن أهل الإيمان الكامل ـ : ﴿ أولئك هُمُ الراشدون فَضْلاً مِنَ الله ونِعْمة والله عليم حكيم . . ﴾ ـ أي : عليم بمن هو أهل لذلك ، حكيم : يضع الأشياء في مواضعها .

ويرحم الله القائل :

لك القرب من مولاك يا أشرف الورى | وأنت لكل المرسلين ختام

وأنت لنا يوم القيامة شافع | وأنت لكل الأنبياء إمام

عليك من الله الكريم تحيَّة | مباركة مقبولة وسلام

الوجه الرابع : هو أنّ الله تعالى لم يجعل للشيطان عليه سبيلاً ، ولا هدفاً يرمي إليه بوسوسة ؛ أوشك ؛ أو شُبهة . .

وأعلمه سبحانه بما سيكرمه به ، وينعم به عليه : من النبوة والرسالة :

والدليل على ذلك ما رواه البزار والدارمي وابن أبي الدنيا والضِياء في [المختارة] عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله كيف علمت أنك نبيّ ؟ وبم علمت أنك نبيّ حتى استيقنتَ ؟

قال ﷺ : « أتاني آتيان ـ وفي رواية : مَلَكان ـ وفي رواية غير هؤلاء : هما جبريل وميكائيل ـ وأنا ببطحاء مكة ، فوقع أحدهما بالأرض وكان الآخر بين السماء والأرض ، فقال أحدهما لصاحبه : أَهُوَ هُو ؟ قال : هو هو .

قال : زِنْهُ بعشرة ـ فوزنني بعشرة فرجحتهم ، ثم قال : زنه بألف ـ فوزنني فرجحتهم .

فقال أحدهما لصاحبه : شُقّ بطنه ـ فشق بطني ، فأخرج قلبي ، فأخرج منه مغمز الشيطان ، وعلق الدم فطرحهما .

فقال أحدهما لصاحبه : اغسل بطنه غَسْل الإناء ، واغسل قلبه غَسْل الـمُلآءَة ـ بالضم والمد : الثوب الذي يُتغطى به ـ » الحديث كما في [السيرة الشامية] وغيرها .

وروى الإمام أحمد ومسلم عن أنس أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه ، فشقَّ عن قلبه ، فاستخرج القلب ثم شق القلب فاستخرج منه علقةً ، فقال : هذا حظّ الشيطان منك ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لَأَمَهُ وأعاده مكانه » . الحديث .

وروى الإمام أحمد ، والدارمي ، والحاكم وصححه ، والطبراني ، والبيهقي ، وأبو نعيم عن عتبة بن عبد ، أنّ النبي ﷺ قال : « كانت حاضنتي من بني سعد بن بكر ، فانطلقت أنا وابنٌ لها في بَهْمٍ لنا ـ أي :

شِياه ـ ولم نأخذ معنا زاداً .

فقلت : يا أخي اذهب فأتنا بزاد من عند أمّنا ، فانطلق أخي ومكثت عند البَهم ـ أي : الشياه ـ فأقبل إليّ طَيْران كأنّهما نسران ـ أي : وهما ملكان : جبريل وميكائيل ـ فقال أحدهما لصاحبه : أَهُوَ هُو ؟ قال : نعم .

فأقبلا يبتدراني ، فأخذاني ، فبطحاني للقفا ، فشقا بطني ، ثم استخرجا قلبي فشقاه ،فأخرجا منه علقتين سوداوين .

فقال أحدهما لصاحبه : ائتني بماء ثلج ـ فغسلا به جوفي .

ثم قال : ائتني بماء بَرَد ـ فغسلا به قلبي .

ثم قال : ائتني بالسَكِينَة ـ فذرَّاها في قلبي .

ثم قال أحدهما لصاحبه : حُصْه فحاصه ـ أي : خِطه فخاطه ـ وختم عليه بخاتم النبوة » صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم .

وفي هذا وغيره : دليل على عناية الله تعالى بحبيبه الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، وحفظه إيَّاه من شياطين الإنس والجن ، فنشأ صلى الله عليه وآله وسلم على توحيد الله تعالى ومعرفته ، وعبادته ، ومحبته ، وخشيته ، مقبلاً على الله تعالى بكليته ، ومعرضاً كلَّ الإعراض عمَّا فيه سخط الله تعالى ومعصيته ، لم يقع في ضلالة ولا غواية ،ولا شك ، ولا شرك ،ولا جهالة ، قال تعالى : ﴿ ما ضلَّ صَاحبكم وما غوى ﴾ ، وأنْتَ تعلم أيُّها العاقل أنّ الأصل في النفي هو أن يعمَّ ، فلما نفى سبحانه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الضلال والغواية ،وأشهد على ذلك قومه الذين نشأ بينهم ، دلَّ ذلك على أنّه صلى الله عليه وآله وسلم لم يقع في نوع من أنواع الضلال ، المنافي للهدى والسداد والحق ، ولم يقع في أيَّة غواية ، بل هو ﷺ على الهدى والرشاد في جميع أموره ﷺ ، بتولية الله تعالى إياه ،وإلْهامه رشده ﷺ ، وبهذا

النفي لأنواع الضلال يتبين لك المراد بقوله تعالى : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ هو معنى خاص ، وهو عدم علمه بأحكام النبوة ، وشرائع الرسالة ، فعلّمه ونبّأه ، وأرسله ﷺ .

وإذا كانت الرسل قبله صلى الله تعالى عليه وعليهم أجمعين وسلّم تسليماً كثيراً قَد تَولاّهم الله تعالى قبل النبوة بالحفظ من المخالفات ، وبالتوفيق لما فيه رضاه سبحانه ، فما ظنك بإمام الأنبياء والمرسلين ، وأكرم الأولين والآخرين على رب العالمين ، وسيد ولد آدم أجمعين ؛ صلى الله تعالى عليه وسلم تسليماً كثيراً .

كما يتضح لك في الوجه الخامس .

الوجه الخامس : لقد ذكر الله تعالى عنايته بالرسل صلوات الله تعالى عليهم منذ صغرهم ، ومدحهم ، وأثنى عليهم بصفات الكمال من قبل النبوة :

قال تعالى في الخليل ـ على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ : ﴿ وَلَقَد آتينا إبراهيم رُشده من قبل وكنّا به عالمين . . ﴾ فأعطاه الله تعالى رشده من قبل النبوة ، وأثنى عليه بذلك .

وقال تعالى في تعهده لموسى الكليم ، ومنّته عليه منذ صغره صلوات الله تعالى على نبينا وعليه : ﴿ ولَقَد مَنَنّا عليك مرّة أُخْرى إذْ أَوْحَيْنا إلى أمِّك ما يُوحى أنِ اقْذِفيه في التَّابُوت فاقْذِفيه في اليَمّ فلْيُلْقِهِ اليمّ بالسَّاحل يَأْخُذْهُ عَدوٌّ لي وَعَدُو لَهُ وأَلْقَيْت عَلَيك مَحَبَّة مني ولِتُصْنَعَ على عَيْني . . . ﴾ فكان صنعه بعناية من الله تعالى .

وقد قال تعالى لسيدنا محمد ﷺ : ﴿ واصْبِر لحكم ربّك فإنَّكَ بأعْيُنِنَا . . ﴾ ـ أي : إنك بأكوانك كلها ، حيثما كنت أنت بأعيننا .

فنشأ موسى عليه السلام ، وتربىّ بعناية الله تعالى ، لم ينله ضرر من فرعون ، لا في بدنه ، ولا في دينه الذي فطره الله تعالى عليه : من توحيد الله تعالى ، وعبادته ، في حين أنّه نشأ في بيت عدو الله تعالى وعدوّه ، كما قال تعالى : ﴿ يَأْخُذْهُ عدو لي وعَدُو لَهُ . . ﴾ الآية ، لأن العناية الإلهية محيطةٌ به .

وإذا العناية لاحظتك عيونها ۞ نَمْ فالمخاوف كلُّهُنَّ أمان

وإن عناية الله تعالى بحبيبه الأكرم ﷺ هي أكبر وأعظم ، حيث قال : ﴿ فإنّك بأعْيُنِنَا ﴾ .

وقال تعالى في يوسف عليه السلام لما أُلقي في الجب ، وهو صغير السن : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إليه لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بأمْرِهِمْ هذا وَهُم لا يَشْعرُون . . ﴾ ، فجاءه وحي الإلهام من الله تعالى يبشره بنجاته .

وقال تعالى في يحيى عليه السلام : ﴿ وآتَيْنَاهُ الحُكْم صَبيّاً وحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وزَكَاةً وكان تَقِيّاً . . ﴾ .

روى أبو نعيم وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ قال في قوله تعالى : ﴿ وآتَيْناهُ الحكم صبياً . . ﴾ قال : « أُعطي الفهم ؛ والعبادة ؛ وهو ابن سبع سنين » .

فالفهم الصحيح هو مفتاح العلم الصحيح ، والعلم الصحيح هو الذي يحمل صاحبه على العمل الصالح ، ومن هنا فَسّر بعضهم الحكم بأنّه الإصابة في العلم والعمل .

فقد آتى الله تعالى يحيى عليه السلام الحكم صبياً ، وآتاه حناناً من لدنه ـ أي : رحمة وشفقة على عباد الله تعالى ، وآتاه زكاة النفس من الدنس والآثام والذنوب ، وآتاه التقوى لله تعالى في السرّ والعلانية .

فإذا كان سيدنا يحيى عليه السلام قد تفضل الله تعالى عليه بذلك ، فما ظنك بسيدنا محمد ﷺ الذي هو إمام يحيى وجميع الأنبياء والمرسلين صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

وهكذا سيدنا عيسى عليه السلام تولّاه الله تعالى منذ صغره ، وعناه بعنايته ، كما أخبر الله تعالى عنه ـ وهكذا جميع الرسل فإنّ لهم العنايات من الله تعالى منذ صغرهم ، وقد قال ﷺ : « آدم فَمَنْ دونه تحت لوائي ولا فخر . . » ، فكمالات مقامه ﷺ لا تدرك وهوجامع لكمالات جميع مقامات الأنبياء والمرسلين ، وزاده الله تعالى فضلاً على فضل : ﴿ وكانَ فَضْلُ الله عَلَيْكَ عَظيماً ﴾ .

ولذلك أعطي مقام السياده العامة ، كما قال ﷺ : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة » كما رواه مسلم وغيره ـ وإنما ذكر يوم القيامة ، لأنّ جميع العالم يشهد مقام سيادته ﷺ ـ من الأولين والآخرين ، والنبيين والمرسلين ، صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

ولذلك قال ﷺ : « إذا كان يوم القيامة كنت أنا إمامَ النبيين ، وخطيبهم ، وصاحب شفاعتهم ولا فخر . . » .

وقد أعلن الله تعالى سيادته ﷺ في الملأ الأعلى والأدنى ،وأنزل ذلك في قلب القرآن الكريم قال تعالى : ﴿ يس . والقُرآن الحكيم إنّكَ لَمِنَ المُرْسَلِين ﴾ .

وقد قال ﷺ : « إنّ لكل شيءٍ قَلْباً وقَلْبُ القرآن يس ، ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات . . » الحديث رواه الترمذي والدارمي والبيهقي عن أنس رضي الله عنه .

وروى أصحاب السنن والإمام أحمد وغيرهم : عن معقل بن يسار ، أن

رسول الله ﷺ قال : « يس قَلبُ القرآن ، لا يقرؤها عبد يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له ما تقدم من ذنبه ، فاقرؤوها على موتاكم . . » الحديث .

فقال سبحانه في أول هذه السورة الكريمة ، مخاطباً لحبيبه الأكرم سيدنا محمد ﷺ ، بلقب السيادة العامة : ﴿ يس ﴾ أي : يا سيد الناس أجمعين ،على عادة العرب ـ يطلقون الحرف من الكلمة ويريدونها كاملة ، وهي لغة الأحباب ، ولغة أولى الألباب ، كما بينت ذلك في كتاب :[هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان] مع الأدلة والشواهد من لغة العرب ، **وحق لقلب الأكوان أن يذكر في قلب القرآن .**

﴿ يس والقُرآن الحكيم إنّك لَمِن المرسلين ﴾ خاطبه سبحانه بمنصب السيادة ،وأقسم بالقرآن الحكيم على حقية رسالته ﷺ ، مع التوكيد بإنّ واللاّم ، فقال: ﴿إنّك لَمِنَ المرسلين ﴾ ، فالله تعالى هو الله العظيم ، الكبير المتعال ، ومن أصدق من الله قيلاً ؟ يقسم بأفضل الكلام ، وهو القرآن العظيم ، المعجز الحكيم ، وهذه الصيغة على وزن : فعيل ـ تحتمل : الفاعل والمفعول .

فإنْ أريد المفعول كان المعنى : والقرآن المحكم ـ قال تعالى :﴿كتابٌ أُحْكِمَتْ آياته ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدنْ حَكيم خَبِير . . ﴾ ، فالقرآن محكم الآيات كالبنيان المحكم ،لا يمكن أنْ يطرأ عليه خلل ولا تناقض ، ولا نقص ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، وقد بلغ في إحكام آياته رتبة الإعجاز ، فلا يساوى ولا يُجارى ، مع أنّه شديد التحدي لجميع طبقات الإنس والجن .

والقرآن الحكيم يحتمل الفاعل ـ أي : المتضمن أعلى مراتب الحكمة ، قال تعالى :﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِنَ الأَنْبَاءِ ما فِيه مُزْدَجَر حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَما تُغْن

النُّذُر ﴾ ألا وهي حكمة الله تعالى التي تفرّد بها .

نعم جاء الوصف بالحكيم ليشمل الإحكام والحكمة ، وهذا من جملةالإعجاز ، وكمال الإيجاز ، وكمْ لهذا نظائر في مواضع من القرآن الكريم .

﴿ يس والقُرآنِ الحَكيم إنّك لمن المرسلين ﴾ :

هذا القسم وهو قوله تعالى : ﴿ والقُرآن الحكيم ﴾ وهذا المقسم وهو قوله تعالى :﴿إنّك لَمِنَ المرسَلِين ﴾ فيهما الأدلة القاطعة الدامغة ، والحجج الإلهية البالغة ، على مختلف الطبقات ، لجميع العباد إلى يوم المعاد ،تثبت لهم حقاً لا مراء فيه ولا جدل ، أنّ سيدنا محمداً هو رسول الله حقاً ﷺ ، فإنّ ما أقسم به الحق سبحانه هو شواهد وحجج ،تُشهد الخلق أن ما أقسم عليه سبحانه فهو صدق وحق ؛ وبيان ذلك :

﴿ والقرآن الحكيم ﴾ هذا القرآن المحكم ، والمتضمن للحكمة ، المعجز في نصوصه ، وفي معانيه ، وفي علومه التي جاء بها ، والمغيبات التي أخبر عنها ،ممَّا مَضى ومما هو آتٍ ، والمعجز في تلاوته وقراءته ؛ التي لا تعرف إلا بالتلقي عن النبي ﷺ ، عن رب العالمين ،إلى ما هنالك من وجوه الإعجاز ، فهذا القرآن الجامع لجميع ما هنالك ، مَنِ الذي أنزله ؟ وعلى مَنْ نَزَل ؟فإنّه لا يمكن أنْ يكون من كلام المخلوقات لأنّه أعجز الخلائق كلّها ، إذاً هو كلام الله تعالى الخالق ، والذي أُنزل عليه هو رسول الله حقاً ﷺ ، وقد شهد الله تعالى في هذا القرآن الحكيم أنّ محمداً رسول الله ﷺ ،أرسله إلى النّاس جميعاً ، وإلى الإنْس والجن :

قال تعالى : ﴿ مُحَمّدٌ رَسول الله ﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿ قُل يَا أَيّها النّاسُ إني رَسُولُ الله إليْكُم جَميعاً ﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿ وإذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً من الجِنِّ يَسْتَمِعُون القرآن ﴾ الآيات .

وقال تعالى : ﴿ قُل أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّه اسْتَمَعَ نَفَرٌ من الجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرآناً عَجَباً يَهدِي إلى الرشْدِ فَآمَنّا بِهِ ولَنْ نُشْركَ بِرَبِّنَا أحداً . . ﴾ الآيات .

﴿ **إنّك لمن المرسلين** ﴾ هذه الجملة الخبرية المقسم عليها ، فيها الحجة البالغة ، المفحمة لكل من ينكر رسالة سيدنا محمد ﷺ ، ويحتم عليه الإيمان برسول الله ﷺ .

وبيان ذلك : أنّ المنكر لرسالة رسول الله سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم إمّا أنْ يكون مؤمناً برسالة أحد الرسل قبله ، وإمّا أن يكون منكراً لرسالات جميع الرسل .

فيقال لمن ينكر رسالة سيدنا محمد ﷺ ولكن يزعم أنّه يؤمن بالرسل قبله أو ببعضهم - : يقال لمن يؤمن بأنّ إبراهيم رسول الله ، وأنّ إسماعيل رسول الله ، وأنّ موسى الكليم رسول الله ، وأنّ سليمان وداود وزكريا رسل الله صلوات الله تعالى وسلامه على نبينا وعليهم أجمعين - **يقال** : بماذا ثَبَتَ عِندك أنّ إبراهيم الخليل رسول الله ، و أنَ موسى الكليم رسول الله ؟

فإن قال : ثبت ذلك عندي بإنزال الله تعالى الكتاب عليهم ، فأنزل الله تعالى على إبراهيم صحفاً ، وعلى موسى التوراة ، وعلى داود الزبور .

فنقول له : لقد أنزل الله تعالى على سيدنا محمد ﷺ كتاباً أعظم من تلك الكتب كلها ، وأجمع منها ، ذكر الله تعالى فيه كل شيء ، وفيه تبيان كل شيء ، والإخبار عن كل شيء ، وقد جاء هذا الكتاب النازل عليه ﷺ معجزاً ، مع التحدي لجميع العالم ، وبالمقارنة بين هذا الكتاب القرآني ، وبين بقية الكتب النازلة على الرسلِ - يتبين فضل هذا القرآن على جميع

تلك الكتب ، وأنّه هو المهيمن عليها ـ فيجب عليكم أنْ تؤمنوا برسول الله ﷺ سيدنا محمد من باب أَوْلَى وأحق وأجدر ، وأنّه من المرسلين كما قال سبحانه : ﴿ إنّكَ لَمِنَ المرسلين ﴾ .

فإن قال المنكر لرسالة سيدنا محمد ﷺ : إنّ رسالة إبراهيم الخليل ، وموسى الكليم على نبينا وعليهما الصلاة والسلام ، ثبتت بالمعجزات التي أيّدهم الله تعالى بها ، وخوارق العادات التي أكرمهم بها ، فهذا إبراهيم الخليل عليه السلام لما أدخله قومه في النار جعلها الله تعالى عليه برداً وسلاماً ، ولم تَمَسَّهُ بسوء ، وهذا موسى الكليم قد انفلق له البحر ، ومشى فيه موسى ومن معه ، حتى اجتازوه إلى الشاطىء الثاني ، ونجّاهم الله تعالى ، وأغرق فرعون ومن معه .

قلنا في الجواب : نعم إنّ ذلك كله حق ، وإنّ الله تعالى نجّى إبراهيم الخليل عليه السلام من النار ، وجعلها عليه برداً وسلاماً ، وعلى غيره محرقة ماحقة ، ورد كيد قومه في نحورهم ، وجعلهم الأخسرين والأسفلين ، لأنّهم أرادوا بخليله كيداً ومكراً ، فكادهم ومكر بهم ، بأنْ رَدَّ ذلك عليهم ، فحفظه الله تعالى ، ثم خرج من بينهم وقال : ﴿ إنِّي ذاهِبٌ إلى ربِّي سَيَهْدِين ﴾ فهاجر ، وخرج سالماً محفوظاً .

قال تعالى : ﴿ وأرادُوا بِه كَيْدا فَجَعَلْناهُمُ الأخْسَرين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فأرادُوا به كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الأَسْفَلِين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وقال إنّي ذَاهِبٌ إلى رَبِّي سَيَهْدِين ﴾ .

وقد وقع نظير ذلك لحبيب الله الأكرم سيدنا محمد ﷺ ، وذلك أنّ كفار قريش اجتمعوا ، وتشاوروا في أمر رسول الله ﷺ ، وفي القضاء عليه وإهلاكه ـ بزعمهم ـ ثم استقر رأيهم على أن يجتمع من كل قبيلة من القبائل

شاب قوي ، حامل سيفه ، ويصطفّون على طرفَيْ باب بيت رسول الله ﷺ ،فإذا خرج ضربوه كلهم معاً ، حتى يضيع ثأره بين القبائل ـ فلما اتفقوا على ذلك ، واجتمعوا على بابه ﷺ ، أمر الله تعالى جبريل عليه السلام أنْ ينزل على رسول الله ﷺ فيُعلمه بذلك ،وكيف يأخذ حَذَرَهُ منهم ، فأمر رسول الله ﷺ علياً رضي الله عنه أنْ يضطجع في فراشه ﷺ ، ويتسجّى بثوبه ،ثم يخرج رسول الله ﷺ من بين الصفين ، وهو يقرأ آيات من أول سورة ﴿ يس ﴾ ،ونثر التراب على رؤوسهم ، فأصاب رؤوسهم ووجوههم ؛ وهم لا يرون رسول الله ﷺ ، وخرج رسول الله ﷺ آمناً مُهاجراً ، مصحوباً بعناية الله تعالى ، وأنزل الله تعالى في ذلك : ﴿ وإذْ يَمْكُر بِكَ الذين كَفُروا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلوك أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ واللهُ خَيْرُ المَاكِرِين . . ﴾ .

فمكرهم شَرٌ : لأنّهم قصدوا إيذاء النبي ﷺ ، وإبطال دعوته ،التي فيها سعادة الدنيا والآخرة ، وأمّا مكره سبحانه فهو خَيْر :لأنه رَدٌّ وإبطال لمكرهم ، فمكر الله تعالى بأعدائه ﷺ ، وردّ كيدهم وبالاً عليهم ، وحال بينهم وبين ما قصدوه .

روى الإمام أحمد وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ وإذْ يَمْكر بك الذين كفروا . . ﴾ الآية ، قال ابن عباس : (تشاورت قريش ليلةً بمكة ، فقال بعضهم : إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق ـ يريدون النبي ﷺ ـ وقال بعضهم : بل اقتلوه ، وقال بعضهم : بل أخرجوه ـ فأطلع الله تعالى نبيّه ﷺ على ذلك ، فبات علي رضي الله عنه في فراش رسول الله ﷺ ، وخرج النبي ﷺ) ـ وفي رواية لغير أحمد : (فخرج رسول الله ﷺ ، ومعه حَفْنَةٌ من تراب ، فجعل يذرها على رؤوسهم ، وأخذ الله تعالى بأبصارهم عن نبيه ﷺ وهو يقرأ : ﴿ يس والقرآن الحكيم ﴾ ، إلى

قوله تعالى : ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُم لا يُبصرُون ﴾ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : (ولحق رسول الله ﷺ بالغار ، وبات المشركون على الباب ، فلما أصبحوا ثاروا إليه ـ أي : دخلوا البيت ـ فلما رأوا علياً رضي الله عنه ردّ الله تعالى مكرهم عليهم ، فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ قال : لا أدري .

فاقتصّوا أثره ، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم ، فصعدوا في الجبل ، فمرّوا بالغار ، فرأوا على بابه نسج العنكبوت .

فقالوا : لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على باب الغار ، فمكث ﷺ فيه ثلاث ليال . .) .

وفي هذا أنزل الله تعالى : ﴿ويَمْكُرُونَ ويَمْكُر الله والله خير الماكرين ﴾ .

قال عروة بن الزبير رضي الله عنه : أي : فمكرت بهم بكيدي المتين ، حتى خلصتك منهم يا محمد ﷺ . اهـ

ثم خَرج ﷺ من الغار ، وتابع هجرته إلى المدينة المنورة سالماً ، محفوظاً محفوفاً بعناية الله تعالى .

وأما انشقاق البحر لموسى الكليم عليه السلام فهو معجزة كبرى نجّى الله تعالى بذلك موسى عليه السلام ومَنْ معه ، ودمّر فرعون ومَنْ معه .

ولكن سيدنا محمداً ﷺ أيّده الله تعالى ، وصدَّق نبوته بانشقاق القمر الذي هو أعظم من انشقاق البحر ، فإن حجم القمر أكبر بكثير من الحجم الذي انشق من البحر لموسى الكليم ، فالقدرة الإلهية أثرها في انشقاق القمر أكبر ، وانشقاق البحر كان لنجاة موسى عليه السلام ومَنْ معه ، أما معجزة انشقاق القمر فهي برهان ساطع ، ودليل قاطع ، وحجة إلهية على جميع

العباد إلى يوم المعاد ، تشهد لهم وتُشهدهم أنّ محمداً رسول الله ﷺ ، وكان ذلك على مشهد الجموع الكثيرة من أعدائه ﷺ ، والجماهير من أصحابه ﷺ ، وقد ذكر الله تعالى معجزة القمر في القرآن الكريم حجةً ودليلاً قاطعاً على حقيّة رسالة سيدنا محمد ﷺ ، وحجة بالغة إلى يوم الدين ، فكأن جميع العالم قد شاهد تلك المعجزة ـ قال تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانْشَقَّ القَمر وإنْ يَروْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمر . وَكذّبُوا واتَّبَعُوا أَهْواءَهم وكُلُّ أَمْر مُسْتَقِر ولَقَدْ جَاءَهُم مِنَ الأَنْبَاءِ ما فِيه مُزْدَجَر حِكْمَةٌ بالِغَةٌ فَما تُغْن النُّذر ﴾ .

روى الإمام البخاري وغيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه : (أنّ أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية ـ أي : تدل على صدق نبوته ـ فأراهم القمر شقين ، حتى رأوا حراء بينهما) .

والمعنى : أنّ القمر انشق شقتين متباعدتين ، حتى إنّ الناظر إليهما في تباعدهما يرى جبل حراء بينهما ، وكان ذلك بسبب طلب كفار قريش أنْ يريهم معجزة ، وقد أرادوا معاجزته في زعمهم ، فطلبوا منه انشقاق القمر ، وكان ذلك عن موعد واجتماع ؛ لمراقبة القمر وانشقاقه .

وقد جاء في رواية البيهقي وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : (انشق القمر بمكة ، حتى صار فرقتين ـ أي : نصفين ـ متباعدين ، ظاهرين للعيان .

فقال كفار قريش : هذا سِحرٌ سحركم به ابن أبي كبشه ـ يريدون أنّ النبي ﷺ سحر أعينهم .

فقال بعضهم : انظروا السفّار ـ أي : المسافرين الذين يمشون في الليل قادمين من الشام إلى مكة ـ فإنْ كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق ، وإنْ كانوا لم

يروا مثل ما رأيتم فهو سحر، سحركم به .

قال : فسئل السفّار وقد جاؤوا من كل جهة إلى مكة ، فقالوا كلهم : رأينا ذلك) .

إذاً الحق كما قال الله تعالى : ﴿ إنّك لَمِنَ المُرسَلِين ﴾ .

فما من نبي أُعطي آية تدل على صدق نبوته ، ومعجزة تشهد له برسالته ، إلا وقد أعطى الله تعالى رسوله سيدنا محمداً ﷺ ما هو مثل ذلك وأعظم من ذلك ، وإن دلائل نبوته ومعجزاته ﷺ ، التي هي شواهد صدق رسالته ، تلك لا تعد ولا تحصى ، فمنها ما يتعلق بالسماء ، ومنها ما يتعلق في الأرض ، ومنها ما يتعلق بالإنسان ، ومنها ما يتعلق بالحيوان ، ومنها ما يتعلق بالشجر ، وبالمدر ، وبالحجر ، ومنها ما يتعلق بالإخبارات الغيبية عن الماضي ، أو الحالي ، أو الآتي ، ومنها ما يتعلق بكثرة الطعام ، ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة ﷺ ، ومنها ومنها ، وقد جاء ذلك بالنقول ذات الأسانيد الصحيحة ، كما صنفها المحدثون في كتب واسعة كبرى ، فهو ﷺ حقاً رسول الله : ﴿ إنّك لَمِنَ المرسلين ﴾ .

وأما المنكر لجميع رسالات الرسل فيقال له : كيف تنكر رسالة سيدنا محمد ﷺ ، وهذه معجزته الكبرى أمامك ، وهي القرآن العظيم ، المعجز للأوّلين والآخرين ، الذي يتحدّى جميع العلماء ، والحكماء ، والفصحاء ، والعقلاء إلى يوم الدين ، ولذلك قال تعالى :﴿يسٓ والقرآن الحكيم إنّك لمن المرسلين ﴾ ، فالقرآن الحكيم ، هو الشاهد بصدق رسالة هذا الرسول الكريم ﷺ ، وذلك لأنّ العباد كلهم عاجزون عن أنْ يأتوا بمثله ، ولو اجتمعت الإنس كلهم ، والجن كلهم ؛ وتعاونوا على ذلك ؛ فإنّهم لا يأتون بمثله ، وذلك لأنّه ليس كلام مخلوق ، وإذا كان كذلك فهو كلام ربّ العالمين

قطعاً ، نَزّله على سيد العالمين ﷺ ، يهدي للتي هي أقوم وأكرم وأعظم ؛ محفوظاً من الزيادة والنقصان على مدى الأزمان .

وقد ذكرت في القسم الأول من [هدي القرآن الكريم] وجوهاً من الإعجاز ، ووجوهاً من الأدلة القطعية التي تثبت حقية هذا القرآن الكريم ، وأنّه كلام الله تعالى ربّ العالمين ، لا يمكن أنْ يكون من كلام المخلوقات ، وأدلة حفظ الله تعالى له من التبديل والتغيير ، والزيادة والنقص ، والإبطال والنقض ، كما قال تعالى : ﴿إنّا نَحْنُ نَزَّلْنا الذكْرَ وإنّا لَهُ لَحَافِظُون . . ﴾ .

وبيّنت فيما سبق أنّ هذه الآية ـ وهي قوله تعالى : ﴿ إنّا نَحْنُ نَزّلْنَا الذِّكْر وإنّا لَه لحافظون ﴾ ـ فيها أنواع من التحدي ، أذكر منها هنا أمرين :

أولاً : فيها التحدي لمن تحدثه نفسه أن يأتي بمثل القرآن ، فالحق تعالى يقول له : ﴿ إنّا نحن نزلنا الذكر ﴾ يعني : أنّه كلام الله رب العالمين ، فأي مخلوق يستطيع تنزيل مثله ، فإنّ الله تعالى نزله تبياناً لكل شيء ، لأنه سبحانه عليم بكل شيء ، ومن هو مثل الله تعالى حتى يأتي بمثل كلام الله تعالى ؟!!! .

ثانياً : فيه التحدي لمن يحاول تبديله ، أو تغييره ، أو الزيادة أو النقص منه ، فالحق يقول له : ﴿ وإنّا لَه لحافظون ﴾ ، فمهما حاول المبطلون من التلاعب ، أو التغيير والتبديل ، أو الزيادة والنقص ؛ فسعيهم مردود عليهم .

والله تعالى يبطل ما يحاولون ، لأنّه سبحانه تكفل هو أنْ يحفظه ، ولم يستحفظه غيره ـ بخلاف الكتب السماوية السابقة ، فقد استحفظها علماءها فما استطاعوا ذلك ، قال تعالى : ﴿ بما استُحْفِظوا من كتاب الله وَكَانُوا عَليه شُهداء ﴾ الآية .

العوالم كلها بأصنافها تعرف خالقها

فتسبحه، وتحمده، وتسجد له حقيقة

على كيفية مناسبة لخلقتها

لقد جاء القرآن الكريم يطلعنا على العوالم، ويخبرنا عن حقيقة ما هي عليه من معرفة ربها، وتسبيحه، وسجودها له:

قال الله تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّموات السَّبْعُ والأَرْضُ ومَنْ فِيهِنَّ وإنْ مِنْ شَيْءٍ إلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُم ... ﴾.

وفي هذه الآية دليل على أنّ الأشياء كلها تعرف ربها، وأنّه متصف بالكمال المطلق، ومنزَّه عن النقائص والعيوب، ولذلك فهي تسبحه ـ أي: تنزهه عما لا يليق به، وتحمده ـ أي: تصفه بالمحامد والكمالات اللائقة به.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تر أَنَّ الله يَسْجُدُ لَهُ مَنْ في السموات ومَنْ في الأرضِ والشَّمْسُ والقَمَرُ والنُّجوم والجِبَالُ والشَّجَرُ والدوابُّ وكثِيرٌ من الناسِ وكَثِيرٌ حَقَّ عليه العذاب ومَنْ يُهِنِ الله فمالَهْ مِنْ مكرم إنّ الله يَفْعَل ما يَشاء .. ﴾.

وفي هذه الآية دليل على أنّ جميع الأشياء تعرف ربها، وأنّه إله حقٌ يجب أن يعبد، فهي تسجد له عبادةً.

وإليك تفصيل الكلام على الآيتين الكريمتين، وبيان وجوه من الأدلة

القرآنية القاطعة، والشواهد الكونية الساطعة :

الدليل الأول : قوله تعالى : ﴿ تُسَبِّح له السموات السبْعُ والأرض ومَنْ فيهنَّ وإنْ مِنْ شيَءٍ إلا يُسَبِّح بِحَمْدِهِ ولكنْ لا تَفْقَهُون تَسْبِيحهم إنّه كانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ .

فإن هذه الآية الكريمة تُخبر عن تَسبِيح الأشياء وحمدها على وجه الحقيقة - أي : تسبّح بحمده، وتسبحه عن معرفة به ، وعن نطق صادر عنها ، وتثبت أنّ ذلك حق وحقيقة ، وتنفي تأويلها بغير ذلك ، أو أنّ ذلك من باب المجاز ، أو مِنْ بابِ دلالة الحال دون مقال - فيقول سبحانه : ﴿ ولكنْ لا تَفْقَهون تَسْبِيحَهُمْ ﴾ - أي : ولكن لا تفقهون تسبيحها وحمدها ، لأنّها ليست من جنسكم ، فقد تسمعون صوتها ولكن لا تفهمون معنى ذلك ، كأصوات الطيور ونحوها ، وقد لا تسمعون ولا تفقهون كتسبيح النبات والجماد ونحوها ، إلّا من أسمعه الله تعالى ذلك - كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى .

فلو لم يكن تسبيح الأشياء حقيقياً واعتقاداً وقولاً لما احتاج الأمر إلى هذا الاستدراك ، فإنّه لو كان تسبيحها وتحميدها من باب دلالة المخلوق على الخالق ، لو كان كذلك لما قال : ﴿ ولكن لا تفْقهون تسبيحهم ﴾ ، فإنّ كل عاقل يفقه ويعلم دلالة المخلوق على خالقه ، وإن كل مصنوع لا بد له من صانع ، فقوله : ﴿ ولكن لا تَفْقَهون تسبيحهم ﴾ دليل صريح في أن هذا التسبيح هو حقيقة ، صادر عن نطق ، لكن لا يفهمه إلا من فَهَّمه الله تعالى - كما أخبر تعالى عن نبي الله سليمان عليه السلام : ﴿ يا أيها الناس عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّير . . ﴾ الآية كما سيأتي ذلك إن شاء الله تعالى .

ولا غرابة في أنّك إذا سمعت أصوات الطيور بالتسبيح والتحميد ولكن لم

تفهم عنها ، فإنه لا عجب في ذلك ، فإن لغتها ليست من لغة بني جنسك ، وأنت قد تسمع صوت بني جنسك بالتسبيح ولا تفهم ما يقول ، لأن لغته تخالف لغتك ، كما إذا سمع العربي أعجمياً غير عربي يسبح بلسان غير عربي ، وهو لا يعلم تلك اللغة ،وبالعكس ،فكل منهما لا يفهم تسبيح الآخر ، وإنْ كان يسمع صوته ، كما أنّه لا عجب أنك لا تسمع تسبيح الجمادات وحمدها ،فإنّك قد لا تسمع صوت تسبيح بني جنسك إذا كان بعيداً عنك ، إذاً أنت لا تسمع ولا تفهم عنه لبعد مكانه ؛ وإن كان من بني جنسك ، فما بالك إذا كان من غير بني جنسك فهو أبْعَد لبعد المناسبة الخِلقية .

الدليل الثاني : ومما يدل على أنّ تسبيح الأشياء وتحميدها هو من باب الحقيقة الواقعية ، وليس هو من باب الاستدلال ودلالة الحال ، أو باعتبار أنّها مسيّرة بقدرة الله تعالى ،وخاضعة لأمره التكويني ، بل المراد أنّها تسبح بنطق منها على الحقيقة ،يدل على ذلك : قوله تعالى ـ فيما أكرم به نبي الله تعالى داود عليه السلام : ﴿ إنّا سخرنا الجبال معه يُسبِّحْنَ بالعَشيِّ والإشراق والطَّيْرَ مَحْشُورَةً كلٌّ لَهُ أَوّاب ﴾ .

فكانت الجبال تسبح مع داود ، وتردد التسبيح معه في العشي والإشراق ، فلو كان ذلك من باب دلالة الحال أو نحو ذلك ، لما اختصت تلك في هاتين الوقعتين .

كذلك قوله تعالى : ﴿ يا جبال أوّبي معه ﴾ أي : ردّدي التسبيح معه .

ومن البديهي أنّ دلالتها على خالقها لا تختص بمعّيتها له وحده ، وأما قول بعضهم : إنّ ذلك من باب صدى صوت داود بالتسبيح ، فإن هذا التأويل باطل ، لأنّ صدى الأصوات عند الجبال لا يختص بداود عليه السلام ،

ولا يكون في ذلك منّة وفضل على داود عليه السلام ، بل هو تسبيحها النطقي معه عليه السلام ، كما ورد ذلك عن ابن عباس ومجاهد وعن وهب وغيرهم قالوا : (إن الله تعالى أمر الجبال والطير أنْ تسبح مع داود عليه السلام) ـ والمعنى : أنّها أُمرت أن تسبِّح الله تعالى مع داود عليه السلام ،تسبيحاً خاصاً ، متابعةً لتسبيحه ، وإن كانت الجبال في جميع الأوقات تسبح الله تعالى وتذكره ،وتفرح وتفخر بذكره تعالى .

روى ابن أبي شيبة وسعيد بن منصور وأحمد في [الزهد] والطبراني والبيهقي وغيرهم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : (إن الجبل لينادي الجبل باسمه يا فلان هل مرّ بك اليوم أحد ذكر الله تعالى ؟ فإذا قال : نعم ـ استبشر) .

وروى أبو الشيخ وغيره عن محمد بن المنكدر قال : (بلغني أنّ الجبلين إذا أصبحا نادى أحدهما صاحبه باسمه : أيْ فلان هل مرّ بك ذاكر لله تعالى ؟ فيقول : نعم فيقول : لقد أقرّ الله عينك ،لكن ما مرَّ بي ذاكر لله عز وجلّ اليوم) .

كما أنّ جميع بقاع الأرض تسبح الله تعالى وتذكره ،وتفرح بمنْ يُسَبِّح ويذكر الله تعالى عندها ، روى الطبراني وأبو نعيم عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « ما من صباح ولا رواح ، إلا وبقاع الأرض ينادي بعضها بعضاً : يا جارة : هل مرّ بك اليوم عبد صالح صلى عليك ، أو ذكر الله تعالى ؛ فإن قالت : نعم ،رأت أنّ لها بذلك فضلاً » .

ولذلك أمر رسول الله ﷺ بذكر الله تعالى عند كل شجر وحجر ، لأجل أن يشهد له ذلك الشجر والحجر يوم القيامة ، ويسره بذلك .

روى الطبراني بإسناد حسن ، عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه

قال : قلت : يا رسول الله أوصني .

قال : « عليك بتقوى الله ما استطعت ، واذكر الله عند كل حجر وشجر ، وما عملت من سوء فأحدث له توبة : السرّ بالسرّ ، والعلانية بالعلانية » .

الدليل الثالث : قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يُسَبِّح لَهُ مَنْ في السموات والأرض والطّير صَافّات كُل قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وتسبيحه والله عليم بما يفعلون ﴾ .

فأخبر سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة أولاً عن تسبيح مَنْ في السموات من الملائكة عليهم السلام ، والأرواح المجردة ، وغير المجردة ، وعن تسبيح مَنْ في الأرض من الملائكة والأناسي والجان ، وجميع أنواع الحيوان ، والنباتات ، والجمادات ، كما قال سبحانه : ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومَنْ فيهن وإنْ مِنْ شيء إلا يُسبح بحمده . . ﴾ الآية كما تقدم .

ثم أخبر سبحانه عن تسبيح الطير فقال تعالى : ﴿ والطَّيْر صَافّاتٍ ﴾ معطوف على ﴿ مَنْ ﴾ ـ والمعنى : أنّ الطير تسبح ربها في حال طيرانها وهي صافات أجنحتها ، وإنّما خصها بالذكر مع أنّها داخلة في عموم مَنْ في الأرض ؛ لأنها غير مستمرة في القرار على وجه الأرض كما هو في سائر الحيوانات ، ليدفع وهم من يتوهم أنّ التسبيح هو قاصر على المستقرين على وجه الأرض من المخلوقات ، وليتنبه العاقل إلى التفكر في قدرة الله تعالى الذي هو يمسكها في جوّ السماء ، وأنّه سبحانه هو الذي أعطى تلك الأجسام الثقيلة ما يتمكن به من الوقوف في الجوّ ، والحركة السريعة كيف شاءت ، فجعل لها أجنحة تقلها ، وأذناباً خفيفة تعدّل بها حركاتها ، وأنّه سبحانه هو الذي هداها إلى استعمال أجنحتها بالقبض تارة والبسط أخرى ، والتحريك

يميناً وشمالاً ،وعلواً وانخفاضاً ، وفي ذلك حجة ظاهرة على قدرة الخلّاق العليم .

ثم أخبر سبحانه عن معرفة جميع ذلك بالله تعالى الخالق ،وعن علم جميع ذلك بتسبيحه لله تعالى ، وصلاته له ، فقال تعالى : ﴿ كلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاته وتسبيحه ﴾ ـ أي : كل قد علم حقيقة تسبيحه لله تعالى ، وكيفية صلاته كما علّمه الله تعالى ذلك ، وألهمه إيّاه ، وكلٌّ يصلي ويسبح ، على وجه متناسب معه ، وعلى حسب ما علمه الله تعالى ، وعلى كيفية تليق بذلك الشيء ، فتسبيح الطير ليس كتسبيح بقية الحيوانات ، وتسبيح الحيوانات ليس كتسبيح النباتات ، وتسبيح النباتات ليس كتسبيح الجمادات ـ كل على حسبه وعلى الوجه الذي علمه .

وقوله تعالى : ﴿ كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه ﴾ هي جملة استئنافية ، جاءت جواباً عن سؤال مقدّر ، وهو أنّ الله تعالى لما أخبر عن تسبيح الأشياء كلها ،**فكأنّ سائلاً سأل** : وهل لتلك الأصناف التي تسبح ربّها حتى الطيور والحيوانات والنباتات والجمادات ؛هل لها معرفة بخالقها ؟ وهل لها علم بصيغة تسبيحه سبحانه ؟

فجاء الجواب : ﴿ كلٌّ قَدْ عَلِمَ صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون ﴾ .

وقد جاءت الأحاديث الشريفة تبين ذلك كله :

أخرج ابن راهويه في [مسنده] من طريق الزهري قال :أُتي أبو بكر الصديق بغراب وافر الجناحين ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما صيدَ من صيد ولا عُضِدت عُضاة ـ أي : قُطِعَتْ شجرة ـ إلّا بترك التسبيح » .

وفي رواية لأبي نعيم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال :قال رسول الله ﷺ : « ما صيد من طير في السماء ، ولا سمك في الماء ، حتى يَدَع ـ أي : حتى يترك ـ ما افترض الله عليه من التسبيح » .

وفي رواية لأبي الشيخ عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أخذ طير ،ولا حوت ـ إلا بتضييع التسبيح » .

وفي رواية ابن عساكر من طريق يزيد بن مرثد ،عن النبي ﷺ قال : « ما اصطيد طير في بر ولا بحر ـ إلا بتضييعه التسبيح » .

فالحيتان في جوف البحر تسبح ، كما أنّها تَسْتَغْفِر للعالم الذي ينفع العباد والبلاد بعلمه :

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سَهّل الله له طريقاً إلى الجنة ؛ وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع ، وإنّ العالم لَيستَغْفر له من في السموات ، ومن في الأرض ، حتى الحيتان في الماء ،وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وإنّ العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ـ إنّما وَرّثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر »[1] .

وروى الخطيب عن أبي حمزة الثمالي قال : كنا مع علي بن الحسين رضي الله عنهما ،فمرّ بنا عصافير يَصِحْن .

فقال : أتدرون ما تقول هذه العصافير؟ فقلنا : لا .

فقال : أما إنّي لا أقول إنّا نعلم الغيب ، ولكن سمعت أبي يقول : سمعت علي بن أبي طالب رضي الله عنهم يقول : (إن الطير إذا أصبحت

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في [صحيحه] .

سَبّحت ربّها وسألته قُوْتَ يومها ، وإنّ هذه تسبح ربها وتسأله قوت يومها) .

وروى نحو ذلك أبو نعيم في [الحلية] .

فالطيور تسبح ربّها بصيغة ألهمها الله تعالى إيّاها كما قال سبحانه : ﴿ وإنْ مِنْ شيء إلا يُسَبِّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ ـ أي : لا تفهمون عنها إلا مَنْ عَلّمه الله تعالى ذلك : كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وبعض الأولياء من باب الكرامات الإلهية .

قال تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُليمان دَاود وقال : يَا أَيُّها النَّاسُ عُلِّمنا مَنْطِقَ الطَّير وأوتينا من كلِّ شيء إنّ هَذا لَهُو الفَضْل المبين ﴾ .

والنطق كل ما يعبّر به عمّا في الضمير ، مفرداً كان أو مركباً ، ويشمل الأصوات ، فكان نبي الله تعالى سليمان عليه السلام يعلم منطق الطير ، ويفهم عنها ، كما يَفهم بعضها من بعض ، وما تقصده الطير في أصواتها في سائر أحوالها ، فيفهم تسبيحها ، وما تخاطبه به عليه السلام ، وما يخاطب بعضها بعضاً ـ كما ذكر ذلك سبحانه وتعالى في قصة الهدهد معه .

روي أنّه عليه السلام سمع صياح هدهد ، فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : لا .

قال : يقول : استغفروا الله يا مذنبون .

وصاحت رَخْمة ـ طائر يشبه النسر ـ فقال : تقول : سبحان ربي الأعلى مِلء سمائه وأرضه .

وصاح قمريُّ فقال : إنّه يقول : سبحان ربي الأعلى .

والحِدأة تقول : كل شيء هالك إلا الله تعالى .

وصاح **الديك** فقال : إنّه يقول : اذكروا الله يا غافلون .

وسمع **الزرزور** فقال إنه يقول : ربّ أسألك قوت يوم بيوم ؛ يا رزاق .

وسمع **القنبرة** تقول : اللهم الْعن مبغض رسولك محمد ﷺ ، ومبغض آل محمد ﷺ .

وسمع **الضفدع** تقول : سبحان ربي القدوس . . اهـ .

وقال كثير من العلماء إنّ سليمان عليه السلام أُعطي فهم مقاصد الطير والحيوانات أيضاً ، على اختلاف لغاتها ، وأقوالها ، بدليل فهمه قول النملة : ﴿ يا أيها النمل ادخلوا مَسَاكِنَكُمْ . . ﴾ الآية .

وإنّما ذكر الطير هنا خاصة لأنّها كانت من أهم جنوده التي يحتاج إليها في التظليل ، والبحث عن الأمور ، ومواقع المياه ، والأماكن الخصبة الخضراء ـ وغير ذلك .

قال تعالى : ﴿ وحُشِر لسليمان جنوده ﴾ ـ أي : جمع له عساكره من الأماكن المختلفة ، ثم بين سبحانه أنواع تلك الجنود فقال : ﴿ مِنَ الجِنّ والإنْسِ والطّير ﴾ .

فكان عليه السلام له مِنْ كلّ نوع من هذه الأنواع الثلاثة أشخاصاً منهم ، أعدهم لجمع تلك الجنود حين يأمر بذلك ـ ﴿ فهم يوزعون ﴾ ـ أي : يحبس عن السير أولهم حتى يلحق بهم آخرهم ، فيكونوا مجتمعين بدون أنْ يتخلف أحد منهم ، ومرتبين بانتظام ، كما هو المعتاد في العساكر : صفاً وسيراً دون خلل ، فتجمع له تلك الجنود حين يريد السير على وجه الأرض في أسفاره ، أو تنقلاته من بلد إلى أخرى ، أو لمحاربة من لم يدخل في ربقة طاعته ، فتجمع له تلك الجموع حَسْبَ ما يليق بشأن ملكه ، وعظمة سلطانه وقوّته ، وهذا الوزع والترتيب والتنظيم كان يحتاج إليه إذا

ساروا براً ، ولكن إذا كان سيرهم في تسخير الريح في الجو ، فيجتمعون ، وكل له مجلسه المعيّن له يجلس فيه ، من غير حاجة إلى التنظيم والترتيب .

كما روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : كان يوضع لسليمان عليه السلام ثلاثمائة ألف كرسي ، فيجلس مؤمني الإنس مما يليه ، ويجلس مؤمني الجن من ورائهم ، ثم يأمر الطير فتظلّه ثم يأمر الريح فتحمله . اهـ

قال تعالى : ﴿ولسليمان الريح غُدوّها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ﴾ الآية من سبأ .

ثم قال سبحانه في قصة النملة: ﴿ حَتّى إذَا أَتَوا على وَادِ النَّمْلِ قَالت نملة : يا أيّها النَّمْل ادخُلُوا مَسَاكِنَكُم لاَ يَحْطِمَنَّكُم سُليمانُ وجُنوده وهم لا يَشْعرون فتبسم ضاحكاً مِنْ قولها وقال : ربِّ أوْزِعْني أَنْ أَشْكرَ نِعْمتَك التي أَنْعَمْتَ عَليَّ وعلى وَالدِيّ وأَنْ أَعْمَلَ صَالحاً تَرْضَاهُ وأدخلني برحمتِكَ في عبادك الصالحين . . ﴾ .

فسمع سليمان عليه السلام قول النملة ، وفهم خطابها لجماعتها ، لأنّها كانت قيّمة عليهم ، فحذرتهم من أنْ تطأهم جنود سليمان بأقدامهم ، واعتذرت عن الجنود فيما لو داسوهم بأرجلهم ، لأنّهم لا يشعرون بمرور النمل تحت أقدامهم ، لأن الجنود حين تسير تتوجه بوجهها إلى الأمام ، لا إلى الأسفل ، فإذا داسوا النمل بأقدامهم ، فإنّهم غير ظالمين لعدم علمهم بوجود النمل تحتهم .

فانظر أيها العاقل في إدراك النمل ، وشعورها ، وتحسسها ، وفهمها ، وحسن رعايتها ، ونظامها فإنها أمّة من الأمم الحيوانية . .

ثم أخبر سبحانه عن قصة الهدهد فقال : ﴿ وَتَفَقَّد الطير فقال : ما لِيَ لا أرى الهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الغائبين لأعذبَنَّه عَذَاباً شديداً أو لَأَذْبَحَنَّه أَوْ لَيَأْتِيَنِّي

بسلطان مبين . فَمَكَثَ غَيْرَ بعيدٍ فقال : أَحَطْتُ بما لم تُحِطْ بِهِ وجِئْتُك مِنْ سَبأ بِنَبأ يقين . إنيّ وَجَدْتُ امرأةً تَملِكُهمْ وأوتِيَتْ مِنْ كلِّ شيء وَلَها عَرشٌ عَظِيمٌ وجَدتُّها وقومَها يَسجُدون للشَّمْس مِنْ دون الله وَزَيّن لهم الشيطانُ أعمالَهْم فَصَدهم عن السَّبيل فَهُم لَا يَهْتَدُون ﴾.

وكان نبي الله تعالى سليمان عليه السلام إذا سافر سار معه جنودٌ من الجن والإنس والطير ، وكانت الطير تظله من الشمس ، وهي منتظمة الصفوف ، صافات في الجو ، كل له موقعه ، وله وظيفة معينة ، يأمره سليمان عليه السلام بتنفيذها ، وكان مكان الهدهد في جانب سليمان عليه السلام الأيمن فنظر إلى مكانه فلم يره ، وكانت وظيفته البحث والتعرف لمواقع الخصب ، والتعرف إلى بلاد بعيدة ، ومدن عامرة بسكانها ؛ لم يعلم بها نبي الله سليمان عليه السلام ، كما في قصة سبأ ، كما أنّه كان يبحث عن ينابيع الماء في تخوم الأرض ، فإذا نزل سليمان عليه السلام بمفازة لا ماء فيها فيؤتى بالهدهد ليبحث عن ينابيع الماء في تخوم الأرض ، فيخبر سليمان عليه السلام بذلك ، فيأمر نبي الله تعالى سليمان عليه السلام الجن فتسلخ الأرض عن منبع الماء في ساعة واحدة ، فيخرج الماء ـ فلما تفقد سليمان عليه السلام الطير في أماكنها الصافَّةِفيها ، ولم يَرَ الهُدْهُد أوعده وهَدَّدَهُ ، حتى إذا جاء الهدهد ، وبُلِّغ هذا الوعيد الشديد ، راح يُحضِّر الجواب ، ويحكم الخطاب ، ليدفع عن نفسه العذاب ، فلقد أدلى الهدهد بحجته ، وأبدى عذره المقبول ؛ لما سمع أنّ الملك نبي الله تعالى سليمان عليه السلام قد هدّده بالعذاب الشديد ـ وقد اختلف في تعيين نوع هذا العذاب الشديد ، وأقرب ما قيل فيه هو أن يحبسه مع من لا يتلاءم معه من الطيور ، ولا يتوافق ولا يتفاهم معه ، كما أنّه هُدِّد بالذبح إلا أنْ يأتي بحجة بيّنة فيعفو عنه ،فلما سمع الهدهد بذلك ، دخل على نبي الله تعالى سليمان عليه السلام وفاجأه بخبر

عجيب ، ليخفف من غضبته عليه فقال له الهدهد : ﴿ أحطتُ بما لم تُحطْ بهِ وجئتُك من سبأ بنبأ يقين ﴾ ـ أي : أحطت علماً بأمر عظيم يهمك ، وأنت مع سعة ملكك واطلاعك لم تحط به ، وجئتك من سبأ بخبر يقين محقق ، فإنْ شئت فابحث عنه ، فأجمل الهدهد الكلام لسليمان عليه السلام أوَّلاً ، فزالت غضبة سليمان عليه السلام لما سمع هذا الخبر ، وأصغى كل الإصغاء إلى الاطلاع على تفصيل ذلك الخبر ، فأخذ الهدهد يفصل الكلام بعدما أجمله ، ويبينه بعدما أوجزه : ﴿ إنّي وَجَدتُّ امرأة تملكهم وأُوتِيَتْ مِنْ كل شيءٍ ولها عرش عظيم ﴾ ـ أي : وهذه كلها أمور عجيبة ، فكيف تكون امرأة ملكة على رجال ، وإنّ مُلكها قويّ ، فإنها أوتيت من كل شيء أوتيتهُ الملوك من : العدد ، والعتاد ، والقوات ، والجنود الأقوياء ، ولها عرش عظيم ؛ مليء بالكنوز ، والتحف ، والأموال الثمينة ، ومع ذلك كله فإنّها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ـ فأخذ الهدهد ينكر عليهم ، أو على قومها كفرهم بالله تعالى ، وشركهم بالله تعالى ، وكيف أنّهم يعبدون الشمس التي هي خلق من خلق الله تعالى ، ولا يعبدون الله تعالى ، ويوحدونه ، ويسجدون له ، فإنّ هذه الشمس مُسيَّرة فليعبدوا مُسيِّرها ، وهي في شروقها وغروبها مأمورة فليعبدوا مدبِّرها وآمرها .

فانظر أيها العاقل في معرفة الهدهد ربّ العالمين ، وتوحيده له ، وإنكاره على من كفر بالله تعالى وأشرك به ، وفي هذا دليل إدراكه ، وشعوره ، وفهمه ، وعقله المناسب له .

ولقد أكرم الله تعالى حبيبه الأكرم ورسوله الأعظم ﷺ بجميع المكارم التي أكرم بها أنبياءه ورسله صلوات الله تعالى عليه وعليهم ، فكما أعطى الله تعالى سليمان ذلك الملك ؛ فقد أعطى سيدنا محمداً ﷺ ذلك ولكنّه لم يَظهر بمقام الملك ، وظهر بمقام العبودية .

ويدلك على ذلك ما جاء في [الصحيحين] وغيرهما واللفظ للبخاري : عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « إنّ عفريتاً من الجن تفلّت عليّ البارحة ـ أي : أتاني فلتة بغتة ـ أو كلمة نحوها ليقطع عليّ الصلاة ، فأمكنني الله تعالى منه ، وأردت أنْ أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم ، فذكرت قول أخي سليمان : ﴿ رَبِّ اغفر لي وهَبْ لي مُلكاً لا يَنْبغي لأَحَدٍ مِنْ بعدي ﴾» .

فقد أعطى الله تعالى سيدنا محمداً ﷺ مُلكاً قوياً ، يمكنه من السيطرة على مردة الجن وعفاريتها بحيث يتمكن منها ويربطها ويجعلها موثقة بالقيود والأغلال ، كما قال تعالى في سليمان : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الريح تَجْري بأمْرِه رُخاء حَيْث أَصَاب والشَّيَاطِينَ كُلَّ بناءٍ وغَوَّاص وآخرين مُقَرَّنِينَ في الأصفاد ﴾ جمع : صفد وهو القيد ـ أي : موثقين بالقيود ، وقد قُرنت أيديهم إلى أعناقهم .

فنال ﷺ أعلى مقام في المُلك ، فوق ملك الملوك ، ولكنه لم يَظهر به ، ولم يُعامل عباد الله تعالى به ، بل اختار مقام العبدية الذي انطوت فيه جميع المراتب ، وعلا فوق جميع المقامات .

روى الطبراني بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ ذات يوم وجبريل عليه السلام على الصفا ، فقال رسول الله ﷺ : « يا جبريل ! والذي بعثك بالحق ما أمْسى لآل محمد سَفّة من دقيق ، ولا كَفٌّ من سويق » ـ فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدّة من السماء أفزعته .

فقال رسول الله ﷺ لجبريل : « أمر الله القيامة أن تقوم » ؟

فقال جبريل : لا ، ولكنْ أمر إسرافيل فنزل إليك حين سمع كلامك ،

فأتاه إسرافيل فقال : إن الله تعالى سمع ما ذكرت ، فبعثني إليك بمفاتيح خزائن الأرض ، وأمرني أنْ أعرض عليك أن أسيّر معك جبال تهامة زمرّدا وياقوتا وفضة ، فإنْ شئت نبياً ملكاً ، وإنْ شئت نبياً عبداً ـ فأومأ إليه جبريل أن تواضع ـ

فقال ﷺ : « بل نبياً عبداً » ثلاثاً .

وقد جاء في [مسند] الإمام أحمد مختصراً وكذا رواه ابن حبان في [صحيحه] من حديث أبي هريرة ولفظه : (جلس جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ ، فنظر إلى السماء ، فإذا ملك ينزل ، فقال له جبريل : هذا الملك ما نزل منذ خلق قبل الساعة ، فلما نزل قال : يا محمد أرسلني إليك ربك ـ أملكاً أجعلُك ، أم عبداًرسولاً ، فقال له جبريل عليه السلام : تواضع لربك يا محمد .

فقال رسول الله ﷺ : « لا بل عبداً رسولاً »[1]) .

وجاء في رواية أبي يعلى وابن سعد وابن حبان أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « يا عائشة لو شئتُ لسارت معي جبال الذهب ، أتاني ملك إلى حجرة الكعبة فقال : إنّ ربك يقرئك السلام ويقول لك : إن شئت كنت نبياً ملكاً ، وإن شئت نبياً عبداً فأشار جبريل أنْ ضع نفسك ـ أي : تواضع ـ فقلت : نبياً عبداً ، فكان بعد لا يأكل متكئاً ويقول : « آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد » ـ أي : كما يجلس الإنسان الكامل المتذلل لله تعالى المتواضع لرب العالمين .

فانتبه إلى قوله ﷺ لعائشة رضي الله عنها : « لو شئتُ لسارت معي جبال

---

(١) قال في [مجمع الزوائد] : رواه أحمد والبزار وأبو يعلى ورجال الأوّلين رجال الصحيح . اهـ

الذهب » والحديث قبله تعلم أنّه ﷺ قد انطوى له مقام الملك في طيّ مقام عبوديته لله تعالى ، فإنّ مقام العبودية التي نالها هي فوق جميع المقامات والمكرمات ، ولذلك وصفه الله تعالى في أعلى مقاماته ـ بالعبدية له سبحانه :

فقال في مقام إنزال الكتاب الجامع لبيان كل شيء : ﴿ الحَمدُ لِلّهِ الذي أَنْزل على عبده الكتاب ﴾ .

ولما كان هذا الكتاب القرآني فيه البراهين القاطعة ، والبينات الساطعة ، التي تثبت الحق ، وتبطل الباطل ، ويظهر الفرق بين الحق الذي جاء به ، والباطل المخالف له ، قال تعالى : ﴿ تبارك الذي نزل الفُرقَان على عَبْدِه لِيَكون لِلعَالمين نَذيراً ﴾ ، فجاء بما فيه الحجة على جميع العالمين .

وقال سبحانه في مقام إعلانه ﷺ توحيده لله ، وعبادته إياه ، ودعوته إلى الله تعالى : ﴿ وأنّه لَمّا قَامَ عَبْدُ الله يدعوه كَادُوا يَكُونُونَ عليه لِبداً ﴾ ـ أي : جماعات متعاضدة ، ليمنعوا رسول الله ﷺ عن ذلك كله ، فسماه الله تعالى : عبد الله ﷺ .

وقال تعالى في مقام إسرائه ﷺ وعروجه : ﴿ سُبحان الذي أَسْرى بعبده لَيْلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . . ﴾ الآية .

وقال تعالى في مقام النصر والتأييد وكسر شوكة كل جبار عنيد ، وذلك يوم بدر الذي بذَرَ فيه بَذْرُ الإسلام ، فتجلّى النهار وطرد الظلام فقال : ﴿ واعلموا أنّما غنمتم من شيء فأنّ لله خُمُسَه وللرَّسُول ولِذي القُربى واليتَامى والمساكين وابن السبيل إنْ كُنْتم آمنتم بالله ومَا أَنْزَلْنَا عَلى عَبْدِنا يَوم الفُرقان يَوم الْتَقى الجَمْعَان والله على كل شيء قدير ﴾ .

وقال تعالى في مقام التحدي لكل من تحدثه نفسه بالشك والارتياب في نزول هذا الكتاب من عند ربّ الأرباب على إمام المرسلين وأحب الأحباب

ﷺ أبد الآباد ، قال تعالى : ﴿وإنْ كُنْتم في رَيْب مِمَّا نَزَّلْنا على عَبْدِنا فأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْله وادْعُوا شهداءكم مِنْ دون الله إنْ كُنْتم صَادقِين﴾ .

وقال سبحانه في مقام صلته ﷺ بالله وصلواته لله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الذي يَنْهَى عَبْداً إذا صلّى . . ﴾ الآيات ـ وسبب نزولها هو ما رواه مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (قال أبو جهل : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ـ أي : هل لا يزال يصلي ويضع جبهته ساجداً على التراب ؟ ـ فقالوا :ـ أي : عصابته ـ نعم ، فقال أبو جهل : واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك ـ أي : يصلي في المسجد الحرام ويسجد ـ لأطأنَّ على رقبته ، أو لأعفرن وجهه في التراب ، ثم إنّه أتى النبي ﷺ وهو يصلي لِيَطأ ـ كما قال ـ على رقبته ، فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ، ويتقي بيديه ـ أي : فصار يرجع القهقرى واضعاًيديه على وجهه لهول ما رآه .

فقيل : مالك ؟ ـ أي : لِمَ رجعت خائفاً مذعوراً ؟ فقال أبو جهل : إن بيني وبين محمد لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة ـ وهي أجنحة الملائكة ـ فقال ﷺ : « لو دنا مني ـ أي :لوقرب مني ـ لاخْتَطَفَتْه الملائكة عضواً عضواً » فأنزل الله تعالى : ﴿ كَلّا إنّ الإنْسان لَيَطْغَى أَنْ رآه استَغْنَى إنّ إلى ربِّك الرجعى أرأيتَ الذي يَنْهَى عَبْداً إذا صَلّى . . ﴾ الآيات إلى آخر السورة) .

الدليل الرابع : الدال على معرفة الأشياء بخالقها ، وتسبيحها له حقيقة ، كلّ يسبح على وجه مناسب له ـ قال الله تعالى : ﴿ سَبَّحَ لله ما في السموات ومَا في الأَرْضِ وَهُوَ العزيزُ الحكيم ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ يسبح لله ما في السموات وما في الأرض المَلِكِ القُدوسِ العزيزِ الحكيم . . ﴾ .

فهذا العموم المفهوم من قوله تعالى : ﴿ ما ﴾ يَعم جميع الكائنات : من حيوانات ، ونبات ، وجماد فكلها تسبح الله تعالى حقيقة ، ولكن كما قال سبحانه : ﴿ ولكنْ لا تَفْقَهون تَسْبِيحهم إنّه كان حليماً غفوراً ﴾ ، فلولا حلمه الواسع ، ومغفرته الواسعة ، لأخذ الغافلين بالعقوبات بسبب غفلاتهم عن تسبيح الله تعالى وتحميده . . .

فما لكم لا تسبحون بحمده ، في حين أنّ جميع الأشياء تسبح بحمده ، وأنْتُم أكمل عقلاً ، وأوسع إدراكاً وفهماً ، فقوله تعالى : ﴿ إنه كان حليماً غفوراً ﴾ جاءت جواباً عن سؤال اقتضته الجملة السابقة ، وهي أنّه لِمَ لَمْ يعاقب الغافلين من المكلفين .؟

ويحتمل أن يكون تعليلاً لكونهم لا يفقهون تسبيح الأشياء ، فقد يسمعون ولا يفقهون ، وقد لا يسمعون فلا يفقهون ، وذلك من حلمه سبحانه بعباده ، فغفر ذلك عنهم ـ أي : ستر ذلك عنهم ، وذلك لعدم طاقتهم لتحمل ذلك ، فإنّهم لو سمعوا تسبيح الأشياء كلها : جمادها ، ونباتها ، وجدرانهم ـ لشقّ ذلك عليهم ، بل لشوش ذلك على أفكارهم وعقولهم . .

فهو حليم غفور ـ أي : ستر ذلك عنهم رحمة بعباده وحلماً ، كما ويؤيد ذلك ما رواه أبو الشيخ عن الحسن البصري رضي الله عنه قال : لولا ما عُمّي عليكم من تسبيح ما معكم في البيوت ما تقاررتم . اهـ ـ أي : ما كان لكم من قرار ، بل كنتم في قلق واضطراب .

ومثله ما رواه عن مسعر رضي الله عنه قال : لولا ما عَمّى الله عليكم ـ أي : حجب عنكم ـ من تسبيح خلقه ـ ما تقاررتم . اهـ

ولكنْ هناك مَنْ أعطاهم الله تعالى قوة السماع والتحمل ، دون اضطراب

ـ وهم الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم ، وإمامهم سيدنا محمد ﷺ الذي كان يقول : « إنّي أَرى مَا لا تَرونَ وأَسْمَع ما لا تسمعون » .

وقد يكشف الله تعالى عن ذلك لبعض أوليائه على مقدار معين محدود ، كما جاء عن سلمان وأبي الدرداء رضي الله عنهما أنّهما كانا يسمعان تسبيح الصحفة وهما يأكلان ـ كما روى ذلك البيهقي وأبو نعيم وغيرهما .

وكما روى أبو الشيخ عن مطرف رضي الله عنه : كان إذا دخل بيته فسبح سبحت معه آنية بيته .

وهكذا الحيوانات تسبح الله تعالى ـ روى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ (أنّه دخل على قوم وهم وقوف على دوابّ لهم ورواحل ، فقال لهم ﷺ : « اركبوها سالمة ، ودعوها سالمة ، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق ، فربّ مركوبة خير من راكبها ، وأكثر ذكراً لله تعالى منه . . ») .

وروى أبو الشيخ وابن مردويه عن أبي سعيد رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « لا تضربوا وجوه الدواب فإنّ كل شيء يسبح بحمده . . » .

وروى النسائي عن عبد الله بن عمرو قال : نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع وقال : « نقيقها تسبيح . . » .

وفي [الصحيحين] وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قرصت نملةٌ نبياً من الأنبياء فأمَرَ بقرية ـ أي : جحر ـ النمل فأُحرقت ، فأوحى الله تعالى إليه : من أجل نملة واحدة أحرقت أمّة من الأمم تسبّح . . » .

فالنّمل أمّة من الأمم تسبح الله تعالى . . .

قال سبحانه : ﴿ وما مِنْ دابّة في الأرض ولا طَائرٍ يَطِير بِجَنَاحَيْه إلاَّ أُمَمُ أَمْثالُكم مَا فَرَّطْنَا في الكِتَاب مِنْ شَيَءٍ ثُمَّ إلى رَبِّهم يُحْشَرون . . ﴾ .

فكل نوع أمّة ـ أي : هي مجتمعة إلى بعضها ، ومتعايشة ، ولها في حياتها وتعايشها نظام وانتظام ، وقيادة والتزام ، كما قال سبحانه عن النملة التي قالت كما في الآية : ﴿ يا أيّها النمل ادْخُلوا مساكنكم . . ﴾ الآية ـ فهي القائدة .

وهكذا النحل أمّة ولها نظام وانتظام في كوارتها ، وقيادة اليعسوب ـ والجميع يسبحون بحمد ربهم .

وهكذا الجمادات تسبح الله تعالى ، والطعام والشراب .

روى النسائي وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : (كنا أصحاب محمد ﷺ نعد الآيات بركة ، وأنتم تعدونها تخويفاً : بينما نحن مع رسول الله ﷺ ليس معنا ماء .

فقال ﷺ : « اطلبوا مَنْ مَعَه فضلُ ماء » .

فأتي ﷺ بماء فوضعه في إناء ، ثم وضع يده فيه ، فجعل الماء يخرج من بين أصابعه ، ثم قال : « حيّ على الطهور المبارك ، والبركة من الله تعالى » فشربنا منه .

قال ابن مسعود : كنا نسمع صوت الماء ، وتسبيحه وهو يُشرب) ـ وهذا الحديث أصله في [الصحيحين] .

ولفظ البخاري : قال ابن مسعود : (كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يُؤكل) .

نعم كانوا يسمعون تسبيح الطعام والشراب في حضرة سيدنا رسول الله ﷺ .

وفي رواية الإسماعيلي : (كنّا نأكل مع النبي ﷺ الطعام ، ونحن نسمع تسبيح الطعام) .

وعند الترمذي قال ابن مسعود : (كنا نأكل مع رسول الله ﷺ الطعام ، ونحن نسمع تسبيح الطعام) .

والزروع ، والنباتات تسبح بحمد ربها ، كما روى أبو الشيخ وابن مَردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ وإنْ مِنْ شيءٍ إلّا يُسَبِّح بحمده ﴾ قال : (الزرع يسبح بحمده ، وأجره لصاحبه) ـ ومثل هذا لا مجال فيه للرأي ـ فافهم .

وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة مولى ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وإنْ مِنْ شيءٍ إلّا يُسَبِّح بحمده ﴾ ، قال : (الأسطوانة تسبح ، والشجرة تسبح) . اهـ

وروى ابن أبي شيبة وأحمد في [الزهد] وأبو الشيخ عن ميمون بن مهران قال : أُتي أبو بكر الصديق رضي الله عنه بغراب وافر الجناحين ، فجعل ينشر جناحه ويقول : (ما صيد من صيد ولا عضدت ـ أي : قطعتْ ـ من شجرة ، إلا بما ضَيّعَتْ من تسبيح الله تعالى) . اهـ

فجميع أصناف العالم يسبحون بحمد الله تعالى ، وذلك بسبب ما أودع الله تعالى فيها من النفوس ـ كما قال المحققون من العارفين ـ وليس المراد من النفوس هنا الأرواح ، بل القوى التي بها المعرفة ، والشعور ، والتحسس ، كلٌّ صنف على حسبه ، فهناك النفوس النباتية ، وهناك النفوس الحيوانية ، وهناك نفوس الجمادات .

وقد أخبر سبحانه عن تسبيح الجبال مع داوود عليه السلام ، وأخبر عن تسبيح السموات ، وعن تسبيح الأرض كلّها : بترابها وأحجارها وجبالها

وحصبائها ، قال تعالى : ﴿ تُسَبِّح لَهُ السموات السبع والأرض ومَنْ فِيهِنَّ . . ﴾ .

فأخبرنا أنّ ذات السموات السبع تسبح ، وذات الأرض تسبح ـ أي : الأرضين تسبح ومن فيهن .

وفي حديث المعراج الذي رواه سعيد بن منصور ، وابن أبي حاتم ، وأبو نعيم ، والطبراني ، والبيهقي قال رسول الله ﷺ : « سمعت تسبيحاً في السموات العلى مع تسبيح كثير : سبحت السموات العلى من ذي المهابة ، مشفقات من ذي العلو بما علا ، سبحان العلي الأعلى سبحانه وتعالى » .

كما أخبرنا الله تعالى في كتابه العزيز عن سجود جميع الأشياء لله تعالى ، قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَر أَنَّ الله يَسْجُدُ لَهُ مَنْ في السموات ومَنْ في الأرض والشَّمسُ والقَمَرُ والنّجومُ والجِبَال والشَّجَرُ والدَّوابُّ وكَثِيْرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيه العَذَاب . . ﴾ الآية .

فجميع العوالم تسجد لله تعالى خالقها ، ولكن سجود كل نوع على حسب هيئته ، وصورة خلقه ، فليس سجود الأشياء على سبعة أعضاء كسجود الناس ، لأنّ الهيئة والصورة الخلقية مختلفة ، فكل يسجد على حسبه سجوداً حقيقياً .

وأما قول بعضهم : إنّ سجود هذه الأشياء الواردة في الآية السابقة ـ هو من باب المجاز ، باعتبار أنّها تدل على الله تعالى ؛ والمجاز بالاستعارة ، وذلك أنّه شبه انقيادها لأمر الله تعالى التكويني ، وتصرف الحق بها حسب ما قدره وقضاه ، شَبّه ذلك بخضوع الساجد لله تعالى ، فاستعير له كلمة السجود ، كما هي القاعدة في المجاز الذي علاقته التشبيه ـ **فهذا كلام مردود** على قائله بنص قوله تعالى في الآية نفسها : ﴿ وكثير من الناس ﴾ ـ أي :

المؤمنون الساجدون لله تعالى اختياراً .

ولو كان المراد خضوعهم تحت سلطان القدر ، وانقيادهم لأمر التكوين بالقدرة الإلهية ، لما قال : ﴿ وكثير من الناس ﴾ ، بل لقال حينئذ : وجميع الناس ، لأنّهم كلهم خاضعون لقدر الله تعالى وقضائه ، وأمره التكويني ، والكل دليل على وجود الله تعالى .

فقوله تعالى : ﴿ وكثيرٌ مِنَ الناس ﴾ صريح في سجودهم الاختياري التعبدي ، وأيضاً بدليل : ﴿ وكثيرٌ حَقّ عليه العذاب ﴾ ـ أي : لأنّهم لم يسجدوا لله تعالى في الدنيا ، فلو كان السجود مجازاً لجاز الكل فافهم . .

فإن قيل : لِمَ قال سبحانه : ﴿ وكثير من الناس ﴾ ولم يذكر الجن ، فإنّ كثيراً منهم قد آمنوا ، وسجدوا لله تعالى ؟ .

فالجواب : إنّ الله تعالى قد أخبر في صدر الآية الكريمة عن سجود جميع أصناف العالم المرئية وغير المرئية ، فقال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يَسْجد له من في السموات ومن في الأرض ﴾ فشمل قوله :﴿من في السموات ﴾ الملائكة والأرواح وغيرهما مما لا يرى ، وشمل قوله تعالى : ﴿ ومن في الأرض ﴾ من لا نراهم كالملائكة الذين هم في الأرض ، وكثيراً من الجن الذين يسجدون لله تعالى ، كما شمل قوله تعالى : ﴿ ومن في الأرض ﴾ العوالم الأرضية ، ثم خص بالذكر العوالم ، أظهر العوالم المرئية المشهودة بالعيان فقال سبحانه : ﴿ والشَّمسُ والقَمَرُ والنّجوم والجِبَالُ والشجر والدواب وكثير من الناس ﴾ .

فلم يذكر الملائكة في جملة المخصوصين بالذكر ، ولا الجن الساجدين منهم ، لأنّهم غير مشهودين بالعيان ، وإنّما شملهم عموم أول الآية الكريمة ـ هذا من وجه ـ ومن وجه آخر لم يقل : وكثيراً من الجن ؛ من باب

الاكتفاء ، باعتبار أنّهم مكلفون كالإنس ، فمنهم الساجدون ، ومنهم الجاحدون كما أخبر سبحانه عنهم بقوله : ﴿ وأنّا مِنّا المسلمون ومِنّا القَاسِطون فَمَنْ أَسْلم فَاولئكَ تَحَرَّوْا رَشَداً وأمّا القاسِطُون فَكَانوا لِجَهنَّم حَطَباً ﴾ ـ أي : هم كالإنس ، وقال تعالى : ﴿ إنّكم ومَا تعبدون من دون الله حَصَب جَهنَّم أَنْتُم لها وَارِدُون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿فاتّقوا النّار التي وَقُودُها النّاس والحجارة أُعدَّتْ للكافرين ﴾ أي : الكافرين من الإنس والجن ، فكلهم وقود النار .

هذا وإنّ في إخباره سبحانه وتعالى عن تسبيح الأشياء وسجودها له سبحانه ، في ذلك دليل على أنّها تعرف ربها حقاً ، فهي تسبحه ، وتسجد له عن معرفة به ، ولذلك أخبر سبحانه عن شعورها بالخشية منه سبحانه ، قال تعالى :﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلوبكم مِنْ بَعد ذلِك فهي كالحجارة أو أشد قَسْوةً وإنّ مِن الحجارة لما يَتَفَجّر منه الأنهار وإنّ مِنْهَا لَمَا يَشقَّقُ فَيَخْرُج منه الماء وإنّ مِنْها لَمَا يَهْبِطُ مِن خشية الله ﴾ ـ فأثبت سبحانه للجمادات الخشية من الله تعالى ـ والخشية إنّما تكون عن علم بعظمة الذي يُخشى منه، وهذا كما قال تعالى : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنا هذا القرآن على جَبَلٍ لرأيته خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً من خشيةِ الله وتلك الأمثال نَضْرِبها للنّاس لَعَلّهُم يَتفَكَّرُون ﴾ .

ومِنْ ثَمّ فإنّه سبحانه لما تجلّى على موسى عليه السلام عند جبل الطور ، فاندكّ الجبل من شدة الخشية من الله تعالى ولم يتحمل قال تعالى : ﴿ فَلَمّا تَجلّى رَبّه للجبل جعله دكاً وخرّ موسى صعقاً ﴾ .

روى الإمام أحمد ، والترمذي وصححه ، والحاكم وصححه ، وغيرهم عن أنس رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿ فَلَما تَجلّى رَبَّه للجبل جَعَله دَكّاً ﴾ قال : « هكذا » ـ وأشار بأصبعه ، ووضع طرف إبهامه

على أُنملة الخنصر ـ وفي لفظ : على المفصل لا على الخنصر .

فساخ الجبل ـ أي : انهال وصار تراباً ، وزالت صلابته وصخريته ، فصار هو والأرض سواء .

كما قال عكرمة في قوله تعالى : ﴿ فَلَمّا تجلى ربّه للجبل جعله دكاً ﴾ قال : كان الجبل حجراً أصمّ ، فلما تجلى ربّه صار تراباً دكاً من الدكوات . اهـ

أَترى أيها العاقل أنّ ذلك من باب المجاز ، وكيف يكون مجازاً وقد اندكّ الجبل وساخ كما قال ابن عباس ، وتفتّت كله وصار تراباً ، وهو أمر واقع حقيقة ، فالحجارة تهبط من خشية الله تعالى حقيقة واقعيّة، وما دامت خشيتها حقيقة ، فتسبيحها وسجودها ذلك أمر حقيقي أيضاً .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ تكاد السموات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وتَنْشَق الأَرْضُ وتَخِرّ الجبال هَدّا أنْ دَعَوا للرَّحْمن وَلداًوما ينبغي للرحمن أَنْ يتخذ ولداً ﴾ .

فأخبر سبحانه عن تَغَيّظِ السموات والأرض والجبال ، وعن شدة غضبها لأجل الله تعالى ، بسبب ما نسب إليه مما لا يليق بكمال الربوبية : ﴿ وما يَنْبغي للرحمن أَنْ يَتّخذ وَلَداً ﴾ فإنّ ذلك ينافي الكمال الإلهي ، وينافي العقل ، وينفيه الواقع ، فاتخاذ الولد لا ينبغي للرحمن الملك الديّان ـ من كل الاعتبارات والحيثيات . . .

ومن ذلك شعور جبل أُحد واهتزازه طرباً لّما علاه سيدنا رسول الله ﷺ ، ولم يسكن حتى سكّنه رسول الله ﷺ ـ فسكن .

جاء في [الصحيحين] والترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : صعد النبي ﷺ أُحداً ، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان ، فرجف بهم ـ فضربه النبي ﷺ برجله وقال : « اثبت أحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان » .

فهذا جبل أحد لما علاه حبيب الله تعالى الأكرم ﷺ ، أخذه الوجد ، وشدة الفرح ، فاهتز من الطرب ، فثبته ﷺ فثبت ، ولزم السكون والأدب ؛ ولا غرابة من اهتزازه فرحاً وطرباً ، لأنّه محب صادق المحبة لحبيب الله تعالى الأكرم ﷺ .

كما جاء في [الصحيحين] عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ـ وقد بدا له جبل أُحد ـ فقال : « هذا جبل أُحد يحبنا ونحبه . . » الحديث .

وفي رواية ابن ماجه : « وهو على تُرعة من ترع الجنة » .

وعند البزار والطبراني : « هذا جبل أُحد يحبنا ونحبه ، على بابٍ من أبواب الجنة » .

وعند أبي يعلى : « وهو على ركن من أركان الجنة » .

ومن ذلك اهتزاز المنبر تأثراً بتذكير رسول الله ﷺ وبمواعظه :

روى مسلم ، والنسائي ، وابن ماجه ، وأحمد واللفظ له ـ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (إن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر : ﴿ وَمَا قَدَرُوا الله حَقّ قَدْره والأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُه يَوْمَ القيامة والسموات مطوياتٌ بيمينه سبحانه وتعالى عَمّا يُشركون ﴾ ورسول الله ﷺ يقول بيده هكذا ، يحركها يقبل بها ويدبر : « يمجد الرب نفسه : أَنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الملك ، أنا العزيز ، أنا الكريم » فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا ليخرّن به) .

فالمنبر الشريف له شعور وتحسس بارتقاء رسول الله ﷺ فوقه ، وقد اهتز متأثراً بوعظه ﷺ .

وفي رواية : قال ابن عمر : (حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه ، حتى إني أقول : أساقط برسول الله ﷺ) ؟

وفي رواية البزار وغيره عن ابن عمر : (أنّ رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية على المنبر : ﴿ ومَا قَدرُوا الله حَقّ قدره ﴾ حتى بلغ ﴿ عَمّا يشركون ﴾ فقال المنبر ـ أي : انفعل المنبر وتحرك ـ هكذا ، فجاء وذهب ثلاث مرات) .

فيا أيها العاقل أترى أنّ تحسس المنبر ، وشعوره ، وتأثره ؛ بمواعظ رسول الله ﷺ من باب المجاز !! بل هو من باب الحقيقة ، وقد تحرك بالفعل ، وذهب وجاء ، ورآه أصحاب النبي ﷺ فليس للمجاز ههنا جواز !! . .

❊ ❊ ❊ ❊

ومن ذلك حنين الجذع وصياحه لما فارقه رسول الله ﷺ وصعد المنبر .

روى البخاري في **علامات النبوة** عن جابر رضي الله عنه ، أنّ النبي ﷺ كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة ـ أي : يجعل ظهره إليها ـ وهي في منتصف المسجد من جانب القبلة ، فيخطب ، فقالت امرأة من الأنصار أو رجل : يا رسول الله ألا نجعل لك منبراً ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : « إنْ شئتم » .

فجعلوا له منبراً ، فلما كان يوم الجمعة دُفع إلى المنبر ، وفي رواية : رفع ـ فصاحت النخلة صياح الصبي ، ثم نزل النبي ﷺ فضمها إليه تَئِن ـ النخلة ـ أَنِينْ الصبي الذي يُسكّنُ .

فقال ﷺ : « كانت ـ أي : النخلة ـ تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها » .

وروي أيضاً عن جابر رضي الله عنه قال : (كان المسجد مسقوفاً على جذوع من نخل ـ يعني : أن الجذوع كانت كالأعمدة له ، فكان النبي ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها ، فلما صنع له المنبر وكان عليه ، فسمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العِشَار ، حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليها فسكنتْ) .

وروى البخاري أيضاً عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (كان النبي ﷺ يخطب إلى جذع ، فلما اتّخذ المنبر تحول إليه ، فَحَنّ الجذع ، فأتاه فمسح يده عليه) .

وفي هذه الأحاديث دليل على ثبوت الإدراك والشعور للجمادات والنباتات ، وعلى تأثّرها بسماع الذكر ـ أي : مواعظه ﷺ وتذكيره ، ولذلك قال ﷺ مبيناً سبب حنين النخلة وأنينها : « كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها » .

وكان الحسن البصري رضي الله عنه إذا حدث بحديث حنين الجذع يقول : يا معشر المسلمين ، الخشبة تحنّ إلى رسول الله ﷺ شوقاً إلى لقائه ـ فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه اهـ .

والحنين في اللغة : هو الشوق لمن يَهوى ، وتوقان النفس إليه ، وقد يصحبه البكاء .

وقد ورد حديث حنين الجذع عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم ، من طرق كثيرة تفيد القطع ، فهو متواتر كما نَصّ على ذلك القاضي عياض ، والتاج السبكي ، وغيرهما .

وقد نقل ابن أبي حاتم عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه قال : ما أعطى الله تعالى نبياً مثل ما أعطى نبينا محمداً ﷺ .

فقيل له : أعطي عيسى إحياء الموتى !!

فقال الشافعي : أُعطي محمد ﷺ حنين الجذع ، حتى سَمع صوته ـ أي : الصحابة ـ فهذا أكبر من ذلك اهـ .

ـ أي : أعطى الله تعالى ذلك نبينا محمداً ﷺ علاوة على إحياء الموتى .

قال الإمام البيهقي : قصة حنين الجذع من الأمور الظاهرة ، التي حملها ورواها الخلف عن السلف ، رواية الأخبار الخاصة كالتكليف اهـ .

يعني : أنّ العلماء رووها بأسانيد موثقة ، اهتماماً بأمرها ، كما رووا أحاديث التكاليف الشرعية .

وروى الدارمي في [سننه] عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه رضي الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ يصلي إلى جذع ويخطب إليه - إذ كان المسجد عريشاً - أي : مسقفاً بالجريد وكانت الجذوع كالأعمدة له - .

فقال له رجل من أصحابه : ألا نجعل لك منبراً تقوم عليه يراك الناس يوم الجمعة ، وتسمع من خطبتك ؟ .

قال ﷺ : « نعم » .

فصنع له ثلاث درجات ، هنّ اللواتي على المنبر - أي : كان المنبر ثلاث درجات - فلما صنع المنبر وضعه رسول الله ﷺ موضعه الذي هو فيه ، فلما جاء رسول الله ﷺ يريد المنبر ، مرّ عليه - أي : تجاوز الجذع - فلما جاوزه خار الجذع - أي : سُمع له صوت خوار يشبه صوت البقر - أي : حنينه - حتى تصدع وانشق ، فرجع رسول الله ﷺ فمسحه بيده حتى سكن ثم رجع إلى المنبر يخطب) .

وروى أبو يعلى ، والدارمي واللفظ له عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ يخطب إلى لزق - أي : جانب - جذع ، فأتاه رجل رومي فقال : أَصْنع لك منبراً تخطب عليه - فصنع له منبراً ، فلما قام عليه النبي ﷺ يخطب ، حَنّ الجذع حنين الناقة إلى ولدها ، فنزل إليه رسول الله ﷺ فضمّه إليه فسكن ، فأمر به أنْ يحفر له ويدفن) .

وروى أبو يعلى والدارمي واللفظ له عن أنس رضي الله عنه : (أنّ

النبي ﷺ كان يقوم الجمعة فيسند ظهره إلى جذع منصوب في المسجد ، فيخطب الناس ، فجاء رومي فقال : ألا أصنع لك شيئاً تقعد عليه ، وكأنك قائم ؟ فصنع له منبراً له درجتان ، ويقعد على الثالثة ، فلما قعد النبي ﷺ على ذلك المنبر ـ خار الجذع كخوار الثور ـ وفي رواية : جأر الجذع ـ من الجؤار وهو الصياح ـ حتى ارتج المسجد لجؤاره أو خواره ـ حزناً على رسول الله ﷺ ، فنزل إليه النبي ﷺ فالتزمه ، وهو يخور ، فلما التزمه رسول الله ﷺ سَكن ثم قال ﷺ : « والذي نفس محمد بيده ، لَوْ لَمْ ألتزمه لما زال هكذا » ـ أي : الصياح إلى يوم القيامة حزناً على رسول الله ﷺ ، فأمر به رسول الله ﷺ فدفن) ، وروى الترمذي نحو هذا الحديث .

وروى ابن ماجه ، والإمام أحمد من طريق الحسن البصري عن أنس رضي الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ إذا خطب يوم الجمعة يسند ظهره إلى خشبة ـ وهي : جذع نخلة ـ فلما كثر الناس قال : « ابنوا لي منبراً » ـ أراد أن يُسمعهم ـ فبنوا له عتبتين ـ أي : درجتين ـ والثالثة هي التي يجلس عليها كما تقدم ـ فتحول رسول الله ﷺ من الخشبة ـ أي : الجذع إلى المنبر ـ) .

قال الحسن البصري : فأخبر أنس بن مالك رضي الله عنه (أنّه سَمِعَ الخشبة تحنّ كحنين الوالِه ، فما زالت تحنّ حتى نزل رسول الله ﷺ عن المنبر فمشى إليها فاحتضنها فسكنت) .

فكانت فكرة صنع المنبر أوّلاً من تميم الداري ، هو أول من أشار بذلك ، ثم إنّ الرجل الرومي واسمه : ميمون قال لرسول الله ﷺ : ألا أصنع لك شيئاً ؟ كما تقدم في رواية أنس ، فقال ﷺ بعد ذلك : « ابنوا لي منبراً » .

وروى الدارمي عن ابن عباس رضي الله عنهما : (أن النبي ﷺ كان يخطب إلى جذع قبل أنْ يتخذ المنبر ، فلما اتخذ المنبر وتحول إليه حنّ الجذع ـ أي : لفراق رسول الله ﷺ ـ فاحتضنه فسكن) .

وقال ﷺ : « لو لم أحتضنه لحنّ إلى يوم القيامة » .

فيا أيها العاقل اللبيب : لقد حنّ هذا الجذع حنين الناقة لما فارقه رسول الله ﷺ ، كما جاء في رواية : كصوت العشار ، وهي النوق الحوامل ، وأنّ أنين الصبي ، فسكنه رسول الله ﷺ تسكين الصبي ، حَتّى هدأ وسكن، أَلَيْس هذا دليلاً على أن الله تعالى خلق في الجمادات والنباتات إدراكاً وشعوراً ، وتَحسّساً على وجه مناسب لها ، كما خلق سبحانه في الحيوانات إدْراكاً وشعوراً وتحسّساً على وجه مناسب لها ، وبذلك عَرَفَتْ خالقها ، ورازقها ، وسبحته ، وسجدت له ، وبذلك عرفت أكرم خلق الله تعالى وأحبهم إلى الله تعالى ، ألا وهو سيدنا محمد ﷺ ، وشهدت له بالرسالة ، وسلمت عليه ، كما سيأتي إنْ شاء الله تعالى ـ وذلك من باب الحقيقة الواقعة المشهودة المسموعة ، شاهدها الصحابة رضي الله عنهم ،وسمعوها ،وليس للمجاز في هذه الطرق جواز .

وإذا لم تر الهلال فسلّم ... لأناس رأوه بالأبصار

ويرحم الله تعالى القائل :

وأُلقي حتى في الجمادات حبُّه ﷺ ... فكانت لإهداء السلام له تَهدى

وفارق جذعاً كان يخطب عنده ... فأنَّ أَنين الأم إذا تجد الفقدا

يَحنّ إليه الجذع يا قوم هكذا ... أَمَا نحن أولى أنْ نحنَّ له وَجْدا

إذا كان جذع لم يطق بُعدَ ساعةٍ ... فليس وفاءً أن نُطيق له بُعدا

صلى الله عليه وآله وسلم .

وقد جاء في رواية البيهقي عن عائشة رضي الله عنها : (أن النبي ﷺ خيّر الجذع بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة) .

وقد روى الإمام الدارمي ذلك أيضاً في الجزء الأول من [سننه] عن بريدة رضي الله عنها : أنّ النبي ﷺ قال للجذع : « اختر أنْ أغرسك في المكان الذي كنت فيه » - أي : البستان - « فتكون كما كنت » - أي : غصناً مثمراً - « وإن شئت أنْ أغرسك في الجنة ، فتشرب من أنهارها وعيونها ، فيحسن نبتك ، وتثمر فيأكل أولياء الله تعالى من ثمرتك ونخلك » ؟ - فقال الجذع : بل تغرسني في الجنة ، فيأكل مني أولياء الله تعالى ، وأكون في مكان لا أبلى فيه .

فقال النبي ﷺ : « قد فعلتُ » .

ثم قال النبي ﷺ : « اختار دار البقاء على دار الفناء » ، كما في [الدلائل] للبيهقي ،و[سنن] الدارمي .

الدليل السادس : ومن الأدلة على أنّ الله تعالى خلق في الجمادات والنباتات والحيوانات إدراكاً وشعوراً مناسباً لنوعيتها ، وبذلك الإدراك تعرف ربّها : خالقها ورازقها ، من الأدلة على ذلك كله ، هي تكليم الجمادات والنباتات والحيوانات لسيدنا محمد ﷺ ، وتسليمها عليه ، وشهادتها له بالرسالة صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أبد الآبدين . .

* * * *

تكليم الجمادات والحيوانات

وشهادتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم

قال الحافظ الدارمي في [سننه] :

باب ما أكرم الله تعالى به نبيه ﷺ من إيمان الشجر به ، والبهائم ، والجن ،ثم أورد الأحاديث التالية :

عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّي لأعرف حجراً بمكة كان يسلّم علي قَبْل أن أُبعث ، إنّي لأعرفه الآن » رواه مسلم والترمذي أيضاً .

وقد اختلف في هذا الحجر ـ فقيل : هو الحجر الأسود ، وقيل : هو حجر في داخل مكة المكرمة ، وكان أهل مكة يعرفونه ويسمون الزقاق الذي فيه : زقاق الحجر .

ثم روى الدارمي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : (كنا مع رسول الله ﷺ بمكة ، فخرج في بعض نواحيها ، فلما استقبله شجر ولا حجر ولا مَدَر ولا جَبَل إلاّ قال له : السلام عليك يا رسول الله) . ورواه الترمذي وحسنه ، والحاكم وصححه ، والطبراني ، وأبو نعيم ،والبيهقي بلفظ : (لقد رأيتني أدخل معه الوادي فلا يمر بحجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله وأنا أسمعه) .

وجاء في رواية لأبي نعيم : (وكان رسول الله ﷺ يرد عليهم : « وعليك

السلام » ـ وكان جبريل علمه التحية) .

ومن ذلك تأمين أُسكفّة[1] الباب :

فقد روى البيهقي في [الدلائل] عن أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي رضي الله عنه قال : (قال رسول الله ﷺ للعباس بن عبد المطلب : « يا أبا الفضل[2] لا ترم[3] منزلك أنت وبنوك غداً حتى آتيكم ، فانّ لي فيكم حاجة » .

فانتظروه حتى جاء ﷺ بعدما أضحى ، فدخل عليهم ، فقال : « السلام عليكم » .

فقالوا : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته .

قال صلى الله عليه وسلم : « كيف أصبحتم » ؟

فقالوا : أصبحنا بخير ، ونحمد الله تعالى .

فقال لهم : « تقاربوا » ـ فتقاربوا يزحف بعضهم إلى بعض ، حتى إذا أمكنوه ـ أي : صاروا ملاصقين له ـ اشتمل عليهم بِمَلاءته ـ أي : ضمّهم وشملهم بإزار واسع ـ فقال : « يا ربّ هذا عمي ، وصنو أبي ، وهؤلاء أهل بيتي : فاسترهم من الناس كستري إياهم بملاءتي هذه » .

قال : فأمّنت أسكفّة الباب ، وحوائط البيت ، فقالت : آمين آمين) .

قال في [المواهب] : رواه البيهقي مطوّلاً ، ورواه ابن ماجه مختصراً . اهـ

(١) أسكفة الباب : هي عتبة الباب العليا وقد تستعمل في السفلى .

(٢) كناه باسم أكبر أولاده .

(٣) أي : لا تبرح .

وأما شهادة النباتات وتسليمها على رسول الله ﷺ وانقيادها لأمره :

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : بمَ أعرف أنّك رسول الله ﷺ ؟

فقال له : « إن دعوتُ هذه العِذق من هذه النخلة أتشهد أنّي رسول الله » ؟

فقال الأعرابي : نعم .

فدعاه رسول الله ﷺ أي : دعا العِذق فجعل ـ العذق ـ ينزل من النخلة حتى سقط إلى النبي ﷺ ، ثم قال له ﷺ : « ارجع » ، فعاد إلى مكانه الذي هو فيه ، فأسلم الأعرابي وقال : والله لا أكذّبك بشيء تقوله بعدها أبداً ، أشهد أنّك رسول الله ـ وآمن) .

وفي رواية : (فجعل العذق ينزل من النخلة شيئاً فشيئاً ، حتى سقط على الأرض ، فأقبل وهو يسجد ويرفع ، حتى انتهى إلى النبي ﷺ) . . الحديث رواه الترمذي وقال : صحيح ، وكذا رواه البخاري في [التاريخ] وأبو يعلى ، وابن حبان ، والبيهقي .

وعن جابر رضي الله عنه قال : (سرنا مع النبي ﷺ حتى نزلنا وادياً أفج ـ واسعاً ـ فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته ، فاتبعته بإداوة ـ إناء ـ منْ ماء ، فنظر رسول الله ﷺ فلم ير شيئاً يستتر به ـ من الناس ـ فإذا شجرتان في شاطىء الوادي فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما فأخذ ببعض أغصانها فقال : « انقادي ـ ميلي ـ عليّ بإذن الله تعالى » فانقادت معه ـ مالت عليه وسترته ـ ثم فعل بالأخرى كذلك حتى إذا كان بالمنصف بينهما ، قال : « التئما ـ أي : انضما واجتمعا ـ عليّ بإذن الله تعالى » فالتأمتا) . . الحديث وقد رواه مسلم بطوله .

وعن يعلى بن مرة الثقفي رضي الله عنه قال : (كنت مع النبي ﷺ في مسير - فذكر الحديث إلى أنْ قال - : ثم سرنا حتى نزلنا منزلاً ، فنام رسول الله ﷺ ، فجاءت شجرة تشق الأرض حتى غشيته) .

وفي رواية : (حتى طافت به - أي : دارت حوله ﷺ - ثم رجعت إلى مكانها ، فلما استيقظ رسول الله ﷺ ذكرت له ذلك فقال ﷺ : « شجرة استأذنت ربها في أن تسلم عليّ فأذن لها ») .

وفي هذا دليل على أنّه ﷺ كان قد علم بمجيئها قبل إخبار يعلى له بذلك ، وكان ذلك وهو ﷺ نائم ؛ فكان ﷺ تنام عيناه وقلبه يقظان ، كما كان يوحى إليه في نومه ، فحين زارته الشجرة وسلّمت عليه علم بذلك وشعر ، فحصل مقصودها .

وهذا الحديث رواه الإمام أحمد، والطبراني، والبغوي، والبيهقي - وهو حديث طويل .

وأما شهادة الحيوانات لرسول الله ﷺ :

فمن ذلك قصة الذئب :

روى الإمام أحمد في [مسنده] بإسناد جيّد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : (عدا الذئب على شاةٍ فأخذها ، فطلبه الراعي - أي : سعى خلفه - فانتزعها منه ، فأقعى الذئب على ذنبه ، وقال الذئب للراعي : ألا تتقي الله ؟ تنزع منّي رزقاً ساقه الله إليّ .

فقال الراعي : يا عجباً ذئب مقع على ذنبه ، يكلمني بكلام الإنس !!

فقال الذئب : ألا أخبرك بأعجب من ذلك ؟ محمد ﷺ بيثرب يخبر الناس بأنباء ما قد سبق .

قال أبو سعيد : فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة ؛ فزواها ـ أي : جمع غنمه ـ إلى زاوية من زوايا المدينة ، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره ، فأمر رسول الله ﷺ فنودي بالصلاة جامعة ، ثم خرج ﷺ فقال للراعي : « أخبرهم » ، فأخبرهم) .

وفي رواية لأحمد عن أبي هريرة ، فقال ﷺ للراعي : « إذا صليت الصبح معنا غداً فأخبر الناس بما رأيت » .

فلما أصبح الرجل وصلى الصبح أمر ﷺ فنودي بالصلاة جامعة ، وقال للأعرابي : « أخبرهم » ، فأخبرهم .

فقال ﷺ : « صدق والذي نفسي بيده ، لا تقوم الساعة حتى يَخْرج الرجل وأهله ، فيخبره نعله ؛ أو سوطه ؛ أو عصاه ؛ بما أحدث أهله من بعده . . » .

وقد روى حديث تكليم الذئب الترمذي ، والحاكم وصححاه ، ورواه غيرهما .

وروى البخاري في [تاريخه] والبيهقي وأبو نعيم عن أهبان بن أوس أنه قال : (كنت في غنم لي فشد الذئب على شاةٍ منها ، فصحت عليه ، فأقعى الذئب على ذنبه يخاطبني وقال : مَنْ لها يوم تُشغل عنها ؟ تَمنعني رزْقاً رزقنيه الله تعالى ؟!!

قال : فصفقت بيدي ، وقلت : والله ما رأيت شيئاً أعجب من هذا !!!

فقال الذئب : أعجب من هذا رسول الله بين هذه النخلات ـ أي : نخلات المدينة المنورة ـ يدعو إلى الله تعالى) .

وفي رواية لغير البخاري : (قال الذئب : رسول الله ﷺ بين هذه

النخلات يحدث الناس بأنباء ما قد سبق ، وأنباء ما يكون ، وهو يدعو إلى الله تعالى وعبادته) .

قال أهبان : (فأتيت إليه ﷺ فأخبرته وأسلمت) .

قال الحافظ ابن عبد البر وغيره : كَلَّم الذئب ثلاثة من الصحابة : رافع بن عميرة، وسلمة بن الأكوع ، وأهبان بن أوس . اهـ .

قال الحافظ الزرقاني رضي الله عنه في [شرح المواهب] : وإنّما كان أمر رسول الله عليه الصلاة والسلام أعجب ، لأنّ الإخبار بالغيب معجزٌ ، فهو أعجب من نطق حيوان أنطقه الله الذي أنطق كل شيء ، لكنْ ليس العجب واقفاً على مجرد إخباره ﷺ بذلك ، بل على جحود قومه وتكذيبهم له ـ مع ظهور الآيات البينات على يديه ، كما جاء في بعض طرق هذا الحديث مما ساقه في [الشفاء] وغيره : فقال الذئب : ألا أخبرك بأعجب من كلامي ؟ رسول الله في النخلات بين الحرّتين ـ أي : المدينة المنورة ـ يدعو الناس إلى الهدى وإلى الحق ـ وهم يكذبونه !!!اهـ .

ومن المعلوم أنّ نطق الحيوان الأعجم بقدرة الله تعالى وبإقداره على ذلك هو أمر عجيب بالنسبة للعادة المألوفة ؛ لا بالنسبة للعقل ، فإنّ ذلك لا يخالف العقل السديد ؛ فإنّ الذي أنطق الإنسان ينطق الحيوان .

وأما عبادة الأصنام والحجارة ، واتخاذ شريك مع الله تعالى ، مع ظهور البينات المحمدية القاطعة ، وحججه الساطعة على بطلان ذلك ، فإنّ هذا أعجب بكثير ، لأنّ فيه مخالفة للعقل والواقع ، والعادة الحسنة المستقيمة .

وإلى هذه الحجة الظاهرة أشار الذئب بقوله : ألا أخبرك بأعجب من كلامي ؛ هذا رسول الله يدعو الناس إلى الهدى وإلى الحق ـ وهم يكذبونه .

ومن جملة تكليم الحيوانات وشهادتها وطاعتها لسيدنا رسول الله ﷺ قصة الجمل :

فعن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما قال : دخل رسول الله ﷺ حائط رجلٍ من الأنصار فإذا فيه جمل ، فلما رأى النبي ﷺ حَنَّ وذرفت عيناه ، فأتاه رسول الله ﷺ فمسح ذفراه ـ أي : العظمة خلف الأذن ـ فسكت .

فقال ﷺ : « مَنْ ربّ ـ مالك ـ هذا الجمل » ؟

فقال فتى من الأنصار : هو لي يا رسول الله .

فقال له : « أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملّكك الله تعالى إياها ، فإنه شكى إليّ أنّك تجيعه ، وتدئبه » ـ أي : تتعبه بكثرة استعماله ، رواه أبو داود والإمام أحمد في [مسنده] .

فهذا الجمل عرف النبي ﷺ وشكى إليه الجوع والتعب .

وهناك الجمل الذي شكى إليه مخافة نحره :

كما روى الدارمي ، والبزار ، والبيهقي بإسناد جيد عن جابر رضي الله عنه : أنّ جملاً جاء إلى رسول الله ﷺ ، فلما كان قريباً منه خر الجمل ساجداً .

فقال ﷺ : « يا أيّها الناس من صاحب هذا الجمل » ؟

فقال فتية من الأنصار : هو لنا .

قال : « فما شأنه » ؟

قالوا : سقونا عليه ـ أي : سقينا عليه ـ عشرين سنة ، فلما كبر سنه أردنا نحره .

فقال ﷺ : « أتبيعونه » ؟

قالوا : هو لك يا رسول الله .

فقال ﷺ : « أحسنوا إليه حتى يأتي أجله » .

فقالوا : يا رسول الله نحن أحق أن نسجد لك من البهائم .

فقال : « لا ينبغـــي لبشرٍ أنْ يسجد لبشر . . » الحديث .

وهناك الجمل الذي استصعب على أهله :

روى النسائي ، والإمام أحمد وغيرهما عن أنس رضي الله عنه قال : كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يَسنون عليه ـ أي : يسقون ـ بِحَمْل قُرَب الماء عليه ،أو بجره الدلاء الكبيرة من البئر ـ وإنه استصعب عليهم ، فمنعهم ظهره ـ أي : الانتفاع به ـ وإنّ الأنصار جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا : إنّه كان لنا جمل نسني عليه ، وإنّه استصعب علينا ومنعنا ظهره ، وقد عطش النخل والزرع .

فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « قوموا » .

فقاموا فدخل الحائط ـ أي : البستان ـ والجمل في ناحية ،فمشى رسول الله ﷺ نحوه ـ أي : إلى جهته ـ

فقالت الأنصار : يا رسول الله قد صار الجمل مثل الكلْب الكَلِب ـ أي : العقور الذي صار به داء كالجنون ـ وإنّا نخاف عليك صولته ـ هجمته ـ

فقال رسول الله ﷺ : « ليس عليّ منه بأس » .

فلما نظر الجمل إلى رسول الله ﷺ أقبل نحوه حتى خرّ ساجداً بين يديه ، فأخذ رسول الله ﷺ بناصية الجمل أذلّ ما كان قط ـ أي : في حالة ذليل

منقاد، لم يسبق له مثلها - حتى أدخله في العمل .

فقال له أصحابه : يا رسول الله هذه بَهيمة لا تعقل تسجد لك - أي : تعظيماً - ونحن نعقل فنحن أحق بالسجود لك .

فقال رسول الله ﷺ : « لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر » الحديث .

ومن ذلك شكوى الحُمّرة - وهي نوع من الطير يشبه شكل العصفور - :

روى أبو داود ، والبيهقي وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر ، فرأينا حُمّرة ، ومعها فرخان لها ، فأخذناهما ، فجاءت الحُمّرة تعرش[1] ، فلما جاء رسول الله ﷺ قال : « من فجع هذه بولدها ؟ ردّوا ولدها إليها » .

وفي رواية البيهقي : قال ﷺ : « من فجع هذه بفرخيها ؟ ردّوهما موضعهما » - فرددناهما .

ورأى ﷺ قرية نمل قد أحرقناها فقال : « من أحرق هذه » ؟ قلنا : نحن .

فقال : « إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار » .

---

(١) بالعين المهملة والشين المعجمة أي : ترفرف وترخي جناحيها وتدنو من الأرض . وروي : تفرش من فرش الجناح وبسطه .

روى الإمام أحمد في [مسنده] وابن أبي شيبة في [مصنفه] والدارمي في [سننه] وأبو نعيم وغيرهم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : دفعنا مع رسول الله ﷺ إلى حائط بني النجار ، فإذا فيه جمل لا يدخل الحائط أحد إلا شَدّ عليه ، فأتاه النبي ﷺ فدعاه ، فجاء واضعاً مشفره - أي شفته - في الأرض ، حتى برك بين يديه ﷺ فقال : « هاتوا خطاماً » ، فخطمه ودفعه إلى صاحبه ، ثم التفت ﷺ فقال : « ما بين السماء والأرض أحدُ إلا يَعلم أنّي رسول الله إلا عاصي الجن والإنس » .

وفي رواية للبيهقي ، والطبراني ، وأبي نعيم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : لما برك الجمل بين يدي النبي ﷺ ، قال أبو بكر : يا رسول الله كأنّه علم أنك نبي الله ؟!!!

فقال رسول الله ﷺ : « ما بين لابتيها[1] أحد إلا يعلم أنّي نبي الله إلا كفرة الجن والإنس . . . » .

وفي رواية لأبي نعيم : عن بريدة رضي الله عنها : فقال أبو بكر : قد عرفك يا رسول الله أنّك نبي الله ؟!!

فقال ﷺ : « إنّه ليس من شيء إلا يَعرف أني رسول الله - غير كفرة الجن

(١) تثنية لابة ، وهي الحرّة من الأرض - أي : ما بين لابتي المدينة المنورة .

والإنس » .

ومن ذلك سجود الغنم له ﷺ :

روى أبو نعيم عن أنس رضي الله عنه قال : دخل رسول الله ﷺ حائطاً ـ أي بستاناً ـ لأنصاري ، ومعه أبو بكر وعمر ورجل من الأنصار ، وفي الحائط ـ أي : في البستان ـ غنم فسجدت له .

فقال أبو بكر رضي الله عنه : نحن أحق بالسجود لك من الغنم .

فقال رسول الله ﷺ : « لا ينبغي لأحدٍ أنْ يسجد لأحد »(١) .

فقد سجدت الغنم تعظيماً له ﷺ لما شاهدت نور نبوته ، وألهمها الله تعالى وعرّفها به ﷺ .

ومن ذلك نطق الشاة المَصليَّة بأنها مسمومة :

قال الإمام الدارمي في [سننه] : باب ما أكرم به النبي ﷺ من كلام الموتى :

ثم روى بسنده عن أبي سلمة رضي الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ يأكل الهدية ولا يقبل الصدقة ، فأهدت له امرأة من يهود(٢) خيبر شاةً مصليّة ـ أي : مشوية ـ فتناول منها ﷺ ،وتناول منها بشر بن البراء ، ثم رفع النبي ﷺ يده ثم قال : « إنّ هذه ـ أي : الشاة المَصليَّة ـ تخبرني بأنّها مسمومة » .

فمات بشر بن البراء .

---

(١) ورواه البيهقي وغيره ، وقال الحافظ الزرقاني : ورواه أيضاً الإمام أحمد والبزار .

(٢) نعم جاء في بعض الروايات لغير الدارمي أنّها أهدت الشاة المصْلية إلى السيدة صفية أم المؤمنين رضي الله عنها ، بعد أن تزوجها رسول الله ﷺ ، فوضعها ﷺ للطعام ، ومعه بِشْر ـ وكان ما كان . .

فأرسل إليها النبي ﷺ فقال : « ما حملك على ما صنعت » ؟

فقالت اليهودية : إنْ كنت نبياً لم يضرك شيء ، وإنْ كنت مَلِكاً أرَحْت الناس منك) الحديث .

وقد روى الإمام البخاري هذا الحديث ، وهذا لفظه :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما فُتحت خيبر ، أُهديت للنبي ﷺ شاة فيها سمّ ، فقال رسول الله ﷺ : « اجمعوا لي من كان ههنا من اليهود »[1] .

وفي رواية : « من يهود » ـ فجمعوا له ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « إنّي سائلكم عن شيء فهل أنتم مصدقيّ » ؟

وفي رواية : « فهل أنتم صادقوني عنه » ؟

فقالوا : نعم يا أبا القاسم .

فقال رسول الله ﷺ : « من أبوكم » ؟ قالوا : فلان .

فقال لهم رسول الله ﷺ : « كذبتم بل أبوكم فلان » .

قالوا : صدقت وبررت .

فقال لهم : « هل أنتم صادقيّ » ؟ وفي رواية : « صادقوني عن شيء إنْ سألتكم عنه » ؟

قالوا : نعم يا أبا القاسم ، وإنْ كَذَبْناك عرفت كذبنا ، كما عرفته في أبينا .

فقال لهم رسول الله ﷺ : « مَنْ أهل النار » ؟ قالوا : نكون فيها يسيراً

---

(١) قال ذلك بعد أنْ لاك منها مضغة ثم لفظها حين أخبره العظم أنها مسمومة ؛ وازْدَرَدَ ـ أي : ابتلع بشر لقمته كما روى ذلك ابن إسحاق وغيره . اهـ [شرح المواهب]

ـ أي : أياماً معدودات ـ ثم تخلفوننا فيها .

فقال لهم رسول الله ﷺ : « اخسؤوا فيها ، والله لن نخلفكم فيها أبداً » ـ أي : لا تخرجون منها ولا نخلفكم فيها أبداً ـ

ثم قال لهم ﷺ : « فهل أنتم صادقي » ؟ وفي رواية : « صادقوني عن شيء إنْ سألتكم عنه » ؟ فقالوا : نعم .

قال : « هل جعلتم في هذه الشاة سُمّاً » ؟ فقالوا : نعم .

فقال ﷺ : « ما حملكم على ذلك » ؟

قالوا : أردنا إنْ كنت كذاباً ـ وفي رواية : كاذباً ـ أن نستريح منك ، وإن كنت نبياً لم يضرك[1] .

وإنّما نسب ﷺ لهم الجعل فقال لهم : « هل جعلتم في هذه الشاة سُمّا » ؟ ـ مع أن المرأة اليهودية هي التي جعلته في هذه الشاة ، ذلك لأنهم علموا به حين شاورتهم وأجمعوا لها على سُمّ معينّ ـ فهم شركاء في الجعل .

وقد جاء في رواية أبي داود عن جابر رضي الله عنه أن يهودية من أهل خيبر سَمّت شاة مصليّة ـ أي : مشوية ـ ثم أهدتها إلى النبي ﷺ فأخذ رسول الله ﷺ فأكل منها ـ أي : مضغ مضغة ـ ثم لفظها ـ كما جاء في رواية ابن إسحاق والدمياطي وغيرهما وأكل رهط من أصحابه معه .

فقال رسول الله ﷺ : « ارفعوا أيديكم » ، وأرسل إلى اليهودية فقال لها : « سَمَمْتِ هذه الشاة » ؟ فقالت : من أخبرك ؟!! . قال ﷺ : « أخبرتني هذه وفي يدي » مشيراً للذراع .

قالت : نعم .

---

(١) ومن أشكل عليه هذه الرواية فليراجع [شرح المواهب] يجد الجواب الشافي . .

زاد البيهقي في روايته : قال لها : « ما حملك على ذلك » ؟ قالت : قلت : إنْ كنت نبياً فلا يضره ؛ وإنْ لم يكن نبياً استرحنا منه .

وقد جاء في مغازي سليمان التيمي : أنها قالت : قلت : إن كنت نبياً لم يضرك وإن كنت كاذباً أرحتُ الناس منك ، وقد استبان لي الآن أنك صادق وأنا أشهدك ومن حضر أني على دينك ، وأن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله قال : فانصرف عنها حين أسلمت .

وقد جزم في [الإصابة] بأنها صحابية والله أعلم . اهـ ملخصاً من شرح المواهب .

فانظر يا أخي العاقل ، كيف نطقت هذه الشاة المصلية نطقاً صريحاً بأنها مسمومة ـ نعم لقد أنطقها الله تعالى الذي أنطق كل شيء ، وفي هذا النطق شهـادة بأن سيدنا محمداً رسول الله حقاً صلى الله عليه وآله وسلم ، كما أن عدم تأثير السم الذي فيها بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ شاهد بعصمة الله تعالى له .

الدليل السابع : على أن الجمادات والنبات والحيوانات تعرف خالقها ولها شعور وإدراك على نسبتها :

هو أن تتلقى أوامر ربها وتنفذ موجبها مطيعة له سبحانه .

قال تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلتِ الأَرْضُ زِلْزالَها وأَخْرَجَتِ الأرضُ أَثْقالَها وقال الإنسانُ مَا لَها يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها بأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها ﴾ .

فالله تعالى يأمر الأرض أنْ تخرج أثقالها وأن تحدث أخبارها وبما جرى على ظهرها فتستجيب لذلك .

روى الترمذي وصححه والإمام أحمد وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أخبارَها ﴾ ، فقال :

« أتدرون ما أخبارها » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : « فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأَمَةٍ بما عمل على ظهرها ، تقول : عمل كذا وكذا في يوم كذا وكذا فهذه أخبارها. . . » .

فتحديث الأرض بأخبارها دليل على ثبوت شعورها ، وإدراكها لما يجري على ظهرها ، وهذا من باب الحقيقة لا من باب المجاز ـ إذ لا طريق للمجاز ههنا أن يجتاز . .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إذا السّماءُ انْشَقَّتْ وأَذِنَتْ لِرَبِّها وحُقَّتْ وإذا الأَرْضُ مُدَّتْ وأَلْقَتْ ما فيها وتَخَلَّتْ وأَذِنَتْ لِرَبِّها وحُقَّتْ . . ﴾ .

روى الحاكم وصححه وكذا ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّها وحُقَّتْ ﴾ قال : سمعتْ وأطاعتْ . اهـ

فالله تعالى يأمر الأرض بأن تلقي ما فيها من الموتى يوم يبعث الله تعالى الخلائق من قبورها فتلقى ما فيها وتتخلى عن كل ما فيها ، مُطيعة لأمر الله تعالى وحق لها أن تطيع ربها .

ومن ذلك ما جاء في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن موسىٰ كان رجلاً حيياً ستيّراً لا يُرى من جلده شيء استحياءً فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا : ما يستتر ـ أي : موسى ـ هذا التستر إلا من عيب بجلده إما برص أو أُدْرَةٌ ـ أي : انتفاخ الخصية ـ وإن الله تعالى أراد أن يبرّئه ـ أي : مما قالوه ـ فخلا موسى يوماً وحده ليغتسل ، فوضع ثوبه على حجر ففرّ الحجر بثوبه فجمح موسى ـ أي : ذهب مسرعاً في أثره يلحق بالحجر ـ يقول : ثوبي يا حجر ـ أي : أعطني ثوبي ـ حتى انتهى إلى ملأ ـ جمع ـ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله تعالى ، وقالوا : والله ما بموسى من بأس ـ أي : مرض

ولا عيب ـ وأخذ موسى ثوبه وطفق بالحجر ضرباً ؛ فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه : ثلاثا أو أربعا أو خمسا . . » .

والمعنى : أن موسى عليه السلام ضرب الحجر ضرباً شديداً أثَّر في الحجر .

فقد أمر الله تعالى الحجر أنْ يفرَّ بثياب موسى عليه السلام إلى أن يصل إلى مجمع الذين آذوه واتهموه بالبرص فلما وصل إليهم وقف الحجر ـ وهذا دليل على ثبوت الإدراك والشعور للجمادات على نسبة تليق بها .

وهكذا الحيوانات تعرف خالقها وتخضع لأمر ربها :

قال تعالى : ﴿ وأَوْحى رَبُّك إلى النَّحل أن اتَّخذي من الجبالِ بُيوتاً ومن الشَّجر ومِمَّا يَعْرشون ثُمَّ كلي مِنْ كلِّ الثمراتِ فاسلكي سبل رَبِّك ذللاً يَخْرُجُ من بطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانه فيه شِفاءٌ للناسِ إنّ في ذلك لآيةً لقوم يتفكرون . . ﴾ .

فقد علَّم الله تعالى النحل وأرشدها إلى ما فيه صلاح معيشتها وغذائها ومأواها وما يترتب على ذلك من انتفاعها ونفع العباد دون ضرر ولا إفساد .

فأوحى إليها وَحْيَ إلهام أن تتخذ من الجبال بيوتاًومن الشجر وممايعرش الناس ويرفعونه من كروم وسقوف ، فهي تختار من هذه الأماكن المرتفعة مواضع لبناء بيوتها ولها نظامها العجيب في داخل بيوتها وكواراتها ، فتختار أميراً عليها ، يكون أعظمها جثة ويكون نافذ الحكم على سائر أفرادها والكل يخدمونه ويسمى اليعسوب ، وهي تعسل داخل وكرها وتبني ذلك على شكل مسدس متساوي الأضلاع بحيث إن الإنسان العاقل إذا أراد ذلك لا يمكنه إلا بألات المقاييس مثل : المسطرة والفرجار ونحو ذلك لما فيه من الدقة ، وإنما تختار هذا الشكل المسدس على بقية الأشكال المثلثة والمربعة

والمخمسة وغيرها لئلا تنزل فجوات خالية ، أو فروج ضائقة .

﴿ ثمَّ كلي مِنْ كُلِّ الثمرات فاسْلكي سبل ربك ذللاً ﴾ أي : اسلكي الطرق التي هداك الله تعالى إليها غادية رائحة ، وتلك الطرق التي تسلكها هي مسالك في الهواء ، ومن المعلوم أن الهواء أقوى منها ، وقد يشتد ، مع أنها صغيرة الحجم خفيفة الجسم ، ولكنه سبحانه جعل تلك المسالك مذللة لها ، وسهل ذلك عليها ، فهي تخترق الهواء ولو كان شديداً ، لأن الله تعالى هو الذي جعل لها مسلكها ذلولاً .

﴿ يَخْرجُ مِنْ بُطُونِها شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ ألوانُه فيهِ شفاءٌ للنّاس إنَّ في ذلك لآيةً لقومٍ يتفكَّرون ﴾ .

وقد صنف علماؤنا الأولون في منافع العسل وفوائده كتبا واسعة ، ليس موضع تفصيلها ههنا . .

فإذا فكر العاقل في عجائب هذا الحيوان - أي : النحل - وإحكام نظامه ، ودقة هندسة بنيانه ، ومحافظته على نظافة وكره ، والتزامه - علم أن للنحل إدراكاًوشعوراً مناسباً لها ويعبر عن ذلك بعض الحكماء : بالنفوس المدركة .

وهكذا الحيتان في البحار تسبح الله تعالى ، وتستغفر للعالِم الذي ينفع الناس بعلمه كما سيأتي في الحديث .

وقد أخبرنا الله تعالى عن الحوت الذي أمره الله تعالى أنْ يلتقم نبي الله يونس بن متّى عليه السلام ، دون أنْ يخدش له لحماً ، ولا يكسر له عظماً ؛ فامتثل أمر الله تعالى ، قال سبحانه : ﴿ وإنّ يُونُسَ لَمِنَ المُرسَلين إذْ أَبق إلى الفُلْكِ المشحون ﴾ أي : هرب من قومه ، وذهب عنهم مغاضباً لهم ، وتوجّه نحو بحر الخليج ، وركب في السفينة الكبيرة المملوءة بالرجال

والأموال .

جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وعن طاووس وغيره روايات متعددة أخرجها : عبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن المنذر ، وغيرهم أنّ يونس عليه السلام لما كذّبه قومه بعد أنْ دعاهم إلى الله تعالى ، وبَيّن لهم : وعدهم بالعذاب ، وأخبرهم أنّه يأتيهم العذاب إلى ثلاثة ايام ، فلما كان اليوم الثالث خرج يونس عليه السلام قبل أنْ يأذن الله تعالى له ، ففقده قومه ، فخرجوا بكبارهم ، وصغارهم ، ودوابهم ، وفرقوا بين كل والدة وولدها ، فشارف نزول العذاب بهم ، فعجّوا إلى الله تعالى ، وأنابوا ، واستقالوا ؛ فأقالهم الله تعالى ، وصرف عنهم العذاب ، وأتى يونس عليه السلام البحر ، وركب في السفينة مع أناس كثيرين ، فلما وصلت اللجّة ، وانتهت حيث شاء الله تعالى في المنتصف ، وقفت السفينة فلم تجر ، فقال صاحبها ما يمنعها أنْ تسير إلا أنّ فيكم رجلاً آبقاً .

وفي رواية قال لهم : ما هذا إلا لحدث أحدثتموه .

﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ فاقترعوا ليلقوا من وقعت عليه القرعة في الماء ، فتسلم السفينة ، فوقعت القرعة على يونس عليه السلام ، ثم أعادوا القرعة فوقعت عليه ، ثم أعادوها فوقعت عليه ، فلما رأى ذلك يونس عليه السلام ألقى بنفسه في الماء .

﴿ فالْتَقَمَهُ الحوتُ وَهُو مُلِيمٌ ﴾ أي : فابتلعه الحوت بلقمة واحدة على الفور من نزوله في الماء ، ﴿ وهو مليم ﴾ **إما بمعنى** : داخل في الملامة ، بناء على أنّ أفعل للدخول في الشيء ، كما يقال : أحرم إذا دخل في الحرم ، **أو الهمزة للتعدية بمعنى** : أنّه مليم نفسه .

﴿ فلولا أنّه كانَ مِنَ المُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ في بَطْنِهِ إلى يَومِ يُبْعَثُون ﴾ والمعنى : لولا أنّ يونس عليه السلام كان قبل أن يلتقمه الحوت من المسبحين لله تعالى : قولاً وعملاً ـ وقد بقي على ذلك وهو في بطن الحوت ـ للبث في بطن الحوت إلى يوم يبعثون ، ولكنّه كان قبل أنْ يقع في هذه الشدة كثير التسبيح لله تعالى : قولاً وعملاً ، ويدخل في التسبيح العملي الصلاة ونحوها ، وقد قال رسول الله ﷺ : « تَعرّف إلى الله تعالى في الرخاء يَعْرِفْك في الشدة » الحديث .

روى ابن أبي شيبه عن الضحاك أنّه قال : اذكروا الله تعالى في الرخاء يذكركم في الشدة ، فإنّ يونس عليه السلام كان ذاكراً لله تعالى كثيراً ، فلما وقع في بطن الحوت ، قال الله تعالى فيه : ﴿ فلولا أنّه كان مِنَ المُسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ .

قال الضحاك : وإنّ فرعون كان طاغياً ناسياً لذكر الله تعالى ، فلما أدركه الغرق قال : ﴿ آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا مِنَ المُسْلمين ﴾ فقال الله تعالى : ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْل وَكُنْتَ مِنَ المفسِدِين ﴾ .

ولم يزل يونس يسبح الله تعالى ، ويسجد ويصلي له في بطن الحوت ، وقال : يا رب اتخذت لك مسجداً في موضع لم يسجد فيه أحد ـ واختلف في مدة بقائه في بطن الحوت ، فقيل : ثلاثة أيام ، وقيل : سبعة ، وقيل : أربعون ـ وعليه الأكثر .

وقد ألهمه الله تعالى أنْ يكثر من قوله : ﴿ لا إله إلاّ أَنْتَ سُبحانك إنِّي كُنْتُ من الظالمين ﴾ .

قال تعالى : ﴿ فَنَادى في الظُّلُمَاتِ أنْ لَا إله إلاّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إنِّي كُنْتُ

مِنَ الظَّالمين . فاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وكذلك نُنجِي المُؤْمِنين ﴾ .

وقد صح في الأحاديث عنه ﷺ أنه قال : « دعوة ذي النون ، ما دعا بها أحد قط إلا استجيب له : لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » .

فانظر أيها العاقل : لقد امتثل الحوت أمر الله تعالى ، لأنّه يعلم أنّ الله تعالى هو خالقه ورازقه ، فجرى من بحار بعيدة مسرعاً حتى يدرك وقت نزوله من لجّة بحر الخليج فيلتقمه فوراً .

وقد أمره الله تعالى أنْ يحفظه في بطنه ، فلا يخدش له لحماً ، ولا يكسر له عظماً ، ويبقيه في بطنه مدة معينة ، حتى إذا انقضت : أمَره أنْ يُلقيه إلى ساحل قريب من بلده ـ وذلك الساحل يكون آمناً ، حتى لا تؤذيه وحوش البر .

ومن ذلك قصة الطير الأبابيل التي جندها الله تعالى وأرسلها لإهلاك أبرهة وجيوشه لما قصدوا هدم البيت المعظم :

قال تعالى : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّك بأصْحابِ الفيل أَلَمْ يَجْعلْ كَيْدَهُمْ في تَضْليلٍ وأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابيل تَرْمِيهِم بِحجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكولٍ ﴾ .

ففي هذه السورة يذكر الله تعالى فضله على حبيبه الأكرم سيدنا محمد ﷺ ومنّته عليه بحفظ هذا البيت العتيق ـ أي : الكعبة المشرفة ـ الذي سيكون قبلة صلواته لله تعالى ومحجّه ، وقبلة ومحجاًلسائر أمته إلى يوم الدين ، فردّ الله تعالى كيد أصحاب الفيل الذين تجهزوا لهدم هذا البيت المعظّم ومزّقهم الله تعالى شر ممزّق وصاروا كعصف مأكول ، وذلك من جملة الإرهاصات المتقدمة بين يدي بعثته ﷺ ؛ فإنه عليه الصلاة والسلام وُلِدَ عام الفيل كما عليه الجمهور بل الإجماع ـ كما قال العلامة المحدث إبراهيم بن المنذر شيخ البخاري : لا يشك أحدٌ من العلماء في أنّ قصة أصحاب الفيل وقعت في

السنة التي ولد فيها النبي ﷺ قال : وعليه الإجماع ، وكل ما خالفه فهو وَهْم . اهـ

قال تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ﴾ ، وهذا من باب الإستفهام التقريري ، نظير قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ والمعنى : قد علمت يا رسول الله علماً قطعياً كرؤية العيان بواسطة وحي الحق وتواتر القصة المسموعة من الخلق ، وبما أعطاك الله تعالى من قوة النور الكاشف لك عن حقائق الأمور ألا وهو نور النبوة المحمدية ﷺ .

وفي هذه الإضافة وهي قوله تعالى : ﴿ كيف فَعَل ربُّك ﴾ دلائل على وجوه من عناية الله تعالى بهذا الرسول الكريم الأكرم ﷺ ورعايته ، وأنه سبحانه الذي رباه بتربيته الخاصة ، فإنه له به عناية خاصة وصيانة وحصانة وحفظاً لذاته ﷺ وقبلته ومحجّه وكتابه وشريعته على وجه لم ينله غيره ﷺ ، كما أن قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ ربك بأصحاب الفيل ﴾ فيه ما يدل على هول الحادثة ؛ والإيذان بوقوعها على كيفية هائلة رهيبة وعلى هيئة عجيبة دالّة على عظيم قدرة الله تعالى وقوة سلطانه وكمال علمه وحكمته ونفوذ إرادته ، وأنه الفعّال لما يريد ، والكل له عبيد ـ سبحانه وتعالى ـ جلّ وعلا . .

﴿ أَلَمْ يَجْعَل كَيْدَهُم في تَضْليلٍ ﴾ أي : قد جعل الله تعالى كيدهم وسعيهم في تخريب الكعبة وتجمعهم لذلك جعل كل ذلك في إبْطال وتضييع لهم ولملكهم ، وأصل التضليل : من ضلّ عنه إذا ضاع ، فأطلق هنا على معنى الإبطال والتضييع ، وهذه الجملة وهي قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدهم في تضليل ﴾ ، وما بعدها بيان للجملة الأولى .

﴿ وأرسل عليهم طيراً أبابيل ﴾ والأبابيل : هي الفرق المجتمعة المتابعة

وكانت تلك الطيور متكاثرة ، تأتيهم من جميع جهاتهم ، وتحيط بهم ، ترمي الفرقة من فرقها ما حملته من أحجارها ثم تأتي تلوها فرق غيرها ـ وهكذا حتى اجتاحتهم كلهم . .

وكانت الطيور يحمل كل واحد منها ثلاثة أحجار أمثال الحمص والعدس ، واحدة بمنقارها واثنين برجليها ، وهي طيور جاءت من جهة البحر أمثال الخطاطيف ، وكان رميها لا يخطىء المرمى ـ فلا تصيب أحداً إلا أهلكته ، تلقيها على رأس أحدهم فتخرج من دبره ، ويتساقط لحمه .

واختلف علماء اللغة في مفرد الأبابيل :

فقال كثير منهم : إنه يدل على التكثير وهو من الجمع الذي لا واحد له من لفظه .

وقال بعضهم : واحده : إبّول مثل : عجّول .

وقال بعضهم : واحده : إبيل كسكّين .

وقال بعضهم : إبّال كمفتاح ومفاتيح .

وقال بعضهم : جمع إبّالة وهي الحزمة الكبيرة ، شبهت به الجماعة من الطير في تضامّها .

﴿ تَرْميهم بحجارةٍ مِنْ سجيل ﴾ أي : كائنة من طين متحجر ، ونقل الإمام القرطبي عن المفسرين أنّهم قالوا : حجارة من طين طبخت بنار جهنم . اهـ

﴿ فجعلهم كعصف مأكول ﴾ يحتمل أن يكون المعنى : كورق زرع سقط على الأرض ووقع فيه الدود ، بأن أكل منه الدود بعد أن أكل حبه .

وقال كثير من المفسرين : إن المعنى أن الله تعالى جعلهم كتبن أكلته

الدواب ، ورمت به من أسفل ـ أي : راثته ـ والمراد أنهم صاروا كالروث ، إلا أنّ القرآن الكريم جاء بالآداب القرآنية بعيداً عن الألفاظ المستهجنة ، فشبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزاء الروث ـ لما فيه من تشويه حالهم ـ وقد نقل هذا المعنى الإمام القرطبي وغيره من كبار المفسرين .

وهكذا جزاء من قصد إهانة بيت الله المعظم أن يجعله الله تعالى أذل وأحقر من كل حقير ﴿إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾ .

وقصة أصحاب الفيل مذكورة في كتب الحديث التي بحثت عن دلائل النبوة وفي بعض المسانيد ؛ ومفصلة في كتب التفاسير ، والسّير وملخصها من شرح المواهب وغيره ـ على طريق الإجمال ـ .

لما دخل شهر الله المحرم والنبي ﷺ حمل في بطن أمه ﷺ على الصحيح عند المحدثين ـ هنالك حضر أبرهة بن الصباح الأشرم[1] يريد هدم الكعبة المعظمة ، والسبب الحامل له على ذلك هو أنّه لما غلب على اليمن وملكها ، رأى الناس يتجهزون أيام الموسم للحج ، فقال : أين يذهبون ؟ فقيل يحجون بيت الله تعالى في مكة، قال: وما هو البيت؟ قيل: من الحجارة، قال: وما كسوته ؟ قيل له: هي ما يأتي من هنا من الوضائن، فقال مقسماً: لأبنين لكم خيراً منه فبنى لهم كنيسة بصنعاء بالرخام الأبيض ، والأصفر ، والأحمر ، والأسود ، وحلّاها بالذهب والفضة ، وأنواع الجواهر ، وأذلّ أهل اليمن على بنائها ، وكلّفهم فيها أنواعاً من الشجر ، ونقل لهم الرخام والحجارة المنقشة بالذهب والفضة ، ونصب فيها التماثيل من الذهب والفضة ، وكان يشرف منها على عدن لارتفاع بنائها وعلوها ، ولذا سمّاها

---

(١) سمي الأشرم : لأنه لما استولى على اليمن هو وأرباط ، اختلفا وتقاتلا ، فَقُتِل أرباط بعد أن شرم أنف أبرهة وحاجبه وشفتيه ، فداوى جروحه ، واستقل بالملك كما قال ابن إسحق . وقال الطيبي : سمي بالأشرم لأن أباه ضربه بحربة فشرم أنفه .

القُلَّيْس أو بفتح القاف وكسر اللام ، لأن الناظر إليها تسقط قلنسوته عن رأسه لعلوها .

فلما اشتهر الخبر عند العرب ، وأنه يريد صرف الحج إلى تلك الكنيسة ، ومنع الناس من الذهاب لمكة ـ خرج رجل من كنانة مُغضباً ، فتغوّط فيها ثم خرج فلحق بأرضه ـ وهذا قول ابن عباس ـ ، وقيل : أجّجت فتية من العرب ناراً وكان في عمارة القليس خشب مموّه فهبّت الريح فحملت النار إليها فأحرقتها ، فحلف أبرهة ليهدمَنَّ الكعبة حجراً حجراً ، فخرج في ستين ألفا ، ومعهم أعظم الفيلة ـ وقيل : بل كان معهم ثلاثة عشر فيلاً ، وقيل : ثمانية ، وقيل : ألف فيل ـ وأُفرد ذكر الفيل في الآية الكريمة لإرادة الجنس ، وإنّما استعمل الفيل معهم لهدم الكعبة ، وذلك بأن يجعل السلاسل في أركان البيت ، وتوضع في عنق الفيل ، ثم يزجر ليسقط الحائط جملة واحدة .

ثم خرج أبرهة ومعه جيشه حتى إذا بلغ الطائف أرسل جيشاً على الخيل إلى مكة فأخذت لعبد المطلب مئتا بعير ، وقيل أربعمائة ناقة .

وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة وقال له : إسأل عن سيد أهل مكة وشريفهم ، ثم قل له : إن الملك ـ أي : أبرهة ـ لم يأت لحربكم إنما جئت لهدم هذا البيت ، فان لم تتعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم ، فإنْ هو لم يُرد حرباً فأتني به ، فدخل حناطة مكة فسأل فقيل : هذا عبد المطلب ، هو سيد أهل مكة ، فبلّغه ما أمره به أبرهة ، فقال عبد المطلب : ما نريد حربه ، وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم ، فإن يمنعه ـ أي : يحفظه ـ فهو بيته وحرمه ، وإن يُخلِّ بينه وبينه فوالله ما عندي دفع عنه .

فقال له حناطة : فإنه ـ أي : أبرهة ـ أمرني أن آتيه بك ، فانطلق معه

عبد المطلب ومعه بعض بنيه ، فتكلم أنيس سائس فيل أبرهة ، فقال لأبرهة : أيها الملك هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك ، وهو صاحب عزة مكة ، ويطعم الناس في السهل ، والوحوش والطير في رؤوس الجبال ، فأذن له أبرهة .

وكان عبد المطلب جد النبي ﷺ أوسم الناس ، وأجملهم ، وأعظمهم ، شديد المهابة ، فنزل أبرهة عن سريره ، وجلس على بساطه ، وأجلس عبد المطلب إلى جنبه .

ثم قال أبرهة لترجمانه : قل له : ما حاجتك ؟

فقال له عبد المطلب : حاجتي أن يرد علي مائتي بعير أصابها .

فقال أبرهة لترجمانه : قل له : كنت أعجبتني حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك ـ أتكلمني في مائتي بعير ، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك ، قد جئت لهدمه ولا تكلمني فيه .؟!

فقال له عبد المطلب : أنا ربّ الإبل ـ أي : مالك الإبل ـ وإنّ للبيت ربّاً سيمنعه ـ أي : سيحميه ويحفظه ـ

فقال أبرهة : ما كان ليمتنع مني ، وما من أحد يمنعني من هدمه .

فقال له عبد المطلب : أنت وذاك .

فرد عليه إبله فقلّدها عبد المطلب وأشعرها ، وجعلها هدياً للبيت وبثّها في الحرم .

ورجع عبد المطلب إلى قريش في مكة ، وأخبرهم بالخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة ، والتحرز في شغف الجبال ، والشهاب ، تَخَوُّفاً عليهم من معرّة الجيش .

ثم قام عبد المطلب ، فأخذ بحلقة باب الكعبة المعظمة ـ ومعه نفر من قريش يدعون الله تعالى ويستنصرونه على أبرهة وجنوده ـ.

وأنشد عبد المطلب :

لا هـمّ إن المـرء يمـنـ ـع رحله فـامنع رحـالـك
وانصر عـلى آل الصـليـب وعـابـديـه الـيـوم آلـك
لا يـغـلبـنّ صليـبهـم و محـالهـم أبـداً محـالـك
جـرّوا جمـيـع بـلادهـم و الفيـل كي يسبُوا عيـالـك
عَـمَـدوا حِمـاك لـكـيـدهـم جهلاً ومـا رقبوا جـلالـك
إن كـنـت تـاركـهـم وكـعـ ـبتنـا فـأمـرٌ مّـا بـدا لـك

وقال أيضاً وهو آخذ بحلقة الباب :

يا رب لا أرجو لهم سواكا يـا رب فامنـع عنهم حمـاكـا
إن عـدوّ البيت من عاداكـا امنعهمُ أن يخـربـوا قـراكـا

ثم أرسل الحلقة وانطلق ومن معه إلى شغف الجبال ينتظرون ما يفعله أبرهة بمكة إذا دخلها .

فلما أصبح الصباح ، تهيأ أبرهة لدخول مكة ، وعبّأ جيشه ، وهيأ الفيل ، وأجمع على هدم البيت ، ثم الانصراف إلى اليمن .

فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نفيل بن حبيب ـ كما في سيرة ابن هشام ؛ وقال السهيلي نقلاً عن ابن إسحق : هو نفيل بن عبد الله ـ حتى قام إلى جنب الفيل ثم أخذ بأذن الفيل وقال له : ابرك محموداً وارجع راشداً من حيث جئت فإنك في بلد الله الحرام ، ثم أرسل أذن الفيل ، فبرك الفيل

ـ أي : سقط فوراً على الأرض[1] ـ فضربوه ليقوم فأبى .

قال ابن إسحق : فضربوا رأس الفيل بالطبرزين ـ وهي آلة عوجاء من حديد ـ ليقوم فأبى ، فأدخلوا محاجن لهم في مراقه فبزغوه بها ليقوم فأبى[2] ، فوجهوه إلى اليمن فقام ، ووجهوه إلى الشام فقام ، ووجهوهُ إلى المشرق فقام ، ووجهوه إلى مكة فبرك ولم يقم .

وأرسل الله تعالى عليهم طيراً أبابيل ، أمثال الخطاطيف ، مع كل طائر ثلاثة أحجار يحملها ، حجر بمنقاره وحجران في رجليه ، أمثال الحمّص والعدس ، لاتصيب أحداً منهم إلا أهلكته ، وما أخطأت واحدة ، ففرّ الجيش هاربين ، يتساقطون في كل طريق ، ويهلكون على كل منهل .

وأُصيب أبرهة في مسيره بداء تساقطت منه أنامله : أُنملة بعد أُنملة ، وسال منه الصديد والقيح والدم ، وما مات حتى انصدع صدره فرقتين عن قلبه ومات .

وكان وزير أبرهة أبو يكسوم انهزم أولاً فلحقه طائر فوق رأسه ، وهو لا يشعر به ، حتى بلغ النجاشي[3] ، فأخبره بما أصاب أبرهة وجيشه ، فلما أتم كلامه وأخبره الخبر ، ألقى الطائر عليه الحجر فخرقت البناء ونزلت على رأسه فخرّ ميتاً ـ ورأى النجاشي بعينيه كيف كان هلاك أصحابه ـ .

وفي ذلك أنشد نفيل :

---

(١) وروي أن عبد المطلب هو الذي عرك أذن الفيل وقال له ما ذُكر ، وكان ذلك عند وادي محسّر . قال عبد الله : وهذا عندي هو الأرجح لأنّ سر عبد المطلب جد النبي ﷺ أعظم ، وكلامه أقوم ، وكان لدفع المخاوف هو المقدم .

(٢) والمحاجن : جمع محجن عصا رأسها من حديد ، والمراق أسفل البطن ، وبزغوه أي : شرموه بحديد المحاجن ليوجعوه فأبى أن يقوم .

(٣) وهو جد النجاشي أصحمة الذي أسلم وآمن برسول الله ﷺ .

أين المفرُّ والإلـه الـطالـب والأشرم المغلوب ليس الغالب

وفي ذلك يقول ابن الزبَعرىٰ :

سائل أمير الحُبْش عنا ما ترى ولسوف ينبي الجاهلين عليمها

ستون ألفا لم يؤبـوا أرضهم بل لم يعش بعد الإياب سقيمها

بعض ما تدل عليه هذه السورة الكريمة :

اعلم أيها العاقل المتبصّر ، والمتدبر المفكّر أنّ هذه السورة الكريمة بما اشتملت عليه من قصة أصحاب الفيل تدلك وتثبت لك أموراً متعددة :

أولاً : أنها تدل على إكرام الله تعالى لرسوله المصطفى ﷺ ، وتدل على غيرته سبحانه على هذا البيت المعظّم ، الذي جعله الله تعالى محجّاًلرسول الله ﷺ وأمته ، وقبلة صلواته ومن بعده - إلى يوم الدين .

قال تعالى : ﴿جعل الله الكَعْبَةَ البَيْتَ الحرام قياماً للناس . . ﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿ قَدْ نَرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ في السماء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً ترضاها فَوَلِّ وَجْهك شطر المسْجدِ الحرامِ وحَيْثُما كُنْتُم فوَلّوا وُجُوهَكُم شَطْرَه . وإنّ الذين أُوتوا الكتابَ لَيَعْلمونَ أنّه الحَقُّ مِنْ ربّهم وما الله بغافل عمّا يعملون . . ﴾ .

أي : فسوف يعاقبهم لأنهم جحدوا بعد علم ، ولم يعملوا بعلمهم ، وعرفوا الحق الذي جئتَ به كما يعرفون أبناءهم ، ولكنهم لم يعترفوا بل أنكروا .

فحماية هذا البيت المعظّم ودفاع الله تعالى عنه ، وإرسال الطير الأبابيل على أبرهة وجيشه ، هذا كله من باب الإرهاص والتأسيس لنبوة سيدنا محمد ﷺ ومقدمة بيّنة معجزة بين يدي نبوته ﷺ ورسالته ، ومن ثَمّ ذكر الله تعالى تلك النعمة الكبرى والحجة العظمى مخاطباً لحبيبه الأكرم ﷺ

فقال : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ﴾ ـ والمعنى : إنّ ربك الذي خلقك وربّاك ، واصطفاك لختم النبوة ، هو متولي جميع أمورك ، وحفظك ، وحفظ دينك ومحجّك ومصلّاك .

فإن قلت : إذا كان إهلاك أصحاب الفيل فيه تكريم لرسول الله ﷺ وإعزاز له ، ومقدمة صادقة على صدق نبوته ﷺ ، لأن البيت محجّه وقبلته ، فَلِمَ لَمْ يحصل شيء من ذلك لما أَرْسل عبد الملك بن مروان الحجاج إلى قتال عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما لينزع منه الخلافة ؟ فتحصن ابن الزبير في البيت ، فرمى الحجاج الكعبة بالمنجنيق ، ثم ضربه فقتله ـ ووقع قبله في زمن يزيد حين أرسل لقتال ابن الزبير لامتناعه عن مبايعة يزيد ، فنصب المنجنيق ورمى الكعبة حتى انهدم جدار هاشم ، ثم وردهم الخبر بموت يزيد ؛ فرجعوا إلى الشام .

فالجواب : أن جيش يزيد والحجاج إنما قاتلوا على الملك ، وأدى ذلك بظلمهم إلى هدم جانب الكعبة المعظمة ، ولم يبعثوا الجيش بقصدهم الكعبة ، ولم يسيروا إلى هدم البيت ، وإنما قصدوا قتل من احتمى بالبيت وهو عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ؛ وأما أبرهة فقد سار بجيشه قاصداً هدم البيت المعظم ، ومحو أثره ، وصرف الناس عنه ؛ على أنّ كلاً من الظالمين يزيد والحجاج لقيا من العذاب ما لقيا ، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون .

ثانياً : إنّ هذه السورة الكريمة تدل على أن الطيور لها إدراك وشعور ، وأنها تعرف ربها خالقها ، ولذلك انقادت وأطاعت لأمر إرساله ، ونفّذت ما أمرها الله تعالى بتنفيذه ، على أكمل الوجوه ، حتى دمّرت وأهلكت جميع المعتدين ، القاصدين هذا البيت المعظم ـ ومنْ ثَم قال سبحانه : ﴿ وأَرْسَلَ

عليهم طيراً أبابيل ﴾ فهو سبحانه أرسلها جنوداً مجندة ، معدّة ومعدّدة ، معزّزة بقوته سبحانه ، ومجهّزة بعتاده وعدّته ﴿ أبابيل ﴾ فِرقاً فِرقاً ، وجموعاًجموعاً ، متواصلة متتالية ، أحاطت بالأعداء من كل صوب ، تأتي فرقة منها من ناحية كذا ، والثانية من ناحية أخرى ، محيطة بالأعداء ، لا تترك مجالاً لنجاتهم ، كُلّما ألقت فرقة منها قنابلها الصغيرة الحجم ، القوية الحطم ، ذهبت للتعبئة وأردفتها الأخرى المعبّأة فوراً ، فهي غارات متصلة ، لا فتور ولا نفور ، لأنها تدمّر وترمي بقوة الذي أرسلها ، ألا وهو الله تعالى ، الذي لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، لا تدع مارّاً ثابتاً في المعركة إلا دمرته ، ولا فاراًإلا أدركته فرمته وأماتته .

ثالثاً : من هذه السورة الكريمة وغيرها يتضح لك معنى قوله تعالى : ﴿ ولله جُنود السمواتِ والأرْضِ وَكان الله عليماً حكيماً ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاًحكيماً ﴾ .

فجميع ما في السموات وما في الأرض كلّها جنود الله تعالى ، ـ يجنّد منها ما شاء لما يشاء ، وقد ذكر الله تعالى لنا في القرآن الكريم أنواعاً متعددة ، وأصنافا مختلفة من جنوده التي أرسلها لإهلاك أعدائه ، وتمزيقهم ، فمنها الريح العقيم ـ قال تعالى : ﴿ وأمّا عادٌ فاسْتَكْبَروا في الأرض بغير الحق وقالوا : مَنْ أَشَدُّ مِنّا قوة أَوَ لَمْ يَرَوْا أنّ الله الذي خَلَقَهُمْ هو أَشدّ منهم قُوَّةً وكانوا بآياتِنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحاً صَرْصراً في أيّامٍ نَحِساتٍ لنُذيْقَهم عَذَابَ الخِزيِ في الحياة الدنيا ولَعَذاب الآخرة أَخْزَى وهم لا ينصرون . . ﴾ .

وتلك الأيام النحسات : هي أيام قلائل معدودة ـ كما قال تعالى : ﴿ وأما عادٌ فأهلكوا بريح صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْع لَيالٍ وَثَمانية أَيَّام حُسُوماً ﴾ ـ أي : محددة الوقت بالثانية ﴿ فَترى القَوْمَ فيها صَرعَى كَأَنَّهُم

أَعْجاز نَخْل خَاوِية ﴾ فصار كل واحد منهم كأسفل النخلة المنتزعة من تخوم الأرض ، يابسة ملقاة على الأرض ، هذا جزاء من تعاظم وتجبّر على الله تعالى بقوته ، لأنهم قالوا : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنّا قُوّة ﴾ فأراهم سبحانه قوتهم ومآلهم : ﴿ فَهَل تَرى لَهُمْ مِنْ باقية ﴾ حتى صار الواحد منهم يتعلق بالصخرة الصماء : حتى لا تذهب الريح به ، فتأخذ الريح الصخرة ومن تعلق بها ثم ترميه ـ حتى إنّ منهم من فرّ إلى المغارات العميقة السحيقة فاجتذبته الريح من داخل المغارة ودمّرته ، ولذلك قال تعالى : ﴿ فهل تَرى لَهُم مِنْ باقية ﴾ .

اللهم سبحانك ما أعظم قدرتك ، وما أشد قوتك ـ فالويل ثم الويل لمن لا يخافك ولا يخشاك .

وهكذا من جملة جنود الله تعالى التي أرسلها الله تعالى وسلّطها على أعدائه من جملتها الجراد والقمَّل والضفادع :

قال الله تعالى ـ في آل فرعون ـ : ﴿ ولقد أَخَذْنا آل فرعون بالسنين ونَقْصٍ مِنَ الثَّمرات لَعَلَّهم يَذّكَّرُون . فإذَا جاءَتهم الحَسَنَةُ ﴾ ـ الرخاء والخصب ـ ﴿ قالوا : لَنَا هذه وإنْ تُصبهم سَيِّئَةٌ ﴾ ـ القحط والبلاء ـ ﴿ يَطَّيَّرُوا ﴾ ـ يتشاءموا ـ ﴿ بمُوسَىَ وَمَنْ مَعَهُ أَلاَ إنّما طائرهم عند الله ولكنَّ أكْثَرَهُمْ لا يعلمون . وقالوا : مَهْمَا تأتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بها فَمَا نَحْنَ لك بمُؤْمِنينَ فأرْسَلْنا عليهم الطُّوفَان والجَرادَ والقُمَّل والضَّفادِعَ والدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ فاستكبَرُوا وكانُوا قَوْمَاً مُجْرِمِينَ ﴾ .

فالله تعالى أخذهم بالسنين ـ أي : القحط والجوع ، عاماً فعاماً ، وذلك في باديتهم وأهل مواشيهم ، وأخذهم بنقص الثمرات ، وكان ذلك في أشجارهم التي في أمصارهم وقراهم ـ ﴿ لعلهم يذَّكَّرُون ﴾ فيرجعون

إلى الله تعالى تائبين مؤمنين برسول الله تعالى موسى عليه السلام، فما كان منهم إلا العِناد والكبر، واتّهام موسى بالسحر، مصرّين على ما هم عليه ﴿ وقالوا : مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ من آيةٍ لِتَسْحَرَنا بها فَمَا نَحْنُ لَكَ بمؤمنين ﴾ .

فَهُنا أرسل الله تعالى عليهم أصنافاً من جنوده، فيرسل الصنف الشديد، ثم بعد ذلك الأشد، قال تعالى : ﴿ فأَرْسَلنا عليهم الطوفان ﴾ ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : أرسل الله تعالى عليهم المطر الدائم في الليل والنهار، ثمانية أيام ـ وقال غيره : أربعين يوماً ـ فدخل بيوت القبط ـ أي : أتباع فرعون ـ، حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم ـ أي : أعناقهم ـ ولم يُصب بني إسرائيل ـ أتباع موسى ـ قطرة من ذلك الماء، لأنه مُرسل على آل فرعون، كما قال تعالى : ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان ﴾ .

وروى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنا عليهم الطُّوفَانَ والجَرادَ والقُمَّل والضَّفَادِعَ والدَّم . . ﴾ الآية قال : أرسل الله تعالى عليهم المطر حتى أيقنوا بالهلاك، فأتوا موسى عليه السلام فقالوا : يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا المطر، فنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل ـ أي : نتركهم من الاستعباد والاستخدام في الأعمال الشاقة، ويذهبون معك أحراراً .

فدعا موسى عليه السلام ربّه فكشف عنهم المطر، فأنبت الله تعالى لهم في تلك السنة نباتاً وزرعاً لم ينبته قبل ذلك من الزرع والكلأ، وأخصب بلادهم .

فقالوا : هذا ما كنّا نتمنى، ولن نؤمن بك، ولن نرسل معك بني إسرائيل ـ فأرسل الله تعالى عليهم الجَراد، فأسرع في فساد زرعهم وثمارهم، حتى إنّه أكل وجرد أبوابهم، حتى أكل مساميرهم، فقالوا :

يا موسى ادع لنا ربك أنْ يكشف عنا الجراد ، فإنّا سنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل .

فدعا موسى ربّه فكشف عنهم الجراد .

فقالوا : قد بقي لنا من الحبوب والحنطة بقية تكفينا بقية السنة ، لن نؤمن بك ولن نرسل معك بني إسرائيل .

فأرسل الله تعالى عليهم القُمَّل بأنواعِه ـ السُوس في الحنطة والحبوب ، والقُمَّل في الأجسام ـ فقالوا : يا موسى ادع لنا ربك ، يَكشف عنا القمل فإنّا سنؤمن لك ، ونرسل معك بني إسرائيل .

فدعا موسى ربّه فكشف عنهم القمل .

فقالوا : لن نؤمن لك ولَنْ نرسل معك بني إسرائيل .

فأرسل الله تعالى عليهم الضفادع ـ فملأت بيوتهم ، وكانت تثب في قدور طعامهم ، وتطفي نيرانهم ، وتملأ فرشهم ، وما تكلم أحدهم بكلمة إلا وثب الضفدع في فمه ، فضجّوا ، وقالوا : يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا الضفادع فإنّا سنؤمن لك ، ونرسل معك بني إسرائيل .

فدعا موسى عليه السلام ربّه فكشف عنهم الضفادع .

فقالوا : لن نؤمن لك ، ولن نرسل معك بني إسرائيل .

فأرسل الله تعالى عليهم الدَّم ـ فجعلوا لا يأكلون طعامهم إلا ملىء بالدّم ، ولا يشربون إلا الدَّم ، وصارت آبارُهم دماً ، وأنهارهم دماً عبيطاً وعَمّ ثيابهم ، وطعامهم ، وشرابهم ، ولم يُصب شيء من ذلك بني إسرائيل ـ أتباع موسى عليه السلام ـ حتى إنّ النيل صار يسيل دماً بالنسبة للقبطي ، وبقي ماء زُلالاً بالنسبة للسبطي أي : الإسرائيلي ، فكان الإسرائيلي يغرف

من النيل ماء زلالاً ، والقبطي يغرف منه دماً عبيطاً ، حتى صار القبطي يقول للإسرائيلي : صب ماءك الزلال من إنائك في إنائي ، فيصب دماً في إناء القبطي ، حتى صار القبطي يقول للإسرائيلي : صب الماء الذي عندك في فمي فيصبه في فم القبطي فيصير دماً في فمه ، مع أنّه ماء زلال في إناء السبطي الإسرائيلي ـ وهكذا لأنّ الله تعالى لما سلّط ذلك الجند أمره أن يتسلط على آل فرعون ـ قال تعالى : ﴿ فأرْسَلْنا عَليهم الطُّوفان والجَراد والقُمَّل والضَّفَادِعَ والدَّمَ . . ﴾ .

فهي مأمورة أنْ تنفذ حكم العذاب في القبطي لا في الإسرائيلي السبطي ـ فافهم ذلك ، واعلم أنّ الله تعالى عزيز حكيم ، وهو على كل شيء قدير ، لا يعجزه شيء ـ فإذا سلط الله تعالى جنداً من جنوده على أعدائه وجّه إليها أوامره التي فيها تعليمات لكيفية تنفيذ العقاب ، وبيان كميته ، وتوقيت زمنه المحدد لها :

قال تعالى : ـ في الريح التي أرسلها على قوم عاد ـ : ﴿ فلمّا رَأَوْهُ عَارِضَاً مُسْتَقْبل أَوْدِيَتِهِمْ قَالوا هَذا عَارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُو ما اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فيها عَذابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شيءٍ بِأَمْرِ رَبِّها . . . ﴾ الآية .

فهناك أمر إلهي توجه إليها فنفذت أمر الله تعالى على الوجه المرادِ .

وقال تعالى :﴿ وفي عَادٍ إذْ أَرْسَلْنَا عليهم الرِّيحَ العَقِيم مَا تَذَرُ مِنْ شيَءٍ أَتَتْ عَلَيْه إلاّ جَعَلَتْه كالرَّمِيم ﴾ .

وقد أخبرنا سبحانه عن الريح المرسلة على الأحزاب ، يوم تجمعوا ، وحشدوا رجالهم ؛ وقواهم ؛ وعددهم ؛ وعدتهم ؛ للإغارة على مدينة رسول الله ﷺ وهو المسمى : بغزوة الخندق ـ قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُوا اذْكُروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُم إذْ جَاءَتْكُم جُنُودٌ . . ﴾ ـ وهم الأحزاب

الكافرة ، والتنكير هنا للتصغير والتحقير ـ ﴿ فأرْسَلنا عَلَيْهم ريحاً وَجُنُوداً لم تَرَوْها ﴾ ـ والتنوين هنا للتعظيم والتكبير ـ ﴿ وكان الله بما تَعْمَلُونَ بَصيراً ﴾ .

فقد أرسل سبحانه على الأحزاب الكافرة ، والأعداء المتكاثرة ، ريحاً كفأت قدورهم ، وأفسدت طعامهم ، ونزعت فساطيطهم ، ونسفت مخيّماتهم ، وأطفأت نيرانهم ، وملأت عيونهم وآذانهم بالتراب ، فما عادوا يَصبرون لذلك ـ ففروا جميعاً ، ورجعوا خائبين خاسئين ، ولم يُصب شيء مِنْ ذلك أحداً من الذين مع رسول الله ﷺ .

روى البزار ، وابن مَرْدُويه ، وابن أبي حاتم[1] ، والحاكم برجال الصحيح ، وأبو الشيخ ، وأبو نعيم في [دلائل النبوة] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما كانت ليلة الأحزاب أرسل الله تعالى عليهم ـ أي : على الأحزاب الكافرة ـ ريح الصبا ، فأطفأت نيرانهم ، وقطعت أطنابهم ؛ فقال رسول الله ﷺ : « نُصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور »[2] .

قال ابن عباس : فذلك قوله تعالى : ﴿ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ﴾ وهم الملائكة عليهم السلام .

روى الشيخان ، والنسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ قال : « نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور » .

وقد روى الحاكم وأبو نعيم في [الدلائل] والبيهقي وغيرهم في حديث حذيفة رضي الله عنه عن غزوة الخندق : وفيه قال حذيفة : (فدعاني

---

(١) كما في [شرح المواهب] و[الدر المنثور] .
(٢) وتُسمى العقيم ، قال تعالى : ﴿ وفي عادٍ إذْ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾ الآية ، وهي التي لا تلفح سحاباً ولا شجراً ، ولا خير منها ولا بركة ـ انظر القرطبي .

رسول الله ﷺ - أي : في أشد ليلة من ليالي غزوة الخندق - فقال لي : « اذهب فأتني بخبر القوم » .

فقلت : إنّي أخشى أُؤسَر - أي : يأسروني .

فقال لي ﷺ : « إنّك لن تؤسر » ، فدعا لي ،وقال : « اللهم احفظه من بين يديه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله ، ومن فوقه ، ومن تحته » .

فأذهب الله تعالى عنّي القَرّ - أي : البرد - والفزع وفي رواية : فقمت مستبشراً بدعائه ﷺ ، فما شق علي شيء مما كان ، فلما وليت دعاني فقال : « يا حذيفة لا تُحْدِث في القوم شيئاً » - أي : من القتل ونحوه - « حتى تأتيني » .

قال حذيفة : فدخلت عسكرهم ، فإذا الريح في عسكرهم لا تجاوزهم شبراً ، وفي رواية ابن إسحق : فدخلت عسكرهم فإذا الريح وجنود الله تعالى أي : الملائكة تفعل بهم ما تفعل ، لا تُقر لهم قدراً ، ولا إناء ، ولا بناء ، فلما رجعت رأيت فارسين في طريقي معتمّين - أي : عليهما العمائم - فقالا لي : أخبر رسول الله ﷺ - أي : الذي أرسلك لتأتيه بخبر القوم ، فأخبره بما عاينته وشاهدته ، وأنّ الله تعالى قد كفاه القوم - أي : ردّ كيد أعدائه في نحورهم - فانهزموا خاسئين) . اهـ

وهذان الفارسان هما من الملائكة عليهم السلام ، تَمَثّلا له بصورة فارسين ، والظاهر أنّهما القائدان في المعركة ، ولا شك أنّ الله تعالى قد أعلم نبيه ﷺ بذلك قبل خبر حذيفة ، ولكنْ في تكليم الملائكة لحذيفة بالبشارة زيادة طمأنينة لحذيفة ، وبقية الصحابة الذين زلزلوا في تلك المعركة زلزالاً شديداً . .

ففكر أيها العاقل في قول حذيفة الذي عاين وشاهد : فإذا الريح لا تُجاوز عسكر أعداء الله تعالى ورسوله ﷺ ، فامتثلت أمر ربها ، ونفّذت ما أُمرت به على أكمل الوجوه ـ قال تعالى : ﴿ وما يَعْلم جُنود رَبِّك إلاّ هُوَ وما هي إلا ذكرى للبشر ﴾ فهو سبحانه جنّد الريح ، وأرسلها لتدمير قوم عاد ، وهو الذي جند البعوضة وأرسلها لإهلاك النمرود ؛ بأن تدخل في منخره حتى تصل إلى أمّ دماغه فتنهشه حتى يموت .

وهكذا جنّد الله تعالى العنكبوت لوقاية سيدنا رسول الله ﷺ لما دخل الغار حين خرج مهاجراً إلى المدينة المنورة ـ وأمَرها سبحانه أنْ تنسج على فم الغار ـ فقد روى الإمام أحمد في [مسنده] عن ابن عباس رضي الله عنهما حديث الهجرة وفيه قال : (ونسج العنكبوت على باب الغار) الحديث .

وروى البزار في [مسنده] من حديث أبي مصعب المكي قال : أدركت زيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة وأنس بن مالك يتحدثون : أنّ النبي ﷺ لما كان ليلة بات في الغار : أنّ الله عز وجل أمر العنكبوت فنسجت على وجه الغار ، وأمر الله تعالى شجرةً فنبتت في وجه الغار ؛ فسترت وجه النبي ﷺ عن أعدائه .

وقد جاء في السِيَر أنّ تلك الشجرة يقال لها : البراءة ـ لها خيطان كثيرة ، وزهر أبيض تُحشى به الوسائد والمخادّ ، فيكون كالريش لخفته ولينه ، لأنّه كالقطن ، فحجبت عمّن في الغار أعين الكفار .

فالشجرة لما نبتت أغصانها غطّت باب الغار ، وجاءت العنكبوت فنسجت عليه ؛ فصار نسجها بين أغصانها ، وأرسل الله تعالى حمامتين فوقفتا على وجه الغار ، فعشّشتا على بابه .

وكانت كفار قريش قد أرسلوا شبابهم ليدركوا رسول الله ﷺ ، ومعهم

سيوفهم وعصيّهم ، حتى إذا كانوا قريباً من الغار ، تقدم أحدهم فنظر فرأى الحمامتين قد عشّشتا فرجع إلى أصحابه ، فقالوا له : مالك ؟ فقال : رأيت حمامتين فعرفت أنّه ليس فيه أحد ، وقال آخر : ادخلوا الغار ، فقال أمية بن خلف ـ الكافر المقتول ببدر ـ قال لهم : وما أربكم ـ أي : ما حاجتكم إلى الغار ـ إنّ فيه لعنكبوتاً أقدم من ميلاد محمد (ﷺ) ـ ولو دخل لكسر البيض وتقطع العنكبوت . اهـ

فانظر في هذه الدويبّة الصغيرة ، وهي العنكبوت ، فإنّها دويبة صغيرة ، تنسج في الهواء ـ كما جاء في [حياة الحيوان] ، قال : ومنه نوع يمد السدى ثم يعمل اللحمة ، ويبتدىء من الوسط ، قال : وهذا النوع ينسج بيته دائماً مثلث الشكل . . إلخ

فهذه الدويبة التي هي صغيرة الحجم ، قد جَنّدها الله تعالى ، وأمرها سبحانه أنْ تنسج على فم الغار ، فور دخوله ﷺ ، وقايةً له ﷺ ، كما جنّد النبات ـ وهي شجرة البراءة كما تقدم ـ فأسرعت في امتدادها على فم الغار ، كما جنّد وأمرَ الحمامتين أنْ تُعششا على فم الغار .

الله أكبر ، الله أكبر ، ما أكثر جنود الله تعالى ؟!!! نعم إنّ الله تعالى قال : ﴿ ولله جُنُودُ السموات والأرض ﴾ ، وقال : ﴿ وَمَا يَعْلم جُنُودَ رَبِّك إلّا هُو . . ﴾ .

الله أكبر ، الله أكبر ، ما أقوى جنود الله تعالى ؟!!! نعم إنّ الله تعالى القدير الغالب الذي لا يغلب ، هو جنّد تلك الجنود وأمدّها .

وكان من دعائه ﷺ لما خرج مهاجراً : « **الحمد** لله الذي خلقني ولم أكُ شيئاً ، **اللهم** أعنّي على هول الدنيا ، وبوائق الدهر ، ومصائب الليالي والأيام ، **اللهم** اصحَبْني في سفري ، واخْلفني في أهلي ، وبارك لي فيما

رزقْتَني ، ولك رَبِّي فَذلّلْني ، وعلى صالح خُلقي فقومني ، وإليك ربِّ فحبّبْني ، وإلى الناس فلا تَكِلني ، أنت ربّ المستضعفين ، وأنت ربِّي ، أعوذ بوجهك الكريم الذي أشرقت له السماوات والأرض ، وكُشفت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الأولين والآخرين ـ أنْ يَحلّ علي غضبك ، أو ينزل عليّ سخطك ، أعوذ بك من زوال نعمتك ، وفجأة نقْمَتِك ، وتَحوّل عافيتك ، ومن جميع سخطك ـ لك العتبى عندي حيثما استطعت ، ولا حول ولا قوة إلا بك » . اهـ وهذا الدعاء رواه أبو نعيم وله شواهد .

وهو الله تعالى الذي جنّد البحر لإغراق فرعون ، وأَمَرَهُ أنْ يطيع أمر موسى عليه السلام بالانفلاق ، حتى يمر موسى ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ ومن معه ناجين سالمين ، ثم أمره بالانطباق حتى يغرق فرعون ومن معه عن آخرهم .

قال سبحانه : ﴿ فَأَوْحَيْنا إلى مُوسى أنِ اضْربْ بِعَصَاكَ البَحر فانْفَلَق فَكَانَ كُلُّ فرقٍ كالطَّود العظيم .وأزلفنا ثم الآخرين وأَنْجَيْنا مَوسى ومَنْ مَعَهُ أجمعِينْ. ثم أَغْرقنا الآخرين. إنَّ في ذلك لآيَةً وَمَا كانَ أَكْثَرهُم مُؤمنين. وإنَّ ربَّك لَهُو العزيز الرَّحيم ﴾ .

فلما ضرب موسى البحر آمراً به بالانفلاق ، فانفلق من البحر اثنا عشر طريقاً على عدد أسباطهم ، فقالوا لموسى عليه السلام : إنّا نخاف أن تُوحل فيه الخيل ، فدعا موسى ربه فهبت الريح فجفّ فصار طريقاً يَبَسا .

فقالوا : إنّا نخاف أن يغرق منا ونحن لا نشعر ؟ فقال بعصاه : فنقب الماء فجعل بينهم كوى ـ نوافذ ـ يَرى فيها بعضهم بعضاً فمشوا في البحر كلهم آمنين .

وقد أمر الله تعالى البحر أنْ يأتمر بأمر موسى عليه السلام بالانطباق ،

وإليه الإشارة في قوله تعالى : ﴿ واتْرُكِ البَحرَ رَهْواً إنّهم جُنْدٌ مُغرقون ﴾ أي : لا تأمر البحر بالانطباق يا موسى بعد أن تنجو أنت وقومك ، بل اتركه رهْواً ـ أي : مفتوحاً على حاله ـ وجاء هذا التنبيه لموسى عليه السلام لأنّه أراد بعد ما جاوز البحر بقومه أنْ يغلق البحر وراءه ، فَيسلم موسى عليه السلام ومن معه ، ويَحول البحر دون فرعون فلا يصل إلى موسى ولكن الله تعالى يُريد أنْ يسلم موسى ومن معه ، وأنْ يغرق فرعون ومن معه ، ولذلك قال لموسى : ﴿ واتْرك البَحر رَهْواً إنّهم جُنْدٌ مُغرقون ﴾ .

فبات البحر تلك الليلة قلقاً ينتظر أمر موسى عليه السلام له بالانفلاق في أي ساعة يكون ، حتى ينفذ الأمر فوراً ، ثم ينتظر الأمر بالانطباق متى يكون حتى ينفذ الأمر فوراً .

روى عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وغيرهم عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ واتْرُكِ البَحر رَهْواً ﴾ قال : طريقاً يبساً كهيئته ـ أي : مفتوحاً غير مطبق ـ يقول له سبحانه : لا تأمره أنْ يرجع بل اتركه حتى يدخل آخرهم . اهـ

فإن قال قائل ـ معاند أو ملحد ـ : أنا لا أثق بخبر القرآن عن قصة أصحاب الفيل .

فالجواب : **أولاً** : أنّ قصة أصحاب الفيل هي متواترة ، شاهدها عبد المطلب وأقرانه ، وأولادهم ، واشتهرت عند قبائل العرب كلهم ، باعتبار أنّ أبرهة لما أعلن عزمه على هدم البيت المعظم ، فإنّ جميع قبائل العرب قامت ضده ، وعارضته ، وأنكرت عليه ، وحاربه كثير منهم ، ولكنْ لم يستطيعوا ردّه عن البيت ـ حتى أهلكه رب البيت سبحانه وتعالى ـ .

ولذلك فإنّ القرآن الكريم لما ذكر قصة أصحاب الفيل ذكرها باعتبار أنّها

قضية معلومة قطعاً ، مشهورة لا شك فيها فيقول سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيل ﴾ ، فالقضية قطعية ، لأنّها متواترة ، ومشهورة لأنّها مرئية مشهودة .

ثانياً : لما كانت قصة الفيل قطعية ـ لا شك في وقوعها ـ فقد تواتر نقلها في التواريخ كلها ، **فإذا كان الملحد لا يصدق بخبر القرآن** ، **يقال له** : أفلا تصدق بإجماع نقل التواريخ ؟

فإن عاند ولم يصدق إلا بمشاهدته بالعيان .

فيقال له : إذاً يجب أنْ تُنكر جميع ما حدّثت به التواريخ من وقائع العرب وغيرهم ، بل يجب أنْ تنكر جميع الأخبار عن الأمم الماضية ، وأخبارها ، ووقائعها ، بل تنكر جميع بلادهم ، ومساكنهم ، ومدنهم ، لأنّك لم تشاهدها بالعيان كلها ، وإذا وصل الأمر إلى هذا الحد فهو الجنون بعينه .

ولذلك يجب أنْ تعلم أنّ القرآن إذا أخبر عن قصة ، أو أخبر عن حادثة فإنّها ثابتة قطعاً ، متواترة عند المخاطبين بلا شك فيها .

ثالثاً :لو لم تكن قصة أصحاب الفيل حقيقة واقعة ، لكان أوّل من أنكرها على النبي ﷺ وكذّب بها أعداء النبي ﷺ ، كأبي جهل ، وأبي لهب وغيرهم ، فإنّهم كانوا يحرصون كل الحرص على أنْ يعثروا له على كذبة ، أو زَلّة ـ في حين أنّهم لم يستطيعوا إنكارها ، ولا إنكار غيرها من قصص القرآن ، لأنّ ذلك معلوم عندهم قطعاً .

رابعاً : أنّ القرآن الكريم حين يذكر قصص الأمم السابقة ، وحين يذكر الوقائع إنّما يذكرها على سبيل الاحتجاج بها على المكذبين للقرآن الكريم ، والمكذبين لرسول الله ﷺ ،فيذكرها لهم محتجاً عليهم بما هو معلوم عندهم ـ قطعاً ـ ليفحمهم ، ويلقمهم حجر الخذلان ، فلو لم تكن الوقائع محققة

الوقوع عندهم ؛ ما كان الاحتجاج بها عليهم مفحماً ـ وهذا مطرد في جميع أخبار القرآن وقصصه .

خامساً : أنّ القرآن العظيم هو كلام الله تعالى ، فجميع إخباراته ، وما جاء به فهو حقٌ قطعاً ، والدليل على أنّه كلام الله تعالى هو أنّه معجز ، فقد أعجز الجن والإنس أنْ تأتي بمثله ـ وتحداهم ، وقد ذكرت جوانب من إعجاز القرآن الكريم في كتابي (هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان) فارجع إليه .

ولذلك يجب أنْ تُصدق بكل ما جاء به بلا شك ولا ريب ، وتُسَلِّم له تسليماً بلا تردد ، وقُل : صدق الله العظيم ، وبَلَّغ رسوله الكريم ، ونحن على ذلك من الشاهدين .

فليس هذا القرآن بشعر شاعر ، ولا نثر ناثر ، ولا حكمة حصيف ماهر ، ولا حديثاً مفترى ـ بل هو كلام ربِّ العالمين وسائر الورى ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كان في قَصَصِهم عِبْرةُ لأُولي الأَلْبَاب ﴾ ـ أي : أولي العقول السليمة ، والأفهام المستقيمة ، الذين خلعوا ربقة الأهواء التي هي أعظم حجاب ، حتى وصلوا إلى اللباب ، ﴿ ما كان حديثاً يُفْتَرى ولكنْ تَصْدِيقَ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شيَء وهدىً ورحمةً لِقَومٍ يُؤْمِنُون ﴾ .

فهم يُفكرون بما جاء به هذا القرآن الكريم فيعقلون ، فإذا عقلوه علموا علماً يَقيناً أنّه هو الحق ، فهم يعلمون ، ومتى علموا ألزمهم علمهم أنْ يؤمنوا به ، ويصدقوه ، لأنّهم لا يَسعهم حينئذ أن ينكروه ، فإنّهم إذا أنكروه ـ والحالة هذه ـ : فهم معاندون جاحدون .

قال تعالى : ﴿ فإنّهم لا يُكَذِّبُونَك ولكنَّ الظالمينَ بآياتِ الله يَجْحدون ﴾ . ـ والجاحد هو الذي عرف الحق ، ولكنْ لَم يعترف به ، بل راح ينكر بعد

علم جازم ، وهو كافر ـ أي : ساتر للحق بعدما بان له وظهر ـ ومن هنا حق عليه العذاب قال الله تعالى : ﴿ ولكنْ حقّت كلمةُ العذاب على الكافرين ﴾ .

فتعذيب الله تعالى للكفار هو أمر حق ،وليس بظلم : ﴿ وما ربُّك بِظَلَّامٍ للعَبيد ﴾ .

سادساً : إن الله تعالى قد ذكر في القرآن الكريم قصة أصحاب الفيل ، كما ذكر أنواعاً من العقوبات التي حلّت في أعدائه ،ليكون ذلك عبرة لأولي الألباب وموعظة وذكرى للعقلاء ، ومِنْ ثَمّ ترى أنّ الله تعالى يقول بعد ذكر العقوبة التي وقعت : ﴿ ولَقد يَسّرْنَا القُرآن للذّكر فَهل مِنْ مُدّكِر ﴾ ـ كما في سورة القمر، فكلما ذكر عقوبة أتبعها ﴿ فهل من مدكر﴾ ـ أي: هل من متذكر ومتعظ بما ذكره الله تعالى ، من عقوبات الأعداء ، فإنّ تلك العقوبات قد بلغتهم ، وتواترت إليهم أخبارها ، وشاهدوا كثيراً من آثارها ، وههنا ينبغي للعاقل الفَطِن أنْ يتدبر قول الله تعالى : ﴿ ولقد يَسَّرنَا القُرآن للذكر فَهَلْ مِنْ مدّكر ﴾ ، ليفقه ما هو هذا التيسير ، وما وجه امتنان الله تعالى به على عباده ، فإنّ الله تعالى يذكر فضله ومنته على العباد ، بتيسير القرآن للذكر ، ويؤكد ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَلَقد ﴾ الدالة على القسم .

نعم إنّ في ذلك لمنّة كبرى ، ونعمة من الله تعالى عظمى ـ وذلك أنّ هذا القرآن هو كلام الله تعالى المعجز ، أنزله على عباده ،وتحداهم أنْ يأتوا بمثله :فلم يستطيعوا ولنْ يستطيعوا ذلك ،مع أنّ حروفه هي الحروف التي يُركبون منها كلامهم ، مثل : ألف ـ لام ـ ميم ـ ونحوها ، ومع ذلك فهم عاجزون عن الإتيان بمثله لإعجازه ، فالعجب كل العجب أنّ هذا القرآن ـ مع كونه معجزاً ـ فإنّ الله تعالى يَسّره للذكر ، وهذا من جملة إعجازه .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ ولَقَد يَسَّرنا القُرآن للذكر ﴾ـ يَسّرناه للذكر باللسان تلاوة ، ويَسَّرناه للذكر بالجنان والعقل تذكراً ، وتفهماً ، واتعاظاً لكل من قصد ذلك ، وأقبل عليه ، فإنّه مفتوح عليه غير مغلق ؛ ومِنْ ثَمّ ترى الأعجمي الذي لا يُحسن التكلم بالعربي فإنّه إذا توجّه إلى تعلم تلاوة القرآن الكريم وحفظه ـ وصدق في ذلك ـ فتراه يجيد تلاوته ، ولا يتلعثم ، في حين أنّه لا يحسن أن يتكلم بالعربية .

أما تيسيره للذكر باللسان تلاوة وقراءة فهو كما قال سبحانه : ﴿ فإنّما يَسَّرناهُ بِلسَانِك لِتُبَشِّر بِه الـمُتَّقِيْن وتَنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً ﴾ .

وأما تيسيره للذكر بالجنان فالدليل عليه تمام الآية وهو قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدّكر ﴾ ـ أي : متعظ ومتذكر ،يتعظ بمواعظ هذا القرآن الكريم ،ويتذكر بتذكيره ،ويتدبَّر آياته ، فإن هذا القرآن قوي التذكير ، عظيم التأثير .

قال الله تعالى :﴿ ولَوْ أنّ قُرآناً سُيِّرت به الجبال أوْ قُطّعتْ به الأرض أو كُلِّم به الموتى ﴾ ـ أي : لكان هذا القرآن .

الدليل الثامن : من الأدلة على إثبات الإدراك والشعور للنباتات ،والجمادات ،والحيوانات ـ كل منها على حسبه ـ شهادتها يوم القيامة :

والأدلة على ذلك من وجوه متعددة :

الوجه الأول :شهادة الأرض بما عُمِل عليها :

قال تعالى : ﴿ إذا زُلزِلَتِ الأرْضُ زِلْزَالَهَا وأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَها وقَالَ الإنْسانُ مَالَها يَوْمئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَها بِأَنَّ رَبَّك أَوْحَى لَها ﴾ .

فالأرض سوف تشهد يوم القيامة بما عمل على ظهرها ؛ وهذا معنى : ﴿ تُحَدِّثُ أَخْبارها ﴾ .

كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ ، قال : « أتدرون ما أخبارها » ؟

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : « فإن أخبارها أنْ تشهد على كل عبد وأمَة - أي : رجل وامرأة - بما عمل على ظهرها ،تقول : عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا ، فهذه أخبارها » ، رواه الترمذي والنسائي .

فالأرض تشهد بما يُعمل على ظهرها ،وهذه الشهادة لا تكون إلا عَنْ عِلْمٍ ومشاهدة ، فلولا أنّ لها إدراكاً وشعوراً ،لما علمتْ ،ولما تحمّلتِ الشهادة حتى أدّتها يوم القيامة ، فإنّ الشهادة لا تقبل إلا مِمَّن تحمّل العلم بالمشهود به .

الوجه الثاني : شهادة الأرض وما عليها للمؤذنين يوم القيامة :

روى البخاري عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صَعْصَعَة الأنصاري عن أبيه أنّ أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال له : (إنّي أراك تُحب الغَنَم والبادية ، فإذا كنت في غنمك أَوْ بَادِيَتِك فأذّنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء ، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن : جنٌّ ولا إنْسٌ ، ولا شيء إلّا شهد له يوم القيامة) .

قال أبو سعيد : سمعته من رسول الله ﷺ .

ورواه مالك والنسائي وابن ماجه بزيادة : (ولا حجر ؛ ولا شجر ؛ إلا شهد له) .

ورواه ابن خزيمة في [صحيحه] ولفظه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يسمع صوت المؤذن : شجر ، ولا مَدَر ، ولا حجر ، ولا جِنٌّ ولا إنْس إلاّ شهد له » .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « يُغفر للمؤذن منتهى أذانه ، ويَسْتَغْفِرُ له كل رطب ويابس سمعه » رواه أحمد بإسناد صحيح ، والطبراني في [الكبير] ، والبزار ، إلا أنّه قال : « ويجيبه كل رطب ويابس » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « المؤذن يُغفر له مدى صوته ، ويُصَدِّقُه كل رطب ويابس » رواه الإمام أحمد واللفظ له ، وأبو داود ، وابن خزيمة في [الصحيح] ولفظهما : « ويَشْهد لَهُ كل رطب ويابس » .

ورواه النسائي وزاد فيه : « وَلَهُ مثل أجر من صلّى معه » .

ورواه ابن ماجه وعنده : « يُغفر له مدّ صوته ، ويَستغفر له كل رطب ويابس ، وشاهد الصلاة تكتب له خمس وعشرون حسنة ، ويكفّر عنه ما بينهما »[1] .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه ، أنّ نبي الله ﷺ قال : « إنّ الله وملائكته يصلون على الصف المقدّم ، والمؤذن يُغفر له مدى صوته ، وصدَّقه من سمعه من : رطب ويابس ، وله أجر من صلّى معه » رواه الإمام أحمد ، والنسائي بإسناد حسن جيد كما في [ترغيب] المنذري .

فلقد أَثْبَتَتْ هذه الأحاديث النبوية أنّ لكل رطب ، ويابس ، وجماد : شعوراً وإدراكاً ، بحيث تَسمع صوت المؤذن ، وتَعلم ما يقوله ، فتجيبه ،

---

(١) انظر [ترغيب] المنذري : ورواه الطبراني في [الأوسط] ، وأبو نعيم في [الحلية] .

وتشهد له يوم القيامة .

فهذا سيدنا محمد ﷺ رسول الله ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ؛ يخبرنا بذلك ، وينبئنا عن ذلك ، ونحن نقول : آمنا وأيقنا بجميع ما قاله رسول الله ﷺ بلا تأويل ، ولا تبديل ، ولا تحويل .

الوجه الثالث : شهادة الأحجار والأشجار لمن ذكر الله تعالى عندها :

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله أوصني ، فقال ﷺ : « عليك بتقوى الله ما استطعت ، واذكر الله تعالى عند كل حجر وشجر ، وما عملت من سوء فأحدث له توبة ! السّر بالسّر ، والعلانية بالعلانية » رواه الطبراني والبيهقي .

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ما من صباح ولا رواح إلا وبقاع الأرض ينادي بعضها بعضاً : يا جارة هل مرّ بك اليوم عبد صالح : صلى عليك أو ذكر الله ؟ فإن قالت : نعم ، رأت أن لها بذلك فضلاً »(1) .

قال العلامة المناوي رحمه الله تعالى : هذا الحديث ظاهر في أن الأرض تتكلم بلسان القال ، ولا مانع منه ، ولا ملجأ لجعله بلسان الحال ـ كما زعمه البعض ، ولا يلزم من كونه بلسان القال سماعنا ، ولا كونه ككلامنا ، بل قد يكون على نحو آخر من أنحاء الكلام . اهـ

فإذا تاب العبد من ذنوبه التي عملها على الأرض فإن الله تعالى يمحو بالتوبة أثر الذنوب من الأرض ، وينسي الأرض ذلك الذنب ، ويُبَدِّل مكانه حسنة :

روى الأصبهاني عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا

---

(1) انظر ترغيب المنذري : رواه الطبراني في [الأوسط] ، وأبو نعيم في [الحلية] .

تاب العبد من ذنوبه أنسى الله عز وجل حفظته ـ أي : الكرام الكاتبين عليه أعماله وأقواله ـ ذنوبه ، وأنسى ذلك جوارحه ومعالمه ـ أي : آثار المعصية من الأرض ـ حتى يلقى الله تعالى يوم القيامة ، وليس عليه شاهد من الله بذنب » .

ولهذا الحديث شاهد من طريق آخر :

عن أبي الجون مرسلاً أن النبي ﷺ قال : « لله أفرح بتوبة التائب من الظمآن الوارد ـ أي : على الماء البارد ـ ومن العقيم الوالد ، ومن الضال الواجد ، فمن تاب إلى الله توبةً نصوحاً أَنْسى الله تعالى حافظيه وجوارحه وبقاع الأرض كلها ـ خطاياه وذنوبه[1] » .

ومن هنا تعلم أيها العاقل أن للذنوب آثارها في جوراح الإنسان ، وفي الأرض ، وأنها سوف تشهد عليه ، فهي من جملة شهداء الله تعالى عليه في الأرض ، كما أن الملائكة عليهم السلام الموكلين بك سوف تشهد عليك .

فإذا تاب العبد توبة نصوحاً تاب الله تعالى عليه ، ومحى جميع تلك الآثار الظلمانية ، وبدَّلها ، وجعل مكانها آثاراً نورانية ، ومكان كل سيئة حسنة . قال تعالى : ﴿ إلاّ من تابَ وآمنَ وعَمِلَ عَمَلاً صالحاً فأولئك يُبَدِّلُ الله سيئاتِهم حسناتٍ وكانَ الله غفوراً رحيماً . . ﴾ .

فإن التوبة هي من أكبر الحسنات تحل محل السيئات التي تاب منها .

قال تعالى : ﴿ وتوبوا إلى الله جَميعاً أَيُّها المُؤْمِنونَ لعلَّكم تفلحونَ ﴾ .

---

(١) قال في [الفتح الكبير] : رواه أبو العباس بن تركمان الهمداني في كتاب [التائبين] .

الوجه الرابع : شهادة الجلود ، والألسنة ، والأيدي ، والأرجل ـ شهادة بنطق مسموع :

قال الله تعالى : ﴿ وَيومَ يُحْشَرُ أعداءُ اللّهِ إلى النَّار فَهُمْ يُوزَعونَ ﴾ .

ـ أي : يجمع أوّلهم على آخرهم ليتلاحقوا مساقين جميعاً إلى النار ـ .

﴿ حتّى إذا ما جاؤوها شَهِدَ عَلَيْهم سَمْعُهُم وأَبْصارُهُم وجُلُودُهُم بما كانوا يَعْمَلون . وقالوا لجلودِهِم لِمَ شَهِدْتُم علينا ؟ قالوا أَنْطَقَنا اللّهُ الذي أَنْطَقَ كلَّ شيءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّل مَرَّةٍ وإليْهِ تُرْجَعون . وما كُنْتُم تَسْتَتِرونَ أن يَشْهَدَ عَلَيْكُم سَمْعكم وَلاَ أَبْصارُكم ولا جُلودُكم ولكِن ظَنَنْتُم أنَّ اللّهَ لا يَعْلَمُ كَثيراً ممّا تَعْمَلونَ . . ﴾ .

فأخبر سبحانه عن شهادة أسماعهم ؛ وأبصارهم ؛ وجلودهم بما شاهدوه من أعمالهم ؛ وهذه الشهادة حين صاروا على شفير جهنم ، وقد سبقتها شهادة السمع والأبصار والجلود في موقف السؤال والحساب ، والظاهر أن المراد بالجلود هي جلود أجسامهم المعروفة الشاملة للجوارح والأطراف ، وإنما خص السمع والأبصار بالذكر لأنّ السمع هو وسيلة لإدراك وفهم آيات الله التنزيلية المتلوّة بعد سماعها .

والأبصار هي وسيلة لرؤية آيات الله تعالى التكوينية المرئية في الأكوان ،فلما كفروا بآيات الله تعالى السمعية والبصرية ، وعصوا أوامر الله تعالى فارتكبوا ما نهى الله تعالى عنه وفعلوا ذلك بجوارحهم وجلودهم ـ كان من الحكمة أن يكون السمع والبصر والجلود والجوارح هي شاهدة عليهم .

﴿ وقالُوا لِجُلودِهم لِمَ شَهِدْتُم عَلَيْنا ؟ قالُوا : أَنْطَقَنا اللّهُ الذي أَنْطَقَ كلَّ شيءٍ وَهُوَ خَلَقَكُم أَوّلَ مَرَّةٍ وإلَيْهِ تُرْجَعونَ ﴾ .

والمعنى : أنطقنا الله تعالى ، وهو الذي أقدرنا على بيان الواقع ، فشهدنا

عليكم بما عملتم من القبائح ، وما كتمنا شيئاً .

فأنطق الله تعالى أسماعهم ، وأبصارهم ، وجلودهم بدون أن يكون لأصحابها اختيار في ذلك ، ولو كان ذلك باختيار أصحابها لما اختاروا أن تشهد عليهم ، ولكنّ الله تعالى عزلهم عن السلطة والتدبير ، والإرادة التي كانت متعلقة بأسماعهم وأبصارهم وجلودهم ، وأنطقها ، فنطقت بحقيقة ما سمعت ، وما رأت ، وما لمست .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ خَلَقَكُم أَوّلَ مَرّةٍ وإلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فيه تقرير وتثبيت لما قبله ، وهو أنه سبحانه القادر على الخلق أوّل مرة ، فإنه قادر على الإعادة والإنطاق من باب أولى .

وقوله تعالى : ﴿ وما كُنْتُم تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُم سَمْعُكُم ولا أَبْصارُكم ولا جلودُكم ولكن ظَنَنْتُم أنّ اللّهَ لا يَعْلَمُ كَثيراً مِمّا تعْمَلون . . ﴾ .

المعنى : أنكم كنتم في الدنيا تستترون بالجدران ، والحجب عن الخلق ، عند ارتكاب الفواحش والمنكرات ، وما كان استتاركم مخافةَ أنْ تشهد عليكم جوارحكم ، وسمعكم ، وأبصاركم ، لأنكم أنكرتم الحشر وما يجري بعده من شهادة الجوارح والسمع والبصر ، ﴿ ولكن ظننتم أنّ الله لا يعلم كثيراً مما تعملون . . ﴾ وأنه لا يعلم ما أخفيتموه وسترتموه ؛ وظننتم أنه سبحانه لا يُظهر ما أخفيتموه عن الخلق دون الخالق عزّ وجلّ .

روى الشيخان وأصحاب السنن عن ابن مسعود رضي الله عنه قال :

كنت مستتراً بأستار الكعبة ، فجاء ثلاثة نفر ـ ثقفيان وقرشي ، أو ثقفي وقرشيان ـ كثير لحم بطونهم ، قليلة عفة قلوبهم ، فتكلموا بكلام لم أسمعه فقال أحدهم : أترون أنّ الله يسمع كلامنا هذا ؟ فقال الآخر : إنّا إذا رفعنا

أصواتنا يسمع ، وإذا لم نرفع لم يسمع ، فقال الآخر : إنْ سمع منه شيئاً سمعه كله .

قال ابن مسعود : فذكرت ذلك للنبي ﷺ ، فأنزل الله عز وجل :

﴿ وما كنتم تستترون أنْ يشهد عليكم سمعُكم ولا أبصارُكم ولا جلودُكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم ﴾ يعني : أهلككم .

﴿ فأصبحتم من الخاسرين ﴾ .

وفي هذه الآية تنبيه على أنّ الواجب على المؤمن أن يراقب الله تعالى في جميع أموره ، وفي تقلباته ، وحركاته ، وسكناته ، وأن يعلم يقينا أن عليه من الله تعالى رقيباً ملازماً لرقبته ، وشهيداً مشاهداً في خلوته وجلوته ، وذلك الشهيد من ذاته وبنيته : سمعه ، وبصره ، وجلود جثّته ؛ فإنْ عزم على المعصية أو الذنب فليختف ويستتر عن الشهود الذين سيشهدون في اليوم الموعود .

إذا ما خلوتَ الدهر يوماً فلا تقل خلوتُ ولكن قل عليّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أنّ ما تُخفي عليه يغيب

وأما الأحاديث النبوية فهي كثيرة ـ أذكر منها ما يلي ـ:

روى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال : « هل تدرون مم أضحك » ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم .

قال : « من مخاطبة العبد ربه ، فيقول العبد : ألم تجرني من الظلم ؟ قال : فيقول الله تعالى : بلى ـ فيقول العبد : فإني لا أجيز اليوم على نفسي شاهداًإلا مني ، فيقول سبحانه : كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً ،

والكرام الكاتبين عليك شهوداً ، قال : فيختم على فيه ، ويقال لأركانه - أي : أعضائه - انطقي فتنطق بأعماله ، ثم يخلّى بينه وبين الكلام ؛ فيقول : بُعداً لَكنّ وسُحقاً فعنكُنَّ كنت أناضل . . » - أي : أنا كنت أدافع عن أعضائي بالباطل فإذا بها تشهد عليَّ بالحق والحقيقة .

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟

قال ﷺ : « هل تضارّون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة » ؟

قالوا : لا .

قال : « هل تضارّون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة » ؟

قالوا : لا .

قال : « فوالذي نفسي بيده لا تضارّون في رؤية ربكم إلا كما تضارّون في أحدهما ، قال : فيلقى العبدَ - أي : فيلقى الرب عبداً من عباده -

يقول : أيْ فُل أَلَمْ أُكرمك ، وأسوّدك ، وأزوّجك ، وأسخر لك الخيل والإبل ، وأذرك ترأس وتربع ، فيقول : بلى ، قال : فيقول : أفظننت أنك ملاقيّ ؟ فيقول : لا ، فيقول : فإني أنساك كما نسيتني .

ثم يلقى الثاني - أي : فيلقى الرب عبداًآخر من عباده -

فيقول : أيْ فل أَلَم أكرمك ، وأسوّدك ، وأ زوّجك ، وأسخر لك الخيل والإبل ، وأذرك ترأس وتربع ، فيقول : بلى أي ربّ .

فيقول : أفظننت أنك ملاقيّ ؟ فيقول : لا ، فيقول : فإنّي أنساك كما نسيتني .

ثم يلقى الثالث ـ أي : فيلقى الرب عبداً من عباده ـ فيقول له مثل ذلك ، فيقول : يا ربِّ آمنت بك ، وبكتابك ، وبرسلك ، وصلّيت ، وصمت ، وتصدقت ، ويثني بخير ما استطاع ، فيقول : ههنا إذاً ، قال ثم يقال له : الآن نبعث شاهدنا عليك ، ويتفكر في نفسه من الذي يشهد عليّ ؟

فيختم على فيه ، ويقال لفخذه ، ولحمه ، وعظامه : انطقي ـ فتنطق فخذه ، ولحمه ، وعظامه : بعمله ، وذلك ليُعذر من نفسه ، وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه » .

* * * *

شهادة جوارح الإنسان بما عمل عند السؤال والحساب

قال الله تعالى : ﴿ إنّ الذين يَرْمونَ المُحْصَناتِ الغافِلاتِ المُؤْمِناتِ لُعِنُوا في الدّنيا والآخرةِ ولَهُم عَذَابٌ عَظيمٌ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِم أَلْسِنَتُهُمْ وأَيْدِيهم وأرجُلُهم بما كانوا يَعْمَلون . يَؤْمَئِذٍ يُوَفِّيهِم اللّهُ دِينَهُمُ الحقَّ ويَعْلَمونَ أنّ اللّهَ هو الحقُّ المبين . . ﴾ .

لقد دلت الآية المتقدمة وهي قوله تعالى : ﴿ حتّى إذا ما جاؤوها شَهِدَ عَليهِم سَمْعُهم وأبصارُهم وجلودُهم بما كانوا يعملون ﴾ دلت على أن هذه الشهادة كانت عليهم وهم على شفير جهنم ، وأما هذه الآية الكريمة فإنّها تدلُّ على أنّ هذه الشهادة من أعضائهم وجوارحهم تكون عليهم وهم في موقف السؤال والحساب ، الذي يترتب عليه الجزاء ـ بدليل قوله تعالى : ﴿ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ﴾ أي : جزاءهم الحق دون ظلم ، فإن المراد بالدّين هنا الجزاء كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

فقوله تعالى : ﴿ إن الّذينَ يَرْمونَ المُحْصَناتِ الغَافِلاتِ المُؤمِناتِ ﴾ أي : يرمونهن بالزنا مع أنّهنّ غافلات عمّا يُرمين به ، لكونهنّ مطبوعات على الخير ، والعفّة ، والنزاهة ، عما هنالك ؛ المتصفات بالإيمان ، وهو وصف يدعو صاحبه لعمل الصلاح ، والبر والخير ، ويبعده عن الفساد ، والقبائح والشرّ ﴿ لُعِنُوا في الدّنيا والآخرةِ ﴾ ـ أي : لعنهم الله تعالى ، والملائكة ، ولعنهم اللاعنون ، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ لعظم ما اقترفوه من الجناية

وفحش إفكهم ، وقباحتهم .

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِم أَلْسِنَتُهم وأَيْديهِم وأرجُلُهم بما كانوا يَعْمَلون ﴾ .

فالله تعالى ينطق تلك الجوارح بقدرته ، فتخبر كل جارحة منها بما صدر من أعمال صاحبها ، وتؤدي شهادتها عليه كما شاهدته وسمعته دون زيادة ولا نقص .

ولما كان القاذف قد استخدم لسانه بالقذف ـ وهو من أفحش الكلام ـ كان من المناسب أن يكذبه لسانه ، وأن يشهد عليه بقذفه وافترائه ، لتبين براءة المقذوف ، وليُعْلِنَ اللسان أنّ صاحبه قد أكرهه على تلك الكلمة الفاحشة ، تكلم اللسان باختياره دون إكراه صاحبه ، نطق وبيّن أنّ صاحبه هو كاذب في قذفه .

على أن القاذف إذا قذف هو مطالب أنْ يأتي بأربعة شهداء على ما يقول ، فلما عجز عن ذلك لأنه كذّاب ، قيل له : نحن نأتيك بأربعة شهداء هي : جوارحك التي منك ، وهي : يداك ، ورجلاك ، ونزيد شاهداً خامساً وهو لسانك الذي استعملته في هذا الإفك ، فإنه هو يشهد عليك بأنك أفّاك أثيم .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَفِّيهِمُ اللّهُ دِينَهُمُ الحَقَّ ويَعْلَمونَ أنّ الله هَوَ الحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ .

المراد بالدِّين هنا الجزاء والحساب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ مالك يوم الدِّين ﴾ أي : يوم الجزاء والحساب ؛ يقال : دِنته بفعله ديناً بمعنى : جزيته به فهو مدين .

قال تعالى ـ مخبراً عن قول القرين الكافر المنكر للآخرة : ﴿ أَئِذا مِتْنَا وكُنّا تُراباً وعِظَاماً أَئِنّا لَمَدِينُون ﴾ أي : محاسبون ومجزيون بأعمالنا ؟!!

وفي الحديث الذي رواه الترمذي عن النبي ﷺ قال : « الكيّس من دان

نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أَتْبَعَ نفسه هواها وَتَمَنَّى على الله الأمانيّ » .

فالكيس ، أي : الفطن العاقل من حاسب نفسه في الدنيا قبل أن يموت وتزود بالتقوى لما بعد الموت .

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد في [الزهد] عن أبي الدرداء، ورواه أبو نعيم والديلمي مسنداً عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « البر لا يَبلى ، والذنب لا يُنسى ، والديّان لا يموت ، اعمل ما شئت ، كما تدين تُدان » ، أي : كما تجازي وتعامل الناس تجازى أنت وتعامَل .

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد بإسناد حسن ، عن عبد الله بن أنيس رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الله العباد يوم القيامة عراة غُرلاً بُهماً ، ثم يقول : أنا الديّان أنا الملك . . . » الحديث .

فهو سبحانه الملك الديّان ـ أي : المحاسب والمجازي بالحق .

وهناك يعلم الكفار أنّ الله تعالى هو الملك الحق المبين .

فقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِم أَلْسِنَتُهُم وأَيْدِيهِم وأرجُلُهم بما كانوا يَعْمَلون ﴾ يدل على أن جميع الأشياء لها إدراك وشعور ، وأنّ الله تعالى ينطقها فتنطق .

ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿ اليوم نَخْتِمُ على أَفْواهِهِم وتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِم وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهم بِما كانوا يكسبون ﴾ ـ أي : بالذي استمروا على عمله من المخالفات ولم يتوبوا عنها .

فالأيدي تتكلم بما عملوه ، وتخبر قائلة : بأنهم فعلوا بنا ، وبواسطتنا كذا وكذا ، والأرجل تشهد عليهم بذلك ـ ويصدقه الخبر .

وإنما نُسب التكلم للأيدي ، والشهادة للأرجل ، بسبب اختصاص الأيدي بمباشرة الأعمال ، حتى إن الأيدي كثر نسبة الأعمال إليها بطريق الفاعلية :

قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَنْظُرُ المَرْءُ ما قَدَّمت يَدَاه . . ﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿ ظَهَرَ الفَسادُ في البَرِّ والبَحْرِ بما كَسَبَتْ أَيْدي الناس ﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُم ﴾ ـ وغير ذلك من الآيات الكريمة .

فللأيدي مزيد اختصاص بمباشرة الأعمال ، ولا كذلك الأرجل ، فلذلك جعلت الأرض شاهدة مشاهدة .

ولا معارضة بين قوله تعالى : ﴿ اليوم نَخْتِمُ على أَفواههم وتُكَلِّمُنا أيديهم وتَشهد أرجلُهم . . ﴾ ، وبين قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عليهم ألسنتهم وأَيْديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون . . ﴾ .

وذلك أنّ الختم على الأفواه منع أصحابها من التكلم بالألسنة التي في الأفواه ، وأنطق الله تعالى الألسنة نفسها ، فشهدت على أصحابها ، كما أنطق الله تعالى ذراع الشاة المسمومة ، فأخبر النبي ﷺ بأنه مسموم .

وبيان ذلك أنّ الله تعالى يختم على فَمِ الإنسان يوم القيامة في موقف الحساب ، فلا يستطيع أنْ ينطق باختيار صاحبه ، وهناك تنطق الجوارح بدون اختيار صاحبها ، بل بإنطاق الله تعالى لها ، كما بينه سبحانه بقوله : ﴿ وقالوا لِجُلودِهِم : لِمَ شَهِدْتُم عَلَيْنا ؟ قَالُوا : أَنْطَقَنا اللّهُ الَّذي أَنْطَقَ كلَّ شيءٍ . . ﴾ .

ويحتمل دفع المعارضة بأن يكون هذا في حال ، وذلك في حال أخرى ـ والأول أظهر ـ .

وقد جاءت الأحاديث النبوية : تبين شهادة الأعضاء والجوارح كما تقدم ، فلا مجال للشك والاستبعاد ، فإنّ الأمر قطعي الوقوع ، لأنّه قطعي الثبوت .

وفي ذلك تحذير للعاقل أنْ يفعل ما حرمه الله تعالى عليه على مشهد من أعضائه وجوارحه ، فإن أعضاء الإنسان وجوارحه هي شهداء الله تعالى عليه ـ كما تقدم في حديث مسلم : « الآن نبعث عليك شاهدنا .. » الحديث .

فإذا وقع الإنسان في الذنب فليبادر إلى التوبة النصوح ، فإنّ الله تعالى يُنسي جوارحه وأعضاءه ذلك الذنب ويمحوه ، ويكتب مكانه حسنة ـ كما تقدم في الحديث الشريف .

وقد فَصّلت الكلام على التوبة النصوح في كتابي : [صعود الأقوال] .

قال الله تعالى : ﴿ يا أيّها الذين آمنوا تُوبوا إلى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عسى ربُّكم أن يُكَفِّرَ عَنْكُم سَيِّئاتِكُم ويُدْخِلكُم جَنَّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأنْهارُ يَوْمَ لا يُخْزِي الله النبيَّ والذين آمنوا مَعَهُ نُورُهُم يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِم وبأَيْمانِهِم يَقُولُونَ ربَّنا أَتْمِم لَنَا نورَنا واغْفِرْ لنا إنَّك على كلِّ شيءٍ قديرٌ ﴾ .

اللهم بجاه حبيبك سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اجعلنا من الذين آمنوا معه ، يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه ـ آمين يا رب العالمين .

وقد تم هذا القسم الثاني من [هدي القرآن الكريم] بعون الله تعالى وتوفيقه في الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة ١٤١٠/هـ .

وأسأل الله تعالى أن يوفقني للقسم الثالث ، وأن يجعل جميع ما أقوله وأكتبه ممدوداً بالمدد المحمَّدي ، وساطعاً مشرقاً بالنور الأحمدي صلى الله عليه

وآله وسلم ، وأن يكون مقبولاً ومرضياً عند الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

وأن يضاعف لي الأجر والثواب ولسيدي وشيخي والدي الكريم المحدِّث والمفسر : العلامة الشهير ، والعارف الكبير : الشيخ محمد نجيب سراج الدين ـ رحمه الله تعالى ورحمنا به ورضي الله عنه وعنَّا به ـ آمين .

اللهم صلِّ وسلم وبارك على حبيبك الأكرم ، ورسولك المعظم سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ، وعلينا معهم أجمعين ـ في كل وقت وحين ، عدد ما وسعه علمكَ يا ربَّ العالمين ، والحمد لله في البدء والختام .

آمين .

* * * *

المحتوى

وصلى الله على سيدنا محمد كلما ذكره الذاكرون وكلما غفل عن ذكره الغافلون

كتب للمؤلف

- سيدنا محمد رسول الله ﷺ ـ خصاله الحميدة ، شمائله المجيدة .
- التقرب إلى الله تعالى ـ فضله ـ طريقه ـ مراتبه .
- الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها .
- الإيمان بالملائكة عليهم السلام ـ ومعه بحث مختصر حول عالم الجن .
- الدعاء ـ فضائله ـ آدابه ـ ما ورد في المناسبات ومختلف الأوقات .
- صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى الكبير المتعال ذي العزة والجلال .
- شهادة لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله ﷺ فضائلها ـ معانيها ـ مطالبها .
- الصلاة في الإسلام ـ منزلتها في الدين ـ فضائلها ـ أثارها ـ آدابها .
- الصلاة على النبي ﷺ أحكامها ـ فضائلها ـ فوائدها
- تلاوة القرآن المجيد ـ فضائلها ـ آدابها ـ خصائصها .
- هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان .
- هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان .
- شرح المنظومة البيقونية في علم مصطلح الحديث .
- أدعية الصباح والمساء .

وكلها تطلب من مكتبة دار الفلاح
حلب ـ أقيول ـ أمام جامع أسامة بن زيد